رسائل سبتمبر

برايوني رحيم

ترجمة: سيد عمر

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

رسائل سبتمبر

رسائل سبتمبر

تأليف: برايوني رحيم

ترجمة: سيد عمر

تحرير ومُراجعة: هدى فضل

مُراجعة لُغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: يناير 2019

رقم الإيداع: 2018/26056

الترقيم الدولي: 9789773194697

الغلاف: إسلام علّام

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

© Bryony Rheam, 2009.

English edition first published by amaBooks.

برايوني رحيم

رسائل سبتمبر

رواية من زيمبابوي

ترجمة: سيد عمر

العربي للنشر والتوزيع

بطاقة فهرسة

رحيم، برايوني

رسائل سبتمبر: رواية من زيمبابوي/ تأليف: برايوني رحيم.

ترجمة سيد عمر – القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018، ص؛ سم.

تدمك 9789773194697

1- القصص الزيمبابوية

أ- عمر، سيد (مترجم)

ب- العنوان 886.3

الجزء الأوَّل

(1)

في الثامن عشر من أبريل عام 1980، أشـعل جَـدِّي النـار في العَلَـم البريطـاني. أتذكَّر ذلك لأنه كان عيد ميلادي السَّادس، وهو قد أفسده. خبزت لي أُمِّـي تورتـة؛ على شكل قلب. قلب كبير من الشوكولاتة مرشوش بالسـكر، وعبـارة "عيـد مـيلاد سعيد" مكتوبة بخَطٍّ مُهتزٍّ في المُنتصف. جَدَّتي هي مـن كتبتهـا. كانـت تُعـاني مـن آثار الإقلاع عن التَّدخين؛ ما جعل يدها تـرتعش عنـد كتابـة حـرف اليـاء في كلمـة "عيد"؛ فبدت الياء وكأنها حرف الباء. سَخِرَ أبي من الأمر أثناء إشعاله الشموع:

- "عبد" ميلاد سعيد، الحرية للعبيد.

لاحظت أُمِّي اختفاء جَدِّي، وبعد أن أطفأت الشموع، ذهبت جَدَّتي للبحث عنه.

داخل المنزل، كان طعام غداء جَدَّتي مـن الغـداء مُلقـى في صـندوق القُمامـة. كان مُكوَّنًا من لحمٍ مطهو مع فاصوليا خضراء، وبطاطس مهروسة. تناولنـا غـداءنا في صمت. قرأ أبي الجريدة التي كانت مُلقاةً على الطاولة. لطالما كرهتْ أُمِّي ذلك. اعتادت أن تصف هذا التصرف بأنه وقح؛ وأنه: "يقطع سُبُل التواصل بيننا".

كانت هذه هي الكلمات التي استخدمتها. أمَّا اليـوم فقـد صـمتت، وتناولـت طعامها. كان صوت احتكاك شوكتها وسكِّينها بالطبق بين الحين والآخر هو الوحيد المسموع أثناء تناولنا الطعام. إن كنت أنا من فعل ذلك، لقيل لي إن علـيَّ أن آكـل بطريقة لائقة، وبهدوء، أمَّا الكبار فبإمكانهم كسر القواعد كـما يشـاؤون. جلسـت جَـدَّتي وظلـت تنظـر للطعـام وتعبـث بـه في طبقهـا. في النهايـة، قامـت أُمِّـي

ونظَّفت الطاولة. ومن دون أن تنطق بكلمة واحدة، أخذت طبق جَدَّتي إلى المطبخ وأفرغته في صندوق القُمامة. لم يكن جَدِّي موجودًا. كان "في النادي". هذا يعني أنه كان يشرب الخمر.

كان يوم عيد ميلادي السَّادس هو اليوم ذاته الذي حصلت فيه "زيمبابوي" على استقلالها من "بريطانيا". لم يذهب أحد يومها لعمله. وجاء الأمير "تشارلز" من "إنجلترا" خصيصًا ليصافح يد السيد "موجابي"، ويُعيد الدولة مُجدَّدًا للسُّود. قرَّر العديد من الأشخاص البيض المُغادرة بمُجرَّد إنزال عَلَم "روديسيا"، ورفع علم "زيمبابوي". قال جَدِّي إن المشاكل كانت على وشك أن تبدأ، وإن هذه كانت البداية فقط. ذلك الصباح، اختفى جَدِّي؛ ولكنه عاد في وقت مُتأخِّر من فترة الظهيرة، بينما كانت جَدَّتي تُعِدُّ الشاي وتضع الأكواب والأطباق على الصينية. كنت في الغرفة المُلاصقة للمطبخ، التي نستخدمها مخزنًا للمُؤن، حيث كنت أبحث عن الشموع لوضعها على التورتة. سمعتهم يتشاجرون، بينما كان جَدِّي واقفًا يشرب الخمر وهو يستند على الحائط حتى لا يسقط. ثم نادت جَدَّتي عليَّ وخرجنا جميعًا لنجلس في البلكون، كما اعتدنا أن نفعل في حوالي الرابعة عصرًا. كانت فترات الظهيرة حينها تميل لأن تكون ذات نمط معين.

عندما بدأنا بالانتباه إلى أن جَدِّي لا يجلس معنا حول التورتة، كان هو يُشعل النار في العَلَم البريطاني. فجأةً، جاء راكضًا أمامنا، وأخذ يدور به في دوائر بغضب شديد. كان يلفُّ بسُرعة كبيرة لدرجة أن اللهب بدا مثل الألعاب النارية الضخمة؛ دائرة نارية ذهبية هائلة. ثم أطلق صرخة حزينة طويلة وعميقة بدت وكأنها نداء الموت. جعلت القشعريرة تسري في أجسادنا جميعًا. يمكنني أن أرانا جميعًا واقفين هناك حول الطاولة، مُتجمِّدين وكأنما مرَّت بنا رياح ثلجية مُفاجئة. تتراجع شمس الظهيرة مثل محارب مُتعب من كثرة المعارك، ويمشي بتثاقُل تجاه وطنه مهزومًا. يمكنني أن أرى أُمِّي تلتفت وتُسرع إلى داخل المنزل

لتأتي بمياه، وأبي غير قادر على النطق ومُتسمِّر في مكانه، أشعر بأظافري وأنا أغرسها في قبضتيَّ في فزع، ثم أرى جَدَّتي تخرج من المنزل مُهرولةً تجاه جَدِّي وهي تصرخ فيه. صوتها مثل الزيت الساخن، حادٌّ، له رذاذ، ويغلي.

- "أكرهك! أكرهك!".

بينما تقترب منه، ألقى جَدِّي بالعَلَم المُشتعل، وسقط فوقها، امتدَّ اللهب مثل الأصابع في محاولة للوصول إليها كي يمسك بجلدها؛ لكن تعثَّرت جَدَّتي للخلف وسقطت على العُشب.

ذاكرتي عمّا حدث فيما بعد مُشوَّشة. لا أتذكَّر من ساعدها، وماذا قالت، ما فعله جَدِّي وما فعلوه هم به. كل ما أعرفه هو أنَّها أُصيبت بندبة في الجزء السفلي من ساعِدها. كانت داكنة وقبيحة، وكلما تقدَّمت في السِّنِّ ترهَّل جلدها. ذكَّرتني تلك الندبة بإبريق شاي قديم. أو ربما كانت تُشبه شكل "زيمبابوي" على الخريطة. أعتقد أن جَدَّتي كانت فخورةً بعض الشيء بهذه العلامة، كأنها رمزٌ للثمن الذي دفعته في سبيل الحرية. بعد سنوات عديدة، سيتذكَّر الرجل الذي قتل جَدَّتي هذه العلامة كآخر شيء رآه عندما رفعت ذراعيها أمامه قبل أن يضربها على رأسها بعقب بُندقيَّته.

(2)

"ابتسم على الرغم من أن قلبك مُحطَّم
ابتسم على الرغم من أن هذا مُؤلم".

أين يمكنك أن تبدأ بتشكيل حياة كاملة؟ الأجزاء ليست متوافقة دائمًا. العديد منها مفقود، أو مُقترض.. من حيوات أشخاص آخرين وذكرياتهم وألغازهم. أين البداية عندما تكون لديك النهاية فقط لتبدأ بها؟ كم عدد الأكاذيب التي نخبرها لبعضنا البعض خلال حياة واحدة فقط؟

ماذا لو أن كل الكلام الذي لم ننطقه أو نعنيه أو نُلمِّح إليه توارى خلف الشكل الظاهري لأفعالنا وكلماتنا؟ وماذا عن كل ما أردنا أن نقوله ولم نستطع؟

انفصل جَدِّي وجَدَّتي، جسديًّا على الأقل، بعد تعافي جَدَّتي بفترة قصيرة من حادثة العلم المُشتعل. انتقلت جَدَّتي من المنزل على الرغم من توسُّلات أُمِّي، وبكائي، وأسف جَدِّي الصامت. حصلت على عمل في الحسابات في محل "هادون وسلاي" واستأجرت شقة في شارع "ويلسون". لا أعتقد أن أيًّا منا أدرك مدى صعوبة تركها حياتها القديمة خلف ظهرها، خصوصًا في مثل هذه المحنة. لم يكن لديها أحد لتتحدَّث معه؛ لم تستوعب أُمِّي وجهة نظرها، لم تفهم لماذا توقفت أمها

- في مثل سنها هذا - عن العيش معنا وذهبت كي تبدأ من جديد وحدها. إن حقيقة عدم انسجام جَدِّي وجَدَّتي معًا منذ سنوات لم تكن سرًّا في عائلتنا؛ ولكن لم تسمح أُمِّي قط بأن يُعرف ذلك خارج بيتنا. مرَّ وقت طويل قبل أن تعترف أُمِّي برحيل جَدَّتي؛ لكنني ما زلت أشك في أنها قد تقبلت الأمر حتى الآن. لقد أصدروا أحكامًا على كل ما فعلته جَدَّتي من خلال تركها لنا، وتأسيس منزلها الخاص. في الأيام السابقة لرحيلها، عندما كانت تجمع أغراضها في حقيبتين وصندوق كرتوني كبير، اعتدتُ على البكاء كل ليلة أثناء رقودي على سريري، وعند استيقاظي، كانت عيناي منتفختين وتُسبِّبان لي ألمًا عندما أفتحهما. عندما كنت وحدي في أوقات الظهيرة، كنت أحدِّق بباب غرفة جَدَّتي وأنظر باحتقار لحقائبها الممتلئة حتى نصفها بالأغراض. الفراغ الذي تركته جَدَّتي خلفها تسبب في صدى صوت مزعج عند رحيلها، ما تسبَّب في تعثُّرنا جميعًا بشكل أخرق في أرجاء المنزل، دون أن ندري ماذا علينا أن نقول أو نفعل، وبدا كل شيء مزيفًا وأبعد ما يكون عن الإشراق والبهجة. كنَّا مثل إعلان "كولجيت" عندما تتلألأ أسنان شخصٍ ما من خلال ابتسامته السعيدة. قالت أُمِّي عندما شاهدته أوَّل مرَّة:

- من المؤكد أنه يضع عليها بيكربونات الصوديوم.

لأن الجميع يعرف بأن الأسنان ناصعة البياض ليست طبيعية.

تعطل روتين حياتي الذي اعتدت عليه. عندما كانت لا تزال تعيش معنا، كانت جَدَّتي غالبًا تأتي لأخذي من المدرسة. يعود أبي وجَدِّي من عملهما في الواحدة ونتناول الغداء. أحيانًا كان جَدِّي يأخذ قيلولة؛ لكن أبي لم يفعل ذلك مُطلقًا. اعتاد قراءة الجريدة وشرب الشاي والتحدث مع أُمِّي. ثم في الثانية إلا الرُّبع، يركب السيارة ويعود مُجدَّدًا لعمله، ويُوصِّل جَدِّي إلى ورشة "فوكس" في طريقه.

كان جَدِّي ميكانيكيًّا. كان يرتدي في العمل أوفرول أزرقَ، وكان دائمًا مُشحَّمًا، ولطالما فاحت منه رائحة الزيت، حتى بعد اغتساله. في الواقع، حتى

بعد أن توقَّف عن العمل ولم يعد مهتمًا على الإطلاق بإصلاح "الكاربراتيرات"، و"الردياتريات" المعطوبة كانت هناك رائحة زيت ثقيلة تنبعث منه في بعض الأحيان، وكأن كل سنوات عمله في ورشة "فوكس" ترسَّخت تحت جلده.

بعد الغداء، اعتادت جَدَّتي أن تستريح لمدة ساعة، أو أكثر، بينما تقف أُمِّي في المطبخ لتعد طعام العشاء، أو لتخبز الكيك. كان المنزل وقتها هادئًا للغاية. في الثالثة تخرج جَدَّتي من غرفتها، تتمتم حول حرارة الجو، وكم أن هناك كثيرًا من العمل الذي لم يُنجز في المنزل بعد. إذا شعرت بالملل، اعتدتُ الجلوس خارج غرفتها والاستماع لصوت الصرير الذي يصدره سريرها، ما يعني أنها استيقظت. مرَّت الساعات ببطء، وغالبًا ما بدا وكأن وقت الظهيرة سيمتد للأبد قبل أن تنقطع ساعة الصمت هذه. كنت أقضي الساعة التي تسبق عودة أبي من عمله مع جَدَّتي، كنا نتمشَّى للمكتبة معًا، كتبي في حقيبة أمسكها بيد، والأخرى أمسك بها يد جَدَّتي. كانت أيضًا تستمع لي وأنا أقرأ ثم تقوم بتوقيع بطاقات القراءة الخاصة بي بعدها كي تعلم مدرستي أنني أدَّيتُ واجبي المنزلي.

في الليل، كانت تقرأ لي واحدًا من كتبي الموضوعة في المكتبة، غالبًا "إنيد بليتون" - "الشجرة السحرية البعيدة"، و"الخمسة المشهورون" – وهي قصص عن أطفال في الريف الإنجليزي، واكتشافهم للجنيات والأقزام، أو المهربين، والتحاقهم بالسيرك، أو استكشاف كهوف "ديفون"؛ مختلفون تمامًا عني، وعن مدينتي الترابية القديمة في "أفريقيا"، والتي تمتلئ بالثعابين والناموس، وأيامها ولياليها حارَّة لا تنتهي.

الآن، رحلت جَدَّتي، وامتدت فترات بعد الظهر في فراغ وكآبة وحنين، لم يعد من الممكن تداركها. كمحاولة منها لتشعرني بإحساس أفضل، سمحت لي جَدَّتي بمساعدتها في إفراغ حقائبها في الشقة الجديدة، وتركت لي حرية اختيار أماكن إكسسوارات الزينة، حتى لو اخترت لبعضها أماكن غريبة. وضعت

الشمعدانين الفضيين على الأرضية، على كل جانب من جوانب الطاولة التي وضعت عليها التليفزيون، وحوض نباتات ضخم على ترابيزة جانبية صغيرة، ما جعلها تبدو أصغر بكثير من حجمها الحقيقي. لقد كان الحوض كبيرًا للغاية، لذا كان من المتوقع أن تنهار الطاولة من أسفله في أي لحظة.

عندما رأت أُمِّي ذلك لأوَّل مرَّة، نقلت الحوض دون أن تنطق كلمة واحدة، كانت مُعتادة طوال الوقت أن تُعيد ترتيب حياة الآخرين. أخبرتها جَدَّتي في حزم بأن تُعيدها مكانها:

- لا بأس بها هناك.

ثم غمزت لي في تآمُر. لم يكن لدى جَدَّتي عديد من قطع الأثاث، حيث إن جَدِّي جادلها حول كل قطعة أرادت أن تأخذها. أعلنت أُمِّي أنها لن تنحاز لأي طرف في هذا الشأن، على الرغم من أنها بالفعل انحازت لطرف ما بعدم تدخلها. لم يكن لدى جَدَّتي مكتبة من أجل مجموعة كتبها ورقية الغلاف، وكتابها ذي الغلاف المُقوَّى من مختارات "ريدرز ديجيست"، لذا فقد وضعنا أعداد المجلة في عمودين، ثم وضعنا لوحًا خشبيًّا فوقهما، ثم رتَّبنا باقي الكتب في صف واحد فوق العمودين.

لم تتحدث جَدَّتي معي قط حول قرارها بالرحيل، أو أسباب قطع علاقتها بجَدِّي. في الواقع، لم يتحدث معي أحد في الأمر مُطلقًا. بشكلٍ ما كان من المتوقع أنني مع الوقت سأفهم ما حدث من تلقاء نفسي. عندما كنت أكبر قليلًا، واعتدتُ على مشاهدة التليفزيون أكثر، كنت دائمًا أندهش من المسلسلات الأمريكية الأسرية، حيث يُدير الوالدان مع أطفالهما أحاديثَ من القلب للقلب، أحاديث من التي تنتهي بإخبار كل طرف للآخر كم هو يحبه. لقد كنت أتذلل من أجل مشاهدة مثل هذه العروض ذات المشاعر الجيَّاشة، خصوصًا عند وجود جَدِّي أو والداي في الغرفة معي.

أخبرتني أُمِّي بألا أخبر أحدًا عمَّا حدث بين جَدِّي وجَدَّتي؛ وإذا سألني أحدهم فعليَّ أن أقول إن الأمر لا يعنيه. كانت لا تزال تتمنَّى أن تعود جَدَّتي للمنزل مُجدَّدًا وينتهي الأمر عند هذا الحد، على الرغم من أن جَدَّتي الآن أصبح لديها عمل، وبدت أكثر سعادة عمَّا كانت عليه وهي لا تزال تعيش معنا. في بداية الأمر، توصَّلت أُمِّي لقصة هائلة معقدة. سخر منها أبي، ما زاد من غم أُمِّي.

القصة هي أن جَدِّي وجَدَّتي يستعدان للانتقال إلى شقة جديدة؛ لكنها لا تزال في مرحلة التحضير، وأن جَدَّتي اضطرت لأن تعيش هناك لتشرف على التحضيرات. وقد اضطرت لأن تنام في الصالة، ولم يكن هناك مساحة من أجل جَدِّي. أخبرتني أيضًا أن أقول إن الشقة كانت تتطلب بعض الوقت حتى تنتهي، خاصَّة لأن جَدَّتي كانت متطلبة للغاية بخصوص ألوان الدهانات، كما أنه من الصعب أن نجد موادَّ تنجيد لائقة هذه الأيام في "زيمبابوي". ارتحتُ للغاية عندما ذكَّرها أبي بأنني لم أزل في السَّادسة من عُمري، وأنه من الصعب عليَّ أن أتذكَّر مثل هذه القصة، على الرغم من أنني كنت مُحبطة أيضًا لأنني شعرت كما لو أنني قد خذلتها.

في أوَّل عدَّة سنوات بعد استقلال "زيمبابوي" - وجَدَّتي أيضًا - قضينا أنا وهي أوقاتًا كثيرة معًا. للتعويض عن غيابها عن المنزل، كنت غالبًا ما أقضي معها عُطلات نهاية الأسبوع. كانت أُمِّي أو أبي يوصلانني إلى هناك يوم السبت، ويأتي أحدهما لاصطحابي مساء الأحد. حتى لو لم أقضِ معها عُطلة نهاية الأسبوع بأكملها، كنت على الأقل أقضي معها الصباح أو فترة بعد الظهر.

كنت أنا، بعدَّة طرق، صلتها الأقوى بين حياتها القديمة معنا، وحياتها الجديدة وحدها. كما أنني كنت الوسيط. لم تعد جَدَّتي تأتي لمنزلنا على الإطلاق وأُمِّي لم تدخل شقة جَدَّتي بسهولة. لم تبقَ فيها مُطلقًا لفترة طويلة. على الرغم من أنهما تحادثتا كثيرًا على التليفون، كان هناك دائمًا رسالة زائدة عليَّ أن أنقلها، إمَّا لجَدَّتي عند إيصالي لشقتها، أو لأُمِّي عندما يأتيان لأخذي.

- أعطِ جَدَّتك هذا الليمون، وأخبريها أنني سأحضر المزيد يوم الثلاثاء، من فضلك.

- أخبري أُمَّك أنني سأتَّصل بها يوم الأربعاء.

لم تكن فقط الرسائل التي كنت أوصلها؛ بل أيضًا بعض المعلومات حول حياة الطرف الآخر: ما طهته جَدَّتي على العشاء، ما إذا كانت وحدها أم لا، كيف تتعامل أُمِّي مع جَدِّي الآن بعد أن أصبح بمفرده، كل الأسئلة التي لم يتمكَّنا من أن يسألانها لبعضهما البعض. في معظم الأوقات، أجبت عن أسئلتهما بأمانة وصدق قدر الإمكان، على الرغم من أنني كنت أحمي الطرفين. حميت أُمِّي من لسان جَدَّتي السليط، وجَدَّتي من تشاؤم أُمِّي، واعتقادها المؤكد أن جَدَّتي قامت بالتصرف الخاطئ.

تعلَّمت جَدَّتي القيادة عندما كانت في الخامسة والأربعين من عُمرها، وظلت تقود لمدة عشر سنوات بشكل غير قانوني حتى استخرجت رخصة قيادتها أخيرًا. عندما كانت تعيش معنا، كان دائمًا ما ينشأ جدال كلما أرادت أن تقود سيارة جَدِّي إلى المدينة. كان جَدِّي يصرخ من أجل التأمين، ويتساءل من الذي سيدفعه إذا قامت بعمل حادث، أو إذا صدمت مؤخرة السيارة في شجرة أثناء رجوعها للخلف. وصفت جَدَّتي رد فعل جَدِّي وقتها بأنه نموذجي، حيث إنها كانت تظن أن الرجال لا يأخذون حتى حوادث السيدات على محمل الجد.

- لقد حُرِمت النساء من مجد الحوادث الكبيرة مثل الرجال، النساء اللاتي تُرَكن بمفردهن ليرجعن بالسيارات للخلف، واصطدمن بأشجار أو حوائط أو كلاب - أو حتى بأزواجهن.

هكذا تمتمت ذات مرَّة في خُبث.

- حوادث النساء الصغيرة التافهة طغت على شخصية المرأة بالكامل وشاركت في قولبتها: لا عقلانية، وغير منطقية، وليست جديرة بالثقة.

بعد أشهر قليلة من تركها لنا، اشترت جَدَّتي سيارة "تويوتا كراون سيدان" موديل عام 1969. كان لونها أزرقَ. عرف الجميع سيارة جَدَّتي. اعتدتُ على البحث

عنها في الشوارع كلما ذهبنا إلى المدينة. لو كانت تقف أمام "داونينجز"، كنت أعرف أنها تشتري الخبز: رغيف من الدقيق الأسمر، أو رغيف خبز فرنساوي إذا كان اليوم هو الجمعة، من أجل عُطلة نهاية الأسبوع. إذا كانت واقفة أمام البنك، كنت أعرف أنها في محل الخضروات والفواكه المقابل، وستظل بالداخل لفترة أطول، حيث تتجاذب أطراف الحديث مع البائعة، السيدة "باترسون"، بعد أن تدفع جَدَّتي حسابها. حتى لو كان المحل مزدحمًا بالزبائن، ستكمل السيدة "باترسون" حديثها، بينما تعطي الزبائن الباقي، أو تزن التفاح، أو البطاطس، أو وهي تربط الأكياس البلاستيكية وتضعها في الحقيبة وتلصق عليها الأسعار على الجانب.

بالمحل المجاور يوجد الجزار ذو الذراع الواحدة. كانت ذراعه مبتورةً من أعلى المرفق. لطالما تخيَّلت أنها علقت في آلة فرم اللحوم التي يمتلكها. في أوقات أخرى، توقعت أن أرى الذراع بين قطع اللحوم المتاحة للعرض، وهي مزخرفة بقطع الخس والخيار مع نجمة برتقالية مكتوب عليها: "طبق اليوم. ذراع بنصف الثمن!". تضايقت جَدَّتي عندما أخبرتها بذلك وأخبرتني أنه فقدها في حادثة ما منذ سنوات، إلا أن ذلك لم يمنعني من تخيل آلة فرم اللحوم والصوت الذي كانت لتصدره وهي تفرم العظام واللحم.

إذا رأيت السيارة خارج محل السيد "باتل"، كنت أعرف أن جَدَّتي تبحث عن القماش. كانت ستختار لفة قماش وسيحملها المساعد للأسفل من أجلها، وسيلقيها على المنضدة، وسيقطع منها مترًا، أو ما شابه. بإمكان السيد "باتل" أن يخبرك كم يلزم بالضبط من قماش من أجل بنطلون أو تنُّورة أو فستان. كان يقطع القماش مستخدمًا مقصًّا أسودَ كبيرًا، ثم يطوي قطعة القماش عدَّة طيَّات إلى أن تُشكِّل مستطيلًا صغيرًا. أحببت طريقة عمله، حركة المقص، وطريقة استسلام القماش لشفرات المقص. أحببت الصوت والسرعة، طريقة طيِّه للقماش

ووضعه في حقيبة بلاستيكية، ثم إغلاقه الحقيبة بقطعة لاصق "سيلوتاب" في حركة واحدة ناعمة.

يومًا ما قلت لجَدَّتي إنني أودُّ أن أعمل هنا عندما أكبر، فضحكت. المرَّة التالية التي ذهبنا فيها لمحل السيد "باتل" أخبرته جَدَّتي بما قلته، فابتسم ابتسامة عريضة. شعرت بالإحراج حينها، ولم أفهم لماذا رأيا أن هذا الأمر مُضحك هكذا. لم أحب يومًا عدم فهمي لبعض الأمور. إنها أوقات مثل هذه التي كانت تشعرني بفجوة هائلة بيني وبين عالم لم أفهمه، ومن المرجح أنني ما زلت لا أفهمه. يبدو وكأن الحقيقة تكمن أبعد من المكان الذي نبحث فيه عنها.

لم أكن أنا الوحيدة التي كانت تبحث عن سيارة جَدَّتي. كان جَدِّي يفعل ذلك أيضًا. وقتما كان في المدينة، كانت عيناه تمسحان الأماكن المخصصة لوقوف السيارات بجانب الطريق. إذا رأى الآلة الزرقاء العملاقة التي دائمًا، نظرًا لكبر حجمها، كان يبرز جزء منها على الطريق، لم يكن لديه شيء جيد ليقوله عنها. كان يرى انبعاجات وخدوشًا لم تكن موجودة؛ إذا رأى العجلات في أي مكان بالقرب من الخط، كان يتحدث عن عدم قدرة النساء على الوقوف بجانب الرصيف بشكل سليم، ناهيك عن القيادة من الأساس؛ إذا أوقفت جَدَّتي سيارتها في الشمس كان يلومها بقسوة بسبب الضرر الذي ستلحقه بتنجيد كراسي السيارة؛ كان أيضًا يتفقد ما إذا كانت السيارة نظيفة من الداخل والخارج، وما إذا كانت قد ألقت بداخلها بأي قمامة.

ذات مرَّة، نسيت الرُّوج على كرسي الراكب الأمامي دون غطائه؛ ما جعله يذوب من الشمس، وتحوَّل لسائل لزج مُلوَّن. ثبت هذا السائل المُلوَّن على الكرسي. أظن أن جَدِّي لم يحاول قط تنظيف الكرسي، لذا فقد استقر اللون، مُعطيًا انطباعًا غريبًا بوجود الدم، كأن شخصًا ما قُتل عليه.

أعلم بأن جَدِّي افتقد جَدَّتي. لقد سئمت من شكواه؛ ولكن في الوقت نفسه، شعرت بعقدة من الألم تلتف بداخلي أعمق وأعمق. أعلم أن انفصالهما كان بسبب الحرق الذي لحق بجَدَّتي في ذلك اليوم؛ ولكنني لم أفهم قط لماذا لم تسامحه أبدًا. حتى قبل الحادثة، لا أذكر أنني رأيت جَدِّي وجَدَّتي سعيدين مُطلقًا. كل منهما على حدة، أجل، كانا مرحين، ويضحكان؛ ولكن ليس معًا. مع بعضهما البعض كان هناك ذلك الشعور بالحزن والمرارة حولهما، وكأن الهواء بينهما مُنتهٍ، ومُعلَّق، ومليء بالفجوات، أو مثل علم قديم اهترأ بفعل الرياح.

(3)

كان هناك عديد من الأشياء التي استمتعت جَدَّتي بالقيام بها؛ أحبت التمشية في الحديقة، ولكنها لم تحب الشجيرات؛ حتى إن مكانًا مثل "هيلسايد دامز" كان قرويًّا بعض الشيء بالنسبة لها. أعتقد أنها أحبت النظام الذي وجدته في الحديقة: أحواض النباتات، ومشاتل الزهور المُشذَّبة بعناية. أحبت تمكنها من الجلوس على العشب وأن هناك كثيرًا من الظل. لم تكن شخصًا خُلِق لرؤية حفر النمل والثعابين والجلوس على صخرة أسفل شجرة أشواك. لا يمكنني أن أقول إنها لم تقدِّر جمال الأشجار، لأنها فعلت، فلطالما بدت كواحة خضراء خصبة.

استمتعت جَدَّتي أيضًا بالطهي والخَبز، خصوصًا كيك الشوكولاتة، وكيكة "فيكتوريا" الإسفنجية الرقيقة التي تذوب في الفم. لطالما كانت متمسكة بالنظام الاحتفالي وكانت تقدم لكل الزوار - حتى الزوار العاديين تمامًا - الكيك مع الشاي. كما أنها أعدت الساندويتشات بالجبن المبشور وشرائح الخيار. كانت تقطع الحواف وتزينها بقطع الخس. بشكل ما، كان دائمًا طعمها أفضل من أي ساندويتش آخر، ولمدة طويلة، اعتقدت أن السبب هو أنها كانت تقطعها بشكل مائل بدلًا من قطعها بشكل عادٍ وغير جذَّاب من المُنتصف، وهو ما جعل المقارنة بينها عادية وواضحة.

كنت أحب مشاهدتها وهي تخبز، ومشاهدة تقلُّبات العجين الدَّسم السميك وهي تضعه في الوعاء وتقلبه باستخدام عصاها الخشبية. أحببت الطريقة التي

تنزلق بها بنعومة في الوعاء الصفيحي المدهون بالزيت، بطريقة خبزها، تتحول إلى اللون الأغمق والقوام المتماسك في الفرن.

كانت تقول لي وهي تنثر الدقيق على العجين:

- الأمر كله متعلق بالبيض. لا تبخلي أبدًا بالبيض، ولا تضربي على الوعاء أو صفيحة الخبز، وإلا ستطردين كل الهواء للخارج.

كما أنها أخبرتني أن أستخدم مقدارًا من السكر أقل من المذكور في الوصفة؛ لأن معظم الوصفات آتية من "جنوب أفريقيا"، و"المملكة المتحدة"، وهما ليستا أعلى من مستوى البحر مثل "زيمبابوي" التي نعيش فيها. لم يصدقني أحد عندما قلت ذلك، ومعلمة الطبخ في المدرسة الثانوية ضحكت مني عندما أخبرتها ذلك. وسألتني:

- ما علاقة الارتفاع عن مستوى البحر بالأمر؟

من يدري؛ ولكن الأمر نجح.

عندما يحين وقت الشاي، سواء في الصباح، أو في الظهيرة، كان هناك دائمًا علامة على شيء ما، إشارة ما. عندما كانت جَدَّتي تعيش معنا، أحببت أكثر وقت الشاي الأخير، لأنه كان يشير إلى انتهاء فترة الظهيرة بالنسبة لي. الانتظار الطويل الذي لا أجد ما أفعله فيه أثناء قيلولة جَدَّتي أو قيلولة أُمِّي قد انتهى، وأن أبي وجَدِّي سيعودان إلى المنزل قريبًا. على الرغم من أننا بالطبع حافظنا على عادة شرب الشاي حتى بعد رحيل جَدَّتي، لم تعد أُمِّي تعده بالجودة نفسها كما اعتادت أن تفعل، أو حتى إعطاءه الإحساس الاحتفالي نفسه، وقد تطلعت دائمًا لوقت شرب الشاي في منزل جَدَّتي.

فيما بعد، اعتدت على أن أحكم على حياتي في "إنجلترا" من خلال بعض المعايير؛ كان الشاي إحداها. هناك، مثل هذه الشكليات اختفت منذ وقت طويل في الحياة اليومية، وكيس الشاي في الفنجان حل محلها، حيث إنه لم يعد لدى أحد الوقت للاستمتاع بشرب الشاي وتقديره. لاحظت أحيانًا أن بعض الناس

يتناولون من أربعة إلى ستة فناجين من الشاي في اليوم الواحد؛ ولكنه ليس مماثلًا لفنجان شاي واحد في وقت الظهيرة مع جَدَّتي.

كانت عادة شرب الشـاي، التـي اعتـادت جَـدَّتي دائمًـا الحفـاظ عليهـا، مـن الفوائد العظيمة للاستعمار. في الواقع، لقد قالت إنه الشيء الوحيد الـذي أبقـى على الجميع معًا، الشيء الوحيد المشترك بين الناس جميعًا. كان الشـاي يُـزرع في الأصل في "الصين"، وانتشر منها واشتهر في "الهند" وبقية البلاد المحيطة. اكتشفه الأوروبيون أثناء رحلاتهم الاستكشافية والاستعمارية؛ لكن كان البريطانيون هـم من أدركوا حقًّا جودة الشاي الهائلة. كان أفضـل شيء فعلـوه هـو أنهـم أخـذوا الشاي إلى كل مستعمراتهم، ليصروا على أنه مـن الممكـن زراعتـه في أي مكـان. كانت جَدَّتي تقول:

- فكـري في الأفارقـة، إنهـم يحبـون الشـاي، ولـديهم طـريقتهم الخاصـة في إعداده، ولكنه شاي على الرغم من ذلك ومن عليهم أن يشكروا لتعـريفهم بـه؟ البريطانيون، الذين بدورهم يجب أن يشكروا الصـينيين والهنـود. كلنـا مـدينون لبعضنا البعض. يغلي الأفارقة والهنود أوراق الشاي مـع الميـاه، الأفارقـة يحبـون شايهم أسودَ، والبريطانيون يحبونه مع اللبن؛ الصينيون يشربون الشـاي الأخضر، والهنود لديهم شاي الماسالا. وهناك أيضًا الكاموميل، العسل، المريمية، والليمون؛ والقائمة لا تنتهي. الشاي هو الحلقة التي تجمعنا كلنا معًا.

كانت جَدَّتي غزيرة الانتاج في كتابـة الخطابـات. كتبـت للجميـع: الأصـدقاء، وأشخاص قابلتهم، وأنا عندما سافرت في عُطلة. كان خطها جميلًا، ناعمًا ومـائلًا، نوعًا من الخط يجعلك ترغب في إكمال القراءة، وكأنـه يحمـل بداخلـه غموضًـا وأسرارًا، مما يشعرك بشـعور حـزين مـبهم عنـدما تنهـي الخطابـات لأن الأسرار والخبايا لا تزال بداخله لم تُحل، ولم تُكتشـف. كانـت تكتـب ملاحظـات غزيـرة أيضًـا. ملاحظـة مـن أجـل الجـزار عنـدما تطلـب اللحـم، وأخـرى للسـباك أو

الدهَّان أو لأي صاحب مهنة غريبة عندما يأتي لمنزلها أثناء وجودها في عملها، وأيضًا من أجل عاملة التنظيف التي تأتي مرَّة في الأسبوع إذا احتاجت إلى أن تكوي أيًّا من ملابسها. أعتقد أن هذه الملاحظات أكسبت جَدَّتي قدرًا معينًا من الاحترام، حيث كان ينظر كل من وُجهت له هذه الملاحظات المكتوبة بخَطٍّ جميل مثل طلبات اللحوم أو الألبان أو البقالة، نظرة احترام. حتى تعليماتها بخصوص انسداد مجاري منزلها.

"لم يعد أحد يكتب"، هكذا كتبت لي في رثاء في أحد خطاباتها. وكان الأمر حقيقيًّا. كانت هي الشخص الوحيد الذي أراسله بالخطابات عوضًا عن الإيميل، وأصبحت الآن قوائم التسوق شيئًا من الماضي، ما يجعل الجزَّارين المشغولين، والخبَّازين، وصنَّاع الشمعدانات، غاضبين من عادات النساء العجائز القديمة.

كانت جَدَّتي قارئة نهمة. كانت تقرأ غالبًا روايات المحققين، مثل روايات "أجاثا كريستي" و"نجايو مارش". كانت تقرأ كثيرًا. كان بإمكانها أن تقرأ أربع روايات في الأسبوع بكل سهولة. كانت أُمِّي تشتكي من ذلك، وتقول إنه أكثر من اللازم. لم تقرأ أُمِّي قط. اعتادت أن تقول إنها لا تملك الوقت الكافي لذلك.

كانت جَدَّتي تعلن بين الحين والآخر قائلة:

- الأمر هو أن مؤلفي روايات الجريمة يعتمدون في المقام الأول على التنميط، ثم بعد ذلك على الروتين. يعتمدون على شخصية معينة تبدو وتتصرف بشكل معين، ولا أحد في الواقع تكون تصرفاته متوقعة بهذا الشكل. أحيانًا يتصرف شخص ما بطريقة بعيدة تمامًا عن شخصيته. يفعل الناس أغرب الأشياء.

كنت أهزُّ رأسي بحكمة، وأوافقها؛ ولكنني لم أفهم ما قالته كليًّا إلا بعد أن كبرت بكثير.

- تخيَّلي لو سألك أحدهم ماذا كنت تفعلين يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي في الساعة الثالثة. هل يمكنك أن تخبريه؟ من الممكن ان يسألك: "هل كانت

لديك حجة غياب؟ كلَّا؟". حسنًا، كم عدد الناس الذين **لديهم بالفعل** حجة غياب لنصف أفعالهم؟ هل هذا يجعلنا بشكل أوتوماتيكي مذنبين بقتل شخص ما؟ روايات الجريمة لا تأخذ الفرد بعين الاعتبار، هذه هي مشكلتها. كلنا مُعرَّضون لأن نغير آراءنا، ومجرد أن لديك موعدًا في الثالثة مكتوبًا في مفكرتك لا يعني بالضرورة أن عليك ان تلتزمي به. هل تفهمين ما أعني؟

قالت لي في وقت آخر:

- ما قد يدفع شخصًا ما إلى ارتكاب جريمة من الممكن ألا يزعج شخصًا آخر. ليس مجرد كون **زوجك** خائنًا فهذا يعني أنه عليك أن تقتليه، ومع ذلك امرأة أخرى قد تقطعه إلى قطع صغيرة. في الواقع، إن معظم مؤلفي روايات الجريمة يفترضون أن تقطيع الزوج الخائن إلى قطع صغيرة هو رد فعل منطقي تمامًا لخيانته. في الأغلب من السهل تفهُّم جرائم القتل أكثر من تفهُّم سبب الغفران. أليس هذا غريبًا؟ ومع ذلك...

توقفت عن التحدث للحظات وضمت شفتيها، وتجهمت جبهتها، ثم قالت:

- هناك طرق كثيرة مختلفة لقتل شخصٍ ما، بعضها يأخذ وقتًا أكثر من الأخرى.

ذهبنا ذات مرَّة لمشاهدة فيلم "شر تحت الشمس" المقتبس من رواية أجاثا كريستي التي تحمل العنوان نفسه، وفي مناسبة أخرى شاهدنا "جريمة على قطار الشرق السريع". ذهبنا لحضور حفلة الثانية ظهرًا يوم السبت في "سينما 600". بِتُّ عندها يومها؛ لكن في الليل انتابني كابوس مروِّع حول الفيلم وزحفت لسريرها لأنام بجوارها.

- إنها مجرد قصة. كلهم ممثلون وممثلات، ولا يوجد أحد منهم مات في الواقع. في نهاية اليوم، يمسحون مساحيق التجميل عن وجوههم ويذهبون لمنازلهم لتناول العشاء.

في الحقيقة، لم يبدُ الفيلم مرعبًا جدًّا؛ ولكنني عندما أغلقت عيني، كل ما تمكنت من رؤيته هو الضحية وهو يُطعن بالسكين مرارًا وتكرارًا. سألت جَدَّتي:

- هل من الممكن أن تقتلي أحدًا إذا هو قتلني؟

كنت أرى خيالها على الوسادة بجانبي. كانت ترقد على ظهرها، وقد رفعت الغطاء ووضعته تحت ذراعيها. لم أعرف أبدًا كيف حافظت على استقامتها أثناء نومها. أحيانًا، كان يبدو وكأنه لم ينم أحد على سريرها طوال الليل مطلقًا. فكرت قليلًا ثم قالت:

- بإمكاني أن أقتلهم ألف مرَّة؛ ولكن هذا لن يعيدك للحياة مجددًا.

- أكنت ستبكين عند وفاتي؟

- بالطبع.

على الرغم من أنني لم أتمكن من رؤية وجهها، شعرت بابتسامتها الحزينة في صوتها. أراحت يدها على ذراعي، ثم مررتها بنعومة لأعلى وأسفل. كنت أشعر بشعر ذراعي يقف، ثم يستوي مرَّة أخرى مع كل حركة.

- هل تظنين أنك ستموتين قبلي يا جَدَّتي؟

- أتمنَّى ذلك.

قالتها ولم يعد بإمكاني سماع الابتسامة في صوتها، ثم أضافت:

- يجب ألا يموت الأطفال.

"لن تعرفي أبدًا كم أحبك

لن تعرفي أبدًا كم أهتم بك".

غنَّت لي جَدَّتي بهدوء وأنا أغفو، ترسل الكلمات في دندنة ناعمة. كان لدى جَدَّتي أغنية لكل مناسبة.

بعد وفاة جَدَّتي، وُكِلت إلي هذه المهمة الكريهة، وهي الخوض في أغراضـها. في سنواتها الأخيرة، كانت ترتدي بنطلونات وقمصانًا؛ لكنني وجـدت في دولابهـا فساتين حفلات راقصة وسهرات كوكتيل، قمصانًا حريرية، وتنُّورات من الصـوف الخالص؛ وأيضًا قميصًا من الكشمير الصوفي لا أتذكَّر أنها ارتدته أبدًا. في الـدرج، كانت هناك ملابس داخلية من القطن الناعم وقمصان نوم حريريـة. ذات مـرَّة نصحتني قائلة:

- ليس بإمكان أي فتاة أن تكـون سـيدة. لا تـثملي أبـدًا، ولا تسـبي، ومهـما حدث إياك أن تضحكي على دعابة بذيئة.

وضعتُ أغراضها في صناديق: أشياء للبيع، وأشياء سـأتخلص منهـا، وأشـياء قـررتُ الاحتفاظ بها؛ ولكن كان هناك بعض الأشياء لم أعـرف مـاذا أفعـل بهـا: أصابع أحمـر شفاه مستعملة، وزجاجات عطور على وشك الانتهاء، وفرشاة شعرها.

تعلَّمت الكثير من جَدَّتي. قد لا أكون خبَّازة ماهرة مثلها؛ ولكـن بإمكـاني أن أعرف إذا كانت الكعكـة تنقصـها بيضـة أو اثنتـان؛ لم تكـن تحـب الأدب كثـيرًا (كانت تقول إنه أثقل من الـلازم) وفضـلت روايـات الجريمـة، ولكنهـا علمتنـي كيف يمكنني أن أفهـم الشخصـية، أن أشـك في الكاتـب ولا أنسـاق وراء الأدلـة الخادعة. ألا أعصر أكياس الشاي، ألا أنظف أنفي في مكان عام، وألا أثق بالرجل صاحب الندبة على خدِّه الأيسر، لأنه هو من ارتكب الجريمة.

يرنُّ التليفون بعض المرَّات، فأنحني وأشغل آلة الرد الآلي. لا أريد الحاضر، عـلى الرغم من محاولاته الدخول عنوة. ألتفت لمفكرتي التي كتبت عليها بعض العبارات. كم أتمنى لو أنني أعرف فقط أين كانت البداية. لو أنني أتذكَّر كل شيء.

لهذا السبب يا "حبيبتي"، كم هو مـدهش أن شخصًـا مـا لا يُـنسى بسـهولة يظن أنني لا أنسى بسهولة أيضًا.

(4)

"لا تبكي جَدَّتي أمامي أبدًا. يوجد في شقتها فقط الضحك والهدايا الصغيرة؛ بسكويت الشوكولاتة مع الشاي في العاشرة؛ نأكل الجيلي والمثلجات أمام التليفزيون ونحن نشاهد برنامج العرائس "المابيت شو". اعتادت وضع صينية للشاي وإناء للورد. كانت تسمح لي بأخذ حمام بالفقاعات وأن أظل مستيقظة لوقت متأخر. أحيانًا نذهب للسباحة في شارع "بورو" ونشتري المصَّاصات في طريق العودة إلى المنزل.

لا أراها تبكي على الإطلاق. ذات مرَّة، بعد سنوات وقبل أن أسافر إلى (إنجلترا)، أخبرتني بأن اليوم الذي مات فيه ابنها كان اليوم الأخير الذي بكت فيه. لا يوجد شيء من الممكن أن يشعرها بمثل هذا الألم بعد ذلك؛ ولكنني أعلم بأنها تبكي عندما تظن أنني لست في الجوار".

وقتها كان لديَّ أنا وجَدَّتي سرٌّ واحد، على الرغم من أن عدد أسرارنا سيزداد بشكل ملحوظ خلال السنوات القليلة التالية. كل أحد، كانت جَدَّتي تذهب للقداس الصباحي. لم يكن ينعقد في كنيسة مألوفة من ذوات الزجاج المعشَّق والمقاعد الخشبية. بدلًا من ذلك، كانت في قاعة قديمة، والتي يستخدمها أيضًا معهد الفتيات كمكان لعقد اجتماعاتهن. كانت القاعة مستهلكة وفي حاجة للطلاء؛ ولكنها كانت تُنظف وتُكنس بعناية أسبوعيًّا. كان هناك منصة بالقرب

من مقدمة القاعة مغطاة بغطاء قماشي. وفي الأعلى يُوجد مزهريتان بهما بعض الزهور والإنجيل. لم يكن هذا قداسًا كنسيًّا مألوفًا. وأُمِّي، على الرغم من أنها لم تكن متدينة بأي شكل، لم تكن لتوافق على هذا. لم يكن هناك بيانو أو أرغن؛ كان علينا الغناء دون موسيقى. جلس شخصان أمام المائدة، أحدهما قرأ الصلوات والدرس، والآخر هو المستبصر الذي تسلَّم الرسالة من "الجانب الآخر" ونقلها للمُصلِّين. في البداية لم أفهم ما كان يحدث ولماذا كانت الرسائل دائمًا مبهمة في العموم.

كان المستبصر يسأل أحيانًا:

- هل يجلس معنا أحد يبدأ اسمه بحرف الـ"باء"؟ لدي رسالة له من شخص يمسك بملعقة خشبية. هل يعرف أحدكم عمَّن أتحدث؟

اعتقدتُ أن المستبصر تسلَّم رسالة من شخص على قيد الحياة لكي يرسلها لأحد الموجودين. ولكنني فزعت عندما عرفت بأن الرسائل من أشخاص ميتين. كنت أخاف الموت، والحديث عن الأشباح والأرواح كان يخيفني للغاية. أفهمتني جَدَّتي بأن هؤلاء لم يكونوا مثل أشباح الكتب القصصية: فارس دون رأس، ووحوش تجرجر خلفها سلاسل في أرجاء أرضية القلعة؛ ولكنهم مرشدون أرواح وملائكة حارسة. أخبرتني جَدَّتي بأنه عند موت أحدهم، تبقى روحه على قيد الحياة وتصبح ملاكًا حارسًا لشخص على الأرض كان يحبه كثيرًا. طريقة التواصل بين الاثنين تتم عن طريق المستبصر، وهو شخص لديه القدرة على أن يرى ويتحدث مع الأرواح. عندما ذهبنا للكنيسة في أوَّل مرَّة، لم تتلقْ جَدَّتي رسائل على الإطلاق. كان الملائكة الحارسون لبعض الأشخاص الآخرين، على ما يبدو، نشطين للغاية، بينما هناك آخرون غير مهتمين على الإطلاق بمهامهم البشرية، لأنني لاحظت أن غالبًا الأشخاص نفسهم هم الذين يتسلمون رسائل كل أسبوع.

ذات مرَّة كنت أبيت الليلة عند جَدَّتي، وكنت أتطلع كثيرًا إلى قضاء ليلة أمام التليفزيون. كان مسموحًا لي بأن أسهر عندها لمدة أطول بكثير عن المدة المسموحة لي في المنزل، وهي ميزة لم أسمح لأُمِّي بأن تعرف بها. قبل أن يبدأ فيلم السهرة، أعدت لي جَدَّتي شايًا في براد الشاي البرتقالي الكبير، وأخرجت فنجانين بطبقيهما، ووضعت قطعتي كيك محمصتين غارقتين في الزبد على الطبقين.

طلبت منِّي جَدَّتي:

- أحضري لي قطعة قماش لتنظيف الصينية يا "إيلي"، من فضلك.

ذهبت في طاعة لأحضر لها ما طلبته من الدولاب. لم أتمكن من الوصول إلى الأرفف، حيث كانت قطع القماش موضوعة، لذا أحضرت كرسيًّا لأقف عليه. رأيت قطعة القماش الزرقاء التي اعتادت جَدَّتي استخدامها. كنت أفتش في مؤخرة الدولاب حين وجدت قُبَّعة خضراء. بدت كالقبعة التي يرتديها شخص ما في الجيش. لبستها، وضغطتها على رأسي، حيث إنها كانت كبيرة للغاية، قفزت من على الكرسي ومشيت بالخطوة العسكرية إلى داخل المطبخ، حيث كانت جَدَّتي تقلب براد الشاي. أعطيتها التحية العسكرية وضربت بقدمي على الأرض، وقلت:

- أجل يا سيدتي.

التفتت جَدَّتي لتنظر إليَّ وعلى شفتيها بداية ابتسامة صغيرة؛ لكن ابتسامتها اختفت عند رؤيتها لي. عرفت وقتها أنني قد فعلت شيئًا خاطئًا.

قالت في صوت هامس كان أسوأ من أن تصيح بي:

- أوه، يا "إيلي"، اخلعي هذه من فضلك.

مددت يدي وخلعت القُبَّعة. سألتها وأنا أعطيها لها:

- ما الأمر؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وغطت براد الشاي. صمتت قليلًا، ثم قالت:

- كانت هذه القُبَّعة ملكًا لابني.

ثم صمتت مُجدَّدًا للحظة، ثم قالت:

- لقد مات.

نظرت تجاه القُبَّعة وتقلصت معدتي. لقد أمسكت شيئًا يخصه "**هو**". لقد لمسته. وليس هذا فقط، لقد ألقيت دعابة عنه، ألقيت دعابة عن شخص ميت. أضافت جدتي:

- لقد مات أثناء الحرب. أعيديها من فضلك يا "إيلي".

التفتُ وعدت للدولاب وأعدت فيه القُبَّعة ثم أخذت قطعة القماش الزرقاء. كل أفكاري حول اختيار قطعة قماش أخرى قليلًا انتهت. ففكرت بأن ألتزم بالقطعة المعتادة والمعروفة كي لا أتسبب في فتح جرح آخر لم يلتئم بعد.

في اليوم التالي، ذهبنا للكنيسة ووصلنا هناك مبكرًا بعض الشيء عن المعتاد. أخذت جَدَّتي تتحدث مع السيدة "كويتزي"، حيث أرادت أن تساعدها في تقديم الشاي بعد القداس كل أسبوع. لم تكن جَدَّتي متأكدة، لأنها لم تكن تعرف إذا كانت ستلتزم بالحضور. أعتقد أنها كانت تشعر بالإحباط لعدم تلقيها أي رسائل. كل يوم أحد أثناء العودة للمنزل كانت هادئة للغاية، وعندما كانت تبتسم، كانت ابتسامتها حزينة، وكأنها تحاول أن تتقبل حقيقة مروعة عن الحياة. كانت السيدة "كويتزي" من هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون ببطء شديد ويأخذون وقتًا طويلًا حتى يدخلوا في صلب الموضوع الذي يريدون التحدث فيه، تضمن كلامها أن مهمة إعداد الشاي أصعب ممَّا تبدو عليه، والمسئولية التي تستلزمها لا يمكن أن تُمنح لأي شخص. وقفتُ بجانب جَدَّتي، بصبرٍ في البداية، ثم بدأت أشعر بالملل تدريجيًّا. حاولت لف إحدى ساقي على الأخرى ثم التفتُ بسرعة للخلف؛ ولكنني فقدت توازني ودُست على قدم جَدَّتي دون أن أقصد. فصاحت:

- "إيلي".

التفتت ناحيتي بحدَّة، وقال:

- قفي باعتدال.

كانت هناك سيدة ضخمة ترتدي قفطانًا بنفسجيًا وأزرقَ تقف بالقرب منَّا، ورأت ما حدث. جاءت المرأة إلينا. سألتني بطريقة حنونة:

- هل رأيتي المكتبة؟

لاحظت في طريقة سؤالها هذه النبرة التي اعتدت على سماعها من معلمات الابتدائي المسنات؛ نساء يعتقدن أنهن يمتلكن سحرًا لا يمكن مقاومته لدى الأطفال الصغار؛ ولكنهن في الواقع يُخِفن الأطفال. أكملت قبل أن أتمكن من الرد عليها:

- تعالي معي.

مدَّت يدها لتأخذ يدي، ولكنني ظللت واقفة كما أنا ونظرت لجَدَّتي في توسُّل لمساعدة منها؛ ولكنها لم تساعدني. قالت جَدَّتي وهي تعطيني دفعة بسيطة:

- اذهبي مع السيدة اللطيفة.

شعرتُ بقلبي يسقط في معدتي.. ربما أكون قد أصبحت عابسة واحتقرت المرأة الكبيرة بشكل صريح، وبذلت كل جهدي كي أجعل جَدَّتي تشعر بالذنب. ظل الوضع كما هو، فسمحت للمرأة بأن تأخذني.

كانت المكتبة عبارة عن غرفة صغيرة في مؤخرة القاعة وبها كرسيًا مطبخ وطاولة للقهوة. وبها أيضًا مكتبة صغيرة ذات أبواب زجاجية، بداخلها يوجد صفان من الكتب. شغلت المرأة نفسها بالبحث داخلها وأخرجت ثلاثة كتب مهترئة. ولا واحد منها كان يصلح للأطفال ونظرت إليها بإحباط. كان اثنان منهما لهما غلافان من الورق المقوى مع كتابة بخَطٍّ ذهبي على ظهرهما. بديا وكأنهما يبعثان على الإحباط. والكتاب الآخر كان له غلاف ورقي رفيع وله غلاف بلاستيكي زائد. كان الكتاب بعنوان "قوى العقل"، وفي الركن الأيمن من الغلاف كانت هناك نجمة صفراء مع كلمة "جديد" مكتوبة بحروف حمراء. وأسفلها مكتوب "الأكثر مبيعًا عام 1978!" فجأة شعرت برغبة مُلحَّة للغاية

بأن أبكي. هأنذا تُركت في يدي امرأة غريبة الأطوار ومتعجرفة ولا أعرفها، وها هي تقدم لي كتبًا ذات أغلفة قوية وباهتة تهددني بنوع ما من العقاب كي أقرأها، إنه عقاب لما فعلته في الليلة السابقة.

تركتني المرأة الضخمة المتعجرفة بعد أن نادتها عضوة أخرى من أعضاء الطائفة كي تذهب لتقابل زائرًا من زوار الكنيسة. تركتني المرأة وحدي في الغرفة، جلست بيأس على أحد الكرسيين. جلست وأمامي واحدٌ من الكتب مفتوحًا، والدموع تترقرق في عيني. وبمجرد أن بدأت أشعر بأولى القطرات على خديَّ، دخل شخص ما الغرفة. كان شخصًا لم أره من قبل، رجل طويل ونحيف وأحدب بعض الشيء ذو شعر أبيض وسالفان أبيضان مُشذَّبان. كان يرتدي بدلة داكنة قديمة، وأتذكر أن واحدًا فقط من الأزرار كان لونه أزرقَ داكنًا، وباقي الأزرار لونها أسود. كانت ذقنه خشنة بعض الشيء، وعندما اقترب مني كان شممت رائحة القهوة. قال لي مبتسمًا وهو ينظر في تساؤل حول الكتب التي أمامي:

- مرحبا بك يا عزيزتي. ماذا تقرئين؟

أريته الكتب، فاتسعت عيناه بشكل مضحك، وقال:

- لا بد من أنك فتاة ذكية طالما أنك تقرئين مثل هذه الكتب.

ثم توقَّف لحظة قصيرة، وأكمل:

- هل تقرئينها؟

هززتُ رأسي في حزن محاولَةً بصعوبة ألا أبكي. قال:

- هل أنت هنا وحدك؟

هززتُ رأسي. فسألني:

- هل أمك موجودة في الخارج؟

جاوبته بصوت أعلى بقليل من الهمس وأنا أكافح كي لا أبكي:

- أنا مع جَدَّتي.

- ومن هي جَدَّتك؟

- اسمها السيدة "روجرز"؛ ولكن أصدقاءها ينادونها بـ"إيفيلين".

ابتسم الرجل، وقال:

- هل هي المرأة الواقفة مع السيدة "كويتزي"؟

هززتُ رأسي بالإيجاب، فسألني:

- هل تركتك إذًا؟ أم أنك مللتِ حديث السيدات؟ النساء بإمكانهن التحدث لفترة طويلة!

حاولت التفكير في إجابة؛ ولكنني فجأة رأيت نفسي أبكي. كنت أكره البكاء أمام الغرباء.

بدا الرجل مهتمًّا، ومن الواضح أن سلوكي تسبب في اضطرابه، وسألني:

- هل أنت مُعاقَبة؟ هل جَدَّتك غاضبة منك؟

هززتُ رأسي بإيجاب من بين دموعي. سألني:

- أترغبين في إخباري بما حدث؟

فهززتُ رأسي مجددًا. وفي النهاية هدأ بكائي وأصبحت أمنع أنفي من أن يسيل بصعوبة فأعطاني منديلًا وهو يقول:

- احتفظي به. زوجتي تعطيني الكثير منه كل كريسماس، لذا فأنا أحاول التخلص منها خلال العام كي أتمكن من استخدام التي ستعطيها إليَّ في السنة التالية.

ابتسمتُ بوهن، وجففت عيني بالمنديل الكبير ذي المربعات البنية الذي كانت تنبعث منه رائحة مسحوق تنظيف خفيفة. كان هناك شيء مريح حول هذا الرجل. شعرت بأنه مهتم اهتمامًا حقيقيًّا بحزني، وليس مستخفًّا أو ساخرًا مثل عديد من الكبار.

حكيتُ له عمَّا حدث في الليلة السابقة، وكان يهزُّ رأسه بتعاطف بين الحين والآخر، ويداه متقاطعتان أمام صدره. لم يقاطعني على الإطلاق، وعندما انتهيت ظل جالسًا في صمت مفكرًا لعدَّة ثوانٍ. شعرتُ بالارتياح لتمكني من

إخبار شخصٍ ما بالواقعة. لم يكن هذا شيئًا أفعله عادةً؛ معظم الوقت كنت أختار أن أحتفظ بمثل هذه المواقف لنفسي. وفي النهاية قال:

- هل حدثتك جَدَّتك قبل ذلك عن ابنها؟

هززتُ رأسي نافية، فقال:

- فهمت.

أومأ برأسه ببطء، ثم قال:

- إنها لا تريد أن تناقش الأمر.

بدا وكأنه قال هذا التعليق الأخير لنفسه أكثر منه لي. في اللحظة نفسها سمعنا صوت طرقات على الباب، ثم رأينا رأسًا تنظر في المكان:

- نحن على وشك أن نبدأ يا سيد "فيليبس".

فقال الرجل وقد بدا متفاجئًا:

- حسنًا، أنا آتٍ.

اختفى الرأس والتفت الرجل إليَّ قائلًا:

- إن جَدَّتك ليست غاضبة منك.

نهض الرجل، واتجه ناحية الباب، وبدا عليه التشتت، ثم قال:

- يجب أن نذهب، القداس سيبدأ. ستبحث عنك جَدَّتك.

انزلقتُ عن الكرسي، ووضعت الكتب مُجدَّدًا في الخزانة، وتبعته إلى خارج الغرفة.

كان الرجل مُحقًّا، كانت جَدَّتي تبحث عنِّي. ابتسمت حين رأتني، ولم يبدُ أنها لاحظت أنني كنت أبكي. أراحني هذا الأمر. وجدنا مكانًا لنجلس، بينما بدأ المصلون بغناء "اهدني يا يهوا العظيم". بحثتُ عن الرجل الطويل؛ لكنني لم أجده في أي مكان. عند بدء القداس فقط اكتشفت أنه كان يجلس عند الطاولة. بمُجرَّد انتهاء الصلاة والقراءة، نهضت السيدة "جونستون"، وهي واحدة من القائمين على التنظيم في الكنيسة، وقدمت لنا مستبصرًا زائرًا قادمًا من فرع

الكنيسة في "كويكوي"، السيد "فيليبس". فجأة استولى عليَّ الهلع. شعرت وكأنني أخبرتُ معلمي سرًّا سيخبره هو لوالديَّ. تعرَّقت كفَّاي، وظللت أنظر إلى قدمي كي أتجنَّب النظر إلى عينيه.

لم يكن السيد "فيليبس" مختلفًا عن كل المستبصرين الذين أنعموا علينا بالمجيء كل أحد. فقد تحدث بكلام مبهم عن شخص يرتدي قُبَّعة حمراء، شخص يحب تناول ساندويتشات الخيار، ورجل يدعى "فريد" الذي أراد أن يخبر زوجته بألا تقلق، وأن كل الأمور ستكون بخير. ثم نظر ناحيتنا. ظل محدقًا لحوالي نصف دقيقة، مما جعل قلبي ينبض بسرعة. ماذا سيقول؟ هل سيخبرها؟ فجأة ارتجف جسده ثم أغمض عينيه. قال:

- لديَّ اسم "إيفيلين".

شعرتُ بجَدَّتي تتأهَّب بجانبي. رفعت يدها، وكان يمكنني أن أرى أنها ترتعش. فتح السيد "فيليبس" عينيه؛ لكن على الرغم من أنه كان ينظر إلينا، بدا وكأنه لا يرانا على الإطلاق. بشكل غريزي، نظرت من فوق كتفي؛ لكن الأشخاص الموجودين معنا فقط كانوا السيد "هانتر"، وأخته السيدة "براكستون"، وكانوا يجلسون في الصف الذي خلفنا.

أكمل السيد "فيليبس" كلامه قائلًا:

- لديَّ شخص هنا، لا أعرف اسمه؛ ولكنه شاب.

جلست جَدَّتي بجواري دون حراك تمامًا. تجعدت جبهة السيد "فيليبس" قليلًا، وكأن هناك شيئًا ما أربكه، وقال وهو يهزُّ رأسه:

- هناك شيء ما بخصوص ملابسه. إنه يرتدي زيًّا موحدًا. زيًّا موحدًا من نوع ما.

هدأ صوته بعض الشيء ثم أضاف:

- أعتقد أنه كان في الجيش.

التفتُّ لأنظر لجَدَّتي، كانت قد وضعت يدها على فمها وفي عينيها نظرة فزع، وهمست:

- إنه "جيريمي"، إنه "جيريمي".

أومأ السيد "فيليبس" برأسه، ثم ابتسم نصف ابتسامة، وقال:

- إنه يقول لك ألا تقلقي، فهو بخير. إنه يقول شيئًا حول.. شيئًا حول **الشاي**.

سرت همهمة ضاحكة بين الحضور. كان حب جَدَّتي للشاي معروفًا. أغمض السيد "فيليبس" عينيه، وتمكنت من أن أرى شفتيه تتحرَّكان قليلًا، وكأنه يتحدث مع شخص ما. قال بصوت عالٍ:

- نعم، الشاي، شيء ما بخصوص الشاي.

قالت جَدَّتي:

- وغير ذلك، هل هو بخير؟

ابتسم السيد "فيليبس" قائلًا:

- نعم، إنه بخير.

عندما تركتُ أنا وجَدَّتي الكنيسة ذلك اليوم، كانت في مزاج رائق للغاية، تبتسم وتضحك في ارتياح شخص ما كان مرتعبًا من شيء معين، وانتهى الأمر الذي كان يخيفه بخير. قبل أن نرحل بالسيارة، شكرت جَدَّتي السيد "فيليبس" على الرسالة. فهزَّ كتفيه، وقال إن الأمر لم يكن بيده؛ بل بيد الأرواح التي تتواصل معه. كان يقف ممسكًا بفنجان شاي، وعند رحيل جَدَّتي رفع الفنجان عاليًا، وقال:

- تذكَّري.

ابتسم لي ثم التفت ليتحدث مع شخص آخر. بحثت جَدَّتي عن السيدة "كويتزي"، وأخبرتها بأنها مستعدة لمساعدتها في إعداد الشاي بعد انتهاء القداس. ثم رحلت، وهي تشعر بالامتلاء من الحياة في ذلك اليوم.

بعد جنازتها بثلاث سنوات، عدتُ لـ"إنجلترا". لا يمكنني النوم في الليل. فقدانها يطاردني: الخطابات التي لم تعد تصل، المكالمات التليفونية التي لم أعد أجريها. هناك فراغ، فجوة. أشعر وكأنني لاعبة أكروبات تنتظر أن يتأرجح شريكها في الجهة المقابلة، ذراعاها ممدودتان؛ لكن لا يوجد أحد هناك. هل كان ليصبح الأمر أسهل إذا كنت قد تمكنت من توديعها؟ إذا تمكنت من أن أمسك يدها؟

أجد نفسي أبحث في دفتر التليفون عن عنوان أقرب كنيسة روحية. أجلس أثناء القداس؛ في انتظار الرسالة. لا شيء من أجلي. أذهب الأسبوع التالي، والأسبوع الذي يليه، لا شيء أيضًا. أمشي إلى البيت تحت الأمطار، أقرب معطفي من جسدي. هناك أجزاء منِّي تود لو تتركه، تتركه يسقط وتدع الرياح والأمطار تصطدم بي، وتعبر من خلالي. أريدها أن تبعد عنِّي كل ما أشعر به: أريدها أن تبعد عني الألم.

أفكِّر: إنها معه، إنها الآن سعيدة. لكن ماذا عنِّي؟ ماذا عنِّي؟ أريد أن أصرخ. ماذا أفعل الآن؟

(5)

دخل خطاب من خلال الباب على السجَّادة. إنه في ظرفٍ أزرق اللـون. أشـعر بطعنة ألم حادة، اشتياق، ثم بعد ذلك أكتشف أنه منها، من جَدَّتي؛ لكن هذا غـير معقول. لقد ماتت منذ حوالي ستة أشهر. مختوم على مقدمته: "تم إرساله بالخطأ لـ(ماليزيا)". "ماليزيا"؟ لقد تـم إرسـاله مـن "بولاوايـو" ب"زيمبـابوي" في السَّـادس عشر من أكتوبر، أي قبـل وفـاة جَـدَّتي بخمسـة أيـام. أخـاف مـن أن أفتحـه. إنـه خطاب من شخص ميت. كانت هي آخر شخص لمس الخطاب الموجـود بالـداخل. يمكنني أن أتحمل رحلة إلى الكنيسة الروحية آملة في رسالة قـد تصـل منهـا؛ لكـن ليس هـذا، لـيس رسـالة حقيقيـة كهـذه. لكننـي أستسـلم بطبيعـة الحـال. أفـتح الظرف.. أخرج الخطاب منه بعناية، أفكُّ الورقة المطوية السميكة، وأقرأ:

"عزيزتي (إيلي)،

أفكِّر فيك كثيراً مؤخرًا، لذلك فكـرت أن أكتـب إليـك وأخـبرك بمـاذا أفكـر. أشعر بأنك لست سعيدة على الإطلاق. لست سعيدة لدرجة أنك نسيتِ كيـف تبدو السـعادة وأنـك تقبلـين هـذه الحالـة بأنهـا "عاديـة". أعتقـد أنـك كنـت ستتفجائين لو وجدتِ شيئًا ما مرحًا وضحكتِ عليه. لم أعـد أشـعر بابتسـامتك خلال أحاديثنا، كم حظينا بالقليل منهم، وحتى خطاباتك تفتقـد حـب الحيـاة الذي اعتدت وجوده بها. ثم حلمك. لهذا السبب أردت أن أكلمك في الأسـبوع الماضي. شيء ما ليس على ما يُرام، وأنـت تعـرفين هـذا بـداخلك؛ لكـن "إيـلي" المفكرة العقلانية لن تعترف بذلك. رنين التليفون أثناء وجودك في الحمَّام – إنه

تحذير. من ماذا يا "إيلي"؟ يجب أن تفكري. بينما أقترب من نهاية حياتي، أدرك الأمور المهمة. بماذا أحتفظ وما الذي أتخلى عنه - ما الذي يجب أن أتوقف عن فعله. هناك أشياء أيضًا أريد أن أصححها، أشياء أفهمها، وأشياء أشرحها. ليس كل هذه الأشياء تتضمنك أنت؛ أكثرها تتعلق بأمك وجدك؛ ولكنني أشك أنها ستُحل يومًا ما.

أريد أن أواجه الموت وأنا مستعدة. قال المسيح: "سوف آتي مثل اللص في الليل". أحتاج لأن أكون مستعدة. أحتاج إلى التحدث معكِ يا "إيلي"، بطريقة مناسبة - وجهًا لوجه - لهذا السبب قرَّرتُ أن آتي لرؤيتك. لم آتِ إلى"إنجلترا" منذ عدة سنوات. ظننت أنني لن أعود أبدًا؛ لكنني في حاجة لأن أراك. أعلميني متى يكون الوقت مناسبًا بالنسبة لك كي آتي. أعلم أنك لا تملكين منزلًا كبيرًا وأنا لا أتوقع أن أبقى مدة طويلة على كل حال. أسبوعان على الأكثر. إن "إنجلترا" موطني الأول، وأحب أن أودعها هي أيضًا. لن تكون زيارة كئيبة، تذكري. ربما في وقت ما في الربيع أو في بداية الصيف هو ما أهدف إليه.

ستراسليني قريبًا يا "إيلي"، أليس كذلك؟ أنا قلقة عليك طوال الوقت وأريد أن أراك سعيدة.

مع حبي، جدَّتك".

ذهبت للمرَّة الأولى إلى نادي "بولاوايو" البحري عام 1983. إذا كنت أتذكَّر جيدًا، فقد كان هذا يوم يوافق السبت. كنَّا في فترة بعد الظهر، حيث قضيت الصباح مع جَدَّتي في المدينة نتسوق. كان الجو شديد الحرارة ذلك اليوم. ربما كنَّا في وقت ما من نوفمبر. لم تكن الأمطار قد بدأت بعد، ويومًا بعد يوم، تلونت السماء بلون أزرق شاحب من طرف الأفق إلى الطرف الآخر. نظرت جَدَّتي إلى السماء ذلك الصباح وهزَّت رأسها قائلة:

- لا سحابة واحدة في السماء. عادة يبدأ ظهور السحب في هذا الوقت من السنة.

كان ذلك الصباح مثله مثل أي صباح آخر باستثناء أن جَدَّتي اشترت لي زوج أحذية جديد. كان أحمرَ اللون. قِست تقريبًا كل الأحذية في المحل قبل أن أختاره - وكي أكون صادقة - اخترته فقط لأن زميلتي في المدرسة "بريندا توماس" لديها مثله. لم أكن أعرف إن كان يعجبني أم لا؛ لكنني أتذكَّر عاملة المحل وهي تنظر لأعلى في اتجاه السقف، وتقول:

- أشكرك.

موجهة كلمتها للرَّب. ضحكت جَدَّتي، وقالت إنها أيضًا كانت على وشك أن تدعو من أجل تدخل إلهي إذا لم أتخذ قراري فيما أريد.

ارتديت حذائي الجديد، ووضعت حذائي القديم في علبة وحملتها تحت ذراعي إلى السيارة. ظللت أنظر طوال الوقت تجاه حذائي الأحمر الجديد. فتحت جَدَّتي السيارة، وقفت لأنظر لحذائي الجديد، وأنا أضع قدميَّ متلاصقتين ببعضهما البعض. عندما نظرت لأعلى، كانت جَدَّتي ممسكة بباب السيارة المفتوح لأجلي وهي مبتسمة من تصرفي. قفزت من على الرصيف إلى أرض الشارع، ثم ركبت السيارة، وجلست في الكرسي الخلفي.

قالت جَدَّتي وهي تضحك:

- يا لكِ من فتاة سعيدة.

ثم تناولت الرُّوج والمرآة اليدوية، و"أضافت بعض اللمسات" كما اعتادت على تسميتها، ضمت شفتيها معًا، ثم مطتهما. ربتت عليهما بمنديل ورقي، ثم وضعت الرُّوج مرَّة أخرى ومررت إصبعها على حواف شفتيها. ثم غنت:

- ربما يكون هناك مشاكل قادمة؛ ولكن طالما هناك ضوء القمر والموسيقى والحب والرومانسية، لنرقص على أنغام الموسيقى.

في النهاية رشَّت عطرًا على رسغيها ورقبتها، وأعطتني بعضًا منه أيضًا. تجعد أنفي وأغمضت عيني في البداية؛ لكن بعد وقت قليل تمكنت من شم رائحة

اللافندر. اعتادت جَدَّتي على وضع عطر اللافندر، لدرجة أنها أصبحت "رائحتها" الطبيعية. كانت مُعتادة عليها، فقد اعتادت وضع كثير منها، لذلك كان من المحتمل أن تظل رائحتها باقية مثل غرفة مغلقة. ألقيت ذات مرَّة دعابة حول أنها لم تكن لتصلح أن تكون لصَّة، لأن الشرطة كانت لتعرف من السارق في أسرع وقت. كانوا ليطلقوا عليها اسم "لصَّة اللافندر"، أو "اللصَّة المعطرة". إن رائحة اللافندر لديها تأثير غريب عليَّ؛ إنه أكثر من مجرد عطر، إنها بمثابة لمسة يد امتدت كي تساعد طفلًا على عبور شارع مزدحم. إنه تأثير لحظي، لكنه يترك خلفه إحساسًا مخيفًا بالفقدان؛ طفل مفقود يبحث في ارتباك عن وجه مألوف بين وجوه الأشخاص الذين يقابلونه في الشارع المزدحم.

تساءلت لماذا كانت "تضيف بعض اللمسات" إذًا، عندما أنهينا تسوقنا وجاء الوقت لكي توصلني إلى المنزل. لم أطق صبرًا كي أُري أُمِّي حذائي الجديد. لقد طلبت منها حذاءً جديدًا الأسبوع الماضي؛ لكنها أخبرتني أن عليَّ أن أنتظر حتى الكريسماس لأنه كان غاليًا جدًّا. كان هذا هو الشيء اللطيف حول جَدَّتي وهي تعيش بمفردها الآن. لم تكن تقلق حيال النقود كما كان يفعل أبي وأُمِّي، كانت جَدَّتي تقول: "نحن نعيش مرَّة واحدة فقط، لذا فلنفعل ما يحلو لنا طالما أننا ما زلنا على قيد الحياة".

قالت جَدَّتي وهي تعود بالسيارة للخلف:

- لقد ظننت أننا سنتناول الغداء في الخارج اليوم.

سألتها وأنا أعرف ان أُمِّي ستعد لي طبقي المفضل؛ إسباجيتي في الفرن:

- أين سنذهب؟

- النادي البحري.

قالتها بالنبرة نفسها التي قد يستخدمها شخص وهو يقول "مكتب الولاية"، أو"10 شارع داونينج"، وكأننا ضيوف مميزون عند رئيس الوزراء. فكرَّرتُ وراءها:

- النادي البحري. ما هذا المكان؟

افتتح الرائد "ماكدويل" النادي البحري بعد الحرب العالمية الثانية، غالبًا كنادٍ اجتماعي من أجل رجال البحرية المتقاعدين وعائلاتهم. مثل عديد من هذه النوادي في "زيمبابوي"، كان على الأغلب مكانًا لشرب الخمور، يتردد عليه قليل من البحَّارة المقتدرين، والأكثرية من الشيوخ السكارى المدمنين. كان مختلفًا عن النوادي الرياضية ذات الطاولات المثقلة بزجاجات البيرة الخاصة بعملائهم "الروديسيين" العنيدين، الذين كان من الممكن أن يفوزوا بالحرب لو لم يستسلم "سميث" للعدوان القومي، الذين كانوا على وشك الانتصار عندما استسلم "سميث". كانوا هم نفس الأشخاص الذين منعتهم بطونهم الممتلئة من لعب التنس، والذين كان لعب الإسكواش عندهم يعني محاولتهم قيادة سياراتهم ليلًا للعودة لمنازلهم، ثملين بالطبع.

كان النادي البحري مختلفًا في أن أكثر من ترددوا عليه كانوا في الغالب بريطانيين وأكبر سنًّا من الذين ينضمون للأندية الرياضية. لسبب ما، كان هناك بعض الأسكتلنديين، ورجل ويلزي يدعى "تافي"، ورجل آيرلندي يدعى "بادي"، وعدد من الإنجليز، كلهم من شمال "إنجلترا". كانت لهم لكنات يصعب فهمها، خاصة بعد تناول الشراب لمدة ست ساعات متواصلة. حتى الأعضاء الذي وُلدوا وتربوا في "زيمبابوي"، كان يبدو أن لديهم صلات بريطانية، مثل أب اسكتلندي، أو جد ويلزي. كلهم كانوا بيض البشرة، ولم يكن هناك سيدات على الإطلاق.

عندما دخلنا النادي كان الأمر أشبه بلعبة التماثيل الموسيقية، عندما تتوقف الموسيقى في منتصف الأغنية وعليك أن تظل واقفًا ثابتًا قدر الإمكان، أيًّا كان ما تفعله وقتها. هل كنا نلعب هذه اللعبة؟ كان من الصعب أن أعرف من يستحق أن "يُطرد" لأن الجميع ظل ثابتًا في مكانه تمامًا. لثانية ظللت أنا وجَدَّتي واقفتين في المدخل عند منطقة البار، ولم نتحرك أيضًا. ثم اقترب منَّا جرسون

ومعه رسالة، قال إن السيد "تريفيليان" جالس عند نهاية منضدة البار. أشار الجرسون تجاه يسار صف المقاعد وأطباق الفول السوداني. أمسكت جَدَّتي بيدي ومشينا عبر الغرفة الصامتة وكأنما تتابعنا مئات الأزواج من الأعيُن.

قالت لي جَدَّتي:

- هذا هو السيد "تريفيليان" يا "إيلي"، سلِّمي عليه.

ظللت ممسكة بيد جَدَّتي، اقتربت منها أكثر، وعضضت على أصابع يدي الأخرى، وقلت:

- مرحبًا.

نظرت للأسفل تجاه قدمي بمُجرَّد أن قلتها. فقالت جَدَّتي بضحكة عالية حادَّة:

- إنها خجولة.

استطعت أن أرى أنني آخر من توقَّع "مايلز تريفيليان" رؤيته هذا المساء. بدا منزعجًا بعض الشيء، ثم رد على تحيتي بإيماءة خفيفة من رأسه، ثم التفت وعرض على جَدَّتي شرابًا. لاحظت أنه يرتدي حذاءً قماشيًّا أبيضَ بدا أصغر ممَّا هو عليه بشكل غريب، وكأن حجمه صغر أثناء غسله، ثم قام أحد بمحاولة تمديده كي يعود لمقاسه الأصلي. كان يرتدي أيضًا بنطلونًا قطنيًّا لونه أصفر فاتح، وقميص جولف أبيض به جيب ناحية اليسار مكتوبًا عليه "عضو النادي" مخيطة بخيوط قطنية باللون الأزرق الفاتح. وأسفل الكلمات ثلاثة خطوط زرقاء داكنة، تمثِّل البحر على حسب اعتقادي.

اتخذت قراري في لحظتها بأنني لا أحب "مايلز تريفيليان". وقتما سُئِلت لماذا لم أحبه، كنت أتذكَّر في حينها هذا اللقاء، نظرة الإحباط في عينيه، طريقته في صرفي كطفلة، أو كعبء عليه، أو كمجرد شيء حال بينه وبين جَدَّتي.

سأل "مايلز" جَدَّتي:

- ماذا تودين أن تشربي؟ جين مع ماء الصودا؟ فودكا مع ماء الصودا؟ أم بيرة بالليمونادة؟

ردت عليه جَدَّتي:

- جين مع ماء الصودا، وثلج.

التفت ناحيتي ورفع حاجبيه الشقراوين بعض الشيء:

- وأنت؟ كولا أم فانتا؟

لم أرد عليه سريعًا، لم أكن أريد أن أقبل أي شيء منه؛ ولكنني في قرارة نفسي كنت أريد كولا. لم تكن مسموحة لي في المنزل لأن أُمِّي كانت تقول لي إن كثرة السكر فيها ستؤذي أسناني وتتسبب في وقوعها. كما أنني لا أحب الفانتا. قال لي:

- هيا، إنه ليس سؤال صعب هكذا.

نبرة صوته المنزعجة جعلتني أكثر خجلًا مما جعلني أرد عليه بسرعة، وقلت:

- فانتا.

قالت جَدَّتي وهي ترفع رأسها قليلًا في مفاجئة:

- فانتا؟ ولكنك لا تحبيها، هل أنت متأكدة؟

رددت عليها وأنا أنظر إلى حذائي مجددًا:

- نعم.

سألتني مجددًا:

- متأكدة؟ لا تريدين الكولا؟

قلت لها وأنا أتمنى ألا تسألني مجددًا:

- لا.

سألني "مايلز":

- إجابة نهائية؟

هززتُ رأسي في إيجاب. فقال لعامل البار:

- أحضر لنا كأس جين مع ماء الصودا والثلج، وزجاجة "كاسيل" وزجاجة فانتا.

ثم ضحك على دعابته وألقى ببعض العملات المعدنية لعامل البار من كومة عملات كان يضعها بجانب مرفقه، وقال:

- لنذهب ونجلس، مشيرًا إلى بعض الكراسي ذات المساند التي تقع في ركن الغرفة. كانت هذه الكراسي مغطاة بقماش أخضر قطيفي، مهترئ في بعض الأماكن من كثرة الاستعمال. فاحت منها رائحة بيرة خفيفة وشيء ما دهني. في منتصف الدائرة التي تشكلها الكراسي كانت هناك ترابيزة "فينيل" صغيرة عالية عليها مطفأة سجائر خشبية. كان الجرسون لا يزال ينظفها من رماد السجائر وأغطية زجاجات البيرة عندما جلسنا. وضع "مايلز" علبة سجائره والكبريت على المائدة التي كانت لا تزال رطبة، بينما يرحل الجرسون مبتعدًا.

ناداه "مايلز":

- أنت.

ورفع إصبعه في الهواء، في إشارة تحذيرية للجرسون. نظر الجرسون للخلف ليجد "مايلز"، مشيرًا إلى غطاء زجاجة بيرة لا يزال في مطفأة السجائر. أخذه الجرسون دون كلمة واحدة.

قال "مايلز" وهو يهزُّ رأسه ويسحب شفتيه للخلف في تجهُّم:

- المعايير.

وضع زجاجة البيرة على الطاولة، كانت غنية وذهبية وفوقها طبقة رغوة رفيعة. بجانب كوب جَدَّتي الصغير الفوَّار، بدت زجاجة البيرة ذكورية ومسيطرة، وفي الوقت نفسه، باردة وأنانية بالمقارنة مع الفقاعات القافزة المتحمسة التي بدت وكأنها تلقي بنفسها على جانبي الكوب، وتقول: "انظروا إليَّ، انظروا إليَّ".

سألته جَدَّتي:

- كيف حالك؟

- بخير، شكرًا لك.

- والعمل؟

- بخير، بخير، أشكرك.

لحظة صمت قصيرة، بحثت فيها جَدَّتي عن شيء لتقوله، ثم قالت:

- كنت مشغولة بعض الشيء مؤخرًا. نهاية الشهر. مثل هذه الأشياء.

ابتسمت ابتسامتها الخجولة. تلك الابتسامة التي تجعلها تنظر للأسفل وتحمر وجنتاها بسببها بعض الشيء. قال وهو يمسك بعلبة سجائره ويطرق بها على الطاولة:

- لحسن حظي أنني لا أشكو من كل هذا. العمل في الورشة في العموم كما هو بالنسبة لي.

أخرج سيجارة.

لحظة صمت أخرى. جلست جَدَّتي في استقامة واضعة يديها على ركبتها، تمامًا مثلما تجلس في الكنيسة. سألها "مايلز" وهو يرجع بظهره للخلف في الكرسي ويضع السيجارة في فمه:

- كيف حال "روني"؟

راقبته وأنا منبهرة بعض الشيء بالطريقة التي وازن بها السيجارة في ركن فمه. كان بإمكانه التحدث وهي تتحرك لأعلى وأسفل. قام بتثبيتها فقط عندما أراد أن يشعلها. أغمض عينيه وأخذ نفسًا طويلًا. أجابته جَدَّتي ضاحكة:

- "روني" بخير. من المؤكد أنك تعلم كيف هي. لقد أخبرتني أنها تعرفك منذ مدة طويلة.

- منذ ثلاثين عامًا.

قالها بينما تحترق السيجارة ببطء في يده اليمنى، ردت جَدَّتي:

- يا لها من امرأة، أليس كذلك؟

أومأ "مايلز" برأسه موافقًا، وأكملت جَدَّتي:

- إنها السبب في بهجة كل من في المكتب. دائمًا ما تضحك وتمرح.

- نعم.

بعدها بمدة أدركت أنه لم يعلِّق قط على شخصية أي أحد إلا كي يسخر منه. عندما أدركت بأن وجود "مايلز" في حياة جَدَّتي أصبح شبه دائم، بدأت أنتبه لأحاديثهما باهتمام. لقد كرهت "مايلز"، وبحثت عن طريقة ما كي أبعده عن جَدَّتي، عن شيء ما يكشفه كمُحتال.

إن "روني" هي امرأة كانت تعمل مع جَدَّتي.. "رونيل فان ستادين". سمعت جَدَّتي ذات مرَّة تذكرها لأُمِّي؛ كانت هي التي تجلس في المكتب المجاور لمكتب جَدَّتي في قسم المحاسبة في محل "هادون وسلاي".

وقفة قصيرة أخرى قبل أن يسأل "مايلز":

- ماذا تفعلين أثناء عُطلات نهاية الأسبوع؟

ابتسمت جَدَّتي مُجدَّدًا في حرجٍ، وقالت:

- لا أفعل الكثير. أرتب المنزل، على ما أظن. أقوم ببعض الخَبز بين الحين والآخر.

والتفتت ناحيتي ووضعت يدها على رأسي، ثم استطردت:

- تأتي "إيلي" في الغالب لتبقى معي، أليس كذلك يا "إيلي"؟

هززتُ رأسي في إيجاب مرَّة واحدة، ثم نظرت تجاه "مايلز". تحولت عينه ناحيتي للحظة، ثم عادت مُجدَّدًا إلى جَدَّتي، ولم يعلِّق.

في هذه اللحظة، جاء إلى الطاولة رجل رفيع للغاية ذو بشرة سمراء في حوالي الخمسين من عمره. كان يرتدي "شورت" قصيرًا للغاية، وقميصًا ذا أكمام قصيرة، ووصلت جواربه إلى ركبتيه. وقال:

- دورك في اللعب يا "مايلز".

وقدَّم له ثلاثة سهام، ثم قال:

- اللعب بثلاثة أسهم.

أخذ "مايلز" الأسهم ونهض. قال لنا وهو يطفئ سيجارته وينفخ سحابة طويلة من الدخان من ركن فمه:

- اعذروني. لن أتأخر. تعاليا للمشاهدة إذا رغبتما.

كان هذا المشهد قد تكرر كثيراً أثناء طفولتي. جَدَّتي و"مايلز" كانا يجلسان ويتحدثان وأنا أجلس بجانب جَدَّتي، تائهة في عالم خاص بي. غالبًا ما كان يلعب "مايلز" لعبة رمي الأسهم وكنَّا نشاهده. لم أكن أعرف إن كانت جَدَّتي تشاهده بالفعل، فهي غالبًا ما كانت تسأله من الذي فاز، وإذا ذكر شيئًا ما حدث أثناء المباراة، مثل تعليق معين قيل أو رمية جيدة جدًّا، لم يبدُ عليها أنها كانت تتذكر هذا. لم أكن أعرف لماذا ذهبنا إلى هناك. لم أكن أعلم أن جَدَّتي لديها عديد من الأصدقاء ولم أرها تخرج لمقابلتهم قط. الوحيدون الذين أعرفهم كانت منهم السيدة "بينسون"، معلمة الموسيقى المتقاعدة التي أقامت في الشقة العلوية لشقة جَدَّتي.

تلك الظهيرة بدت جَدَّتي سعيدة للغاية. كانت خجولة في البداية؛ لكن بعد ذلك، لم يبدُ أنها بإمكانها التوقف عن الابتسام. كانت تضحك - بسبب ومن دون سبب على حسب ظني - لأن "مايلز" لم يكن يقول أي شيء مضحك. اشترى لي هامبورجر وشيبسي للغداء؛ طعام آخر محرَّمٌ عليَّ. كانت أُمِّي صارمة تجاه الوجبات السريعة وتفاجأت بأن جَدَّتي لم تتذكر ذلك. فكَّرت بأسف في إسباجيتي الفرن التي كان من المرجَّح أنهم يتناولونها في تلك اللحظة وتساءلت إن كانت أُمِّي ستترك لي بعضًا منها. لا أظن ذلك.

في النهاية، تركنا النادي البحري. رافقنا "مايلز" حتى السيارة وفتح الباب المجاور لكرسي جَدَّتي وظل هكذا حتى بعد أن ركبنا. تحدثا لبعض الوقت ثم أغلق الباب وأطل من زجاج نافذة جَدَّتي، وقال:

- سأتصل بك.

ثم نظر ناحيتي، وقال:

- مع السلامة يا "شيلي".

فصححت جَدَّتي له ضاحكة:

- "إيلي".

لكن لم يبدُ عليه أنه سمعها. ونظر لها نظرة طويلة ثم التفت وعاد إلى داخل النادي مجددًا.

كان الوقتُ متأخرًا عندما رحلنا. أعطت أشعة الشمس الأخيرة المتبقية للشوارع المعتمة مظهر الصور القديمة التي تغلب عليها اللون البني. جلست في صمت ونحن في الطريق إلى المنزل. دندنت جَدَّتي وهي تنقر بأصابعها على عجلة القيادة:

- لنرقص على أنغام الموسيقى.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها. توقفت أمام منزلنا وودَّعتني بقبلة. لم تدخل جَدَّتي المنزل مرَّة أخرى بعد أن رحلت عنَّا. قلت وأنا أحاول أن أفتح باب السيارة وأحمل علبة الحذاء في الوقت نفسه:

- شكرًا على الحذاء يا جَدَّتي.

في تلك اللحظة اندلع الجحيم. جاءت أُمِّي من داخل المنزل وهي تجري وتصرخ:

- "إيلي"، أُمِّي، هل أنتما بخير؟

ألقت ذراعيها حولي ثم التفتت إلى جَدَّتي التي ظلت جالسة كما هي أمام عجلة القيادة قائلة:

- أُمِّي، أين كنتما؟ قلقنا عليكما بشدة. لقد ذهب "أندرو" مرَّتين إلى شقتك، وقد اتصلنا بجميع المستشفيات! كان من المفترض أن تعيدي "إيلي" في وقت الغداء. أين كنتما؟

قلت لها وأنا أجذب ذراعها:

- أُمِّي، أُمِّي، لا بأس. ذهبت أنا وجَدَّتي لتناول الغداء...

كنت على وشك أن أكمل وأخبرها عن كل ما فعلناه بعد الظهيرة في النـادي البحري، مـن مقابلـة "مـايلز تريفيليـان"، وتنـاولي الهـامبورجر والشـيبسي عـلى الغداء وزجاجة الفانتا؛ ولكن جَدَّتي بادرت بالقول:

- أنا آسفة يا "فرانسـيس"، لقـد ذهبنـا للمتنـزَّه وأرادت "إيـلي" أن تـذهب للمتحف لتشاهد قسم التاريخ الطبيعي. أنت تعرفين، تلك الحيوانات المحشوة. ثم تناولنا الأيس كريم. لم أدرِ ما حدث للوقت. لقد مر بنا سريعًا.

التفتت أُمِّي ناحيتي وصرخت:

- "إيلي"، لقد ذهبنا للمتحف الأسبوع الماضي. لماذا جررت جَدَّتك إلى هنـاك مرَّة أخرى؟ أنت وهذه الحيوانات اللعينة!

ظللت واقفة في مكاني مذهولة. لقد كذبت جَدَّتي. لثـوانٍ معـدودة دار بي الكـون ولم أتمكن من تمييز الأصوات والكلمات التـي ازدحمـت مـن حـولي. الظـلام المتنـامي أخفى وجه جَدَّتي عنِّي. لم أكن متأكدة حتى من أنها تنظر ناحيتي. بدأت بأن أقول:

- ولكن..

ولكنني لم أكمل. كان هناك في مكان ما من وعيي تصور يبزغ بـأن هـذا كـان سرَّنا، جَدَّتي وأنا. بطريقة ما، ولأحد الأسباب، يجب أن يبقى "مايلز تريفيليان" سرًّا عن الجميع. الظهيرة في النادي البحري، وجلوسنا عـلى الكـراسي الـخضراء القديمـة فجأة أصبح يطغى عليهم طابع سرِّي؛ إنه مكان يجب عدم ذكره. شعرت بالدموع توخز جفنيَّ وكنـت أشـعر بمـؤخِّرة حلقـي مشـدودةً وجافَّـةً، التفـتُّ لأدخـل إلى المنزل. عند الباب رأيت ظل والدي. قال وهو يمد يده تجاهي:

- لا تقلقي يا "إيلي". إنها تبالغ في ردة فعلها مرَّة أخرى.

وأنا أدخل المنزل سمعت أُمِّي تقول:

- كم أدين لك مقابل الحذاء؟

- لا بأس. إنها هدية كريسماس مبكرة.

(6)

ما زالت أُمِّي كما هـي اليـوم، عـلى الـرغم مـن أنهـا لا تُفـرط في حمايتـي، ولم تعـد بالعصبية نفسها تجاه كل خطوة من خطواتي. أعتقـد أنـه مـن الصـعب عليهـا أن تكـون كذلك. أنا بعيدة عنها بأميال في "إنجلترا"، وهـي في "بولاوايـو". عنـدما رحلـت لأول مـرَّة، كانت تواظب على الاتصال بي بالتليفون كـل أحـد في وقـت الغـداء. كانـت تسـألني عـن الطقس، وعن الطعام الذي أتناوله، وتحذرني من أن أعود لمنزلي ليلًا عن طريق الحدائق.

بالتدريج، بدأت الاتصالات تقل، ولم تعد بالحدة نفسها كما كانت، على الرغم من أنها اتصلت بي ذات يوم لتتأكد من أنني لم أمُت في حادثة قطار رأتها في الأخبار.

عندما تحدثت جَـدَّتي عنهـا، كـان غالبًـا مـا يتخلـل حـديثها تنهيـدة، وتتمنـى أن تتوقف عمَّا تفعله، وتحاول أن تستمتع بحياتهـا قليـلًا. كانـت جَـدَّتي محقـة في عـدة أوجه؛ ولكن حكمها على الآخرين كان مخطئًا تمامًا. كان العشاء دائمًا مـا يوضـع عـلى الطاولة في التوقيت نفسه، ولم يكن مسموحًا لي بأن أتناوله وأنا أشاهد التليفزيـون، أو أن أترك خضرواتي، أو أخلد للنوم بعـد التاسـعة؛ لكـن جَـدَّتي أخطـأت في قـراءة هـذا التحكم المبالغ فيه بأنه صرامة وليس حبًّا. لم تتمكن من أن ترى أنها هي من جعلـت أُمِّي على هذه الحالة؛ جعلتها تخاف من مشاعرها، والأهم، من المستقبل المجهول.

عندما حان موعد رحيلي في زيارتي السابقة، قبل أن أتجـه للمطـار، وقفـت أُمِّي في المطبخ، وتمنت لي رحلة آمنة. كانت متعبة، ومنهكة تمامًا؛ ولكنها تمكنت مـن أن تـنهض عـن السريـر حتـى تـودعني قبـل أن أرحـل. أظهـر شـعرها

البني الكستنائي الثقيل الجميل بعض علامات التقدم في السن هنا وهناك، والخطوط السفلية لعينيها كانت ترسم خطوطًا نصف دائرية داكنة على وجهها. لاحظت أنها أرادت أن تبكي، أنا أيضًا أردت أن أبكي.

- اتصلي بنا عندما تصلين - مكالمة قصيرة فقط - كي نعلم أنك وصلت بأمان.

أومأت لها وقلت وأنا أحاول ان أغالب بكائي:

- بالطبع.

- "إيلي"!

قالتها في صوت خشن وجاف، ثم استطردت:

- لم أُرد أن أخبرك لأنني أحبك، وليس لأنني أردت أن أخفي عنك شيئًا.

أومأت لها مرَّة أخرى. كان هناك الكثير لأقوله. أشياء كثيرة كنت أعرفها وهي لا، أشياء أود أن أخفيها عنها. قالت في صوت أضفت عليه نغمة مشرقة وهي تعطيني لفافة صغيرة بها طعام:

- أعددت لك بعض الساندويتشات. وهناك بعض البسكويت أيضًا وتفاحة.

أخذتها واستطعت أن أبتسم نصف ابتسامة. ثم قالت وهي تميل على منضدة المطبخ:

- أعرف كيف هو طعام شركات الطيران.

زحفت في كلامها النغمة العملية المعتادة مما رفع من معنوياتي للحظات. كان هناك وقت كنت لأحتج فيه وأحاول ان أضحك منها؛ لكنني أخذت الطعام بهدوء ووضعته في حقيبتي. أردت أن أذكرها بأنني ما زلت طفلتها.

يرن التليفون وأترك المكالمة لترد عليها آلة الرد. إنها "ماندي". "إيلي أين أنت؟ لم تتصلي منذ أيام. أتمنى أن يكون السبب هو أنك تقضين وقتًا

رائعًا جعلك تنسين كل أصدقائك. اتصلي بي إذا أردت التحدث. لديَّ الكثير من زبدة الفول السوداني. حسنًا؟".

عندما أعيد النظر في حياتي، فإن أكثر ما ألاحظه، الشيء الذي أفتقده في حياتي الحالية، وهو النمط: الطريقة التي تتبع بها السنةُ السنةَ التالية لها بنعومة. طريقة عدم تفكيرنا في المستقبل، أو تساؤلنا حوله، أو أن نشعر بالانفصال عن الزمن الذي انقضى. هل كنت أعرف أنني عند رحيلي لن أتمكن من العودة مجددًا؟ هل كنت أعرف أنني برحيلي كسرت النمط وبإمكاني العودة فقط كدخيلة؟

كانت "ماندي" جزءًا من نمط حياتي القديمة، وكذلك كانت ساندويتشات زبدة الفول السوداني. كانت واحدة من حلقات الوصل، القليلة، ولكن القوية، ليس فقط مع البلاد؛ ولكن أيضًا مع الزمن. كنت أعرفها منذ أن كنت بعمر الثامنة، عندما أرسلوني لمدرسة "كولينجزوود"، وهي مدرسة ابتدائية خاصة في "بولاوايو". كنا نقضي بعض عُطلات نهاية الأسبوع معًا، عادة تكون يوم الجمعة، لأنني اعتدت على الذهاب لجَدَّتي أيام السبت. بقيت هي معي في أيام الجمعة، كانت أُمِّي تقلنا من المدرسة وتأخذنا إلى "هادسون وسلاي" لتناول الغداء. كان محل "هادسون وسلاي" محلًا إداريًّا وبه مطعم في الطابق الثاني.

كنت دائمًا أتناول ساندويتش لحم مع مخفوق حليب بالفراولة و"ماندي" تتناول ساندويتش جبن محمصة ومشروب "البقرة البنية". ثم بعد ذلك، كنا نذهب إلى السوبر ماركت في الطابق الأرضي، وأثناء تسوق أُمِّي كنا ندفع بعضنا البعض في عربة التسوق.

عندما كان يحين دوري في الذهاب لمنزل "ماندي" لأبيت معها، كانت أمها تقلنا من المدرسة أثناء ساعة الغداء المخصصة لها في سيارتها "الفولكس فاجين جولف" ذات اللونين الأصفر والأبيض. كان على مؤخرة السيارة ملصق يقول "المجد لله!". كانت دائمًا تفوح برائحة عطرة وأظافرها كانت مصبوغة بالأحمر. كانت توصلنا إلى المنزل،

وتخبر الخادمة بأن تحضر لنا شيئًا نأكله، ثم تعود لعملها وتتركنا لحالنا. اعتدنا حينها تناول ساندويتشات زبدة الفول السوداني على الغداء وعصير التوت البارد.

كان والدا "ماندي" يذهبان للكنيسة بانتظام، ولم يتركا مناسبة دون أن يُعلما أي أحد بورعهما. وفي كل مكان في المنزل انتشرت آيات واقتباسات من الإنجيل. حتى الحمَّام لم يخلُ من الإلهام. كان فيه صورة تقول: "الرب راعٍ فلن يعوزني شيء"، وفيها صورة رجل مُلتحٍ ويحمل حَمَلًا في يديه وهو ينظر لأسفل تجاه الحوض. في مقابلتها، على الباب، عُلِّقت لوحة معدنية مكتوب عليها: "إذا رششت الماء وأنت تتبول، كن لطيفًا وامسح المقعد". كما كان يوجد بجانب المرحاض، بدلًا من مجلات "السيدة الجميلة" و"المنزل والحديقة" كي تشغل الشخص الذي يستعمل الحمَّام، مجموعة من المجلات الأمريكية من مكان ما في "ويسكونسن"، بتاريخ 1972، ممتلئة برجال تشبه الرجل نفسه الموجود في الصورة الذي يحمل حَمَلًا في يديه، وكتاب شِعر من تأليف رجل يدعى "والتر جونسون". كنت أستمتع بحقيقة أن المجلات عمرها أكبر من عمري.

كان لدى "ماندي" حمَّام سباحة فاعتدنا في بعض الأحيان قضاء ساعات فيه.. نلعب ألعابًا مثل "ماركو بولو" أو أن نلقي فيه حجارة نسترجعها من القاع فيما بعد. في ليالي الجمعة كنا نشاهد برامج تليفزيونية مثل "فريق المحترفين"، و"الفارس". حينها شعرنا وكأن يوم الإثنين بعيدٌ للغاية.

كان كل هذا جزءًا من نمط طفولتي. على الرغم من أن "ماندي" كانت أقرب صديقاتي أثناء فترة المدرسة، فإن الشيء الغريب هو أنني لم أخبرها عن "مايلز" إلا بعد مرور فترة طويلة، وحتى عندما فعلت، لم أخبرها بالتفصيل؛ كنت أبقيها على المقدار الضئيل نفسه من العلم بهذا الأمر مثلما كانت أسرتي. كما أنني لم أذكر قضاء فترات بعد الظهر معه ومع جَدَّتي في النادي البحري. حقيقةً، كان يوم السبت يومًا غريبًا عليَّ، كان أقرب إلى وقت مقتطع من الزمن.. إيقاف مؤقت من الحياة والواقع.

(7)

أحلم حلمًا ما. يكون لديَّ فيه عملان، وأحاول أن أمارس الاثنين في الوقت نفسه. أتجول بلا هدف في الليل. أصعد في رحلات ورحلات على سلالم كهربائية في سوق تجاري مهجور. الوقت متأخر، وأنا مُنهكة. أرتدي معطفي الأسود، الذي اشتريته في محل الأعمال الخيرية. أسأل شخصًا ما عن شيء ما، لست متأكدة ما هو. الشخص الذي أتحدث إليه هو واحد من هؤلاء الأشخاص طيبي القلب الذين يعتقدون أنك شخص غريب، أو مجنون، ويبتسمون في تعاطف. أثناء نزولي على السلم المتحرك، أجد "جانيس إنجليش" في مواجهتي. إنها تبتسم وتشعُّ جمالًا. على الدرجة التالية لها يوجد رجل. أعلم أنهما معًا. معطفي قصير، ومعطفها طويل. وهي تضع مساحيق التجميل، روج لونه أرجواني ثقيل. بينما نمر بجانب بعضنا البعض، تبتسم لي في ذهول. لا تعرف من أنا.

في ليلة أخرى، أستيقظ من نومي مرَّتين وأنا أضحك؛ ولكنني لا أتذكَّر سبب ضحكي. أكان هناك شخص ما يقول لي دعابة؟ ربما.

- "إيلي"؟ "إيلي"، إذا كنت عندك، من فضلك ارفعي السماعة.. لا يمكنك الاستمرار بهذا الشكل لمدة أطول.. أرجوك يا "إيلي".. "إيلي"؟ اتصلي بي في أي وقت. تعرفين أنني سأقف بجانبك دائمًا.

صوت نقرة ثم صفير، ثم توقفت آلة الرد الآلي عن العمل. أرقد في سريري مدة أطول، سعيدة لأن "ماندي" اتصلت على الرغم من أنها غاضبة في الوقت نفسه. هل يمكنني أن أتخطى الأمر؟ هل هذا ما يريدون؟ وجه مبتسم عند الباب، وشخص متكلم في الطرف الآخر من خط التليفون. كل شيء قد نُسي.

لكنني سعيدة لأنها اتصلت بي. أتمكن من فتح الستار قليلًا دون أن أتحرك كثيراً من موقعي على السرير. كل ما يمكنني رؤيته هو السماء؛ سقفًا رماديًّا. أترك الستار يعود كما كان وأفكر. مرَّة أخرى أحاول أن أجد بداية.

فيما بعد، أنهض وأجلس أمام الكمبيوتر مرتدية ثوب النوم. أجلس لبعض الوقت، محملقة في الفراغ، ثم أكتب:

"مع بداية الثمانينيات، كانت "ماتابيليلاند" مكانًا للخوف. كان توالي هجمات المنشقين على المزارع أمرًا شائعًا. الطريقة الوحيدة كي تصل إلى الأخبار العالمية في "أفريقيا" هي أن تقتل شخصًا أبيضَ البشرة. إذا مُت في "أفريقيا" وأنت أسود البشرة، فستتلاشى داخل إحصائيات الحرب الأهلية والمجاعة والجفاف؛ دليل على أن ذوي البشرة السوداء لا يمكنهم أن يعتنوا بأنفسهم. كرد على جرائم القتل، أطلقت الحكومة إرهابًا متمثلًا في اللواء الخامس، كان هذا في الظاهر لإسكات المنشقين، ولكنه في الحقيقة كان من أجل أن يُمحى الآلاف من الناس، معظمهم ليسوا مرتبطين بأفعال المنشقين.

في عام 1980، ترك الكثيرون "زيمبابوي" ورحلوا لأماكن مثل "جنوب أفريقيا"، و"أستراليا"، و"إنجلترا"، وفي ظل اختفاء العمالة الماهرة، العديد من الأشخاص ذوي البشرة البيضاء الذين بقوا شقوا طريقهم لأعلى سلم النجاح. فقد اشتروا ملكيات في الأحياء الشرقية المترامية في "بولاوايو" ذات حمَّامات سباحة وملاعب تنس؛ وذهبوا ليقضوا عُطلاتهم كل عام في بلاد خلف البحار، وكانوا يقتنون أحدث سيارات "المرسيدس

بنز"؛ وأرسلوا أبناءهم لمدارس خاصة. لقد كانوا هم صفوة المجتمع الأبيض الجديد، وأبناؤهم كانوا زملائي في المدرسة".

أحذف السطر الأخير. إنه شخصي أكثر من اللازم، لا أريد أن يشملني هذا التاريخ. لا يمكنني الكتابة أكثر من هذا. أعد لنفسي بعض الشاي، وأتجه لأجلس على الأريكة بالقرب من النافذة. هل سأتمكن من إنهاء هذه القطعة يومًا ما؟ يبدو أنني لا أتمكن من إنهاء أي شيء. أنظر خارج النافذة مرَّة أخرى.

المنافسة، أظن أن هذه كانت المشكلة بأسرها: لم أتمكن من أن أنافس زملاء صفي على الشعبية. لم يكن لديَّ أقلام تلوين شمعية ولا حتى أقلام ملونة جيدة كفاية، ولا الثقة التي تمنحها ملكية هذه الأشياء كي نتباهى بها. خفت من أن أكون "جانين سمرز" أخرى، هدف آخر لكل الدعابات. "جانين سمرز" التي أعتاد أبوها أن يأتي ليقلها من المدرسة في شاحنة صغيرة بنية اللون والتي كانت تحدث صوتًا عاليًا وترتج طوال مدة سيرها على الطريق في سرعة مماثلة لسرعة الحلزون. "جانين سمرز" التي كانت ترتدي ملابس أخواتها الأكبر منها المهلهلة التي تعود لموضة السبعينات: اللامعة ذات الياقات الواسعة والتصميم المبهرج الكبير الملون بألوان كثيرة. "جانين سمرز" التي كانت تجلس وحدها أثناء فترة الراحة تقرأ كتابًا.

أعود مُجدَّدًا للكمبيوتر، وأكتب:

"مع ذلك، لم يكن هؤلاء الأطفال الوحيدين في المدارس الخاصة. هناك أيضًا أطفالًا كانوا هناك؛ لأن الشركات التي يعمل بها آباؤهم تكفلت بالتكاليف، وهناك أيضًا هؤلاء الأطفال الذين عانى آباؤهم ماديًّا كي يبقوهم هناك، كانوا مضطرين لأن يدفعوا تكاليف المدرسة على نفقتهم الخاصة. كان مزيجًا غريبًا؛ بعض الأطفال سافروا إلى "لندن"، و"ديزني لاند" في العُطلة، وآخرون لم يتمكنوا حتى من أن يذهبوا لزيارة شلالات "فيكتوريا". بعضهم كانوا يذهبون إلى المدرسة في سيارات "بي إم دابليو" لامعة، والبعض الآخر كانوا يذهبون في سيارات قديمة قدم سيارة جَدَّتي".

أتوقف مرَّة أخرى وأنا على وشك أن أمسح كل شيء. لماذا ذكرتها؟ أنظر على يساري إلى صورة لي ولجَدَّتي أخذناها منذ سنوات عديدة مع "شيرلي" سيارتها الزرقاء الرائعة. أقف ممسكة بباب الراكب وهو مفتوح وهي تقف على اليمين وتنظر لأسفل مبتسمة إليَّ. يمكنني أن أتخيلها وهي تقول: "هيا بنا أيتها الفتاة المرحة، لنضع هذا الشيء على الطريق".

أشعر بدموعي مُجدَّدًا وأنظر بعيدًا.

يرنُّ التليفون، وأترك المكالمة لترد عليها الآلة مرَّة أخرى. إنها "ماندي"، تحاول أن تكون مبهجة، ولكن هناك بعض الحدة في صوتها، وهي تقول:

- "إيلي"، سوف نذهب إلى "فات سام" لتناول بعض المشروبات الليلة. أعرف أنك لا تحبين المكان كثيرًا؛ ولكن التغيير سيفيدك. سنلتقي في الساعة السابعة. أرجوك يا "إيلي"، فلتأتِ.

تتنهد "ماندي" ثم تنهي المكالمة. أنا أتمادى في الأمر، أعرف ذلك. لن تكون صبورة هكذا طوال الوقت.

طفلة وحيدة. هكذا كانت جَدَّتي تصفني. أكبر من سني. أكثر جدية. كانت "ماندي" أولى صديقاتي في مدرسة "كولينجزوود"، المدرسة الخاصة التي انتقلت إليها بعد مدرسة "أتلي" الابتدائية. انضممت إليها متأخرة في السنة الدراسية، وكنت خائفة من ألا أُكوِّن أي صداقات. في وقت الراحة، كنت أجلس بمفردي أو أذهب للمكتبة لأخفي حقيقة أنني وحدي تمامًا. ظل الوضع هكذا حتى قابلت "ماندي". كنت قد نسيت قلمي في المنزل واضطررت إلى أن أقترض قلمًا من الطفل الذي كان يجلس بجواري. لم يكن هذا الأمر كارثيًا في حد ذاته، إلا أن السيدة "لوي" كان لديها سياسة صارمة تجاه نسيان الأغراض في المنزل. إذا نسى أحد شيئًا كان عليه أن يكتب جملة: "لن أنسى شيئًا مرَّة أخرى" خمسمئة مرَّة. اقترضت قلم "تيموثي"، وكنت على وشك أن أنجح في أن يمر اليوم دون أن يلاحظني أحد عندما أعلنت السيدة

"لوي" أن علينا أن نرسم صورًا كي نزخرف غرفة صف التاريخ الخاصة بنا. لم يكن لدى "تيموثي" أي أقلام ملونة، وأردت أن يكون رسمي مثيرًا للإعجاب، لذا قررت أن أطلب من أحد آخر أن يقرضني قلمه. انتظرت حتى خرجت السيدة "لوي" خارج الصف قبل أن أذهب لـ"جانيس إنجليش"، وسألتها إذا كان بإمكاني أن أقترض بعضًا من أقلام تلوينها. كان لديها مجموعة جميلة ذات خمس وعشرين قلمًا متضمنة ثلاث درجات مختلفة لكل لون. رفضت "جانيس" أن تقرضني أيًّا منها. كنت مصدومة. في "أتلي" كان الجميع يشارك أشياءه؛ لم يرفض أحد قبل ذلك. عندما سألتها لماذا ترفض، أخبرتني بأن أمها أخبرتها بألا تقرضها لأي شخص. توسلت، وتوسلت؛ ولكن ظل موقفها كما هو. كلًّا. بعض الفتيات تدخَّلن ووقفن في صف "جانيس". وسألنني أين أقلامي؟ ولماذا أردت أن أقترض أقلام "جانيس"؟

لسوء الحظ عادت السيدة "لوي" في هذه اللحظة وأرادت أن تعرف سبب هذه الضوضاء. التزم الجميع الصمت. كنت أنا الطالبة الوحيدة الواقفة لهذا كانت عينا السيدة "لوي" مُثبتتين عليَّ. سألتني وهي تعقد ذراعيها:

- "إيلي"؟

بدأ قلبي ينبض بسُرعة شديدة ونظرت إلى الأرض.

- لماذا تقفين يا "إيلي"؟

- كنت أسأل "جانيس" إن كان بإمكاني أن أقترض أقلام تلوينها.

- وأين أقلامك؟

سرت همهمة خائفة على الصف حينها، حيث إن الجميع كان يعرف ما الذي سيحدث لاحقًا. قلت:

- نسيتها في المنزل.

- ماذا؟

- أقصد، نسيتها في المنزل يا سيدة "لوي".

- وماذا يحدث عندما ننسى أغراضنا في المنزل؟

- عليَّ أن أكتب السطور.

تعالت الهمهمة مجددًا.

- ماذا تقولين؟

- عليَّ أن أكتب السطور يا سيدة "لوي".

قالت بحدة:

- خمسمئة مرَّة في الغد.

ثم التفتت لتكتب شيئًا ما على السبورة.

كان وجهي يشتعل خجلًا وأنا أعود لمقعدي. سمعت أحدًا يضحك ضحكة مكتومة وأنا أجلس؛ ولكنني أبقيت عيني على رسمي كي لا ألتقي بعين أي أحد. اكتمل الدرس وزخرفت رسمي بالقلم الرصاص وأنا أعلم بأنني سأعاقب مرَّة أخرى لعملي السيئ. كنت قد أنهيت رسمي عندما شعرت بلكزة في مرفقي فالتفت، وأنا أتوقع أن ألتقي بأعين زملائي الساخرة، ولكنها كانت علبة أقلام ملونة. نظرت لأعلى كي أرى من يقدمها إليَّ. كانت "ماندي ويتاكر"، الفتاة التي كانت تجلس خلفي. لم تقل أي شيء، وأخذت العلبة وأنا تقريبًا خائفة من أن أبتسم في حال كانت مزحة. كانت "ماندي" صديقتي الأولى في "كولينجزوود".

كرهت السباحة في المدرسة أكثر من أي شيء آخر. لم تكن هناك منافسة في منزل "ماندي"، ليس هناك حاجة لأن أسبح لمسافات، أو أن ننقسم إلى فرق التناوب؛ لم أرِد أن أحبط أحدًا. تجمعنا بعد الراحة في يوم الخميس، ثم تم تقسيمنا جميعًا لفرق، ووقفنا في حمَّام السباحة في صف واحد. اعتدت عدم تناول الطعام في أيام الخميس. بقي غدائي المجهز بعناية مغلفًا كما هو بورق مضاد للدهون، الأركان الحادة مطوية بعناية حول ساندويتش اللحم، وقطعة الموز ترقد بجانبه.

تشبَّثتُ بمنشفتي، وبداخلها ثوب السباحة مطويًّا، وقربتها من صدري، وهو اختلاف كبير بيني وبين هؤلاء الذين علقوا مناشفهم بأريحية على أعناقهم، أو نسجوا أثواب السباحة على أصابعهم. كانت السباحة نشاطًا مرحًا؛ كانت تعني أنه لا عمل، ولا اختبارات؛ ولكنني كنت أفضلهما معًا أكثر من السباحة.

لم أتمكن من الغوص، لم أتمكن من جعل جسمي يقوم بتلك الانحناءة العذبة في المياه، أفرقها بيدي، ثم أقطع من خلالها ببقية جسدي. أحيانًا كانت تمسكني السيدة "لوي" من كاحليَّ وتلقي بي في المياه برأسي أولًا؛ ولكن كل ما حققه هذا كان دخول المياه في أنفي مما تسبب في سعالي. كما أنني أصبحت أخاف من المياه أيضًا وهي تقترب من وجهي وتضربني بقسوة. إذا حاولت أن أسبح على ظهري، حسب لقتراح السيدة "لوي"، لم يكن بإمكاني أن أسبح في خط مستقيم، وكنت دائمًا أتحمل غضب شخص ما في الصف المجاور لي عندما أرتطم به.

لذلك كنت أتظاهر بأنني بإمكاني الغوص وأحاول أن أحقق أفضل ما يمكنني فعله: المياه الباردة، والمحاولات المذعورة للوصول للجانب الآخر. الضحكات على حركة معدتي صعودًا وهبوطًا بشكل واضح، السخرية البائسة من كل من يكون معي في الفريق نفسه في تقسيمة التناوب، والإحباط. أحيانًا كنت أريد أن أختبئ أو أتمنى بأن أكون مريضة فعليًّا. في أحيان أخرى كنت أتمنى لو غرقت، كان هذا سيكون في مصلحتهم جميعًا. تخيلتهم جميعًا في جنازتي: صفوف من الأطفال الكئيبين، يتمنون لو أنهم لم يضحكوا أو يتهكموا أو يتذمروا، بينما أشق أنا طريقي لاهثة عبر حمَّام السباحة. كانت كل الأعين مسلطة على السيدة "لوي"، التي كانت لتجلس، ناظرَة للأسفل، خجلة ومنبوذة في مقعد خلفي في الكنيسة.

على مدار مرحلة طفولتي، كان لديَّ حلم متكرر. كنت فيه أبحر في نهر "الزامبيزي" في قارب.. بمفردي وسرعة القارب تزيد أكثر فأكثر. ثم أدرك فجأة بأنني أقترب من حافة شلالات "فيكتوريا" وأبدأ بالفزع. في كل مرَّة أقترب كفاية

من أن أرى المياه الثائرة في الأسفل والتي تبدو وكأنها تغلي، وفي اللحظة التي أشعر فيها بسحب القارب للأسفل، كنت أستيقظ. لستُ متأكدة لماذا راودني هذا الحلم. لم أذهب من قبل لشلالات "فيكتوريا"؛ لكن في الطريق إلى المكتبة في المدرسة كان هناك مجموعة صور للشلالات من تصوير رجل يُدعى "توماس بينز" معلقة على الحائط. كانت هناك صورتان أتذكرهما على الأخص. في واحدة منهما، يجلس "توماس بينز" في قارب مع رجل أسود يمسك الدفة. يبدو فيها غير مرتاح في ملابس السفاري، وقلقًا على سلامة أغراضه. بدا وكأنه سيغرق، كانت ملابسه ثقيلة بسبب المياه الداكنة الطينية. أمَّا الرجل الآخر، الذي كان يلف قطعة قماش حول خصره وعُقد على رقبته، فقد كان سيطفو، لا، كان سيسبح. ذراعاه القويتان ستأخذانه للشاطئ.

الصورة الأخرى بها قطيع من الجاموس يقوده الراعي باتجاه أحد الشلالات. لا يمكنني أن أنسى الرعب في أعينهم. ليس لديهم فرصة في العودة؛ لا يمكنهم أن يقاوموا مصيرهم.

(8)

اعتدتُ دائمًا أن أفكِّر في أنني لو مُت، فسيدفنوني تحت الأرض. سوف تكون هناك ديدان. كانت ستزحف خارجة إلى الشمس؛ ولكن ماذا عني؟ ماذا لو أنني لم أكن ميتة فعليًّا؟ كنت أرقد في حوض الاستحمام وأبكي. ارتعشت كتفاي، وارتعش جسدي كله في ألم. "اتركني لأعيش للأبد يا رب. لا تسمح لأبي وأُمِّي بأن يموتا. أو على الأقل اتركنا لنعيش لألف عام".

من أعماق السواد الذي ملأني وبقي مثل الضباب الثقيل، تكلَّم صوت ما وأخذ يتوعدني. إنه يعرف شيئًا لا أعرفه. كان منخفضًا وجادًا، ومليئًا بالمعرفة، وأيضًا حزينًا ويائسًا. كانت روحًا متعبة، تلك التي تكلمت وذكرتني بحركات جَدِّي المستسلمة وهو يرفع جسده من على كرسيه في البلكونة ويمشى متثاقلًا في اتجاه سريره وهو ثمل ليلًا. كانت أغنية انهزامية، تلك التي غنتها الروح، ترثي أملًا مُنتهيًا، عن تفاؤل مضى. لكنها امتدت عبر الغرفة باتجاهي وأضفت علي ببعض الدفء؛ لكني أحسست بيدين عجوزتين وغليظتين على كتفي، وبهمس بالقرب منِّي قائلًا: "ستعيشين لألف عام". ثم ينسحب لمؤخرة ذهني ويختفي في اللا شيء.

ذهبت لمنزل "جانين" ذات يوم. تناولنا لحمًا مفرومًا على خبز التوست على الغداء، وعندما أخبرت جَدَّتي، تجهمت، وقالت:

- يا للأسف، إنهم "أفريكانيون".

هززتُ رأسي وشعرت بالأسف من أجلهم، وكأنهم مصابون بمرضٍ مروعٍ ليس له علاج.

كانت لديهم غرفتا معيشة؛ واحدة للاستعمال اليومي، حيث وضعوا فيها التليفزيون، أمَّا الأخرى فلم يكن مسموحًا لنا بدخولها، على الرغم من أن "جانين" فتحت لي الباب قليلًا حتى أتمكن من أن ألقي نظرة عمَّا بداخلها. كان فيها صالون أحمر قطيفة بمسند وذراعين مزخرفين بالكروشيه، وترابيزة قهوة بنية اللون في منتصفها، وفازة بها ورد بلاستيكي أبيض وأحمر. وعلى البوفيه، رأيتُ رأسًا للمسيح مصنوعة من الجص بشعره البني الطويل وعينيه الزرقاوين. بدا وكأنه يحدق فيَّ معاتبًا إيَّاي على اختلاسي النظر داخل الغرفة. أغلقت الباب أقفز للخلف. لقد ذكرتني برأس "يوحنا المعمدان" على الطبق الذي أُرسل لـ"هيرودس". كنت سعيدة بأننا لم نمتلك واحدًا مثله في المنزل.

المرَّة الوحيدة التالية التي ذهبت فيها لمنزل "جانين" كان وقت جنازة جَدَّتها عندما كنت في حوالي الثالثة عشرة. ذهبت أنا و"ماندي". أخذتنا أُمِّي وكانت مرتدية الأسود: فستانًا أسود، ومعطفًا أسود وحذاءً أسود لامعًا. لم يكن لدينا أي ملابس سوداء أنا و"ماندي"، لذا فقد ارتدينا زي المدرسة، على الرغم من أنه كان يوم السبت، وظل الجميع يسألنا عمَّا إذا كنا على علمٍ بأنه يوم السبت. كانت أُمِّي الوحيدة التي ترتدي الأسود، وبدت حزينة أكثر من أي شخص هناك، على الرغم من أنها قابلت جَدَّة "جانين" صدفة، ومرَّة واحدة لمدة خمس دقائق أثناء تسوقها في "هادسون وسلاي". لم يجد أحد ما يقوله حينها باستثناء "مرحبًا"، و"هذه هي جَدَّتي"، و"ألم يزد سعر اللحم؟"، ثم ابتسمنا جميعًا لبعضنا البعض، وقلنا إلى اللقاء.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي أدخل فيها إلى الصالون الآخر. أخلوا البوفيه ووضعوا فوقه التابوت المفتوح. رقدت جَدَّة "جانين" بداخله، هادئة ومسالمة، عيناها مغمضتان، وذراعاها متقاطعتان على صدرها. كان تمثال المسيح قد وُضع جانبًا؛

ولكن ظلت عيناه تراقبانني وأنا أمرُّ بجانب التـابوت. فكَّـرت في أن الـدعاء الآن سـيكون مناسبًا: "يا رب، أرجوك اعتنِ بالسيدة "بيستر" واجعلها آمنة". بعد ذلك، فكَّرت بأن الجزء الأخير كان سخيفًا بعض الشيء، لأنها لم تكن لتكون أكثر أمانًا من كونها ميتة.

كانت جنازتها هي الجنازة الوحيدة التي ذهبت إليها. لم تكـن حافلـة بالأحـداث، باستثناء عندما ألقى أحد أقارب "جانين" الأكبر سنًّا بنفسه على التابوت وهو يصيح:

- "أوما"، "أوما"، خذيني معك.

مما جعل والـد "جـانين" يبعـده عـن التـابوت قبـل أن تضربـه أُمُّـه ضربـة خفيفة على أذنه.

بعد ذلك، أخبرت جَدَّتي عن الأمر فقالت لي:

- أنا لا أذهب للجنازات.

مُنهية الحديث بهذه الكلمات. ربما كانـت تـخشى المـوت. أردت أن أخبرهـا بأنني كنت فزعة من أن أذهـب إلى الجنـازة، فزعـة مـن رؤيـة الجثـة الراقـدة والجميع يبكون. لكن عندما كنت هنـاك فعليًا، لم أكـن خائفـة لهـذا الحـد. لم أخبرها على كل حال. علمت بأن الموضوع قد انتهى.

أفكِّر أحيانًا بأنه عندما تموت، فأنت ستعرف إجابة كـل شيء فجـأة. مثـل مـن الذي بنى الأهرامات؟ ومن الذي قتل "كينيدي"؟ ما إذا كان المريخ مأهولًا بالسكان أم لا، ومتى سينتهي العالم؟ هل يصبح كل شيء واضحًا، كل أخطائـك، وكـل الأشـياء التي كان من المفترض أن تفعلها؟ هل تشاهد فيلمًا عن حياتك وتقول: "آه، إذًا هذا هو ما حدث بالفعل.. " و"لطالما تساءلت أيـن ذهـب هـذا!". أم أنـه لا يوجـد أي شيء؟ فراغ لا نهائي، شاشة بيضاء تعلن بضجة عالية النبرة: "نهاية الإرسال".

(9)

المرَّة الأخيرة التي رأيتُ فيها "مايلز تريفيليان" كانت في مطار "هاراري" بعد وفاة جَدَّتي. كان رجلًا مُحطَّمًا، في طريقه ليعيش في "إنجلترا" التي لم تطأها قدماه من قبل أبدًا، كي يخفي قلبه المُحطَّم. أعتقد أنه كان ذاهبًا ليبدأ حياة جديدة، إلا أنه في الحقيقة كان ذاهبًا ليموت. ليس هناك شيء بإمكانه تهدئة قلب مكسور ولا حتى خواء "إنجلترا" البارد، أعرف هذا شخصيًّا. أخذ يدي في يده، وقال:

- لقد رأينا أفضل الأوقات يا "إيلي"، أفضل الأوقات.

فكَّرتُ حينها أنه ربما كان هذا حقيقيًّا؛ لكنني أعرف الآن بأن "مايلز" كان مُخطئًا.

عندما أنظر لحياتي السابقة، يمكنني أن أربط جزءًا صغير فقط بالـ"أوقات الجيدة". في "زيمبابوي"، عرفنا القليل جدًّا من السلام والأمان؛ لم نعرف الاستقرار قط. لطالما عشنا في ظل الماضي؛ لطالما عشنا في خوف، والخوف شيء غريب: يظل بجانبك لمدة طويلة، يبقى ساكنًا في أوقات؛ ولكنه حي طوال الوقت، في انتظار أن يتملَّكك مجددًا.

كان "مايلز" يمتلك مزرعة على بعد حوالي خمس وعشرين كيلو مترًا من "بولاوايو". حسنًا، لم تكن مزرعة حقيقية، وإنما كانت قطعة أرض صغيرة. لم يزرع أي شيء فيها باستثناء بعض صفوف الطماطم والذرة. كانت معظم الأرض جافة، جامدة وغير خصبة. رعى العامل المحلي المسئول عنها بعض

الأبقار فيها؛ ولكنها كانت نحيفة، حيوانات عظمية تتجوَّل بـلا هـدف في الأرض. حقًّا، لم يكن هناك أي داعٍ لإطلاق عليها اسم مزرعة.

عندما كانت جَدَّتي و"مايلز" يتقابلان لمدة شهر، اقترح عليهـا أن تـزور معـه المزرعة. كانا سيرحلان يوم السبت بعد الظهر، يقضيان الليلة هناك ثم يعودا في صباح اليوم التالي. تحمَّست جَدَّتي، ليس لأنهـا سـتذهب للمزرعـة؛ ولكـن لأنهـا اعتبرت اقتراحه هذا بمثابة تطوُّرٍ في علاقتهما. حتى تلك اللحظـة، كانـا يتقـابلان فقط في النادي البحري لتناول المشروبات، ولم يكونا بمفردهما على الإطلاق. كان الناس يأتون ويتجاذبون أطراف الحديث، لـيس مـع جَـدَّتي في أغلـب الوقـت - لأنها كانت لا تزال جديدة في النادي - ولكن مـع "مـايلز". كـان "مـايلز" يلعـب رمي السهام، وكانت جَدَّتي تشاهده وتبتسم له بين الحين والآخر وهـي تحـتسي الجين مع الصودا. كانت هذه فرصة لهما كي يكونا وحدهما.

مع ذلك، لم يكن الأمر مفاجئًا أن تسأل جَدَّتي "مايلز" إذا كان بإمكاني أن آتي أنا أيضًـا معهما. في الواقع، هي لم تسأله؛ بل كانت تخبره بـأنني آتيـة في هـذه الرحلـة. كـان مـن الواضح أنه منزعج بسببي، ولا يمكنني أن أقول إنني كنت سعيدة بـالموقف ككـل. كـان الأمر سيئًا بما يكفي أن أمضي فترة الظهيرة مع "مايلز تريفيليان" في النادي البحري، حيث إننا على الأقل لم نكن بمفردنا، فماذا عن يوم كامل في مزرعته، منطقة ملـك لـه بالكامـل؛ ولكنني مع ذلك شعرتُ بأنني مسؤولة عن حماية جَدَّتي، وجاءتني فكرة أنه قـد يقتلهـا ويترك جثتها في مكان ما بين الأشجار لتتعفن. أعتقد أننـي كنـت فضـولية أيضًـا، وهنـاك جـزء شريـر بـداخلي أراد رؤيـة هـذه المزرعـة المزعومـة كي أهـزأ بهـا. كنـت أريـد كـل المعلومات التي يمكن الحصول عليها لأستعد جيدًا لمهاجمته.

كان التجهيز للرحلة هو المشكلة الكبرى. فبعد النهاية الكارثية لرحلتـي الأولى إلى النادي البحـري، كانـت جَـدَّتي حريصـة للغايـة عـلى ألا تضـايق أُمِّـي مجـددًا، وحرصـت دائمًـا عـلى إرجـاعي إلى المنـزل في الموعـد المحـدد. لم تكـن هنـاك أي

فرصة على موافقة أُمِّي على ذهابي إلى مزرعة "مايلز" لليلة في ذلك الوقت خوفًا من نشاطات المنشقين. لحسن حظ جَدَّتي، كان على أبي وأُمِّي وجَدِّي أن يذهبوا لحفل زفاف في "هاراري" في عطلة نهاية الأسبوع وتركوني معها. لو كانت أُمِّي تعلم بخطة الذهاب للمزرعة، لأخذتني معها إلى حفل الزفاف بكل تأكيد.

أتذكَّر أن الجو كان حارًّا بشدة يومها لدرجة أن ظهري التصق بمقعد السيارة بفعل العرق في طريقنا إلى المزرعة. كنا في سيارة جَدَّتي، حيث إن "مايلز" لم يكن يحب أن يأخذ سيارته في الرحلات الطويلة. أخبرنا "مايلز" أن السيارة ارتفعت حرارتها أكثر من اللازم، على الرغم من أنني كنت متأكدة من أنه لا يريد أن يدفع ثمن البنزين. كان في سيارة جَدَّتي مقعد واحد طويل في المقدمة من الممكن أن يجلس عليه ثلاثة أشخاص دون أن يشعروا بالتكدس. عندما كنا أنا وأُمِّي وجَدَّتي معًا، كنا نجلس جميعنا في المقدمة. كان الأمر مرحًا حينئذٍ؛ لكن عندما اقترحت جَدَّتي الأمر هذه المرَّة، تجهَّمتُ بيني وبين نفسي. كما فعل "مايلز" أيضًا، حسب ظني. قلت إنني لا اظن أن الأمر سيكون آمنًا. قال أبي ذلك، مضيفًا أن هذا هو سبب وجود كرسيين منفصلين في كل السيارات الحديثة في المقدمة. أخبرتني جَدَّتي بألا أقلق؛ لطالما فعلنا ذلك، هي وأُمِّي وأنا؛ ولكنني رفضت مُجدَّدًا وصممت على موقفي. فقالت جَدَّتي في استسلام:

- حسنًا.

وفتحت لي الباب وهي تغمز لي بعينيها، ثم أكملت حديثها لـ"مايلز"، وكأنني لم يعد بإمكاني سماعها بما أنني الآن جالسة في الخلف:

- يا لها من طفلة غريبة. في لحظة تشتكي من شيء ما، وفي اللحظة التالية تشتكي من شيء مختلف تمامًا. إنها لا تريدني أن أكسر **القواعد** الآن!

التفت "مايلز" ناحيتي نصف التفاتة وهو مبتسم:

- حسنًا، علينا أن نلتزم بالقواعد الآن يا "إيلي"، أليس كذلك؟

لم أرد، وشعرت بموجة غضب مفاجئة تجاه جَدَّتي وقتها. لماذا أرادت منِّي الذهاب معها لتلك المزرعة الغبية على كل حال؟ لماذا كان عليَّ أن أذهب معها إلى أي مكان ذهبت إليه مع "مايلز"؟ ألا يمكنها أن تفعل **أي شيء** بمفردها؟ ترقرقت الدموع في عيني ووضعت ذراعًا فوق الآخر أمام صدري بتحدٍّ ونظرت خارج النافذة.

عندما وصلنا إلى المزرعة أخيرًا ونزلنا من السيارة، نظرت إلى المنازل الخارجية والأرض في فزع، ليس لأنني توقعت شيئًا أفضل؛ لكن لأنه كان عليَّ أن أقضي يومًا كاملًا في هذا المكان. لم يكن موسم الأمطار قد بدأ بعد، لذلك فقد كانت الأرض جرداء، وبنية، وترابية. صعدت الحرارة في أمواج من الأرض، وكانت السماء مثل قاع شعلة ساخنة وبيضاء؛ انطفأت الزرقة منها تمامًا. ذهبنا إلى منزل المزرعة أوَّلًا وأحضر لنا "مايلز" مياهًا خرجت من الصنبور مندفعة وبها بعض الأتربة. كانت ساخنة أيضًا. أمَّا غرف المنزل فبالكاد كانت مُؤثَّثة وفاحت منها تلك الرائحة التي تُميِّز المنازل الخاوية. في الصالة بعض الكراسي البنية القديمة وطاولتان قديمتان. لم يتماشَ الأثاث مع بعضه، والستائر كانت أقصر من النوافذ. رأيت على أحد الأرفف بعض الكتب ودليل تليفونات انتهت صلاحيته منذ ثلاث سنوات، وغطاؤه عليه بُقع قهوة دائرية إثر الفناجين التي كانت توضع عليه، ورأيت كذلك جناح نملة طائرة ملتصق بدوائر القهوة تلك. من المرجح أنها علقت هناك عندما كانت القهوة لا تزال لزجة ولم تجف بعد. أتخيَّل النملة وهي تلتصق وتحاول في يأس أن تطير بعيدًا، لدرجة أنها تركت أحد جناحيها خلفها. فكَّرتُ أنه لم يكن بإمكانها أن تذهب بعيدًا جدًّا. لم يبدُ لي أن هناك مصيرًا أسوأ من الموت هناك.

لم يكن هناك تليفون، وقال "مايلز" إن هناك راديو في مكان ما؛ ولكنه لم يكن يعلم إذا كان يعمل أم لا. ذهبنا إلى الخارج في الشمس، وأرانا "مايلز" المباني المتعددة في الجوار، والتي لا تختلف كثيرًا عن المنزل الرئيسي. احتفظ أحدهم

ببعض الماشية والخنازير؛ ولكن بقيت الزرائب غير مستخدمة، وفي حاجة للإصلاح. أخبر "مايلز" جَدَّتي أنه ورث هذه المزرعة عن إحدى خالاته. كانت امرأة رائدة، وقد جاءت إلى "زيمبابوي" في عربة تجرُّها الثيران. لم يكن لديه أدنى فكرة عما يجب عليه فعله بالمكان ولا يملك النقود الكافية لكي يجعله عملًا قابلًا للنمو.

أراد "مايلز" أن يأخذنا إلى الحقول، أو ما تبقَّى منها؛ عطشى وجرداء كما كانت؛ ولكنني شعرت بالحر، وبدأت أشعر ببعض الألم في أحد جانبي رأسي. ذهب هو وجَدَّتي وحدهما، وكانت هي تغمض عينيها نصف إغماضة وتحميهما بيدها من الشمس، و"مايلز" كان ينزل قبَّعته أكثر على رأسه. نظرت حولي باحثة عن شيء أفعله.

على يمين المنزل، كانت هناك مساكن الخدم، وهي مجموعة مهلهلة من الغرف التي كانت ذات يوم بيضاء، وعلى نوافذها وُضعت ستائر غير مناسبة ومتسخة وحول أبوابها نقرات تسبب فيها الدجاج. يرقد كلب أجرب في ظل شجرة البابايا الرفيع وطفلان يلعبان في المناطق الواقعة بين الغرف وحديقة خضراوات صغيرة. وبينما أتمشى بينها، شممت رائحة طهي الـ"سادزا"، وسمعت صوت تقطيع آتٍ من خلف الباب الأول.

نظر طفلان، فتى وفتاة، لأعلى تجاهي وأنا أقترب منهما وحدَّقا فيَّ بمزيج غريب من الاهتمام والخوف اللذين ينظر بهما الأطفال للأشخاص الجدد، خصوصًا ذوي الأعراق المختلفة. حيَّيتهم قائلةً:

- مرحبًا.

ولكنهما التفتا في خجل وهما يبتسمان لبعضهما. أطلَّ رأس ما من داخل الغرفة ونظر إليَّ في شك. فقلت مرَّة أخرى مخاطبة من تبدو وكأنها أم الطفلين:

- مرحبًا.

لم تقل شيئًا هي الأخرى، وبعد أن حدَّقت فيَّ لبعض الثواني، اختفت مرَّة أخرى داخل الغرفة. نظرت بالداخل، كان على الأرضية قِدرًا من وجبة الـ"سادزا" مطهوة لتوِّها، وكان بجانبها كومة كرنب أبيض مقطع قطعًا صغيرة. كانت عينا المرأة مثبتتين عليّ، وفيهما رأيت شعورها الدفاعي ضدي. نظرت مُجدَّدًا تجاه الطفلين اللذين ضحكا لأنفسهما مرَّة أخرى، وهمسا بشيء ما لبعضهما. كانت ملابسهما عبارة عن أسمال بالية، وبشرتهما البنية كانت رمادية مختلطة بالتراب.

أمسكت الفتاة بحجر ورسمت سبعة مربعات على الأرض، منها اثنان ملتصقان ببعضهما، وواحد أعلاهما، واثنان ملتصقان فوقه بجانب بعضهما، واثنان آخران منفصلان فوقهما: لعبة "الحجلة". ظلت تنظر إليَّ وهي ترسمها، وفي النهاية أعطتني الحجر. ألقيتُ به على المربع الأخير وقفزت، على ساق واحدة، ثم الاثنتين، حتى أصل إليه. ضحك الطفلان بصوت عالٍ، وبدا أنهما يجدان الأمر كله مرحًا للغاية. اعتقدت أنني أمارس اللعبة بشكل خاطئ، لذا أعدت الحجر للطفلة مرَّة أخرى؛ لكنها ضحكت، وقالت شيئًا ما لأخيها، الذي ضحك بدوره. ألقت الفتاة بالحجر في المربع الأول، ثم قفزت. لعب أخوها بعدها، ثم أعطياني الحجر مجددًا. هذه المرَّة لعبت بشكل صحيح.

مرَّت فترة الظهيرة بسُرعة مفاجئة، بما أنني اعتدت على بُطئها دائمًا عندما أكون في مكان لم أرد أن أكون فيه. تفاجأت عندما رأيت جَدَّتي و"مايلز" يسيران وسط الحقول. كانا يمسكان يدي بعضهما. ساعد "مايلز" جَدَّتي، حيث بدت مقطوعة الأنفاس. شعرت بالإحراج من هذا التعبير الظاهر عن العاطفة والتفت بعيدًا.

كانت جَدَّتي تحمل شيئًا ما في يدها اليسرى بدا لي في البداية كوردة؛ ولكن عندما اقتربت رأيت أنها حفنة من أوراق الشجر. سألتها وأنا أحاول أن أتجنَّب عيني "مايلز"، وأتجاهل حقيقة أنه كان يمسك بيد جَدَّتي:

- ما هذا يا جَدَّتي؟

- هذا ما أريد معرفته.

وفتحت يدها لتُريني أوراق شجر خضراء داكنة، وأضافت:

- يقول "مايلز" إن الأفارقة يستخدمونها في إعداد نوع ما من الشاي، أريد أن أعرف كيف.

في ذلك الحين، أطلق "مايلز" صافرة ناحية المنازل ونادى:

- "رايموند"، تعالَ هنا.

لم يحدث شيء، ولم يظهر أحد. ركض الطفلان خلف المنازل، وتناوبا النظر من الجانب تجاهنا. نادى "مايلز" مجددًا:

- "رايموند"، "رايموند"، تعالَ هنا يا رجل.

انفتح الباب، وخرج رجل وهو يرتدي ملابسه. بدا وكأنه كان نائمًا.

- نعم يا سيدي، متأسف جدًّا.

أتى الرجل تجاهنا مبتسمًا في خجل وهو يضم كفيه أمامه. سأله "مايلز":

- هل أنت نائم حتى الآن يا "رايموند"؟

رد "رايموند" ضاحكًا:

- آه، إن الجو حارٌّ للغاية يا سيدي.

- بل تقصد أنك شربت كثيرًا من بيرة الـ"تشيبوكو".

ضحك "رايموند" بصوت أعلى، وقال:

- كلَّا يا سيدي.

نظر له "مايلز" نظرة تقول إنه يعرف ما يتحدث عنه، ثم أشاح بنظره بعيدًا. سألته جَدَّتي:

- ما هذه الأوراق يا "رايموند"؟

نظر إليها "رايموند"، ثم نادى على زوجته التي ظهرت مرَّة أخرى على باب الغرفة الأولى، صرخت تقول شيئًا ما، وأومأ لها "رايموند"، ثم قال:

- عليك أن تغلي الأوراق في المياه، ثم تشربيه.

وضم يديه مثل الكأس على فمه أثناء حديثه كأنه ممسك بفنجان شاي. سألته جَدَّتي:

- أهو مثل الشاي؟

- أجل، مثل الشاي.

- هل هو مشروب مفيد؟

بدا "رايموند" مشوَّشًا لبعض الوقت، فسألته جَدَّتي مجددًا:

- إنه ليس مسمومًا، أليس كذلك يا "رايموند"؟

ضحك "رايموند" قائلًا:

- لا يا سيدتي، إنه ليس مسمومًا.

قال شيئًا ما مرَّة أخرى لزوجته، فاقتربت وقالت له شيئًا بلغة "نديبيلي"، وفركت معدتها وهي تتحدث. فقال "رايموند":

- تقول زوجتي إنه جيد أيضًا من أجل ألم المعدة.

فركت زوجته رأسها أيضًا. فقال:

- وتقول إنه مفيد أيضًا للصداع.

أومأت جَدَّتي برأسها وهي تُفكِّر، وقالت وهي مبتسمة:

- هذا مثير للاهتمام. عليَّ أن أجرِّب بعضًا منه، أشعر بالصداع قليلًا في هذه اللحظة.

ربتت على رأسها وهي تقول لـ"رايموند":

- الكثير من الشمس.

في وقت متأخر من الظهيرة، جلسنا في الظل في البلكون وشربنا الشاي. كان طعمه غريبًا بسبب المياه وحقيقة أنه مصنوع من اللبن منزوع الدسم. لعبت جَدَّتي "لعبة الصبر"، وجلستُ أشاهدها، وكنت أشير لأي أوراق كانت تغفل عنها. كان "مايلز" يقرأ كتابًا على غلافه صورة لامرأة نصف عارية معها مسدس في رباط جوربها حول فخذها. كان أبي يقول إن أي كتاب عليه نساء نصف عاريات على غلافه هو كتاب قذر. وكان يطلق على مثل هذه الفتاة لقب فتيات تافهة.

في بداية المساء، أحضر "مايلز" زجاجتي بيرة من أجله هو وجَدَّتي، وبعض عصير الليمون كي تخلطه جَدَّتي في زجاجتها. قالت جَدَّتي إنه عند خلط البيرة بعصير الليمون يصبح اسمها "شاندي". كان لدى "ماندي" كلب اسمه "شاندي" لأنه كان هجينًا، سلالة مختلطة. وكان كلبًا ضخمًا، ويبدو مرعبًا تمامًا إذا قابلته عند البوَّابة. وقتما كان أبي يأتي ليأخذني من بيت "ماندي" عندما كنت ألعب هناك، كان يتجاذب أطراف الحديث مع السيد "ويتاكر" لبعض الوقت، وكان الكلب يقفز باستمرار عند البوَّابة محاولًا أن يصل إلى يد أبي، وكان السيد "ويتاكر" ينهره قائلًا:

- انزل أيها الهجين.

كان يطلق عليه هذا الاسم طوال الوقت بدلًا من "شاندي"؛ لكن أبي كان يقول دائمًا إن الكلاب الهجينة هي الأفضل: فهي بالكاد تمرض، وهي كلاب حراسة جيدة.

أعطاني "مايلز" زجاجة فانتا، لم يعد يزعج نفسه ويسألني عمَّا أريد أن أشربه. كانت السماء في تلك الليلة زرقاء ساكنة، وكان هناك بعض النجوم المبكرة، كأنها لم تتمكن من انتظار البقية. لو كنت مع جَدِّي وقتها لقال لي: "أين يمكنني أن أجد كوكبة "الصليب الجنوبي"، وكل الأبراج الأخرى"؛ أشك أن "مايلز" كان ينظر حتى للأعلى تجاه السماء. ظهر القمر مستديرًا وذهبيًّا. كان الجو لا يزال دافئًا لدرجة أنه بدا كأنه شمس ثانية. أعدت جَدَّتي عشاءً بسيطًا من الساندويتشات في خبز فرنسي وتبعها بعض الفواكه، حيث أكلناها

في الداخل أيضًا على الرغم من وجـود النـاموس الـذي كـان يـزنُّ حولنـا. بـدأت موجة رياح قبل أن أذهب للنوم مباشرة وازدحمـت بعـض السـحب القليلـة في السماء، حيث أخفت النجوم. كنت سأنام أنا وجَدَّتي في الغرفة نفسـها؛ ولكننـي سبقتها في النوم. كان السرير جامدًا، ورائحته بالية وقديمة. خفت مـن أن أمـدد ساقي أسفل الغطاء، لذا رقدتُ مُتكوِّرة على نفسي. طرقت الرياح على النافـذة، وتسببت في قعقعة وصرير الناموسية، ورفعت السـتائر بـين الحـين والآخـر، ثـم تركتها تنسدل مُجدَّدًا على زجاج النافذة.

بدأتُ أشعر بالخوف، ودارت في بالي كل القصص التي سمعتها عن المنشقين. فكَّـرت، ماذا لو جاؤوا هنا؟ من سيجد أجسادنا؟ بدأت أفكر في خطة لـلهرب. كنت سأختبئ تحت السرير، تخيلت نفسي راقدة في الأسفل وأنـا أسـمع خطـوات أقـدام في الصـالة. رأيـت، في ذهني، باب الغرفة يُفتح، وشعاع الضـوء يـدخل، ورأيـت أحذيـة المنشـقين وهـي تـدخل الغرفة، وسمعتهم يتحدثون بهمسات غير مفهومة وهم يبحثون عنِّي. ولكن السرير كـان أوضح من اللازم. أخبرتني "ماندي" بأنه كان أوَّل مكان خطر ببالها وهي تبحث عن أخيهـا الصغير عندما اختبأ منها. كان هناك دولاب في أحد جدران الغرفـة. كنـت سـأختبئ أعـلاه وأغطي نفسي ببطانية. أكانوا سيبحثون داخله؟ أكـانوا سـيخرجون كـل شيء ويجـدونني؟ تسارعت نبضات قلبي وشددت الغطاء على رأسي، عـلى الـرغم مـن أن الجـو كـان حـارًّا، وكنت أشعر بالعرق يرطب مؤخرة عنقي.

من المرجح أنني نمت، لأنني عندما فتحت عيني مُجدَّدًا كانـت جَـدَّتي تخطـو بهدوء شديد داخل الغرفة. كانت قد بدلت ملابسها وارتدت ثوب النوم، ورقـدت فوق الغطاء. كانت الرياح تضرب بقوة أكبر فنهضت جَدَّتي لتغلق إحدى النوافـذ. كان الهواء يحمل رائحة المطر والتراب. شعرتُ بالارتياح، فنمت مرَّة أخرى.

استيقظت مع بدء سقوط قطرات الأمطار على السـقف الصـفيحي. كانـت النافـذة الأخرى لا تزال مفتوحة، وقد أغلقتهـا الريـاح بقـوة شـديد. ارتفعـت السـتائر للأعـلى في

جنـون، وانـدفعت إلى داخـل الغرفـة مثـل أشرعـة السـفن. نهضـت كي أغلـق النافـذة واستدرت ناظرة إلى سرير جَدَّتي، فوجدته فارغًا. تسارعت دقات قلبي، واقتربت من السرير وأنا أتحسَّس طريقي. لم تكن هناك بالتأكيـد. عـادت أفكـاري حـول المنشقين من جديد، وتملَّكني الرعب مرَّة أخرى. سرتُ على أطـراف أصـابعي إلى الممر، أثناء كـل هـذا كانـت الريـاح تعصـف وتضرب في الخـارج، وكـان الضـوء يتراقص على الحائط. منعني الخوف من أن أرى ما إذا كانـت الكهربـاء لا تـزال تعمل في حالة؛ لكنني خفت من أن أجذب انتباهًـا غـير مرغـوب فيـه. اتجهـت للصالة، وأنا أتوقع أن أرى جثَّتي جَدَّتي و"مايلز" مُلقتين عـلى الأرض، ومُمتلئتـين بالطلقات؛ لكن لم يكن هناك أي أحد. لم يكن هنـاك أي أحـد في المطـبخ أيضًـا، بينما أعبر بجانب البلكون، لاحظت أن الباب مفتوحًا بعـض الشيء. بيـنما أضـع يدي لأغلقه، ضرب الـبرق للحظـة، مـا جعلنـي أرى جسـدًا في الخـارج. انقـبض صدري في خوف ونظرت مجددًا، كانت جَدَّتي.

كانت تجلـس مرتديـة ثـوب النـوم، ومسـتندة عـلى أحـد أعمـدة البلكـون الخشبية. بدت مستغرقة في أفكارها. كانت تلقي رأسـها عـلى أحـد الجـانبين. لم تكن خائفة من العاصفة مُطلقًا، ويبـدو أنهـا لم تجفـل مـن الضوضـاء أو الـبرق المفاجئ الذي يقطع السماء بين الحين والآخر. لكنها قفزت على الرغم من ذلـك عندما اقتربت من ذراعها، ووضعت يدها على صدرها، وقالت:

- "إيلي"، يا إلهي، لقد أفزعتني. لماذا أنت مستيقظة؟

- لقد أيقظتني العاصفة. لماذا أنت هنا يا جَدَّتي؟

- لم أتمكن من النوم، لم أشعر بالراحة.

- ألستِ خائفة من العاصفة؟

- العاصفة؟

قالتها وكأنها لاحظتها لتوِّها، ثم أضافت:

- كلَّا، أنا أحب العواصف. إنها تجعلني أشعر بأنني.. بأنني على قيد الحياة.

نظرت إليَّ لثانية، ثم فجأة أمسكت يديَّ بيديها، وبدأت تؤدي رقصة ما وهي تُديرني، فبدأت أضحك. سألتها من بين ضحكاتي:

- ما هذا؟ ماذا تفعلين يا جَدَّتي؟

ولكن كل ما فعلته هو أن أدارتني بسُرعة أكبر. كانت وقتها تضحك بصوت عالٍ، وتغني أيضًا.

- "عندما أحب، فسيكون هذا من كل قلبي، أو لن أحب مُطلقًا".

كانت الأمطار تنهمر على السقف، وكان بإمكاني أن أشعر بالأرضية من تحت قدميَّ باردة ومبللة. ثم جرت جَدَّتي تحت الأمطار وجذبتني معها من يدي وهي تجري. غنَّينا بصوتٍ عالٍ:

- "عندما أقع في الحب فسيكون ذلك للأبد".

لم أكن خائفة، لا من الرعد، ولا البرق، ولا الأمطار، ولا حتى المنشقين. كنت سعيدة، وكانت هي أيضًا سعيدة. ظللنا نرقص، وكنا مُبلَّلتين بالكامل، وأرجلنا مُغطَّاة بالوحل؛ لكنني شعرت في تلك الليلة بأنني عصفور أُطلق سراحه ليُحلِّق عاليًا فوق العاصفة والأمطار، فوق المنزل وفوق الأرض، فوق كل العالم الأليم والمفطور. كنت أشعر بأن روحي قد أُطلق سراحها.

عندما توقفنا عن الرقص في النهاية وتوقف العالم عن الالتفاف، ونحن في طريقنا إلى الداخل. في ظلام البلكون، رأيت وهج سيجارة أحمرَ، وتحرك جسد ما. كان "مايلز". لم يقل أي شيء؛ لكن عينيَّ قابلت عينيه في انتصار.

عندما انتهت العاصفة، أعطتني جَدَّتي حمَّامًا. كانت المياه بنية اللون؛ لكنها كانت ساخنة، وعندما خرجت من حوض الاستحمام الكبير القديم الأبيض، لفَّتني جَدَّتي بمنشفة كبيرة، وجفَّفت شعري. بينما كانت الكهرباء مقطوعة، أعدت جَدَّتي الشاي على موقد غاز صغير وخلدت للنوم بعد شربي له على الفور. هذه المرَّة، لم يكن بإمكان أي شيء أن يُبقيني مستيقظة، وخصوصًا الخوف.

(10)

أخلت العاصفة السماء من السحب وأراحتنا لفترة قصيرة من حدة الحرارة الجافة؛ لكنها لم تبدِّد أي سحب من حياتنا. في الصباح، كانت جَدَّتي هادئة ومنعزلة. كان وجهها رماديًّا مثل السماء. أمضيت الصباح جالسةً على سلالم البلكون. لعبت "الحجلة" وحدي لحوالي عشر دقائق، حتى سمعت صراخًا. تسمَّرت في مكاني، كان الصوت يأتي من الداخل، من غرفة "مايلز". تسلَّلت أسفل النافذة لأسمع ما يحدث. سمعت صوتًا مكتومًا لعصا أو طلقة رصاص. كنت مستعدة للدخول مسرعة كي أنقذ جَدَّتي من "مايلز". كنت فقط أنتظر كي أسمع أوَّل نبرة تهديد بالعنف في كلامه لأسرع إلى الداخل أهاجمه.

لكن جَدَّتي لم تصرخ طلبًا للمساعدة؛ ليست مساعدتي أنا على الأقل. كان صوتها مليئًا بالحزن، وكانت تبكي، تبكي مثلما بكيت أنا عندما صدمت السيارة الجرو، كنت أعرف أن هناك شيئًا ما لن يعود مُجدَّدًا للحياة، ومع ذلك ظل راقدًا هناك سمينًا وناعمًا، ولا يزال دافئًا. هكذا بكت جَدَّتي.

- كلَّا، كلَّا، لن يحدث، لن يحدث.

كانت كلماتها تسقط مثل الدموع المنهمرة من عينيها، منتفخة وممتلئة بالألم. كان بإمكاني سماع صوت "مايلز"؛ لكن لم أتمكن من فهم كلماته. كان يتحدث بهدوء وبطء، وكنت أكرهه أكثر مع مرور كل دقيقة. أحيانًا كان البكاء يخفت بعض الشيء، ولم أتمكن من سماع ما تقوله جَدَّتي. ظللت واقفة، متململة، وفي

يدي الحجر الذي كنت ألعب به، دون أن أعرف ماذا أفعل، أو كيف يمكنني أن أخفف عنها. في النهاية، لم يعد بإمكاني أن أسمع أي صوت، واعتقدت أنهما من المرجح سيخرجان، ولم أُرد أن يرياني وأنا أسفل النافذة. انحنيت فوق بقايا مشتل الزهور، وتظاهرت بالاهتمام بالأشجار الذابلة التي نمَت فيه. مر الوقت ولم يخرج أحد. قرَّرت أن أدخل وأتفقَّد الأمر بنفسي. كان "مايلز" في المطبخ يملأ كوبًا بالمياه من الصنبور. لم يلحظني، فذهبت لغرفته. كانت جَدَّتي تجلس على كرسي، تُجفِّف عينيها بمنديل. بدت أكثر شبابًا في جلستها؛ بالكاد كان هناك اختلاف بيني وبينها. نظرت إلي وأنا أدخل، وابتسمت مسرعة، ولملمت شتات نفسها، وقالت:

- "إيلي"! ماذا كنت تفعلين؟ لم تُسئي التصرف على ما أرجو.

- لا.

ابتسمت نصف ابتسامة. توقفنا عن الكلام للحظات أعطتني فيها الابتسامة الساطعة المصطنعة نفسها.

- جَدَّتي، هل أنت بخير؟

- أجل، أجل. شيء ما دخل في عيني فقط. بعض "الماسكارا". شيء سخيف حقًّا. لماذا نستخدم مثل هذه المستحضرات؟ لن أعرف أبدًا.

كانت هي وأُمِّي متطابقتين في هذا الأمر، دائمًا ما تخفيان دموعهما. جعلني هذا أكثر خجلًا تجاه بكائي. كنت أشعر بالضعف عندما لا أتمكن من كبحها. كانت "ماندي" هي الوحيدة التي لم أمانع في البكاء أمامها، ومع ذلك لم أرها مرَّة واحدة تبكي. ربما لدى كل شخص منَّا أناس ينهمرون بالبكاء أمامهم؛ لكن هل كان على جَدَّتي أن تختار "مايلز"؟

أردت أن أقترب منها وأمسك يدها، أو أحتضنها مثلما يفعل الناس في الأفلام؛ لكنها نهضت ووضعت منديلها في جيبها وأخذت حقيبتها المعلقة على ظهر أحد الكراسي. قالت في حيوية مفاجئة:

- هيَّا بنا. سنتأخر. آخر من تصل إلى السيارة تكون..

- خنزيرة سمينة.

قاطعتها وأكملت جملتها في حماسها نفسه. لم يكن هناك أي مبرر من لعب هذه اللعبة مع الكبار، على كل حال لأنهم لم يحاولوا قط أن يسبقوا إلى السيارة، وإذا انهزموا - وهو ما يحدث طوال الوقت - لم يمانعوا في أن يُطلق عليهم خنزير سمين أو موزة مسحوقة أو أي شيء يتم إطلاقه على الخاسر.

وضعنا حقائبنا معنا في السيارة وجلسنا بينما تشكر جَدَّتي "رايموند" على مساعدته وأعطته دولارًا أو اثنين. أدار "مايلز" عينيه وتمتم بشيء حول كون "رايموند" أكثر الأوغاد الذين رآهم في حياته كسلًا. أخذ نَفَسًا من سيجارته، ونفث الدخان من جانب فمه، كانت يده اليسرى معلقة خارج نافذة الباب الأيسر لكي يبعد السيجارة عن جَدَّتي، وبراحة كفِّه، طرق على باب السيارة، وقال:

- هيَّا بنا، لنذهب.

بعد خمس دقائق، رحلنا عن المزرعة عائدين إلى "بولاوايو". الأمطار، التي امتدت كحجاب فضي حول العالم، بدأت في تخفيف الحرارة المتجمعة. جلست في المقعد الخلفي بالسيارة، ونظرت من النافذة، وكنت أستنشق رائحة الأمطار والغبار بعمق. ظلت جَدَّتي صامتة معظم الوقت في الطريق، وعندما تحدثت، غلب على كلامها نبرة "أليس هذا جميلًا" التي استخدمتها عندما كانت تحاول أن تبهجني. باستثناء أنني وقتها لم أكن متضايقة، بل كانت هي كذلك. كان من المفترض عليَّ أن أسليها؛ لكنني ظللت صامتة طوال الطريق إلى المنزل.

بعد أن تناولنا الغداء، رحل "مايلز". كانت جَدَّتي متعبة وذهبت لتستلقي، وأخبرتني أن أفعل مثلها، ولكنني كنت مضطربة. لم يكن بإمكاني أن أخلد إلى النوم بعد الظهر أبدًا. كانت شقَّة جَدَّتي صغيرة للغاية، ولم يكن بها كثير من الأغراض. لم تكن مكانًا يسمح باللعب. عبر أحد الأبواب في الصالة، كان هناك

بلكون ممتلئ بأحواض النباتات وبه سلَّتان معلقتان؛ لكن لم تكن هناك مساحة للحركة. أمام الباب الخلفي كانت توجد سلالم الحريق التي تؤدي إلى الأسفل؛ أقامت جَدَّتي في الطابق الأرضي. جلست على الدرجة الأولى ونظرت للأسفل. لم تمطر بغزارة هنا مثلما فعلت في المزرعة، والوحل الذي تشكل كان على وشك أن يجف. بدأت ألعب لعبة ألقي فيها بالحجارة على درجة من درجات السلم لأرى إن كانت ستسقط على الدرجة التالية لها. أحيانًا كنت ألقي الحجارة بقوة لدرجة أنها تسقط بعد الدرجة المقصودة بدرجتين، أحيانًا كانت تسقط بعيدًا عن الدرجات فأذهب وأحضرها من على الأرض. كنت قد بدأت أستمتع باللعبة، حيث أصبح لديَّ فريقان من الحجارة، واللذان كانا يتنافسان في بطولة العالم لمسابقة إلقاء الحجارة، عندما فُتح الباب الأول عند المدخل وخرجت السيدة "بينسون" قائلة:

- من المتسبب في هذه الضوضاء؟

- إنها أنا "إيلي" يا سيدة "بينسون".

قلتها وأنا أحمرَّ خجلًا. لم أكن أعلم أنني أصنع كل هذه الضوضاء. قالت محاولة تذكُّر اسمي:

- "إيلي"؟ آه "إيلي".

نظرت وعيناها مغمضتان نصف إغماضة، وقالت:

- لقد نسيت أنني أعرف فتاة تدعى "إيلي".

نهضت ونزلت درجة كأنني سأعود لشقة جَدَّتي. ولكنها قالت:

- لا تذهبي، أكملي لعبك. لم أكن أعلم أنها أنت، وإلا ما كنت لأقول أي شيء.

نزلت درجة أخرى، وقلت:

- لا يهم، كنت على وشك الذهاب في كل حال.

سألتني وهي تتَّكئ على الدرابزين:

- هل جَدَّتك نائمة؟

- نعم؛ ولكن ربما تكون قد استيقظت الآن.

نظرت السيدة "بينسون" في ساعتها، وقالت:

- أشك في ذلك، إنها الآن الثانية والنصف. إن "إيفيلين" مُعتادة على أن تنام ساعة كاملة. أفترض أنها نائمة منذ الثانية.

أومأت لها في إيجاب، فقالت:

- أعرف جَدَّتك منذ وقت طويل، وأعرف ما تحبه وما لا تحبه.

من المرجح أنني بدوتُ متفاجئة لأنها قالت كأنها تشرح:

- كلنا مخلوقات لنا عادات يا "إيلي". ولا يأخذ الأمر طويلًا حتى تتمكني من فهم تحركات شخص ما.

ابتسمت فجأة، وأكملت:

- تعالي لنشرب الشاي معًا.

قلت وأنا أتعثر في الدرجة الأولى:

- لا، شكرًا، يجب أن أعود. قد تكون جَدَّتي استيقظت.

ابتسمت مرَّة أخرى، وقالت:

- أشك في ذلك، هيا، تعالي واشربي بعض الشاي. أظن أن لديَّ بعض البسكويت في مكان ما أيضًا.

تبعتها إلى شقتها.

دخولي شقة السيدة "بينسون" كان بمثابة دخول شبكة عنكبوت. كانت شقة نظيفة، دون ولا بُقعة واحدة؛ لكن كل شيء بداخلها كان قديمًا. بدا القدم واضحًا على كل شيء، وكأنه لم يعد بمقدوره التواري عن أعين الناظرين أكثر من ذلك. لقد تشبَّع الهواء بالقدم والتصق بملابسنا. لم يبدُ لي أن هناك مهربًا. رأيت بيانو صغيرًا مغطى بملاءة لحمايته من الغبار في أحد أركان غرفة الجلوس. أخبرتني جَدَّتي من قبل بأنه لم يُمس منذ فترة طويلة بسبب إصابة مالكته بالتهاب المفاصل. كان هناك سجادة زهرية باهتة مفروشة على

الأرض وستائر قطيفة ذات لون أخضر داكن معلقة على النوافذ، ومعها ستائر دانتيل زادت من عتمة الغرفة التي لم يدخلها كثير من الضوء على أي حال. أمَّا المصباح الرئيسي في الغرفة فكان مُضاءً على الرغم من أن الوقت لا يزال نهارًا. قالت السيدة "بينسون" وهي تُرتِّب الفنجانين وطبقيهما على الصينية بأصابعها المرتعشة المسنة:

- من فضلك يا "إيلي"، هناك صندوق أزرق في أعلى الدولاب المقابل، هل بإمكانك إحضاره لي؟

أومأت لها في إيجاب وذهبت ناحية الدولاب وفتحته.

- ستحتاجين إلى أن تقفي على الكرسي كي تصلي إليه.

رأيت الصندوق الذي أرادته، كان صندوق حذاء استطعت بالكاد أن أميز على جانبه كلمة "باتا". تمكنت من أن أصل إليه وأخذته وأعطيته لها. كان بداخله صور قديمة، وطوابع بريدية مستعملة لا تزال ملتصقة بأركان مغلفات الخطابات، وخطابات وثلاثة كتب صغيرة ذات غلاف مُقوَّى. جلست السيدة "بينسون" وفتحت الكتاب الأكبر بين الثلاثة فاقتربت منها حتى أتمكن أنا أيضًا من رؤيته. رأيت في الصفحة الأولى صورة لسيارة قديمة بداخلها رجل يجلس في كرسي السائق بدا عليه الحزن والاحترام، بجانب السيارة وقف رجل أسود البشرة يرتدي بدلة أنيقة للغاية، ويحمل كتابًا. قالت السيدة "بينسون":

- هذا هو والدي، كان مبشرًا في "هوب فاونتين".

حاولت أن تقلب الصفحة في ارتباك دون جدوى. قالت وهي تحاول أن تداري إحراجها:

- من الأفضل أن تحاولي أنت، وإلا ظللنا هنا طوال اليوم.

رأيت في الصفحة التالية قصاصة قديمة للغاية من جريدة ومقابلها صور أخرى. قلبت الصفحة من أجلها دون أن أعرف عمَّا نبحث. كان بإمكاني أن أسمع تكَّات الساعة الرتيبة من مكانها فوق رفِّ المدفأة. وكان هناك مزيد من الصور؛

بعضها لكلب أخبرتني أن اسمه "لاكي"؛ كان جروًا صغيرًا عندما وجدوه حيًّا بداخل حفرة كان بها لغم؛ والبعض الآخر كان لامرأة شابة تمسك بمضرب تنس. رأيت لها كذلك صورًا وهي مع طفلين صغيرين. كانت هذه المرأة أم السيدة "بينسون". ثم كان هناك بعض الصور لمناظر للسماء والأفق يمكن التفريق بينهما بصعوبة، وقد أخبرتني السيدة "بينسون" أنها ترى أنها صور رائعة لـ"نيانجا داونز". أومأت لها موافقة على رأيها. وأخيرًا بعض الصور لمجموعة من الأشخاص. هنا انحنت السيدة "بينسون" وتفحصت الصور بعناية وهي تتمتم:

- هل هذه هي؟ لا، لا.. ربما.. لا؟

نظرت إلي متجهمة، وقالت:

- لقد اعتقدت أن لديَّ صورة لها. ربما كانت في الكتاب الآخر.

بحثنا في الكتاب الآخر، ثم الثالث قبل أن تجد ما كانت تبحث عنه. لم تكن مُلصقة في أي كتاب من الأساس. كانت طليقة وسط الخطابات والطوابع البريدية. اقتربت أكثر منِّي فتمكنت من أشم رائحة بشرتها القديمة والناعمة وأثرًا خفيفًا من العطر. قالت:

- ها هي يا "إيلي".

كانت تشير إلى امرأة شابة تقف مع امرأة أخرى ورجلين على سلم منزل.

- هذه هي جَدَّتك.

نظرت عن قرب؛ ولكن الصورة كانت غير واضحة بعض الشيء. كان شعر المرأة يصل إلى كتفها، والجزء الأمامي منه بدا وكأنه ملفوف للخلف. كانت ترتدي فستانًا، وتحمل حقيبة على ذراعها. لم أتمكن من معرفة ما إذا كانت تبتسم أم لا. كان الرجل المجاور لها يرتدي بدلة، ورأسه أصلع، ويبتسم ابتسامة عريضة. الرجل الآخر أيضًا كان يرتدي بدلة؛ لكنه كان أقصر وأنحف، ولديه شعر داكن. المرأة الأخرى كانت شقراء وبدينة بعض الشيء. قالت السيدة "بينسون" وهي تشير إليها:

- هذه أنا. كانت جَدَّتك الجميلة بيننا، أحبها الرجال كثيراً.

- من هذا الذي معها؟

- "وينستون".. لا، شيء من هذا القبيل. كان اسمه اختصارًا لشيء آخر. لقد كان رجلًا مرحًا. كان بإمكانه أن يجعلك تضحكين، وتضحكين، وتضحكين. هذا هو حبيبي "بيل".

قالت وهي تشير إلى الرجل ذي الشعر الداكن:

- التقطت هذه الصورة في يوم خطبتنا.

نظرت إليها لأجدها تبتسم كما يبتسم الناس عندما يتذكرون شيئًا ما لم يعد لديهم. أخبرتني جَدَّتي بأن السيد "بينسون" قد مات منذ وقت طويل. قبل أن أولد بمدة طويلة.

أعادت السيدة "بينسون" كل شيء مُجددًا إلى الصندوق ووضعته على الطاولة، ثم قالت:

- الآن، من يريد بعض الشاي؟

كنت لا أزال مهتمة بالصورة، فسألتها:

- هل كان هذا حبيب جَدَّتي؟

- كلَّا، لا شيء من هذا القبيل.

ضحكت، ولكن ضاقت عيناها كما لو أنها مُستاءة. وضعت فنجانًا بطبقه أمامي، وقد أمالته بشدة، وانزلق الفنجان بحدَّة على الطبق، وقالت:

- كان جَدُّك هو الحبيب الوحيد في حياتها.

اتسعت عيناي في مفاجأة فقالت في لين:

- الفتيات هذه الأيام يغيرن عشاقهن كل دقيقتين؛ لكن وقتها كان لدينا قدرة أكبر على التحمل، على البقاء. لم نفقد الأمل في شيء أو في شخص بسهولة، كان بإمكاننا جعل الأمور تنجح. لقد دام الحب.

توقفت عندما رأت التعبير المرتسم على وجهي فأدركت ما قالته لأنها أكملت كلامها قائلة:

- بالطبع، بعض الأشياء لا تدوم. ربما لا يُقدر لها بأن تدوم. حسنًا، تفضلي بعض السكر.

سألت السيدة "بينسون":

- من السكان الأصليون؟

- أين رأيتهم؟

أمسكت إحدى القصاصات القديمة وقرأت بصوتٍ عالٍ:

- مقتل اثنين من السكان الأصليين في محاولة سرقة فاشلة.

- إنها كلمة قديمة للأفارقة. لم يعد يستخدمها أحد الآن، وهي تعني سكان "أفريقيا".

- أوه.

قلتها وأنا أنظر مُجدَّدًا للمقالة. كانت كلمة غريبة علي، ذكَّرتني بكلمة "سكاكين". تخيَّلت السكان الأصليين حاملين السكاكين. سألت السيدة "بينسون":

- هل أنا من السكان الأصليين؟

فردت ضاحكة:

- أوه، كلَّا، أنت أوروبية. السكان الأصليون بشرتهم سوداء.

- هل الأوروبيون أيضًا من "أفريقيا"؟

- كلَّا، نحن من "أوروبا" في الأصل.

- أوه.

فكَّرت لدقيقة، ثم قلت:

- لم أزرها قط.

قالت لي السيدة "بينسون"، وقد أخطأت في فهم التشوش في نبرة صوتي على أنه إحباط:

- لا يهم، أنا متأكدة من أنك ستذهبين هناك ذات يوم.

عندما عدت لشقة جَدَّتي، كانت قد استيقظت وتتحدث في التليفون مع أُمِّي في "هاراري". في تلك الأيام، كان مسلسل "دالاس" يُعرض على التليفزيون مساء كل أحد. لم يكن مسموحًا لي بمشاهدته لأنه كان يُعرض في وقت متأخر للغاية؛ أي شيء يُعرض بعد الثامنة إلا الربع كان متأخرًا للغاية بالنسبة لي.

المشاهدون في "هاراري" كانوا يسبقون المشاهدين في "بولاوايو" بحلقة من المسلسل. قال الجميع إن هذا الأمر كان من المميزات التي تتميز بها "هاراري" عن "بولاوايو". كان لدى "هاراري" كل شيء. كل ما كان لدينا في "ماتابيلي لاند" هم المنشقون، والجفاف، وحلقات مسلسل "دالاس" المتأخرة. اعتاد بعض المتابعين المخلصين للمسلسل على الاتصال بأصدقائهم وزملائهم في "هاراري" صباح الإثنين ليعرفوا منهم ما الذي سيحدث في حلقة الأسبوع المقبل.

كانت جَدَّتي تطلب من أُمِّي أن تشاهد حلقة المسلسل هذا المساء كي تخبرها ما الذي سيحدث. من الواضح أن أُمِّي قالت شيئًا ساخرًا مما جعل جَدَّتي ترد قائلة:

- "فرانسيس"، ربما بإمكانك الاستمتاع بالحياة أكثر قليلًا إذا لم تكوني انتقادية بهذا الشكل.

كانت هناك وقفة قصيرة، ثم سمعت صوت أُمِّي وهي ترد على جَدَّتي بصوت يشبه المدفع الرشاش. أدرات جَدَّتي عينيها ناحيتي وابتسمت لي. سألتني وهي تضع التليفون جانبًا:

- أين ذهبت؟

ثم مررت يدها في شعري، وقالت:

- لقد أخبرتك أن تنامي قليلًا. إن عليك الذهاب للمدرسة غدًا، وقد بقينا مستيقظتين لوقت متأخر ليلة أمس.

أخبرتها أين كنت، وعن صورتها التي رأيتها. فقالت وهي تجعد حاجبها:

- صورة؟ لم أكن أعرف أن "أودري" لديها أي صور لي.

- لم تكن تشبهك.

ضحكت جَدَّتي، وهزَّت رأسها في أسف، وقالت:

- بإمكان ثلاثين عامًا أن تفعل كثيرًا لتغير ملامح الشخص.

- كيف بدت السيدة "بينسون" عندما كانت شابة؟

- "أودري"؟ مثلما هي الآن. لا أقصد ذلك بصورة سيئة، كانت دائمًا تبدو عجوزًا. تذهب للنوم في التاسعة كل ليلة، اعتادت ذلك طوال الخمسين عامًا الماضية. أشياء من هذا القبيل، فهي لديها بعض العادات الثابتة بعض الشيء.

- تقول إنك دائمًا ما تأخذين قيلولة في الساعة الثانية بالضبط لمدة ساعتين.

ضحكت جَدَّتي بصوتٍ عالٍ، وقالت:

- هل قالت ذلك حقًّا؟ حسنًا، ربما أفعالي قابلة للتنبؤ مثلها تمامًا.

- كان هناك رجلان أيضًا في الصورة. أخبرتني السيدة "بينسون" بأن واحدًا منهما كان زوجها، والآخر صديق لك.

ردت جَدَّتي وهي متجهمة:

- حقًّا؟ أتساءل من كان هذا الرجل.

- شخص ما يُدعى "وينستون" أو شيئًا من هذا القبيل.

- أدارت جَدَّتي عينيها، وقالت:

- "وينستون"! أعوذ بالله من أن يكون لديَّ حبيب سابق يدعى "وينستون".

ضحكت، وقلت:

- لقد أخبرتني بأنه لم يكن لديك أحباء غير جَدِّي.

رمقتني جَدَّتي بنظرة، وقالت:

- أنا؟ لقد كان لديَّ العديد منهم. لقد اضطررت إلى أن أصدَّهم بعيدًا عنِّي في النهاية.

ضحكت، وحذرتها قائلة:

- جَدَّتي، إن أنفك يزداد طولًا!

تلك الليلة، سمحت لي جَدَّتي بالسهر لأشاهد مسلسل "دالاس". بدا وكأنها عادت لحالتها القديمة: ضاحكة، ومازحة، وأعدت الشاي عندما جاء وقت الإعلانات. شعرت بالراحة التي اعتدت على الشعور بها معها، واقتربت منها أكثر، واحتضنتها على الكنبة. "**مجرد القرب منك**". في التليفزيون، تمكن "جي أر إوينج" من إتمام صفقة مشبوهة. جلس على كرسيه في راحة وهو يدخن سيجارًا سمينًا قبل أن يبتسم ابتسامة رضا. بدا وكأنه يشعر بما شعرت وقتها. لكن لا شيء يدوم للأبد.

رسالة أخرى في جهاز الرد الآلي. إنه "مارك". أتركها وأستمع.

- "إيلي"، إنه أنا "مارك".. فقط تحدثي إليَّ من فضلك. لا يمكنك أن تبعديني عن حياتك للأبد.

كانت هناك وقفة، وتغيرت نبرة صوته:

- أنت تتخلِّين عن كل شيء، أتعرفين ذلك؟ إن لديك معايير مرتفعة للغاية فيما يتعلق بالأخلاق وعلينا أن نكون جميعنا مثاليين حولك. حسنًا، ليس بإمكاني أن أكون كذلك. أنا آسف.

ثم ينهي الاتصال.

(11)

ذات ليلة، حلمت بالمسيح.

سألني: " ماذا تتمنّين؟"

قلت: "أريد للجميع أن يكونوا سعداء". ثم استيقظت.

يومًا ما، سألتني جَدَّتي لماذا لم أحب "مايلز" أبدًا. لم أعرف ماذا أقول، فكذبت وأخبرتها بأنني أحبه.

- لا تكذبي عليَّ، أنا أعرف أنك لا تحبينه.

كنا نجلس في سيارتها في انتظار أُمِّي كي تخرج من هذا المتجر، أو ذاك. كان هذا في صباح السبت وكان ثلاثتنا في المدينة نتسوق. لاحقًا، كانت أُمِّي ستتركني مع جَدَّتي، وكنا سنتناول غداءً سريعًا قبل أن نستعد للذهاب إلى النادي البحري. ظلت جَدَّتي تنظر في ساعتها طوال الوقت. كنا سنتأخر لو لم تسرع أُمِّي، ولكنها لم تتمكن من أن تقول شيئًا دون الإفصاح عن وجهتنا. مدت يدها داخل حقيبتها، وأخرجت بعض حبات النعناع. سألتني وهي تمرر إلي إحداها:

- أتريدين واحدة؟

ودندنت في شرود:

- لطالما هناك سحاب في السماء، يمكنك أن تظلي على قيد الحياة.

إذا غابت أُمِّي لفترة أطول من هذه، لسألتني جَدَّتي كل أنواع الأسئلة الممكنة، ومن خلال معرفتي بها، فمن المرجح أنها ستفعل ذلك. ومع ذلك ولحسن حظي، عادت أُمِّي للظهور مُجدَّدًا بعد بدء استجواب جَدَّتي بقليل، ونظرت من خلال نافذة السيارة قائلة:

- "إيلي"، تعالي لتجربي هذه الأزياء المدرسية، من فضلك.

ثم أضافت عندما رأت تجهمي:

- هيَّا، لنقوم بهذا الأمر وننتهي منه الآن حتى لا نضطر للعودة مجددًا.

المشكلة مع الأزياء المدرسية هي أنه عليَّ دائمًا العودة مجددًا، مهما قالت أُمِّي "سيظل هذا الزي يناسب مقاسك لفترة طويلة"، و"فلنتركه طويلًا بعض الشيء حتى يدوم مدة أطول". إن الفترات الفاصلة بين قياس الزي المدرسي بدت دائمًا وكأنها أسابيع وليست شهور أو حتى سنين. لم أكن أنوي المجادلة، حيث إن مزاج أُمِّي كان سيئًا طوال اليوم. ذهبنا بالسيارة لمنزل جَدَّتي ونحن ننوي اصطحابها معنا في السيارة، ولكن جَدَّتي أرادت الذهاب بسيارتها. لم تتمكن أُمِّي من فهم السبب، حيث إن سيارتنا مريحة أكثر من سيارة جَدَّتي ولم يكن هناك كثير من المنطق في أن نترجل أنا وأُمِّي من سيارتنا، بينما كل ما كان على جَدَّتي أن تفعله هو أن تركب معنا؛ لكنها لم تقتنع بهذا على الرغم من كل شيء، واستسلمت أُمِّي لرغبتها في النهاية. بعد هذا تجادلت أُمِّي وجَدَّتي حول كل شيء: من أين تشتريان الخبز الطازج، وقطعة اللحم الممتازة، ومسحوق الغسيل الأكثر توفيرًا. كما أن قيادة جَدَّتي ضايقت أُمِّي كثيرًا، حيث إنها لم تنظر في المرآة الخلفية أكثر من مرَّة واحدة، ما جعل شخصًا ما يصيح فينا وهي تنتقل من حارة على الطريق لأخرى، وقد كانت على وشك أن تصطدم به.

كان المحل مظلمًا وخانقًا، والمبنى نفسه كان قديمًا وممتلئًا بالأرفف التي رُصَّت عليها صناديق الملابس والأحذية التي وصل ارتفاعها إلى النوافذ الصغيرة

العالية. كان يدير المتجر عائلة هندية تسمى "دولابه" منذ حوالي مئة عام. مات السيد "دولابه" العجوز منذ وقت قريب، وكانت صورته موضوعة على المنضدة محاطة بإكليل زهور. قال جَدِّي عندما علم بوفاة السيد "دولابه":

- يقولون إن الطيبين فقط يموتون في شبابهم. هذا العامل الهندي البليد اللعين كان وغدًا حقيقيًّا.

ردت عليه أُمِّي بيأس عندما سمعته:

- أبي، لا تتكلم هكذا، لقد مات الرجل لتوِّه.

قال جَدِّي متجاهلًا أُمِّي:

- المسلمون، كلهم متشابهون.

ردت أُمِّي عليه مصححة ما يقوله:

- لم يكن مسلمًا، لقد كان هندوسيًّا.

كانت أُمِّي تسبق زمنها بكونها ملحدة من النوع الذي يوجد بكثرة هذه الأيام في "بريطانيا": هذا النوع الذي يبدي احترامه لجميع الأديان ما عدا المسيحية. كان السيد "دولابه" كاثوليكيًّا، وقد قال جَدِّي إنه إنجيلي، ومرَّ الخطأ دون تصحيحه.

- لا يهم.. كلهم متشابهون.

سألته أُمِّي وهي تدير عينيها:

- كيف يمكنهم أن يكونوا متشابهين؟ المسلمون يؤمنون بمحمد، والهندوسيون يؤمنون.. بقصة تناسخ الأرواح.

قال جَدِّي وكأنه يبصق:

- تناسخ الأرواح! أتمنى أن يعود هذا الرجل على صورة فأر كما كان ينبغي عليه أن يكون.

تولى ابن السيد "دولابه" الشاب إدارة محل أبيه على الرغم من أنه كان يعمل هناك في كل الأحوال، لذا لم يلحظ أحد أي تغير. على الرغم من أنهم كانوا ينادونه بالسيد "دولابه" الشاب، فقد كان في الواقع في أوَّل الستينيات من عمره، ولديه أحفاد أكبر مني سنًّا. لم يكن لديه أبناء ذكور لحسن الحظ. كانت زوجته واثنان من بناته يساعدنه في المحل، وكن مسؤولات عن الخزينة والترحيب بالزبائن. كان هناك أيضًا بعض العمال السود الذين اعتادوا على تسلق السلم كي يصلوا إلى أي صندوق يطلبه أحد الزبائن من كومة الصناديق الهائلة المرصوصة أمام الحائط.

كانت الأزياء المدرسية بانتظاري عندما دخلت المحل. نظرت باستياء شديد للمقاسات الثلاثة التي كان عليَّ أن أقيسها. حملت الأول، وبحثت حولي عن غرفة تبديل الملابس. قالت السيدة "دولابه" من وراء المنضدة:

- آسفة، آسفة، لا يوجد غرفة لتبديل الملابس، أنا آسفة.

لمحت الزاوية المغطاة بستار التي استطعت أن أراها في نهاية المحل، والتفت إليها في تحدٍّ، عند هذه النقطة قرأت السيدة "دولابه" أفكاري، وقالت:

- آسفة، إنها تُستخدم الآن للتخزين.

ثم ابتسمت في رضا عن نفسها وهي تنظر لأُمِّي، وأضافت:

- إننا نخزن كل الأزياء المدرسية لكل المدارس في "ماتابيليلاند".

رفعت أُمِّي حاجبيها في محاولة بسيطة لإظهار اهتمامها، بينما أكملت السيدة "دولابه":

- للفتيان والفتيات.

قالت لي أمي:

- بدِّلي ملابسك هنا يا "إيلي"، لن ينظر أحد.

- أُمِّي.

قلتها وأنا مرتعبة من فكرة تبديل ملابسي ليس فقط أمام السيدة "دولابـه" وبناتها، ولكن أيضًا أمام السيد "دولابه" الشاب ومساعديه. فقالت أُمِّي:

- لا يوجد أحد هنا.

وهي تعني بأنه لا يوجد أي زبائن. قلت مُحتجَّة:

- الجميع هنا، لا أستطيع.

نفخت أُمِّي في غضب؛ولكنني لم أكن لأتراجع في قراري هذا.

- أنت في الثامنة من عمرك. ليس لديك ما نراه بحق الـلـه. هيَّا لننـه هـذا الأمر.

قلت وأنا أتلوَّى من الإهانة:

- كلَّا، أليس بإمكاننا أخذهم للمنزل؟ يمكنني أن أجرِّبها هناك.

التفتت السـيدة "دولابـه" لابنتهـا، وقالـت شـيئًا بلغـة لا أفهمهـا. ضـحكت ابنتها، مما جعل صف الأساور الطويل في ذراعيها يُصلصل، بينما ارتفـع صـدرها لأعلى وأسفل. كان بإمكاني الشعور بالدموع تتجمع بداخلي. فجأة التفتت أُمِّـي وجذبت سحاب فستاني للأسفل. فصرخت وأنا أشعر بالفستان يسقط عنِّي:

- كلَّا.

حتى وجه السـيدة "دولابـه" تغـيَّر في مفاجـأة مروعـة، بيـنما تجـذب أُمِّـي فسـتاني للأسـفل، وظللـتُ واقفـة مرتديـة سروالي الـداخلي، ووضـعت يـدي متقاطعتين على صـدري. نظـرت السـيدة "دولابـه" لأُمِّـي في ارتبـاك، ثـم ألقـت بضفائرها السـوداء الزيتيـة خلـف كتـف واحـدة وأعطتهـا واحـدًا مـن الأزيـاء. علمت أن الجميع كـان يشـاهدني. علمـت أيضًـا أن هنـاك مزيـدًا مـن الزبـائن دخلوا المحل، وأن هناك رجـلًا واقفًـا فـوق أحـد السـلالم ينظـر لأسـفل تجـاهي مبتسمًا؛ لكنني نظرت للأرض وتركت دموعي تنهمر وتشوش رؤيتي.

سمعت صوتًا آخر.. صوت جَدَّتي:

- "إيلي"، ما الأمر؟

شعرت جَدَّتي بالملل وهي جالسة في السيارة وأتـت لـترى مـا الـذي يؤخرنـا هكذا. لم أتمكن من الكلام ولا النظـر إليهـا. ظللـتُ واقفـة أبـكي مـن الإحـراج. سألت جَدَّتي باهتمام:

- "فرانسـيس"، مـا الأمـر؟ مـاذا تفعلـين؟ ولمـاذا تُبـدِّل "إيـلي" ملابسـها في منتصف المحل؟

كان قرار أُمِّي قد بدأ بالتذبذب عند بداية بكائي، لكنها حاولت بصعوبة أن تحافظ على القسوة في صوتها وهي تأخذ الزي الثاني وتُلبسه لي وهي تقول:

- نحن نقيس الأزياء المدرسية يا أُمِّي. ما الذي يبدو أننا نفعله؟

لم ترد عليها جَدَّتي، وفي المقابل، انحنت فـوق المنضـدة ونـادت باتجـاه مكـان السيد "دولابه"، حيث يجلـس أمـام دفـاتره عـلى مكتـب صـغير مُختبئًـا في ظـلام المحل، وقالت:

- من فضلك يا سيد "دولابه".. أعتقـد أن حفيـدتي تحتـاج إلى غرفـة تبـديل ملابس ملائمة كي تُجرِّب فيها هذه الملابس.

تهيَّأت السـيدة "دولابـه" للاقـتراب كي تشرح لجَـدَّتي الموقـف؛ ولكـن جَـدَّتي أخرستها بحركة من يدها، وقالت:

- إن من المخـزي أن تـديروا محـلًّا بهـذا الشـكل. لم يكـن مثـل هـذا الأمـر ليحدث أيام السيد "دولابه" الكبير.

لم ترفع صوتها، أو تضرب بقبضتها؛ لكن السيد "دولابه" نهـض في التَّـوِّ، مـما جعل كرسيه يخدش بلاط الأرضية، وجاء مسرعًا وهو يقول في اضطراب:

- بالطبع، بالطبع.

صرخ في بناته باللغة التي لم أكن أفهمها ثم قُمن بإدخـالي بسُرعـة في غرفـة تخزين في نهاية المحل. لم يكن بها مساحة واسعة لأنه كان بها أيضًا أكوام عالية من الأزياء المدرسية لجميع المـدارس في المحافظـة؛ لكـن كـان هـذا أفضـل مـن

أن أقف بملابسي الداخلية وسط الناس. أمسكت جَدَّتي بيدي ونحن ندخل الغرفة ولم تنطق أُمِّي بكلمة.

عندما عدنا لشقة جَدَّتي، ودَّعتني أُمِّي بقبلة وضغطت على يدي. كانت عيناها تمتلئان بالدموع وهي تُودِّعنا من السيارة. لم تقل لي قط إنها آسفة عمَّا حدث؛ ولكنني كنت أعرف أنها كذلك. لم تذكر جَدَّتي الحادثة أمامي بعدها، والأسبوع التالي أخذنا جَدَّتي في سيارتنا وقمنا بالتسوق.

(12)

أتذكَّر جيدًا جلوس جَدِّي في البلكون ليلًا. في الصيف يرتدي بنطلونًا قصيرًا دون قميص. توهج سيجارته يُظهر للحظة قصيرة لمعان العرق على ذراعيه وصدره. في الشتاء كان يرتدي قميصًا خفيفًا، ولم يبدُ عليه بأنه شعر بالبرد. كان يشرب البيرة من الزجاجة ببطء، ويلقي برماد سيجارته على الأرضية الأسمنتية، على الرغم من محاولات أُمِّي لجعله يتوقف عن فعل ذلك ووضع مطفأة سجائر بجانبه. يجلس محملقًا في مشتل الأزهار وعشب "القنا"، والليل العذب، ذي الجو الصافي البارد، أو الدافئ الجاف أو المبتل. زجاجة بيرة، أحيانًا اثنتان، وثلاث، أو أربع والسجائر. إذا جلست معه لا يتحدث. أعتقد أنه يستاء من وجودي إذا خرجت إليه. ليس هناك أحد غيري يحاول، الجميع يتركونه وحيدًا.

في فترات بعد الظهر أيام الأحد، أجلس وأشاهد أفلامًا قديمة مع جَدِّي. يكون الجميع نائمين، والمنزل هادئًا وصامتًا صمتًا لا يحل سوى في فترات بعد الظهر أيام الأحد. نشاهد "جون واين"، و"همفري بوجارت"، و"ستيوارت جرينجر"، رجال عصابات، ورعاة بقر، وجنودًا، ومعركة "الألامو"، و"جنوب المحيط الهادي"، و"دانكيرك"، و"نورماندي"، و"شمال أفريقيا". دائمًا أبطال. رجال يقودون الجنود في المعارك، ويقاتلون محارب "الأباتشي" الأخير بمفردهم، أو المافيا، أو اليابانيين، أو الألمان. الرجال الذين يقودون ولا يتبعون غيرهم، الأبطال. كان خالي بطلًا، هذا هو كل ما أعرفه. لا يتحدث أحد عن هذا الأمر. الجميع نائمون، والمنزل هادئ وصامت.

ظلت الأمور تسير على الحال نفسه وكأن جَدَّتي لا تزال تعيش معنا، باستثناء أن جَدِّي أصبح شخصًا أكثر مرارة، يميل أكثر لقضاء المساء في البلكونة وهو يحملق في كآبة في الليل، ويقضي نهاية الأسبوع مستلقيًا أمام التليفزيون. حاولت أُمِّي أن تخفف عنه وتخبره بأن جَدَّتي ستعود في أي يوم بمُجرَّد أن تدرك الخطأ الذي ارتكبته.

لكن لم يكن فقط غياب جَدَّتي هو ما تسبب في مزاج جَدِّي السيئ الدائم؛ كان الأمر متعلقًا بحالة الدولة أيضًا. كان دائمًا ما يهاجم حكم السود والدمار المؤكد الذي سيجلبه. كان يقول في غضب:

- انظروا إلى "زامبيا"، انظروا إلى "مالاوي"، انظروا إلى "موزمبيق". اقتربت النهاية، قريبًا سنجد أنفسنا جالسين في أكواخ نأكل الـ"سادزا" بأيدينا وتفوح منا رائحة الخنازير.

كانت أُمِّي تحاول تهدئته، وكانت تشعر بعدم الراحة عند دخوله في حالة مزاجية كئيبة، وهو ما كان يحدث كثيرًا، خصوصًا لو كان الخدم موجودين.

انسجمت مع "جايمسون" الخادم الصغير. علمني كيف أصَفِّر، ليست صفارة العمَّال السعداء القوية الهادئة؛ لكن الصفَّارة القصيرة الحادَّة التي تُستخدم للفت نظر الأصدقاء، أو النساء الجذابات، أو أي شخص يمر أمامي في الطريق. أحيانًا في أوقات الظهيرة، عندما يكون الجو حارًّا للغاية، مما لا يسمح بالخروج في الشمس حتى إن الكلاب ترتمي تحت أي ظل تجده، كنت أجلس في الخارج على سلم المطبخ مع "جايمسون" وهو ينظف الخضراوات للعشاء. كنت أساعده لو كان هناك بازلاء بتقشيرها، وكنت آكل بعضها أثناء التقشير، مما كان يغضبه ويجعله يضرب على يدي ضربات خفيفة كلما رأى يدي ترتفع تجاه فمي.

كان "جايمسون" يخاف الثعابين كثيراً؛ لكنه كان موضوعه المفضل في أحاديثنا، وقد اعتاد على أن يحكي لي عن مواجهاته العديدة مع أفاعي الكوبرا التي بلغ حجمها ضعف حجم الإنسان، والثعابين الضخمة التي بإمكانها بلع بقرة بالغة، وحيات الشجر التي تلقي بنفسها على الشخص أثناء سيره بين الأشجار. كان يتلوَّى ويتقلب ببطء وهو يحكي القصة، وعيناه تضيقان في وجهه. كان يميل يده اليسرى للأمام والخلف كي يطابق حركة الثعبان أمام عيني، أصابعه ملتصقة ببعضها، وتلتوي مثل القوس لتماثل رأس أفعى الكوبرا، حينها فجأة ينقض بيده وينشب أظفاره في حلقي، كنت وقتها أصرخ أو أَضحك أو أفعل الاثنين معًا.

وفي المدرسة، رحل بعض زملائي في الفصل ليعيشوا في جنوب "أفريقيا". أحدهم ذهب لـ"أستراليا"، وقد أرسل للفصل بطاقة بريدية من "سيدني". أتذكَّر أنها كانت تحمل صورة دار الأوبرا، وأنه كتب يخبرنا بأن "أستراليا" جميلة وحارَّة؛ لكن الأستراليين يتحدثون بطريقة مضحكة. عندما سألت أُمِّي عن سبب رحيل الكثيرين كانت تخبرني بأنهم قلقين. كان الأمر بسبب حكومة السود. "بريطانيا"، التي كانت يومًا ما تملك "زيمبابوي" (عندما كانت تسمى "روديسيا")، أعادتها للشعب ذي البشرة السوداء، وعلى الرغم من أن ذوي البشرة السوداء امتلكوا البلاد، فإنها لم تكن فكرة جيدة، حيث إنهم لم يعرفون كيف يتصرفون بهذه السلطة. قالت إن الأمر شبيه بأن يعطي أحدهم سيارة لـ"جايمسون" كي يقودها؛ سيؤول به الأمر إلى أن يحطمها. أخبرتها أن أبي لو علمه كيفية قيادتها، فمن المرجح أنه سيتعلم. ردت علي أُمِّي بأنها كانت تعتقد ذلك، لكن المشكلة أن هناك الكثيرين ممن ينبغي عليهم أن يتعلموا، ولا يوجد العدد الكافي من المعلمين. قال جَدِّي:

- مستحيل أن أسمح لهذا الفتى التافه بأن يقود السيارة وأنا بداخلها لمسافة بوصة واحدة خارج الحديقة. لقد تعلَّم لتوِّه كيف يتحكم في خرطوم المياه، فماذا عن قيادة سيارة.

كانت أُمِّي تجفل كلما تحدث جَدِّي بهذا الشكل؛ ولكنها لم تعارضه مُطلقًا، وكانت تفضل تغيير الموضوع بدلًا من ذلك. لذا، كان جَدِّي يشعر بالخيانة من بلده وزوجته، حيث تركه الاثنان في سبيل أشياء أهم.

لم تولد جَدَّتي في "زيمبابوي". كان أصلها من بلدة صغيرة بجانب البحر على ساحل "الكنت" تسمى "جورزدوم". قالت إنها أكثر الأماكن مللًا على الأرض، ولم يكن لديها أي رغبة في العودة إلى هناك. كان لديها أخٌ يُدعي "جريجوري" لكنه مات فجأة وهو في الخامسة والأربعين؛ كانت أزمة قلبية. كان لديه زوجة وابن؛ لكن جَدَّتي لم تتواصل مع أي منهما. عندما سألتها عن السبب، اكتفت بأن هزَّت رأسها، وقالت إنه في بعض الأحيان هذا ما تؤول إليه الأمور، خصوصًا عندما تكونين بعيدة لمدة طويلة.

قبل أن تتزوج جَدَّتي من جَدِّي، كانت متزوجة من شخص آخر. كان يُدعى "تيموثي بروتون"، وقد قُتِل في الحرب العالمية الثانية بعد شهرين من زواجهما. كان من "روديسيا"، وقد تم إرساله إلى "إنجلترا" كي يتدرب ليصبح ضابطًا في سلاح الجو الملكي. تم إسقاطه في مكان ما فوق البحر المتوسط. بعد الحرب، اقترح والد جَدَّتي عليها أن تذهب لتزور عائلتها. كانت "إنجلترا" دولة كئيبة ومهجورة، وقد كان يخشى من ألا تتمكن جَدَّتي من أن تقابل أحدًا آخر بعد وفاة زوجها. أخبرتني جَدَّتي بأنه كان يشعر بمرارة، بسبب الحرب وما اضطرت "إنجلترا" لأن تقدمه. لقد شارك هو نفسه في الحرب العالمية الأولى، وكان لديه عرج ورئتان خربتان ليثبت ذلك.

ولأن والده قد تزوج مرَّة أخرى من امرأة شابة بعد وفاة زوجته الأولى، فإن والد جَدَّتي لديه أخ غير شقيق أكبر من جَدَّتي بعشر سنوات فقط. كان يُدعى "كادوالادر"، أو "والي" كما كانوا يدعونه. استطاع عمها "والي" أن يساعدها، ولكن عندما ذهبت لزيارتهم، كانت مساعدته مطلوبة لأن عائلة "بروتون" لم تكن مرحبة بزيارة أرملة "تيموثي". اعتادت جَدَّتي أن تقول:

- هكذا أتيت إلى "بولاوايو". كنت في "هاراري" التي كانت تُدعى وقتها بـ"ساليسبيري"، عندما تلقيت خطابًا من عمِّي "والي" الذي كان يعيش هنا. رتَّب من أجلي تذكرة قطار ووظيفة ومكانًا أقيم فيه في الطرف الآخر من البلدة. أما الباقي، كما يقولون، فقد أصبح تاريخًا.

كان العم "والي" مهندسًا في شركة تُدعى "ستوتون وجيمس"، وهي شركة ازدهرت في الأربعينيات. رتب من أجل جَدَّتي أن تعمل في مكتب الاستقبال في المكتب الرئيسي، على الرغم من أنها لم تكن وظيفة رائعة، ولم يكن الراتب كبيرًا، كانت أفضل من لا شيء كما أنها سمحت لجَدَّتي بأن تقابل الكثيرين.

تُوفِّي والد جَدَّتي بعد أن وصلت إلى "روديسيا" بوقت قليل؛ لم تحضر الجنازة. جاءت أمها لزيارتها مرَّة واحدة عام 1953. وجدتُ صورة تجمعهما معًا عند "منظر العالم" في حديقة "ماتوبوس". وقفت بجانب جَدَّتي امرأة ممتلئة ترتدي تنُّورة وجاكيت قصيرًا. علقت حقيبتها على إحدى ذراعيها، ولم تكن تبتسم.

اعتدت أن أفكر أنه ربما كانت الشمس تضايقها، أو أنها كانت تشعر بالحرارة. أخبرتني جَدَّتي بأن البدلة كانت مصنوعة من الصوف، فهتفت في مفاجأة:

- من الصوف! لا عجب في أنها لا تبدو سعيدة!

لم أكن أتخيَّل أن بإمكان أحد أن يتسلق "منظر العالم" مرتديًا بدلة صوفية. على ظهر الصورة كُتِب بحبر أزرق "أنا وماما 1952". تلك كانت الصورة الوحيدة التي رأيت فيها جَدَّة أُمِّي.

سألت جَدَّتي لماذا كانت تناديها بـ"ماما" فأخبرتني أنه هكذا كانوا ينادون أمهاتهم في "إنجلترا"، حسنًا، فقط في بعض المناطق منها، وإذا كنت من طبقة اجتماعية معينة. قالت إن أبناء الطبقة الراقية كانوا ينادون أمهاتهم بـ"مامي"؛ لكنها ظنت أن هذا سيبدو سخيفًا بعد سن معينة. هناك بعض الإنجليز الآخرين

كانوا يستخدمون "أماه". في "زيمبابوي"، نقول "أُمِّي"؛ قالت جَدَّتي إن سبب ذلك هو أننا نشاهد كثيرًا من المسلسلات والأفلام الأمريكية.

في مرحلة ما من حياتيهما، التقى جَدِّي بجدتي وتزوجا. سألت أُمِّي عندما كنت في الخامسة عشرة من عُمري أين تقابلا بالضبط، فأخبرتني أنهما تقابلا في شركة "ستوتون وجيمس". بدأ جَدِّي بالعمل هناك بعد سنة واحدة من بدء جَدَّتي بالعمل في الشركة. كان وقتها عامل بناء؛ لكن ليس بمعنى أنه كان يضع الأسمنت فوق الطوب بنفسه؛ فقد كان مشرفًا على عمليات البناء في الموقع. بعدها بشهرين تزوَّجا، ووُلد عمِّي بعد زواجهما بتسعة شهور بالضبط.

وُلد جَدِّي وتربى في "ردويسيا"، مثلما أحب دائمًا أن يشير لنفسه. قديمًا في الزمن الغابر، جاءت عائلته من "إنجلترا"؛ لكنه لم يطأها بقدمه من قبل على الإطلاق. أبعد مكان ذهب إليه كان "جنوب أفريقيا"، ومرَّة أخرى ذهب إلى "زامبيا"، عندما كانت تسمى "روديسيا الشمالية". أثناء فترت الحرب، خدم جَدِّي في منطقة "شرق أفريقيا"، غالبًا ما كان يحكي عن الوقت الذي قضاه هناك، وشعرت من خلال كلامه بأنه كان يشعر وكأنه تخلف عن الحدث الرئيسي، كما لو كان قد شارك في عرض جانبي بدلًا من العرض الأساسي.

انتقل "والي" إلى "ويلز" عام 1973. كان قد ترك "روديسيا" لمدة سنتين قبل ذلك، وذهب إلى "ديربان" آملًا في إنشاء شركته الخاصة هناك؛ لكن كل خططه فشلت. قالت أُمِّي بأن حكم الأغلبية في "روديسيا" منعه من العودة إلى "بولاوايو"، وقد علم بأنه لن يمر كثير من الوقت قبل أن تؤول "جنوب أفريقيا" إلى المصير نفسه. منذ عامين أو ثلاثة، قبل أن أنتقل للعيش مع "مارك"، كشفت لي جَدَّتي لأول مرَّة عن سر زوجها الأول المتوفى منذ زمن طويل. كالعادة، كنت قد كتبت لها طالبة منها النصح، هل أفعل ذلك أم لا أفعله، كان هذا هو السؤال. ردت عليَّ بخطاب في الوقت نفسه تقريبًا. كان هناك

وقت ترسل فيه جَدَّتي خطابًا إليَّ من "بولاوايـو" في يـوم الخمـيس ويصـل إليَّ في "إنجلترا" يوم السبت.

كتبت لي قائلة:

"افعليها. أعرف أن هناك العديد من الأشخاص من جـيلي يـرون أن العـيش مع شخص ما ليس فقط خطأ أو يعد خطيئة؛ لكنه أيضًا يفتقر إلى الالتزام الذي لدى أبناء وبنات جيلي. كانـت "أودري" تقـول لي في اليـوم السـابق إنـه لا شيء يدوم هذه الأيـام. حتـى الـزواج غلُـب عليـه الشـعور بأنـه إذا لم يـنجح، فمـن الممكن الحصول على الطلاق وإعطاء شخص آخر الفرصة؛ لكنني لست متأكـدة يا "إيلي". لست متأكدة من أن هناك أي شيء دام ونحن شباب. كنا فقط نبقـى لأن هذا هو ما كان الناس يفعلونه حينها. هل يستحق الأمر تعاستك؟

لقد تعرَّفت على زوجي الأول "تيموثي" في مدة أقل من شـهر قبـل زواجنـا. أقـل من شهر! فيم كنت أفكر وانظري إلى ماذا قادني هـذا الأمـر! لم أكـن أعرفـه، ولم يكـن يعرفني. لم أكن أحبه أيضًا. كان يعرف ذلك؛ ولكن ذلك لم يهم، لأنه كان يحـب امـرأة أخرى، ولأننا كنا في وقت الحرب، والحرب تفعل أشياء غريبة في الناس يا "إيلي".

قضينا أوَّل ليلة معًا في بار بالقرب من آبار "تنبريـدج". قضـينا ليلـة واحـدة فقط معًا قبل أن يعود إلى فرقته العسـكرية. تناولنـا عشـاءنا في غرفـة الطعـام بالبار. كانت معتمة – لم يكن مصرحًا لنا بالإضاءة. لم أكن أدري ما الذي علي أن أفعله أو أقوله. كنت بريئة للغاية وساذجة، كنت في السابعة عشرة مـن عُمـري فقط وقتها. بقى هو في الأسفل وتنـاول شرابًـا في البـار. ذهبـت أنـا إلى غرفتنـا، وارتديت ملابـس النـوم، وارتميـت عـلى السريـر، ورفعـت غطـاء السريـر فـوق جسدي وحتى أذني. لم يأتِ لوقت طويل. كنت عـلى وشـك أن أنـام. ظـل رأسي يدور في اتجـاه واحـد ثـم انتفضـت جالسـة في ارتعاشـة ونظـرت حـولي باحثـة

عنه. حاولت أن أنظر في ساعتي في ضوء القمر الباهت الذي تسلل إلى داخل الغرفة، ولكنني لم أتمكن من معرفة الوقت.

عندما صعد أخيرًا كان ثملًا. تلعثم أمام الباب، وبدا كأنه يبحث عن المفتاح على الرغم من أن الباب لم يكن مغلقًا. ظل رأسه مائلًا للأمام عندما دخل. بدا وكأنه لا يريد أن ينظر إليَّ، كأن الباب كان مُثيرًا للاهتمام أكثر منِّي. مال برأسه على الباب، ومد ذراعيه كأنه كان يرقص مع الباب، وكأن الباب مصدر للراحة، يمده بشيء لم يكن بإمكاني منحه إياه.

ناديته فلم يرد عليَّ، لذا فقد قمت من السرير واتجهت إليه وحاولت أن أساعده في خلع زيه؛ لكنه لم يساعدني في فعل ذلك وكأنه كان ميتًا. اضطررت أن أحرك يديه بنفسي، وقد كان ثقيلًا، وظللت أتخبَّط أثناء ذلك. سألته:

- ما الأمر؟ ما الأمر؟

سقط على الأرض وتراجع ناحية الباب وفجأة رأيته يبكي. أمسك رأسه بيديه، واستلقى على جنبه وبكى. كان مثل الطفل، طفل رضيع يبكي طلبًا لأمه.

لم أكن أعرف ما المشكلة. اعتقدت حينها أنها الحرب؛ لكنني أعتقد الآن أنه كان يبكي لأنه قد تزوَّج من المرأة غير المناسبة. في حياة أخرى، في حياتك أنت يا "إيلي" ربما كان من الممكن أن نقضي بعض الليالي في السرير معًا. ربما حتى استطعنا أن نعيش معًا، على الرغم من أنني أشك في ذلك. لم نكن لنتزوج من المؤكد. كم كانت لتصبح حياتي مختلفة، وحياتك أنت أيضًا. أنت هنا فقط بسببه هو، مما يوضح أن كل طريق نسلكه له مزاياه وعيوبه.

لم نتمم زواجنا، وقد قُتِل بعدها بشهرين فقط. أمضيت وقتًا طويلًا أتظاهر بالحزن لوفاته؛ لكنني لم أتمكن من مقاومة الشعور بالراحة. كنت سعيدة لأنني لم أعطه نفسي بتلك الطريقة، أن أحتضنه وهو يبكي حتى ينام؛ لكن عندما مات، لم يأخذ معه هذا الجزء منِّي. لقد تُرِكت كاملة ولا أقصد جسديًّا، بل روحيًّا. مرَّ

وقت طويل قبل أن أقع في الحب فعليًا؛ لكن عندما حدث، كنت على استعداد أن أقدم كل شيء.

افعليها يا "إيلي"، كوني حرة. أحبي "مارك" بكل جوارحك؛ لكن تذكَّري ألا تمنحيه كل شيء. إياك أن تمنحي رجلًا كل شيء يا "إيلي"، لأن الرجال عندما يحصلون على كل شيء منك، لن يتبقى لك منهم شيء سوى بعض الذكريات".

(13)

يومًا ما سمعت أُمِّي تتحدَّث في التليفون مع جدَّتي؛ كان يبدو أن شخصًا ما آتيًا. سمعتها تسأل:

- متى سيأتي يا أُمِّي؟ هذا جميل. سيكون شيئًا رائعًا أن نراه بعد كل هذه الفترة الطويلة. أتمنى ألا يكون عجوزًا على السفر. سبعة وستون، فقط؟ كنت أعتقد أنه أكبر من هذا. يا الله، أنا واثقة من أنه سيجد أن العديد من الأمور قد تغيَّرت.

تظاهرت بأنني وجدت شيئًا ما مثيرًا للاهتمام بجانب التليفون، وقد نفد صبري لمعرفة من الذي في طريقه إلينا بالضبط. نظرت لي أُمِّي مبتسمة وهي تكمل حديثها مع جَدَّتي على التليفون. ظللت أتململ بجانبها. عندما أنهت أُمِّي المكالمة، قفزت عليها والفضول يأكلني لمعرفة هوية الزائر المرتقب. قالت أُمِّي وهي تتجه للمطبخ، وتلف مريلة المطبخ حول وسطها:

- لم تقابليه من قبل يا "إيلي". إنه العم "والي".

قلت ضاحكة:

- "والي"، إنه اسم مضحك.

شرحت لي أمي:

- إنه اختصار لاسم "كاداوالدر".

مما جعلني أضحك أكثر.

- كان يعيش العم "والي" في "زيمبابوي"؛ لكنه رحل منذ وقت طويل، قبل أن تولدي.

كان هذا بالطبع منذ زمن طويل،لا يمكنني أن أتخيل العالم دون وجودي فيه، لم أتمكن من استيعاب أن العالم كان موجودًا قبل ولادتي بوقت طويل.

لاحقًا سمعتها تخبر أبي عن زيارة "والي" الوشيكة:

- يبدو أنه تحدث إليها في الأسبوع الماضي، وسيتصل بها قريبًا ليؤكد لها موعد وصوله.

فقال أبي:

- الأسبوع الماضي؟ لقد مرَّ بعض الوقت كي تنقل إلينا الخبر. سيصل الرجل قريبًا.

- أعتقد أنها لم ترد أن تخبرنا بسُرعة خوفًا من أن يبدل رأيه. إن أُمِّي تؤمن بمثل هذه الخرافات.

سأل أبي بشكل غير ملائم:

- مثل ماذا؟

- حسنًا، هي لا تحب أن تتحدث عن الأمور قبل حدوثها. أنت تتذكر كيف كانت عندما كنت حاملًا بـ"إيلي". لم تردني أن أخبر أي أحد قبل أن ألدها. أعتقد أنها اشترت ملابس الطفلة بمُجرَّد أن ولدتها.

كان العم "والي" سيقيم مع جَدَّتي، على الرغم من عدم وجود مساحة كافية في شقتها. عرضت أُمِّي أن يبقى في منزلنا؛ لكن جَدَّتي تمسكت بقرارها في عناد. أعتقد أن الأمر كان له علاقة بجَدِّي. لسبب ما، لم ترد أن يبقى الاثنان معًا في المنزل نفسه.

كان "والي" سيأتي قبل الكريسماس بأسبوعين ويعود قبل رأس السنة مباشرة. أرادت جَدَّتي أن يبقى مدة أطول، مدة قد تصل لعدة أشهر. بما أنه أصبح الآن متقاعدًا، وليس لديه ما يعود مسرعًا لأجله. لكن العم "والي" كان عنيدًا هو الآخر. قال إن أسبوعين مدة كافية بجانب أنه قد حجز التذاكر مسبقًا.

قبل وصول "والي" بعدة أيام، بدت جَدَّتي هادئة بغرابة وتائهة في أفكارها الخاصة. كان الوقت إجازة من المدرسة، لذا فقد قضيت كثيرًا من الوقت في

شقتها. أخذت إجازة من عملها لمدة أسبوعين، وكانت ستأخذ أسبوع آخر إجازة بين الكريسماس ورأس السنة الجديدة، حيث سيكون قسم المحاسبة في محل "هاجسون وسلاي" مغلقًا وقتها. في تلك الأيام، كانت العديد من أماكن العمل تأخذ إجازة وقت الأعياد. بعض الأشخاص يسافرون لزيارة أصدقائهم وعائلاتهم في "جنوب أفريقيا" أو يذهبون في رحلات صيد في "كاريبا" أو بحيرة "كايل". لم يكن لدينا أي أصدقاء أو أقارب في "جنوب أفريقيا"، وقالت أُمِّي إن الصيد لم يكن نشاطًا مناسبًا لقضاء الكريسماس: "الروديسيون" فقط هم من يفعلون ذلك. سواء كان الجو ممطرًا أو مشمسًا للغاية، كنا نطهو ديكًا روميًّا وحلوى البودينج، ونغني ترانيم عيد الميلاد حول الشجرة.

عندما كانت جَدَّتي لا تزال تعيش معنا كانت تهتم كثيرًا بنظافة ونظام المنزل. كانت تمضي كثيرًا من الوقت في التنظيف والتلميع حتى يبدو منزلنا كصالة عرض. حتى لو كان هناك شخص ما آتيًا فقط من أجل فنجان شاي، كانت تنظف الأثاث من الغبار، وكذلك السجاجيد وتلمع أوراق النباتات بالكامل. لطالما تساءلت ما إذا وجد الزائرون رائحة المنظف ذات عطر الليمون خانقة. الآن وقد أصبحت تعيش بمفردها وتذهب للعمل كل يوم، أصبحت أكثر راحة تجاه روتين تنظيفها. على الرغم من أن كل شيء لا يزال مرتبًا وأنيقًا، ليس الأمر مثل نظافة وأناقة الماضي الشديدين. كان غريبًا أنه قبل وصول "والي" بأسبوع لم تقم بفعل أي شيء. جلست تقريبًا دون أي حركة في كرسيها في الصالة تحملق في الفراغ. لم يبدُ أن هناك شيئًا ما قادرًا على جعلها تتحرك، ولا حتى بأن تتحمس لأي شيء. كان هذا الوقت تقريبًا هو الوقت الوحيد الذي رأيت فيه جَدَّتي حزينة هكذا. حتى عندما كانت تعيش معنا وتشاجرت مع جَدِّي حول شيء ما، لم أرها أبدًا بائسة بهذا الشكل. كان "مايلز" يتصل بها مرَّتين يوميًّا تقريبًا، يدعوها للخروج أو يقترح عليها أن يأتي إليها؛ لكنها ظلت تتجنبه.

كانت الطريقة التي تتصرف بها جَـدَّتي طـوال الأسـبوع تـوحي بأنهـا لم تكـن تتطلع لمقابلة العم "والي" على الإطلاق. ربما كانت تخشى من ألا تسير الأمور عـلى ما يُرام. قالت أُمِّـي إنـه سيجد كـل شيء قـد تغـير، وعنـدما سـألتها مـاذا تعنـي، أخبرتني بأن البلد قد تغيرت كثيراً عمَّا كانت عليه عندما كان العـم "والي" لا يـزال يعيش فيها، ربما لن يحبهـا عـلى هـذا الشـكل. قـال جَـدِّي كالعـادة إن الأمـور في تدهور مستمر منذ إعلان الاستقلال وذكَّرتـه أُمِّـي كـم كنـا محظـوظين؛ كـان مـن الممكن أن يطردنا "موجابي" عام 1980، وأين كنا سنذهب حينها؟ مع ذلـك، فقـد كانت هي وجَدِّي متفقين في بعض الأمور. فالمعـايير لم تكـن الشيء الوحيـد الـذي انخفض؛ لكن تغير الناس أيضًا؛ أصبحوا غير ودودين، وأكثر حذرًا واهتمامًـا بالمـال. ظننت أنه ربما كانت جَدَّتي خائفة من أن يريدها العـم "والي" أن تنتقـل معـه إلى "ويلز"، كما أقنعها من قبل أن تنتقل معه إلى "بولاوايو".

ذهبت مع أُمِّي وجَدَّتي إلى المطـار لاسـتقبال العـم "والي". وقفنـا في البلكونـة، ورأيناه وهو يخرج من الطائرة وينزل السلم. لوَّحت جَدَّتي إليـه كالمجنونـة، وظـل هو واقفًا على أرض مدرج الإقلاع ينظر ناحيتها، ثم لوَّح لها هو الآخر بدوره.

العم "والي" هو الشخص الوحيد الذي عرفته في حيـاتي والـذي بإمكـاني أن أصـفه بأنه يمتلك وجهًا مُشعًا. كان ضخمًا ومستديرًا ذا لون زهري ورأسه شبه أصـلع. ذكـرني بصور الشمس التي اعتدت على رسمها في المدرسة؛ شمس ضخمة مشـعة ذات وجـه مبتسم. عندما كان يبتسم العم "والي"، كان بإمكاني الشعور بالحرارة من وجهه. اعتـاد الابتسام كثيراً، وإلقاء كثير من النكات وإضحاكنا جميعًا.

في اليوم التالي لوصول العم "والي"، كنت في شقة جَدَّتي وكنا نخبـز خبـز الزنجبيـل وشكلناه على هيئة أشخاص. انضم إلينا وقام بخلط المكونات معًا وهو يغني:

- "أنت شمسي، شمسي الوحيدة. أنت التي تسعدينني عندما تكون السـماء رمادية من فوقي".

ذات مرَّة، أمسك جَدَّتي من وسطها وأدارها حول نفسها في المطبخ وهو يغني:

- "هل تبتسمين لإغواء حبيب يا "موناليزا"، أم هل هذه هي طريقتك لإخفاء قلبك المكسور؟".

كان مرحًا، وكانت جَدَّتي تشعر بالراحة ومختلفة تمامًا عمًّا كانت عليه قبل وصوله. تحدثت عن الأماكن التي تريد أن تصطحبه إليها أثناء وجوده في "زيمبابوي" وأي من أصدقائه لا يزالون في البلد، ويود أن يذهب لمقابلتهم.

عندما كان خبز الزنجبيل في الفرن، أعدت جَدَّتي الشاي في براد ووضعته على صينية بجانب ثلاثة فناجين وأطباق. أحببت الرسمية في الإعداد: تسخين براد الشاي أولًا بالقليل من الماء، وانتظار الشاي حتى يغلي قبل أن تصبه، وصوت صلصلة الفناجين الصينية، وصوت الرنين الذي أصدره غطاء إبريق اللبن وهي تضعه على الصينية.

تحدثت جَدَّتي مع "والي" أثناء شرب الشاي عن الماضي: العمل في "ستوتون وجايمس"، والعيش في "روديسيا" بعد الحرب، والناس الذين عرفوهم، والأماكن التي ذهبوا إليها. نظرت إلى العم "والي"، وكلما نظرت إليه أكثر كلما بدا وجهه مألوفًا أكثر. لم يبدُ لي بأنه قد وصل لتوِّه وأنني أعرفه فقط منذ عدة أيام.

كان لديه ساعة كبيرة يضعها في جيبه لأن "أستيكها" الجلدي انقطع. كان يخرجها من جيبه كثيرًا ليعرف الوقت وكان بإمكاني أن أسمع صوت تكتكة عقاربها. أردت أن أراها لكنه لم يسمح لي بلمسها، كان يعيدها لجيبه مسرعًا بمُجرَّد أن أمد يدي تجاهها. سأل العم "والي" وهو يسترخي على الكنبة ممسكًا بفنجان شاي في يده وفتافيت من خبز الزنجبيل عالقة في ذقنه:

- هل لديك صور قديمة؟

بدت جَدَّتي غير مستريحة، وهزَّت رأسها قائلة:

- لديَّ صورة واحدة فقط.

ثم نهضت واتجهت لغرفتها. سمعتها وهي تفتش في أحد أدراجها ثم عادت إلى الصالة مرَّة أخرى ممسكة بصورة. كانت صورة قديمة بالأبيض والأسود مطبوعة على بطاقة بريدية. على ظهر الصورة في الأعلى كُتب بحروف رمادية باهتة "بطاقة بريدية". كُتب في الركن الأيسر السفلي من الصورة: "هاري لوين وأبناؤه، كارديف". كان الأمر غريبًا بالنسبة لي أن يرسل الناس بطاقات بريدية عليها صورهم لأصدقائهم وأقاربهم. رأيت "والي" في الصورة رجلًا سمينًا ذا رأس كبير مستدير وخط شعر متراجع، على الرغم من أنه قال إنه لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره عندما التُقطت له هذه الصورة. كان يرتدي بدلة أنيقة وذراعاه خلف ظهره. قالت جَدَّتي وهي تعطي الصورة لـ"والي":

- هذه هي الصورة الوحيدة التي أمتلكها.

شعرت بأن الصور الأخرى كانت في منزل أبي وأُمِّي، وأن جَدَّتي تركتها هناك عندما رحلت. أخذ "والي" الصورة وضحك، وقال:

- يا للأسف، كان ينبغي عليَّ أن أحضر صوري. انظري هنا.

اقترب مني وهو يريني الصورة، وأكمل كلامه:

- هذا أنا عندما كنت شابًا وسيمًا.

ضحكت جَدَّتي، وقالت:

- والآن أنت عجوز وسمين.

ضحكت وفتح العم "والي" عينيه على قدر اتساعهما، وقال:

- علامَ تضحكين أيتها الصغيرة؟

واقترب مني ودغدغني، فضحكت، وركلته في دفاع عن نفسي، كذلك ضحكت جَدَّتي. لقد حظينا بكثير من المرح في ذلك اليوم.

جاء العم "والي" لمنزلنا أيضًا. كانت أُمِّي شغوفة به وكانا يتحدثان كثيرًا جدًّا أثناء جلوسهما في البلكونة، أو أثناء تناول الطعام. أعدت أُمِّي فطيرة الليمون الشهيرة،

التي كانت تعدها فقط عندما يزورنا شخص مهم أو في يوم عيد ميلاد أبي فقط. انسجم أيضًا مع جَدِّي، وهو ما كان غريبًا للغاية، بما أن جَدِّي لا ينسجم مع الكثير من الناس، ولم يبدُ أن "والي" يحمل أي ضغينة تجاهه على الإطلاق. كنت مُعتادة على سياسات أرض الملعب مع أصدقائي، حيث إنه إذا لم يكن شخصًا ما صديقك، لم يكن مسموحًا لك بأن تكون صديقًا لأصدقائه أيضًا. أعتقد أن جَدَّتي لم تخبر "والي" عن حادثة إصابة ذراعها، وإلا كان ليضرب جَدِّي. ظننت في البداية أنه لا يعرف أن جَدِّي وجَدَّتي قد انفصلا. ربما كانوا قد أخبروه هو أيضًا عن قصة ديكور الشقة. مع ذلك، اتضح لي أنه كان يعرف كل شيء؛ ولكنه اختار ألا يتدخل في الأمر.

شعرت مرَّة أو مرتين بأنني قابلت العم "والي" من قبل، أو على الأقل رأيت صورة له، على الرغم من أنني لا أتذكَّر أي صور رأيته فيها. أعتقد أنني شعرت بالراحة التامة معه، كأنني أعرفه منذ زمن طويل.

ذات يوم بعد الظهر، سمعت أُمِّي تخبره كم هي مستاءة من انفصال والديها، وظل يستمع إليها باهتمام. لم يعلق على ما كانت تقوله، أو حتى يقاطعها ولو لمرَّة واحدة. كان العم "والي" مستمعًا رائعًا، كان يجلس في صبر وهو ممسك بيدها إلى أن انتهت من التحدث. بعد ذلك، ظل الاثنان جالسين في صمت تام لبعض الوقت، ناظرين تجاه الحديقة المنقوعة بمياه أمطار منتصف ديسمبر، لكن كان بإمكاني أن أرى اهتمامه البالغ بحالة أُمِّي. أحب الجميع "والي"؛ ووالدايَ، وجَدِّي، وجَدَّتي، وكل من قابلهم، أو تم تقديمه إليهم. لم يكن بإمكان أي أحد ألا يحب العم "والي".

(14)

لن أنسى أبدًا يوم السبت السابق للكريسماس عام 1984. كانت السماء تمطر طوال الليل، وهو ما كان غريبًا، حيث إنها عادة ما كانت تمطر بعد الظهر. إن الدمج بين الأعياد الوشيكة وحقيقة أنني استيقظت على صوت الرعد جعلني في شدة حماسي، وكأن شيئًا ما مميزًا سيحدث في ذلك اليوم. في "أفريقيا"، تحل الأمطار محل الثلج في غرس إحساس الدفء في الكريسماس والبهجة الموسمية. ثرثرت كثيرًا أثناء تناولي الإفطار، فسألني أبي ما إذا كنت قد ابتلعت راديو. أتخمتُ عائلتي بقصص فظيعة عن معلماتي في المدرسة حتى أمرتني أُمِّي بأن أذهب لأستعد من أجل الذهاب لجَدَّتي وهي تضحك كثيرًا. أحببت أن أكون مهرجة في بعض الأوقات، وعلى الأقل كنت واثقة من أنني سأعامل معاملة الأطفال في المنزل.

في الطريق لشقة جَدَّتي، جلست، وفكَّرت في قائمة لما أود أن أشتريه لكل شخص من أجل الكريسماس، بما في ذلك الكلاب والقطة. علمت لماذا لم يصطحبوني معهم أثناء التسوق: كان أبي وأُمِّي سيشتريان من أجلي هدية الكريسماس ولم يريداني معهما. وعدتهما جَدَّتي بأن تساعدني في إعداد زينة شجرة الكريسماس عن طريق وضع الغراء والزينة اللامعة على الكرات الملونة، ثم ربط خيط على قمتها. قمنا بعمل كثير منها في المدرسة؛ لكن كان لديَّ فكرة بأن أغطي الشجرة بالكامل بهذه الكرات، وأفاجئ الجميع بجمالها. كان العم "والي" مرحًا، حتى إنني كنت أعرف أنه سيساعدني أيضًا.

أمام العمارة التي كانت تسكن بها جَدَّتي يوجد بعض الأماكن الفارغة لإيقاف سيارات الزائرين؛ أمَّا عن موقف سيارات السكان فكان خلف المبنى. عندما وصلنا، وجدنا سيارة تقف بالعرض عبر ثلاثة أماكن مخصصة لثلاث سيارات، كانت الـ"فورد كورتينا" البيضاء التي يملكها "مايلز تريفيليان". بدت وكأنها قرش أو تمساح يكمن بهدوء في المياه، في انتظار أن يختطف سباحًا مطمئنًا. كان مرسومًا على السيارة ما يبدو وكأنه زوج من الأجنحة بارز حول كل من المصباحين الخلفيين، جعلها تبدو وكأنها ليست فقط كائنًا يعيش في المياه فقط، بل بإمكانه أيضًا أن يقفز ويلتهم كائنات من الهواء. كانت هذه هي المرَّة الأولى التي أرى فيها "مايلز" منذ جاء العم "والي". كنت أتمنى أن يظل بعيدًا عنا لمدة أطول. أشار أبي بيد مفتوحة تجاه السيارة هاتفًا:

- بعض الناس لا يحملون أي اعتبار لغيرهم! من هذا المهرج؟

جلست متوترة في الكرسي الخلفي خائفة من أن يأتي "مايلز" في تلك اللحظة ويركب سيارته ويسأله أبي من يظن نفسه بحق الجحيم كي يوقف سيارته بهذا الشكل. ثم تأتي جَدَّتي وتأخذ صف "مايلز" وتنكشف علاقتهما وقتها. يكتشف والداي أنني كنت على علم بالأمر منذ البداية وسيغضبان مني. ستجرح أُمِّي وتتجنبني، رأيتها في خيالي وهي تبكي بهدوء وتبعدني عنها في كل مرَّة أحاول أن ألمسها فيها.

أخرج مسرعة من السيارة وأنا أحمل في يدي كيسًا بلاستيكيًّا وكرات الزينة، والزينة اللامعة، والغراء، والخيط، وبدأت في المشي بعيدًا عنهما قبل أن تنتهي أُمِّي من تعليماتها لي حول سلوكي وألا أتعب جَدَّتي. عند نقطة ما، ظننت أنها ستترجل من السيارة، وتأتي معي إلى الداخل؛ لكنها لم تفعل لحسن الحظ. شعرت بالارتياح الشديد عندما رأيت السيارة تبتعد في النهاية. اقتربت من شقة

جَدَّتي بخوف شديد. كان لديَّ إحساس مشؤوم بأننا لن نصنع زينة الكريسماس ذلك اليوم. كنت على صواب.

عندما دخلت شقة جَدَّتي كانت في حالة فوضى. جلست جَدَّتي على كنبة في الصالة. كانت تضحك بشدة، وتحاول أن تقول شيئًا دون أن تتمكن من ذلك بسبب ضحكها. كان "مايلز" يجلس أمامها ويتحدث مع رجل ما واقفًا، وكان ظهره في مواجهتي، رجل أصلع طويل القامة يرتدي بنطلونًا قصيرًا وقميصًا، وشرابًا طويلًا يتدلى لأسفل ويتجمع حول كاحليه، وحذاءً رياضيًّا قديمًا. رآني "مايلز" أدخل ولكنه أكمل حديثه؛ كانت جَدَّتي مشغولة بضحكها فلم تتمكن من أن تراني في البداية. التفت الرجل الطويل تجاهي عندما سمع صوت الباب يغلق خلفي، وقال:

- مرحبًا بك يا ابنتي. هل أتيت لزيارة جَدَّتك؟

نظرت جَدَّتي في مفاجئة لرؤيتي، وحاولت أن تلملم شتات نفسها. أبعدت شعرها عن وجهها وقالت:

- "إيلي". يا للهول، لقد نسيت أنك آتية اليوم.

أدارت رأسها تجاه النافذة، وسألت:

- هل رحل أبوك وأمك؟

وكأنها كانت تريد منهما أن يعودا لأخذي مرَّة أخرى.

أجبتها بصوت منخفض وأنا أشعر بأنني غير مرغوب فيَّ:

- أجل.

- حسنًا، سنحاول أن نتعامل مع الأمر. هل قالا متى سيأتيان لاصطحابك؟

- هذا المساء، مثل كل مرَّة.

قال الرجل الغريب وهو مبتسم:

- "إيلي"، ظننتك ولدًا.

ضحك "مايلز" وكذلك جَدَّتي، وقالت:

- لا تكن غبيًّا! إنها قصة شعرها فقط، قصيرة بعض الشيء.

كنت طفلة غريبة الشكل في تلك المرحلة من حياتي، كان لديَّ ذراعان طويلتان نحيفتان ومعدة سمينة. كان شعري البني المستقيم قصيرًا للغاية، ربما ليس قصيرًا بمعايير الوقت الحالي؛ ولكنه كان قصيرًا بالنسبة لذلك الوقت. كانت القصة أطول من اللازم مما جعلني أعتاد على إبعاد الشعر عن عيني، وهي عادة استمرت معي حتى بعدما قصصت شعري أقصر، مما كان عليه وقتها. شعرت وقتها بالخجل وظللت واقفة مكاني ممسكة بحقيبة زينة الكريسماس غير الجاهزة، كنت أشعر باحمرار وجهي.

نهضت جَدَّتي من كرسيها، وسألت وهي تتجه للمطبخ:

- من يريد بعض الشاي؟ "مايلز"؟ "تريفور"؟ ماذا عنك يا "إيلي"؟ هل تناولت بعضًا منه هذا الصباح؟ لديَّ أيضًا بعض قطع بسكويت الشوكولاتة في مكان ما.

رفض "مايلز" و"تريفور" عرض جَدَّتي مما جعلها تعرض عليهما مشروبات أخرى:

- قهوة؟ شوكولاتة ساخنة؟ لبن؟

وكان الرد على كل ما عرضته هو الرفض من كليهما. قالت في النهاية مازحَة:

- بيرة؟ فودكا؟ جين وماء الصودا؟

قال "مايلز":

- بيرة.

وأضاف "تريفور":

- اجعليها اثنتين.

صرخت جَدَّتي مجيبة عليهما وهي تعود إلى الغرفة:

- اغربا عن وجهي أنتما الاثنان.

وأتت وهي تحمل صينية عليها براد شاي وفنجانين واحد لي والآخر لها.

قال "مايلز":

- ما نوع هذه الخدمة التي تقدمها لنا هنا؟ لقد عرضت علينا بيرة، أين هي؟

قالت جَدَّتي ضاحكة:

- إنها العاشرة صباحًا.

ثم جلست ووضعت الصينية وصبت الشاي.

قال "مايلز" وعلى وجهه نظرة مشككة:

- وماذا إذًا؟ من الذي سيخبرنا متى يمكننا أن نشرب ومتى لا يمكننا؟ نحن لن نكسر القانون لو شربنا الآن، أتعلمين هذا؟

رمقتني جَدَّتي بنظرة سريعة وأنا أستند على ذراع الكنبة وأنا ما أزال ممسكة بالحقيبة. قالت وهي تجلس:

- حسنًا، فلتخدم نفسك بنفسك.

هزَّ "مايلز" رأسه وأدار عينيه ثم نهض عن الكرسي. اتجه إلى المطبخ، ثم عاد ممسكًا بزجاجتي بيرة. قالت جدَّتي:

- فلتشرب في كوب من فضلك.

لكن "مايلز" كان قد جلس، ثم سأل في بلادة:

- لماذا نحتاج الأكواب؟

ثم أخذ رشفة كبيرة من الزجاجة، وقال لـ"تريفور":

- في صحتك.

فهمت من المحادثة التي تلت ذلك أن "تريفور" يعمل مع "مايلز" كهربائيًّا. كان في أوَّل الثلاثينيات من عمره، ومطلقًا ويعيش مع امرأة أخرى والتي كان يهزأ منها طوال مدة زيارته. كانت سمينة، وعصبية، ولديها جنون الارتياب، وتعتمد عليه أكثر من اللازم. كانت تتصل به تليفونيًّا في العمل لتتأكد من أنه هناك، وتتصل بالجرسونات في البار الذي يجلس فيه في "كوينز" كي تعرف إلى

من يتحدث، وتتصل به لتسأله متى سيعود إلى المنزل ومتى ستراه مرَّة أخرى. تشاجرا عندما طردته من الشقة، وعندما ألقت بأغراضه من البلكونة في الشارع، وذهبت إليه في البار وأهانته أمام الجميع. شعرت بالأسف من أجل "تريفور" على الرغم من أنه ظن أنني ولد في البداية. لم أكن قد تعلمت في ذلك السن ألا أثق في راوي القصص.

قال "تريفور" وهو يجلس ممسكًا برجاجة البيرة التي أعطاها له "مايلز":

- يجب أن أرحل الآن.

قال "مايلز":

- هراء. لا يوجد أحد لا يملك الوقت لزجاجة بيرة.

أعطتني جَدَّتي فنجان الشاي الذي شربته في وقت طويل فقط ليصبح لديَّ شيء ما أفعله أثناء حديثهم. كل هذا الوقت كنت أفكر أين كان العم "والي". تحدث "تريفور" عن صديقته، كذلك تحدث ثلاثتهم عن أشخاص يعرفونهم. ثم تحولت المحادثة كلها لتدور عمَّا حدث الليلة السابقة. اكتشفت أنهم قد ذهبوا للنادي البحري لحفل الكريسماس. بدا لي أن جَدَّتي استمتعت كثيرًا، وكانت تضحك على رقص "مايلز" وشيء ما قاله العم "والي" عنه، وقالت:

- حتى "والي" يمكنه أن يرقص أفضل منك. قال إنك ترقص مثل بطة مرتدية حذاءً مطاطيًّا.

ضحكت في فنجان الشاي فالتفتت جَدَّتي إليَّ وغمزت لي، وقال "مايلز" وهو يرفع زجاجة البيرة إلى فمه:

- لا أهتم بذلك.

تنهدت جَدَّتي قائلة:

- حسنًا، هو لا يمكنه الرقص مثل "فريد إستير".

قال "مايلز":

- بالضبط.

ظللنا جالسين هناك لساعتين أخريين، تناول كلًّا من "مايلز" و"تريفور" زجاجتي بيرة. تناول "تريفور" بسكويت؛ لكن "مايلز" لم يأكل شيئًا. كان بالكاد يأكل في العموم، أيًّا كان ما تجهزه جَدَّتي. كلما أعطى "مايلز" زجاجة بيرة لـ"تريفور" كان يقول ينبغي علي أن أذهب. وكلما قال ذلك كان "مايلز" يسخر منه ويخبره أن يسترخي. كنت أشعر بالملل. على الرغم من أن المحلات كانت تغلق أبوابها يوم السبت في نصف اليوم، فإن أبي وأُمِّي لن يأتيا لاصطحابي قبل وقت متأخر من المساء. تساءلت ما إذا كنا سنجهز الزينة تلك الليلة. وكأنه كان يقرأ أفكاري، سألني "مايلز":

- لماذا تحملين هذه الحقيبة هكذا؟ إنها لن تهرب منك.

احمرت وجنتاي، وقالت جَدَّتي:

- يا عزيزتي، كنا سنصنع اليوم زينة الكريسماس.

بدا "مايلز" غير مهتم، لم أظن حتى أنه كان يعرف أن الكريسماس اقترب. صاح "تريفور" وعلى وجهه نظرة حمقاء:

- الزينة، هذا لطيف.

نظرت إليه في ازدراء من تعامله معي كطفلة. قالت جَدَّتي:

- الأمر فقط أنني كنت أظن أن العم "والي" سيساعدك في عملهم، مما سيسمح لي بأن أطهو فطائر اللحم المفروم؛ لكنه خرج الآن. ذهب ليقابل صديقًا قديمًا.

قال "مايلز":

- حسنًا، لن يمكنك أن تحضريهم الآن، فنحن نتناول شرابًا.

قالت جَدَّتي مسرعة، وهي تشعر بالذنب من تهميشي:

- "إيلي"، لماذا لا تذهبين إلى المتجر وتشتري لنفسك شوكولاتة ومشروبًا؟ إنهم يبيعون هناك علب نعناع أيضًا.

ترددت في النهوض، فألحت علي جَدَّتي قائلة وهي مبتسمة:

- هيًّا اذهبي. خذي حافظة نقودي واشتري ما تريدين.

تنهدت ونهضت، ثم أخذت حافظة نقود جَدَّتي من يدها الممدودة ناحيتي، كنت أشعر بالرجلين ينظران إليَّ. قال "مايلز":

- لا تشتري كثيرًا من الحلويات، وإلا انفجرت معدتك.

كانت كلماته تخترقني مثل الحامض اللاذع. كنت أشعر بتورُّم في حلقي. قال "تريفور" وهو يدير عينيه:

- يا إلهي، يجب أن تروا كيف تبدو بطن "فال"، إنها سمينة للغاية لدرجة أن كونها تستطيع أن ترى أصابع قدميها تعد معجزة.

مشيت تجاه الباب وأنا أشعر باحمرار وجنتي. كدت أسأل جَدَّتي إذا ما كانت تريد أن أحضر لها شيئًا؛ ولكنني لم أفعل، وأكملت طريقي.

كان المتجر يقع في نهاية الطريق، وأمامه كشك صغير يمكن أن نشتري منه مشروبات معلبة باردة، وحلويات، وشوكولاتة، وأكياس الشيبسي. كانت الحلويات مجموعة من أرخص الأنواع وتباع بالتجزئة، وهي توضع في برطمان زجاجي كبير؛ بعضها لم يكن مغلقًا. لم تسمح لي أُمِّي قط بشراء هذه الحلويات، حيث إنها لم تكن تعرف من أين جاءت. كان البائع يخرج الحلويات من البرطمان بيديه العاريتين، ولم يكن معروفًا ما إذا كانت يداه نظيفتين أم لا. اشتريت قطعة شوكولاتة بالحليب وأكلتها بعد أن دفعت ثمنها مباشرة. بدأت بالمشي ناحية شقة جَدَّتي، ثم توقفت فجأة في المُنتصف. لم أكن أرغب في العودة هناك؛ فكرة وجود "مايلز" و"تريفور" لم تكن مشجعة تمامًا. عدت للكشك

واشتريت بعض حلوى النعناع. أكلت واحدة ثم حملت الباقي معي أثناء سيري البطيء إلى الشقة. جلست خارج الشقة لعدة دقائق بدلًا من الدخول مباشرَة. توقفت الأمطار خلال الصباح وظهرت الشمس كي تجفف البرك الصغيرة والعشب المبلل. جلست بجانب حائط صغير خارج الشقة وأكلت قطعة نعناع أخرى. حاولت أن أجعلها تذوب في فمي بدلًا من مضغها كي تأخذ وقتًا أطول حتى تنتهي. قلت لنفسي إنني سأعود للداخل عندما أنهيها.

عدت مُجدَّدًا لغرفة جلوس جَدَّتي ولم تكن الأمور تغيرت كثيرًا. كان "مايلز" و"تريفور" يشربان زجاجتي بيرة أخريان؛ لم يبدُ على "تريفور" أنه كان ذاهبًا لمكان ما وتوقف عن قول إنه يريد أن يرحل. كان "مايلز" يحكي موقفًا طريفًا حدث في العمل عن واحد من فنيي الكهرباء السود، والذي تسبب في انقطاع التيار الكهربائي مما جعل المدير السيد "مجريجور" يطارده إلى خارج المبنى. كاد "تريفور" يختنق من الضحك، بينما تردد جَدَّتي:

- أنتما الاثنان، أنتما قاسيان.

كان هناك شخص آخر معهم، تمكنت من التعرف عليها، حيث كانت السيدة "جيمس" التي تسكن في الشقة العلوية لشقة جَدَّتي. كانت في الأربعين من عمرها تقريبًا، مطلقة، وتعمل سكرتيرة بمدرسة. كانت السيدة "جيمس" تحبني، وتسألني طوال الوقت عن أصدقائي ومدرستي وماذا أريد أن أكون عندما أكبر. أخبرتني جَدَّتي أن سبب هذا هو أنه لم يكن لديها أطفال، ولطالما أرادت ذلك. شعرت بالأسف من أجل السيدة "جيمس"، وسمحت لها بأن تتحدث معي كلما أرادت. لم أمانع أن أجيب عن أسئلتها لأنني شعرت بأن اهتمامها بي كان حقيقيًّا، ولم تكن تحاول أن تسليني مثلما شعر بعض الكبار بأن عليهم فعل ذلك. اعتادت على أن تناديني باسم "إيليانور" لأنها اعتقدت أن هذا هو

اسمي، على الرغم من أن ذلك لم يكن صحيحًا؛ كان فقط "إيلي". بالنسبة لأي شخص آخر لم أكن لأغفر مثل هذا الخطأ؛ لكنني غفرته لها هي فقط.

لقد جاءت كي تقابل العم "والي"، حيث أخبرتها جَدَّتي بأنه سيأتي للبقاء معها لبعض الوقت. وجدته غير موجود، مما أشعرها بعدم الراحة وسط الأشخاص الموجودين، وعندما رأتني أشرق وجهها وابتسمت، صاحت:

- "إيليانور"، الفتاة التي كنت أبحث عنها. لقد خبزت الغُرَيِّبة من أجل أبناء وبنات إخوتي لتوِّي – ستأتي العائلة لزيارتي من "ديربان" هذا الكريسماس – وأريد أن يكون معي شخص مسؤول عن التذوق. لم أخبز الغُرَيِّبة من قبل وأنا قلقة من ألا يحبونها.

قلت لها وأنا أبتسم وقد احمرَّت وجنتاي:

- أوه. حسنًا.

قالت:

- رائع.

نهضت بصورة أسرع من اللازم، مما فضح تعجلها في الرحيل، وأكملت:

- تعالي معي للأعلى، وسنتناول فنجان شاي ونجربها معًا. هل تسمحين لها يا "إيفيلين"؟

نهضت جَدَّتي وأجابتها:

- بالطبع.

واتجهت لتقودها إلى الباب وهي تستطرد:

- وأنا متأكدة من أن "إيلي" لا تمانع أيضًا. أعتذر لك عن عدم وجود "والي" كي يقابلك يا "سالي".

- ليست مشكلة، بإمكانه أن يجرب الغُرَيِّبة في وقت آخر.

في شقة السيدة "جـيمس" بـالأعلى، جلسـت وشربـت عصـير برتقـال، وأكلـت الغُرَيِّبة. تحدثت السيدة "جيمس" كثيرًا، أخبرتني عن عائلتها وما يفعله أبناء وبنات إخوتها وأعمارهم. مرَّ وقت الغداء وظلت تتحدث، حتى أنها أخرجت ألبـوم صـور وأرتني صور عائلتها. كانت بعض الصور قديمة جدًّا ولم تكن ملونـة. إحـدى الصـور كانت للسيدة "جيمس" وهي لا تزال رضيعة وتحملها أمها بين يـديها. كانـت أمهـا تقف أمام سيارة وبجانبها طفل صغير ممسكًا بفستانها. قالت السيدة "جيمس" إن هذه هي أختها التي تعيش في "جنوب أفريقيا". كانت تعيش في "زيمبابوي" عنـدما كانت لا تزال تسمى "روديسيا". من الطريف أن أفكِّر بأن السيدة "جيمس" كانـت طفلة ذات يوم.

دقت الساعة تمام الثانية عندما عدت أخيرًا إلى شـقة جَـدَّتي. شـعرت بالارتيـاح الشديد لقضائي وقتًا طويلًا بعيدة عن "مايلز". كان الوضـع هادئـًا للغايـة؛ وصـلت الشمس لأوج حرارتها منذ ساعة أو أكثر فكان الجو حارًّا، وكانت فترة الظهيرة توحي بالنُّعاس. كان كل شيء وكل شخص يختبئ من الشمس، حيث كانت ساطعة للغاية خارج الشقة، وكنت أشعر بها على مؤخرة ساقيَّ وعُنقي، بينما أنزل السـلم متجهـة لشقة جَدَّتي. فتحت الباب ودخلت، كانت الشقة هادئة أيضًـا. دخلـت الصـالة، ولم أجد بها أحدًا، رأيت على الطاولة بعض زجاجات البيرة والأكواب الفارغـة، وزجاجـة جين وزجاجة ماء صودا فارغة. كان هناك طبق مـكسرات مسـكوب عـلى الطاولـة، قطعة بسكويت شوكولاتة لا تزال في الطبق وأخرى مُلقاة على الطاولة. على الكنبة، رأيت مجلة مفتوحـة عـلى صـفحة إعـلان عـن سـيارة للبيـع، والسـجادة الصـغيرة المفروشة على الأرض أمام الكنبة كانت غير مستوية.

عندما كانت جَدَّتي تعيش معنا، لم تكن مُعتادة عـلى الشرب. كانـت تتنـاول كأس نبيذ في الكريسماس، وكان هذا كافيًا لجعل استراحتها أثنـاء فـترة الظهـيرة تمتد لساعتين بدلًا ممَّا اعتادت عليه. منذ رحيلها، أصـبحتُ أراهـا تشرب الجـين

وماء الصودا في النادي البحري يوم السبت في فترات الظهيرة؛ أو يمكنني القول إنها كانت ترتشفه ببطء شديد طيلة فترة الظهيرة. غالبًا ما كان "مايلز" يعلق على سرعتها في تناول شرابها، وكانت جَدَّتي ترد عليه قائلة بأنها سيكون عليها أن تقود سيارتها حتى المنزل وكنت معها وعليها أن تهتم بي. كان "مايلز" يرمقني وقتها باستياء متمنيًا أن أكون غير موجودة هناك ذات يوم؛ حتى يكونا وحدهما. ربما كنت بالنسبة لها أكثر من مجرد حفيدتها الحبيبة، ربما كنت ضمانها الوحيد بأنها لن تسيء التصرف.

بدأ شعور بسيط بالذعر يتملكني، فاتجهت لغرفة نوم جَدَّتي. كان الباب مغلقًا، أدرت المقبض ببطء ودفعت الباب قليلًا. كانت الغرفة مظلمة، حيث كانت الستائر مسدلة. رأيت جَدَّتي مستلقية على السرير نائمة، دفعت الباب أكثر حتى اعتادت عيناي على ظلام الغرفة. فجأة رأيت عينين تحدِّقان فيَّ؛ لقد كان "مايلز". كان راقدًا بجانب جَدَّتي ويداه تحوطان وسطها. رأيته يبتسم لي ببطء وظل ناظرًا إليَّ، تمكنت وقتها فقط من أن أدرك أن جَدَّتي كانت عارية.

أغلقت الباب فأصدر صوتًا بسيطًا. شعرت بالصدمة. ابتعدت عن غرفة النوم وجلست على الكنبة محتضنة نفسي. اعتقدت أن صوت ارتطام الباب عند غلقه أيقظ جَدَّتي لكن لم يأتِ أحد. جلستُ لوقت بدا لي طويلًا. أردت العودة إلى منزلي، لكن لم أعرف كيف يمكنني فعل ذلك. لم يكن سيأتي والداي قبل ساعتين تقريبًا. كان التليفون على ترابيزة صغيرة بجانبي؛ بدا لي مرحبًا بما كنت أفكر فيه. كان عليَّ فقط أن أحمله وأتصل بتليفون المنزل، اقتربت منه ورفعت السماعة. بدا صوت الأزرار وأنا أضغط عليها عاليًا بشدَّة. فجأة، وضعت السماعة مُجدَّدًا وابتعدت لأجلس على الطرف الآخر من الكنبة حيث إنني ظننت أنني سمعت صوتًا في غرفة النوم. في النهاية أتممت الاتصال

وانتظرت كي يرد عليَّ أحد من الطرف الآخر. لم أكن أملك أي فكرة عمَّا كنت سأقوله. سمعت صوت جَدِّي يرد على التليفون في صوت مرح على غير عادته:

- "إيلي"! أين أنت؟

- في منزل جَدَّتي.

خرجت الكلمات من فمي كسقوط الحجارة في بركة ماء، والأمواج تتخبط ببعضها.. موجة وراء موجة وراء موجة. كان هناك وقفة قصيرة، ثم قال:

- أبواك ليسا هنا، إنهما يلعبان التنس.

تذكَّرت ذلك حينها، ما جعل قلبي يخفق.

- "إيلي"، هل ما زلت معي؟

لم أرد، رغبت في أن أبكي، لكنني تماسكت.

- ما الأمر؟ أين جَدَّتك؟

- لا يوجد شيء. أريد فقط العودة للمنزل.

- لماذا؟ أين جدَّتك؟ ولماذا تهمسين؟

أجبته وأنا أتمنى لو أنني لم أتصل:

- إنها نائمة. على كل حال سأراك في المنزل عندما أعود. مع السلامة يا جَدِّي.

حاولت أن أنهي المكالمة سريعًا، لكنه عاد يسألني:

- "إيلي"، هل هناك خطبٌ ما مع جَدَّتك؟ هل كل شيء على ما يُرام؟

- أجل.

صمتنا للحظة قصيرة، ثم سمعت جَدِّي يتنهد. كان تصرفًا متوقعًا منه أن يظن أن هناك شيئًا ما على غير ما يُرام.

- مع السلامة.

وضعت السماعة ثم قررت أن أخرج لانتظار أبي وأُمّي أن يأتيا لاصطحابي، مهما طال انتظاري. كنت أخشى أن تستيقظ جَدَّتي وكنت واثقة من أنني لا أرغب في أن أرى "مايلز" مجددًا. بدا وكأن الوقت يمر بشكل أسرع وأنا في الخارج.

جلست خارج المبنى في موقف سيارات الزوار، كانت سيارة "مايلز" لا تزال في مكانها نفسه تحتل مكانًا يكفي لثلاث سيارات. لا تزال تبدو مثل التمساح؛ لكن تمساحًا أكل لتوّه ورقد نائمًا في الشمس وهو راضٍ عن نفسه. كنت أحمل حقيبة الزينة غير المجهزة، أفكر طوال الوقت فيما رأيته لتوّي. كنت سعيدة لأن العم "والي" كان في الخارج حتى لا يشهد ما شهدته منذ قليل.

سمعت فجأة أصواتًا عالية قادمة من شقة جَدَّتي. كان بإمكاني أن أسمعها هي وشخص آخر يتصايحان. نهضت ومشيت حول الشقق لأصل إلى الخلف، وفزعت للغاية عندما وجدت جَدِّي هناك. لم أره لأنه دخل من المدخل الآخر؛ حيث ذهب إلى موقف سيارات السكان خلف المبنى. كانت جَدَّتي واقفة أمام الباب مرتدية ملابس غير مهندمة، كانت تصرخ قائلة إن هذه هي حياتها، وإن بإمكانها أن تفعل ما تريد بها، وكان جَدِّي يخبرها بأن حالتها تتدهور للأسوأ، وقد تنبأ هو بذلك قبل حدوثه. كيف تمكنت من أن تتركني بمفردي؟ هل كانت تشرب؟ كان بإمكانه أن يرى زجاجات فارغة في أرجاء المكان، مما جعله يخشى لها أن تتحول إلى مُدمنة على الكحول. لم يرني أي منهما، لذلك استدرت وعدت للمكان نفسه الذي كنت أجلس فيه. وقفت أرتعش على السلم الأمامي. في النهاية توصَّلت إلى حل بأن أمر بجانب المبنى حتى أصل إلى موقف سيارات السكان، كانت شاحنة جَدِّي واقفة هناك. لم تكن موصدة؛ ولكنني رأيت أنه ليس عليَّ أن أدخل. إذا كان جَدِّي يبحث عنّي فإن آخر مكان سيفكر فيه أن يبحث فيه هو شاحنته. كان ينبغي عليَّ أن أعود.

عدت بخطى بطيئة لمقدمة الشقق وأنا أشعر وكأن سكينًا باردًا انغرس في صدري؛ وجدت أُمّي هناك أيضًا. جاء والداي وأوقفا السيارة في المدخل الأمامي.

جاءت أُمِّي لتجد والديها يتشاجران وابنتها مختفية. كان جَدِّي يـتهم جَـدَّتي بأنهـا مدمنة على الكحول، وهي تنكر هذا الاتهـام بغضـب شـديد. أخـذت أُمِّـي صـف أبيها في الحال، وهي تكاد تتصرف بهستيرية بسبب اختفائي. وقف أبي يقف خلف أُمِّي بحذر شديد، وبدا غير مُسترحٍ تمامًا مثلما شـعرت. التقـت عينانـا، وابتسـم لي ابتسامة باهتة، لكنها اختفت بسُرعـة لتمتـزج مـع المشـاعر الأخـرى التـي انتابتـه حول عائلتنا في ذلك اليوم. رأتني أُمِّي فهرعـت نـاحيتي وأمسـكتني مـن ذراعـي. جذبتني حتى أوقفتني أمام جَدَّتي وكأنها تعرضني عليها مثلما تُعـرض الأدلـة عـلى المتهم في قاعة المحكمة. كنت أبكي حينها، دموعًا كبيرة ناعمة تركت آثـارًا واضـحة على وجهي. شعرت بالذنب. أنا السبب في كل ما حدث.

صرخت جَدَّتي قائلة:

- أترين؟ إنها بخير.

صرخت أُمِّي بدورها:

- بخير؟ بخير؟ هل هذا ما تسمينه بخير؟ لماذا تبكي إذًا طالما هي بخير؟

تراجعت شفتا جَدَّتي في زمجرة، وقالت:

- ليس لديَّ فكرة يا "فرانسيس"، لماذا لا تسألينها؟

لاحظت أن جَدَّتي ارتدت البلوزة مقلوبة وتساءلت ما إذا لاحـظ ذلـك أحـد منهم. قالت أُمِّي وهي تجرني من يدي:

- هيا، سنرحل من هنا. أبي، هيا بنا لنرحل.

صرخت الكلمة الأخيرة والتفتت، ولكن عينيها التقطتا حركة داخـل الشـقة، توقفت وسألت:

- من بالداخل؟

كانت لتكره أن يسمع أي أحد هذا الشجار. ارتبكت جَـدَّتي وهـزَّت رأسـها. قالت أُمِّي:

- هناك أحد ما بالداخل.

التفتت أُمِّي إليَّ وسألتني:

- "إيلي"، من بالداخل؟

ظللت واقفة في مكاني وهززت كتفيَّ.

سمعنا حينها صوت دفق المياه قادمًا من الحمَّام فشعرت بأن قلبي يغرق معها. كم كان "مايلز" أحمقًا أن يصدر صوتًا عاليًا مثل هذا. ربما لم يكن يعلم أي شيء عن هذا الشجار، أو أنه يعلم؛ لكنه لا يأبه به. دفعت أُمِّي جَدَّتي ودخلت الشقة وقابلت أمامها العم "والي" خارجًا من الحمَّام. قالت بنبرة خشنة:

- أوه، "والي" أنا آسفة جدًّا.

كانت تتنفس بصعوبة، واحمرَّت وجنتاها من الإحراج.

- ظننت أنك خرجت اليوم.

شعرت بيدها ترتعش على كتفي. فقال مازحًا:

- انتهت الحفلة، انتهت تمامًا يا صديقي.

ثم توقَّف وقال في جدِّية:

- لا توجد مشكلة. لقد عدت منذ ساعة تقريبًا، ثم نمت لبعض الوقت.

كان يبدو في حيرة بعض الشيء أمام الجميع ونحن لا نزال واقفين أمام الباب، وجه جَدِّي مسودًا من الغضب، وجه جَدَّتي أبيض وباهتًا، شفتاها مغلقتان، كأنما كانت تكتم بداخلها كثيرًا من الكلمات، أبي يقف خلف الجميع في خجل، وأنا بوجهي الملطخ بالدموع ولا أزال متشبثة بحقيبة الزينة. مرَّ "والي" بعينيه علينا، ثم توقَّف عندي. علمت أنه يعرف بأمر "مايلز". هل رأى ما رأيته، أو أنه استنتج الأمر بنفسه؟ من المؤكد أن "مايلز" لا يزال في الداخل مختبئًا في غرفة النوم. سأل العم "والي":

- هل هناك مشكلة؟

فردت عليه أُمِّي:

- كلَّا، كلَّا. لقد ظننا أننا فقدنا "إيلي" للحظة.

أصبحت يدها رطبة، وناعمة. فقال مبتسمًا محاولًا أن يخفف من حدَّة الأمر:

- أها! الآن عادت المقهورة.

ابتسمت ابتسامة متكلفة ثم أدرت رأسي في خجل. لم أكن أعلم معنى كلمة "مقهورة".

قضيت معظم وقت المساء في ذلك اليوم في غرفتي، لم أغادرها حتى لمشاهدة عرض "العرائس". جاء أبي في وقت ما وهو يتظاهر بأن شيئًا ما لم يحدث، وسألني:

- ماذا عن ساندويتش جبن على خبز التوست في العشاء؟ أعتقد أنك تناولت غداءً كبيرًا مع جَدَّتك اليوم ولست جائعة للغاية.

أومأت له بصعوبة، وتبعته إلى المطبخ. كان جَدِّي يجلس في البلكونة وحده في الظلام. كان يحمل زجاجة بيرة في يد وأراح رأسه على يده الأخرى. كانت أُمِّي جالسة بجانبه تتحدث معه بصوت منخفض قائلة:

- أعرف أنك كنت تظن أنها كانت تشرب؛ لكنني لا أعتقد أنها فعلت ذلك. منذ متى كانت أُمِّي تشرب؟ على الأقل "إيلي" بخير. هذا هو المهم.. إنها بخير. لو كان أي شيء حدث.. حسنًا.. لا أعرف ماذا كنت سأفعل.

على الرغم من أن أُمِّي تحاول أن تصلح الأمور بين والديها، فإنني علمت أنها كانت غاضبة للغاية بداخلها. كانت تكره أمها في تلك اللحظة، اخترت ألا أقترب منهما حينها.

لاحقًا في الليلة نفسها، أدرت كل أحداث اليوم في رأسي وأنا راقدة على سريري. تمنيت أن ذلك اليوم لم يحدث قط. لو أنني لم أتصل بالمنزل، لم يكن جَدِّي ليأتي مُطلقًا. لم تكن أُمِّي لتعلم أن هناك مشكلة ما لو لم يكن جَدِّي

وجَدَّتي يتشاجران عندما أتت أُمِّي. لم تكن لتظن أنني كنت مفقودة؛ كان جَدِّي هو من وضع هذه الفكرة في رأسها.

حاولت ألا أفكِّر فيما حدث، حاولت أن أفكِّر في أفكار مبهجة؛ الأعياد المقبلة، هدايا الكريسماس والشجرة. حتى إنني حاولت أن أصدق بوجود بابا نويل مرَّة أخرى. ثم الشعور بالذنب، حيث تذكَّرت قصة الكريسماس التي تحكي عن "مريم العذراء" و"يوسف" و"المسيح" الرضيع، وكيف لم تملك "العذراء مريم" خيارًا آخر سوى أن تحقق إرادة الله عندما أخبرها الملاك "جبريل" عما سيحدث. بينما أستسلم للنوم، طافت الكلمات التي قرأناها في المدرسة حولي ببطء وبإيقاع متوازن مرَّة تلو الأخرى في ذهني: "وظلت "مريم" ترى أشياءَ.. احتفظت "مريم" بهذه الأشياء وفكَّرت فيها مليًّا".

(15)

"ينبغي أن تعرف متى تحتفظ بها، ومتى تلعب بها،
وأن تعرف متى تتوقف عن اللعب،
وأن تعرف متى تهرب منه.
لا تعد نقودك أبدًا عند جلوسك على الطاولة.
سيتوفر لك الكثير من الوقت بعدما تنتهي اللعبة وتربح".
- كيني روجرز، المقامر

لم أقضِ كثيرًا من الوقت مع جَدِّي. كنا عادة نشاهد فيلم مساء الأحد على التليفزيون، وكان أحيانًا يأخذني معه إلى المدينة صباح أيام السبت.

علَّمني لعب الكوتشينة: الألعاب الحقيقية مثل الريمية، ولعبة الصبر، وبعد ذلك البوكر. علَّمني كيف أراهن، وكيف أخدع اللاعبين، كيف أحافظ على تعابير وجهي عندما أنظر لورقي للمرَّة الأولى. كان الأمر محيرًا في بعض الأوقات، مما يجعلني أفسد الأمر فيشعر جَدِّي بالاستياء منِّي. أحيانًا ما تكون قيمة ورقة معينة عالية، وأحيانًا أخرى تكون منخفضة، وغالبًا ما أضيع في عالم الكبار ذوي القواعد المتغيرة دائمًا.

أغلب الوقت، كان جَدِّي بالنسبة لي رجلًا متعكر المزاج باستمرار، خلقت الكآبة حوله حائطًا، حائط تفوح منه رائحة زيت المحركات والبيرة والسجائر

والمرارة. في أوقات أخرى، كان يُظهر نوعًا ما من الرقة ويريني شيئًا مثيرًا للاهتمام في مجلة أو كتاب يقرؤه، أو يحكي لي قصة طريفة بطريقته غير القابلة للتقليد: بوجه جامد وجاد. كان نموذجًا للرجل الـ"روديسي" وعكسه في الوقت نفسه. كان حاد الطباع مع أي شخص ذي بشرة سوداء وتعليقاته العنصرية كانت تجعلني أمتلئ بالخجل، ومع ذلك في أوقات أخرى يمكنه أن يكون طيبًا للغاية وكريمًا، حيث إنه كثيرًا ما أقرض "جايمسون" نقودًا وأعطاه ملابسه القديمة. كثيرًا ما كنت أراه يؤرجح ابنة "جايمسون" في الهواء فوق رأسه وهو يحدِّق فيها بينما تتدلى سيجارة من شفتيه وهي تضحك ويقف بجانبهما أخوها الأصغر ويداه مفرودتان وهو يبكي لأنه يريد أن يتأرجح هو الآخر.

عندما أكون غاضبة من جَدِّي، أكون غاضبة من كل شيء، من شجاراته مع جَدَّتي حول انفصالهما، وللندبة على ذراعها. على الرغم من مظهره الخارجي القاسي، تمكنت من أن أشعر بقلبه الموجوع. في بعض الأوقات، عندما كنا نقضي فترة مع بعضنا البعض، كانت تتزامن دقات قلبي مع دقات قلبه، كان بإمكاني الشعور بها، رتيبة وبطيئة ومتعبة، ليس في صدري؛ بل في حلقي، حيث يوجد ألم الدموع التي لم تنهمر.

بعد تلك المواجهة التي وقعت أمام شقة جَدَّتي، عزمت على أن أقضي وقتًا أكثر معه، أن أعتني به. ربما كان بإمكاني أن أملأ هذا الفراغ الذي يحمله بين طيات نفسه. كنت أتذكَّر كل الصفات الجيدة التي يمتلكها جَدِّي والأوقات السعيدة التي قضيناها معًا ضد "مايلز".

اعتاد جَدِّي أن يأخذني إلى حديقة الملاهي كل عام كلما جاءت إلى "بولاوايو"، حيث تتزامن مع معرض التجارة الدولي. كنا نلعب بكل الألعاب ونشتري حلوى غزل البنات أو حلوى التفاح. ولنصل إلى مكان المعرض كان يجب أن نمر بجانب شقة جَدَّتي، وكان جَدِّي يُحدِّق فيها باستمرار باحثًا عن شيء ما يعلق عليه. في

أحد أيام السبت بأبريل اللاحق لذلك الكريسماس الكارثي، رأيت سيارة "مايلز" واقفة في الخارج مما أشعرني بألم في صدري أثناء مرورنا. لم يتعرف جَدِّي على السيارة، ولكنه علَّق فقط على لون الحائط الخارجي البشع، بيج، وغير عملي.

فجأة، شعرت بأنني لا أرغب في أن أكون قريبة من شقة جَدَّتي مطلقًا. لم أكن أستطيع أن أراها من أرض المعرض، وعلى الرغم من ذلك شعرت بوجودها بقوة، كأنما هناك شيء ما أو شخص ما يراقبني. عينا "مايلز" بنظرته الهادئة الراضية عن نفسها، ضخَّم عقلي هذه الصورة، مما جعلها قوة بإمكانها ملاحقتي واختراق الحوائط والأبواب المغلقة.

قلت لجَدِّي بهدوء:

- جَدِّي، هل يمكننا الذهاب لحديقة "سينتيناري"؟ لا أرغب في الذهاب إلى حديقة "لونا".

بدا جَدِّي متفاجئًا:

- ما المشكلة؟

رفعت كتفيَّ قائلة:

- أرغب فقط في الذهاب إلى هناك.

بشكل ما، ربما شعر جَدِّي بشعوري نفسه. لم يرد أن يقترب من الشقة هو الآخر، لكن ليس بسبب "مايلز" الذي لا يعرف عنه شيئًا؛ لكن بسبب جَدَّتي نفسها.

قال وهو يلتف بالسيارة عائدًا:

- حسنًا، لا توجد مشكلة.

أوقفنا السيارة في موقف سيارات الحدائق وترجلنا من السيارة. رأينا في المقابل، على حافة أرض الحديقة، نصبًا تذكاريًّا للذين ماتوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية. قال جَدِّي وهو ينظر تجاهه:

- البريطانيون الأوغاد.

علمت فيما كان يفكر وقتها: خذلونا عند النهر. حاربوا من أجل الملك والدولة. من أجل ماذا؟ أين إمبراطوريتهم الآن؟ لم يقل شيئًا في الواقع وعبرنا البوابة. تنزهنا في أرجاء الحديقة أولًا، حيث ذهبنا لمشاهدة الطيور الموضوعة في أحد الأقفاص. كان هناك ببغاوات وطيور الحب حمراء وصفراء وخضراء. كانوا يجلسون وينادون على بعضهم البعض أو جلسوا متجاورين يهمسون باللا شيء ونحن نشاهدهم. كان هناك زهرة وردية جميلة على الأرضية بجانب القفص، وألوانها ساطعة مثل الطيور التي تقفز وتطير داخل أرجاء القفص. بينما ألمسها تراجعت انحناءات بتلاتها الناعمة كي تكشف قلبها، بدت ناعمة وهشة وتنبض بالحياة. قال جَدِّي وهو ينظر على يدي:

- زهرة الكركديه، لونها جميل.

قررت أن آخذها معي للمنزل وأضعها في المياه عندما أصل.

تجولنا في باقي الحديقة، في طريق الأشجار، وحلبة التزلج، ومحطة القطار المصغرة. ذهبنا إلى البركة الكبيرة ونظرنا عبر السور إلى البط والبجعات، أراني جَدِّي الفرق بين ذكر البط وأنثاه؛ الإناث دائمًا ألوانها باهتة، أمَّا الذكور فألوانها جميلة ساطعة. قال:

- إناث البط لا تعتمد على أشكالهن مثلما تفعلن أنتن.

وأشار إليَّ باعتباري رمز الإناث البشريات، ثم نقر على رأسه، وقال:

- إنهن الأذكى كما ترين. ليس لديهن ما يثبتنه.

بدأنا في السير عائدين إلى السيارة. كان الطريق مرصوفًا بحجارة أسمنتية مربعة كنت أحاول المشي دون أن أخطو على الحواف. سألني جَدِّي في انزعاج بسيط:

- ماذا تفعلين؟

قلت وأنا أتجاهل نبرة صوته:

- إن من سوء الحظ أن تخطو على الحواف يا جَدِّي.

أكملت سيري ورأسي منحني لأكتشف بأن جَدِّي لم يعد يمشي بجواري، وقد توقَّف قبل عدة خطوات. نظرت أمامي وفزعت عندما رأيت جَدَّتي و"مايلز" يمشيان باتجاهنا على بعد متر واحد، أو أقل. لقد رأونا هما أيضًا وأكملا سيرهما في الطريق نفسه بخطوات عسكرية كجيش يدخل بلدة محاصرة. قالت جَدَّتي لجَدِّي، بينما هي توجه نظرها ناحيتي:

- مساء الخير.

مررت يدها في شعري، وأكملت مبتسمة:

- مرحبًا يا حبيبتي، ظننت أنك ستكونين في حديقة "لونا" اليوم. أخبرتني أمك بأنك ذاهبة إلى هناك.

مرَّت لحظة صمت قبل أن تبدأ جَدَّتي ومعها "مايلز" بالتحرك مبتعدين، صاحت قائلة من خلف كتفها:

- سأراك يوم السبت المقبل. اذهبي وتناولي الآيس كريم؛ الـ"ميفي" لذيذ للغاية.

ثم أشارت في اتجاه بائع الآيس كريم. لم يقل جَدِّي كلمة واحدة، ومشينا في الاتجاه الآخر. مشيت بشكل ملائم هذه المرَّة، وأنا على علم بأنني أخطو فوق الحواف والشقوق. ظللت أفكِّر: "الحظ السيئ، سيجلب لي هذا الحظ السيئ. كانت يداي مطبقتين، وشعرت بقبضتي تتعرَّقان. فتحت يدي ونظرت إليها، رأيت الزهرة ملتوية ومبللة وأصبح لون أطرافها بنيًّا فاتحًا.

ظللت أحاول أثناء طريق العودة أن أعيد البتلات كما كانت؛ لكن القلب نفسه قد تضرر. في وقت مبكر من المساء، امتدت خطوط بنية نحيفة ملطخة حتى قلب الزهرة وتجعدت الأطراف في ارتخاء وماتت.

(16)

هبَّت علينا رياح من مكان ما، رياح خفيفة باردة لم يلحظها أحد، والتي نحتت وشكلت المنظر الطبيعي من حولنا بأصابعها الخفية. تغيرت "زيمبابوي". ماتت بعض الأشياء ببطء، تفتتت وسقطت. في السنوات الأولى من الاستقلال، بقت بعض الأشياء مثلما كانت؛ لكن بعد ذلك بمدة ليست طويلة، تغيرت الأشياء. ذهبت الأيام عندما كنا نقف في طابور من أجل مشاهدة فيلم أو مسرحية؛ أصبحت الطوابير أطول أمام محلات تأجير شرائط الفيديو، التي حصلت على أحدث الإصدارات حتى قبل دور السينما نفسها، والتي قدمت حسب طبيعتها - حيث تؤجر فيلمًا لمشاهدته في منزلك كما تحب - ما أراده الكثيرون: الخصوصية. بل كانت تقدم أكثر من مجرد الخصوصية: العزلة. اختيار من الذين تختلط بهم، مجرد وسيلة تفرقة أخرى بين الناس. جاهدت دور السينما الكبيرة لعدة سنوات لملء صالاتها التي بُنيت كي تتسع من أجل عدة مئات من الأشخاص، ويعلنون عن أنفسهم بفجور على اللوحات الإعلانية الكبيرة، حيث يقدمون الجنس والعنف في أفلام الدرجة الثانية وأبطالها المغمورين. فيلما الكونغ فو اللذان يتم عرضهما يوم الخميس في حفلة منتصف الليل حلا محل فيلم "كازابلانكا" المفضل لدى جَدَّتي أيام شبابها، وفيلم "قصة حب" المفضل لدى أُمِّي. استُبدِلت الثرثرة والإثارة، وصوت أكياس الشيبس وألواح الشوكولاتة بالصمت وبشعور البقاء وحيدًا بعد رحيل الجميع.

في السنوات الأولى من حياتي، اعتاد كثير من الناس الذهاب إلى الحديقة بعد ظهر أيام السبت والأحد. لعبوا الجولف المصغر أو ذهبوا في جولة بالقطار الذي يلف في أرجاء الحديقة. أطعموا الطيور والبط والبجع. اشتروا المشروبات الباردة وجلسوا على العشب، لكن أصبح هذا أيضًا غير شائع سريعًا. توقَّف الناس عن الذهاب إلى الحديقة؛ أصبح التجول في الأرجاء نادرًا وخطرًا أيضًا. تعرض أحدهم للطعن هناك ذات يوم، كما تعطل القطار ولم يكن لديهم قطع غيار لإصلاحه، ونُقلت الطيور والبط والبجعات لمكان آخر. ذات يوم، غرقت طفلة في البركة السوداء الراكدة، لم يتمكنوا من العثور على جسدها لعدة ساعات. الآن أصبح العشب ينمو حولها دون اهتمام من أحد، ويوجد عمود أبيض مكسور في مكان كانت تقف فيه أشياء عظيمة ذات يوم.

أصبح المجتمع الـ"زيمبابوي" الأبيض أقل تماسكًا، أكثر تشتُّتًا وعدم ثقة، أكثر ارتيابًا وحذرًا. أخفى نفسه في الأندية الرياضية والكنيسة الإنجيلية؛ وقام بالحفاظ على نقوده بعيدًا عن منازل الضواحي البعيدة وبين الحين والآخر يخرج رأسه كي ينظر حوله، ثم يهزّ رأسه، ويشعر بشعور أفضل بشأن قرار العزلة الذي اتخذه. تدريجيًّا استقر الأمر على أن يكون غفوة مؤقتة، بينما يمر العالم من جانبه.

إن أسوأ جوانب المجتمع الأبيض كانت أيضًا جلية في المجتمع الأسود، وهي النخبة الجديدة. كانوا في الأغلب أقل حساسية تجاه مصاعب الآخرين، ولم يفكروا قط في مساعدة أي أحد أقل منهم في المكانة الاجتماعية. اعتاد جَدِّي أن يقول كلما اقترب طفل من الشارع يشحذ:

- يا له من نضال من أجل الاستقلال.

نعم، كانت رياح باردة التي هبَّت علينا وجعلتنا نحتشد معًا.

أتوقف عن الكتابة. هل كل ما أكتبه شخصي أكثر من اللازم، ذاتي أكثر من اللازم، ويعبر عنِّي أكثر من اللازم؟

عندما كنت في الخامسة عشرة، قرَّرت أُمِّي أن تعود للدراسة مرَّة أخرى. كانت مفاجأة بالنسبة لنا؛ ولكن أنا وأبي فرحنا من أجلها. لم تكن مدرسة لائقة بالطبع مثل التي كنت أرتادها أنا، كانت كلية حيث ستكمل فيها تعليمها العالي. كانت قد توقفت عن الدراسة قبل أن تكمل المستوى الأخير وتعلق هذا القرار حول رقبتها مثل الوزن الزائد منذ حينها. يوم أن أخبرت جَدَّتي هذا الخبر كانت تشتري لي هدية عيد ميلادي. كان يوم سبت في أوَّل شهر أبريل. كنت قد قضيت اليوم مع جَدَّتي، ثم جاءت أُمِّي لتصطحبني في وقت الغداء. لم تعتد على البقاء لوقت طويل عندما تأتي لاصطحابي؛ بل إنها أحيانًا لم تكن تدخل الشقة من الأساس. يقلل الوقت من بعض الأشياء؛ لكن غالبًا ما تتدخل العادة لتحل محل الكبرياء والألم. مع ذلك، عندما كانت جَدَّتي تعرض على أُمِّي حينها أن تدخل لتناول فنجان شاي لم تكن أُمِّي ترفض. تدخل أُمِّي وتجلس باديًا عليها راحة غريبة داخل الشقة، حتى أنها علقت على صورة ما كانت جَدَّتي تعلقها على الحائط، كانت في مكانها منذ سبع سنوات تقريبًا، فبدا وكأنما لاحظتها أُمِّي لتوِّها.

قالت جَدَّتي وهي في المطبخ تملأ البراد بالمياه:

- هل هناك أي أخبار؟

كان هناك وقفة قصيرة، ثم ردت أمي:

- حسنًا، نعم، هناك بعض الأخبار السعيدة في الواقع.

كنت أعرف ما كانت على وشك أن تقوله. كنت أريد أن أخبر جَدَّتي بأي ثمن؛ لكن أُمِّي أخبرتني ألا أقول لها أي شيء. سألتها جَدَّتي بضحكة جافة:

- هل ربحت اليانصيب؟

ثم أتت وجلست. تجاهلت أُمِّي التعليق، وقالت بابتسامة خجولة بعض الشيء:

- سأعود للدراسة في الجامعة لإكمال المستوى العالي.

نظرت إليها جَدَّتي بحدَّة، وقالت:

- في عمرك هذا؟ فيم سيفيدك هذا؟

سألتها أُمِّي في ارتباك:

- فيم سيفيدني؟ أريد أن أكمل تعليمي، هذا كل ما في الأمر.

هزَّت جَدَّتي رأسها مرَّة واحدة ولم ترد. سألتها أُمِّي في استياء:

- ماذا؟ لطالما أردت أن أكمل تعليمي، وأنت تعلمين ذلك. أنا لست مسنة. ليس هناك علاقة بين التعليم والعمر. ومن يدري؟ ربما حتى أرغب في أن أحصل على درجة ماجستير.

لم تكن مسنة بالفعل؛ كان هذا حقيقيًّا، لقد أنجبتني عندما كانت في العشرين من عمرها، قبل عيد ميلادها الحادي والعشرين بشهرين. أنجبت جَدَّتي أُمِّي عندما كانت في السَّادسة والعشرين، لم تكن مسنة هي الأخرى.

قامت جَدَّتي واتجهت للمطبخ، تلمست أُمِّي خاتم زواجها في قلق. قالت جَدَّتي وهي تعود مُجدَّدًا للغرفة وهي تحمل صينية عليها فناجين شاي وأطباقها:

- لديَّ شيء ما أخبرك به أنا أيضًا.

نظرت إليها أُمِّي. قالت جَدَّتي:

- سأنتقل إلى منزل آخر.

ثم جلست. جلست مستقيمة الظهر تمامًا، مثلما كانت تجلس وهي تحاول أن تثبت نقطة ما، ولم تقترب من الصينية كي تصب الشاي مفضلة أن تتركها عند متناول يدها مما أعطى طريقة تقديمها لفناجين الشاي إحساسًا بالتوهج. قالت أُمِّي:

- أوه.

مرَّت لحظة صمت بينهما قبل أن تستطرد أُمِّي:

- أنت لن تتزوجي، أليس كذلك؟

زفـرت جَـدَّتي بحـدة وأدارت عينهـا بعيـدًا، كانـت قـدماها متقـاطعتين، وإحداهما تنقر على الأرض في عصبية مثل ذيل القطة قبـل أن تنشـب مخالبهـا في الشخص المقابل لها، وقالت:

- إنني متزوجة بالفعل، من أبيك.

قالت أُمِّي مدافعة:

- أعلم، أردت فقط، حسنًا، أن أعرف.

- كلَّا، لن أتزوج مُجدَّدًا أبدًا. هذه هي حياتي أنا الآن.

مرَّت فترة صمت لم يقطعها سوى الصـوت الـذي كنـت أصـدره وأنـا أشرب الشاي. كنت أشعر به، ساخنًا ومحلى وهو ينزلق عبر حلقي، مثل سـكين الجـزار وهو يقطع الكبد. ثم سألتها أُمِّي:

- إلى أين ستنتقلين؟

قالت جَـدَّتي باقتضـاب وحسـم وهـي تقطـع جـزءًا مـن كيكـة "فيكتوريـا" الإسفنجية إلى ثلاث قطع صغيرة:

- الضواحي، شارع "لارسون". تريدين كيك؟

- لا، شـكرًا. الضـواحي؟ كيـف سـيمكنك تحمـل تكـاليف العـيش هنـاك؟ ستتقاعدين عن العمل في نهاية هذه السنة، ألـيس كـذلك؟ أم أن هـذه الخطـة تغيرت أيضًا؟

- نعم، سوف أتقاعد في نهاية هذه السنة، وشكرًا لك، سوف يكـون بإمكـاني أن أعيش في راحة في الضواحي. لديَّ بعض المدخرات، ولديَّ معاشي، و..

توقفت هنا للحظة، ثم أكملت:

- لقد قررت أن أقبل مستأجرًا.

أغلقت أُمِّي عينيها لثانية قبل أن تقول:

- إذًا فليس بإمكانك تحمل هـذه التكـاليف، ألـيس كـذلك؟ وإلا مـا كنـت لتحتاجين إلى مستأجر.

انتفضت ساق جَدَّتي للأعلى مُجدَّدًا، وقالت:

- إنه منزل ذو ثلاث غرف، سأحتاج إلى الصحبة.

- ثلاث غرف! يا إلهي يا أمي! لأي شيء سـتحتاجين أن تعـيشي في منـزل ذي ثلاث غرف في سنك هذه، بينما كنت تعيشين في راحة تامة في شقة ذات غرفتين فقط منذ سنوات عديدة؟

- هذه الشقة لا تحتوي على غرفتين يا "فرانسيس". إن بها غرفة نـوم واحـدة، وغرفة خزانة. أحتاج مكانًا أكبر كي أحصـل عـلى غرفـة نـوم أفضـل، وأحصـل عـلى مستأجر من أجل الصحبة والأمان، وأستعمل الغرفة الثالثة عندما يأتيني زوار.

هنا أشـارت نـاحيتي. أشـاحت أُمِّـي بعينيهـا. أردت أن أقـول بـأنني لسـت معترضة على الغرفـة الصـغيرة التـي كنـت أنـام فيهـا، لم يكـن عليهـا أن تنتقـل بسببي. قالت جَدَّتي وهي تضع الفنجان على الطبق بتأنٍّ:

- فكِّري كما شئت. لست مضطرة لأن أبرر لك أي شيء أفعله في حياتي.

قالت أُمِّي في سُخرية:

- هذا من المؤكد. منذ متى وأنت تأبهين لما أفكِّر فيه؟

عندما ركبنا السيارة ذلـك اليـوم، بـدت أُمِّـي حزينـة للغايـة. وجـدت عـلى الكرسي المجاور لكرسي السائق كيسًا بلاستيكيًّا، أزحته كي أجلس. سألت أُمِّي وأنا أنظر بداخله:

- ما هذا؟

- جرِّبيه وأخبريني إن كان يناسب مقاسك. لم أعرف ما الـذي كـان عـليَّ أن أشتريه من أجلك في عيد ميلادك. الأطفال تكبر بسُرعة هذه الأيام.

وجدت في الكيس بلوزة وبنطلون جينز، قلت لها:

- إنهما جميلان.

قالت أُمِّي وهي تقود السيارة إلى الخلف:

- لا تبدين متحمسة.

أكدت عليها وأنا أحاول أن أشعرها بشعور أفضل:

- كلَّا، إنهما جميلان فعلًا.

قالت عندما توقفنا في إشارة المرور:

- أنا آسفة، ليس مفاجأة كبيرة على كل حال، أليس كذلك؟

تنهَّدت وأمالت رأسها على كفِّها، وكان مرفقها الأيمن يتَّكئ على النافذة. قلت لها:

- لا بأس. أنا لم أعد طفلة بعد الآن.

(17)

عادت أُمِّي للكلية، وبعدها للعمل، ما منحني حرية جديدة، فلم أعد مركز اهتمام أُمِّي بعد هذا. بدأت بقضاء أوقات أكثر مع جَدَّتي التي انتقلت من شقتها إلى منزل صغير حديث في الضواحي. تقاعدت جَدَّتي مثلما قالت، وركَّزت كل طاقتها في منزلها الجديد. كان لديها حديقة جميلة تمتلئ في الصيف بالزهور والشجيرات والطيور مثلما تكون في الشتاء الجاف أيضًا. كان العشب الأخضر أمام المنزل محاط بأحواض زهور مثل: زهور البتونيا، والآذريون، وزهرة الكركديه، والورد، وشجيرات الكوبية، واللافندر، ونبات إبرة الراعي، وزهور البنفسج الأفريقية، والبازلاء الحلوة، وزهور الخشخاش. كما أنها زرعت بعض الخضراوات في الحديقة الخلفية: الجوز، والقرع، والفاصوليا، والجزر، والسبانخ، والطماطم، والبصل، والخس، والخيار. وكان هناك أيضًا الفراولة، والعنب، والتوت، والليمون، والبرتقال، واليوسفي، وحديقة كبيرة للأعشاب من الروز ماري حتى الكزبرة. كانت جنة؛ وكانت مكانًا ملائمًا لزراعة كل شيء، حتى البازلاء الحلوة، التي قالت عنها السيدة "بينسون" إنها لن تصلح للزراعة بسبب حرارة الجو في "ماتابيليلاند". احتفظت في الكوخ الواقع في ركن الحديقة بصينيات عليها تربة زراعية تحتوي على شتلات قبل زراعتها في الأرضية بصورة ملائمة. هناك أيضًا زرعت بصلات النباتات، محافظة عليهم في ظلام الكوخ ودفئه.

بعد المدرسة، أقود دراجتي كي أصل إلى هناك. كنت في الأغلب أجلس معها أنهي واجباتي الدراسية، بينما تعمل على شيء ما: ملء أحواض الزهور بالتربة، أو خياطة ستائر غرفة الضيوف. كان هذا ملكها، منزلها.

لو أن أُمِّي قد عادت للكلية لتكمل تعليمها، فإن جَدَّتي تركت عملها لتعود لحبها القديم، الحدائق. كل ما كان لديها في شارع "ويلسون" هي أحواض النباتات في البلكونة، أمَّا هنا، فهي لديها مملكة. أخبرتني ذات مرَّة أنه مهما شعر الإنسان بالوحدة أو بقسوة الحياة، فمن المؤكد أن يكون لديه صديق واحد على الأقل، وهذا الصديق قد يكون أي شخص أو أي شيء، مثل زهرة البنفسج الأفريقية. في الواقع، إنهم أفضل أصدقاء يمكن أن يحظى بهم الإنسان. كانت تُعاني من أجل تعليمي كيفية العناية بالنباتات بشكل ملائم، هازئة بكلام الأشخاص الذين يظنون أن الزراعة فقط عبارة عن وضع النبات في الأرض.

- عليك أن تفعلي الأمر بالشكل الصحيح، لأن هذا النبات لن يذهب لأي مكان بِمُجرَّد وضعه في الأرض. إن الأمر مشابه لاختيار منزل؛ يجب أن يكون كل شيء صحيحًا: الظل، والشمس، والتربة، حتى الطبقة السفلية من الأرض. بإمكان أي شيء أن يزدهر في الظروف المناسبة. لا تهتمي بكلام السيدة "بينسون". ففي المكان الصحيح، سينمو أي شيء، ليس عليك أن تأخذي النبات للمكان المناسب، يمكنك أن تهيئي المكان المناسب.

قالت لي في مناسبة أخرى:

- ليس لديك فكرة عمَّا تعنيه الحديقة بالنسبة لي.

على الرغم من أنه لو كان هناك شخص ما أهم عندها فهو حتمًا أنا، ثم أضافت:

- لقد ساعدتني على تخطي أمور كثيرة.

لم أفهم بالضبط ما قصدته بذلك، قلت لها:

- إنها طريقة علاجية.

كنت قد قرأت ذلك في مكان ما، نظرت لي نظرة جانبية وابتسمت قائلة:

- علاجية. نعم، هذا هو ما يطلقونه على الأمر هذه الأيام.

بعد ذلك بوقت طويل، بعد أن ماتت وكنت أرتب أغراضها، وجدت كتاب شعر، كان اسمه "قصائد مجمعة"، أو شيء من هذا القبيل، وقد وضعت فيه حوالي ثلاثين نوعًا مختلفًا من الزهور، من زهور الأقحوان حتى زهور الخمان. في البداية ظننت أنها وضعت الزهور داخل الكتاب بعشوائية، ثم أدركت بعدها أن هناك جملًا وأبياتًا شعرية معينة وُضع بأسفلها خط كأنما هناك صلة ما بين كل زهرة والقصيدة التي وضعت عليها.

"لأنني قد عرفتهم جميعًا سابقًا..

عرفتهم جميعًا: عرفت المساءات، والصباحات، والظهيرات،

فقد قست حياتي بملعقة القهوة".

تفتَّتت زهرة نبات الجهنمية الاستوائية وأنا أقرأ الكلمات. وجدت أمام قصيدة لـ"توماس جراي" زهرة النرجس البري:

"جوهرة مليئة بالأشعَّة الهادئة النقية

الكهوف غير المأهولة في محيط الدب:

زهرة تولد من أجل أن تزدهر دون أن يراها أحد،

وتضيع حلاوتها على الهواء الصحراوي".

اعتقدت حينها أنها أخذت كل هذه الزهور من حديقتها، على الرغم من أن ذلك ليس من المرجح لأنها حسب معرفتي لم تزرع زهور النرجس البري في حديقتها.

لم تختر لنفسها أوسع الغرف لتكون غرفة نومها؛ ولكنها اختارت الغرفة ذات أفضل إطلالة على الحديقة، التي بها باب مزدوج يؤدي إلى البلكونة التي تُحيط بالمنزل من ثلاث جهات. لا أظن أنها استُخدمت قبل ذلك كغرفة نوم، فقد

كـان هنـاك عديـد مـن الأرفـف مثبتـة عـلى الحـوائط دون وجـود أي مسـاحة للدولاب. قالت جَدَّتي:

- ربما كانت غرفة مكتب من قبل. لكنني أحبها، أجل أحبهـا. إنهـا تشـعرني بأنني في منزلي، كأنني أعرفها بشكل ما.

كنت وقتهـا في المدرسـة الثانويـة، واهتمامـي بـالملابس والموسـيقى والأولاد يتزايـد باسـتمرار. كانـت جَـدَّتي تأخـذني معهـا لشراء قـماش مـن أجـل تفصيـل الملابس. لا يزال السيد "باتل" يدير المحل بنفسه، وكلما رآنا ندخل المحـل، يـترك ما يفعله على الفور ويأتي ليساعدنا بنفسه. كان يـأتي مبتسـمًا ابتسـامة حمقـاء تكشف عن فجوة بين أسنانه، ودائمًا ما يجامل جَدَّتي على هيئتها، ثم يسألني:

- عندما تكبرين، أتريدين أن تصبحي مثل جَدَّتك؟

فأبتسم له بخجل، وتضحك جَدَّتي على مجاملته، وتسأل:

- وكم مترًا تريدني أن أشتريها اليوم؟

في منزل جَـدَّتي، كنـا نضـع علامـات عـلى القـماش بشـكل معـين ثـم نقصـه. علَّمتني جَدَّتي كيف أستعمل ماكينـة الخياطـة الكهربيـة التـي تملكهـا، كنـا نمضي ساعات نضع علامات، ونقص، نضع القطع بجانب بعضها البعض، ثم نخيطها كلها معًا في النهاية. أحببت الأمر: كيف نصنع شيئًا مـا لديـه أجنـاب وجيـوب وياقـات من مجرد قطعة قماش واحدة مسطحة. أحيانًا كانت ترتعش أصابعي، بينما يشق المقص طريقه في القماش، أو ربما جعلت الأكمام تتصل بجـزء القمـيص الـرئيسي. كان هناك شيء ما يتجمع، يأخذ شكلًا معينًا، يتكون. أنت مـن يقـرر مـاذا تفعـل بقطعـة القـماش؛ قـد تكـون أي شيء تريـده؛ أنـت السـيد، تثنيهـا أو تقصرهـا أو تطيلها؛ أنت صانعها.

لم يكن هناك كثير من الأماكن التي يمكن الذهاب إليها لمقابلة أحباء محتملـين. هناك الكنيسـة، التـي لم أكـن أذهـب إليهـا، النـادي الريـاضي، ولم أكـن أمـارس أي

رياضة، والنوادي الليلية، والبارات، لم يكن مسموحًا لي بدخولها. حلمت ذات مرَّة بأنني قابلت شاعرًا أو فنانًا، وأننا قضينا وقتنا معًا بالكامل نقول أشياءَ عميقة وذات معنى لبعضنا البعض. في الصورة التي حملتها له في خيالي، رأيته يرتدي دائمًا قُبَّعة ولديه شعر أسود طويل مربوط على هيئة ذيل حصان. بالطبع لم يكن من "زيمبابوي"، وغالبًا ما كانت لديه لكنة فرنسية، على الرغم من أنها كانت تتغير أحيانًا وتبدو من لهجات بلاد "أوروبا الشرقية". في هذه الأوقات كان لاجئًا، هاربًا من نظام حكم ظالم. رأيتني في أحلام اليقظة أساعده كي يهرب من عُملاء سريين تم إرسالهم كي يغتالوه، حلم انتهى دائمًا بفراره في حلكة الليل على متن طائرة صغيرة. كان يقبلني بشغف قبل رحيله، يقول كلماته الأخيرة بنفس لاهث: "يومًا ما سأعود إليك. كوني قوية حتى ذلك الوقت". وبعد نظرة طويلة ذات معنى، يركب الطائرة ويحلق إلى خارج حياتي مثل فيلم "كازابلانكا". لسوء الحظ لم يكن هناك أي فرصة لمقابلة شعراء وفنانين في "بولاوايو"، خاصة هؤلاء الهاربين من أنظمة حكم ديكتاتورية شيوعية. قالت جَدَّتي إنني صعبة الإرضاء، وأحكم على الناس بسرعة. كل ما كنت أعرفه هو أنني لم أكن أريد حبيبًا مثل "مايلز"، هذا كل ما في الأمر.

كانت "ماندي" مختلفة عنِّي، بإمكانها التعامل مع الجميع، وأيضًا يمكنها الضحك والمزاح مع الفتيان، ولا تأخذ أيًّا منهم بجدِّية. لم أكن أعرف كيف أكون متحدثة لبقة، أن أتحدث بمرح عن لا شيء. كان الناس دائمًا ما يتهمونني بأنني جادة أكثر من اللازم ومعظم الناس يتجنبونني لأجل ذلك. لم يكن الأمر متعلقًا بأنني لم أعطِ فرصة لأحد؛ لكنهم غالبًا ما كانوا غير مهتمين بي في المقام الأول. أكثر ما كرهته هي محاولاتي كي أكون مثيرة للاهتمام، ولهذا السبب كرهت الحفلات والمناسبات الاجتماعية الأخرى.

كنت في حفلة ذات يوم مع "ماندي"، شعرت وقتها بـأنني خجولـة وخرقـاء بعـد أن اكتشـفت أننـي لم أتمكـن مـن أن أشـارك بكلمـة واحـدة في أي مـن المحادثات التي انخرطـت فيهـا بنوايـا وأغـراض مختلفـة، فـذهبت إلى الخـارج لأجلس في البلكونة. فكرت بأن هـذا لـيس المكـان الـذي سـأقابل فيـه شـاعري، سأصطدم به في المعرض الفنـي، أو تلتقـي عينانـا عـبر مقهـى مـزدحم. تخيلـت نفسي أقرأ كتاب شعر في الأوتوبيس، بيـنما يجلـس هـو في مـواجهتي، وينحنـي للأمام، ويهمس قائلًا: "ألا تشبهين صفاء المصيف!".

كان هـذا التخيـل بـه عيـب مهـم وهـو حقيقـة أنـه لـيس هنـاك كثـير مـن الرومانسـية في الأوتـوبيس ال"زيمبـابوي" النافـث للـدخان وملـوث الهـواء. تغـير التخيـل فـيما بعـد بـأن أكـون في "أوروبـا الشرقيـة" ونحـن في أوتـوبيس مـليء بالفلاحين: نساء يضعن زهـورًا في شـعورهن، وسـلالًا مليئـة بـالخبز الطـازج عـلى حجـرهن؛ ورجـال يرتـدون حـمالات وملتحـون ويعزفـون عـلى آلـة "البـانجو" و"الفلوت". كنـت أحـاول أن أعـرف مـا الـذي أفعلـه عـلى مـتن أوتـوبيس مـلىء بالفلاحين في شرق "أوروبا"، بينما يرتمي أحدهم إلى جانبي.

"فانس تايلور" الذي يرتدي حذاء "فيلدسكوين"، ممسكًا بزجاجـة بـيرة، أتى وهو يقول لي:

- مرحبًا، كيف حالك؟ ما الذي تفعلينه بالخارج هنا وحدك؟

أجبته:

- أهتم بشؤوني الخاصة. عليك أن تجرب فعل المثل.

اقتضاب ردِّي الفظِّ أجهز على حماسته، حيث أنهاها قبل أن تتزايد، فتجهم "فانس" وقال:

- يا لـلـهول. حسنًا.

لم يبتعد على الرغم من ذلك، وبدا أنه وجد موقفي مضحكًا، فسألني:

- من مات إذًا؟

أشحت بعيني بعيدًا عنه. أليس بإمكانه تـركي بمفـردي؟ لم أرد عليـه. مـرَّت فترة صمت قصيرة، ثم قال:

- كنت أفكِّر في أن نخرج معًا في وقت ما.

سألته بتهكُّم:

- حقًّا؟

أجابني وهو ينزع ملصق الاسم عن زجاجة البيرة:

- نعم، إلى السينما مثلًا.

لم أرد عليه، فضحك، وقال:

- ليس عليك فعل ذلك. ما رقمك؟

أجبته بحسم وأنا ألقي بشعري إلى الخلف وأنظر بعيدًا عنه:

- لا أعطي رقمي لأحد.

- يا لـلـهول، يبدو أنك مستاءة للغاية.

كتب شيئًا ما على ظهر ملصق زجاجة البيرة ومرره إليَّ قائلًا:

- هذا هو رقمي، إذا شعرت برغبـة في الخـروج معـي في وقـت مـا. عنـدما تخرجين من حالة الحداد بالطبع.

بعد هذا نهض ورحل. نظرت إلى الورقة في يـدي، قلـت لـنفسي هـذا لـيس صحيحًا. ليس مثل "ألا تشـبهين صـفاء المصـيف" عـلى أوتـوبيس فلاحـين بشرق "أوروبا"، ومع ذلك لم أتخلص من الرقم، وضعته في جيبي وعدت للحفل.

في الأسبوع التالي، عندما ذهبت لمنـزل جَـدَّتي، أخبرتنـي أن هنـاك مسـتأجرًا سينتقل قريبًا. اتصلت بهـا شركـة الإعـلان هـذا الصـباح ليسـألوها مـا إذا كـان بإمكانها توفير غرفة من أجـل سـيدة إنجليزيـة وصـلت لتوِّهـا إلى "زيمبـابوي"، حيث ستعمل بها لمدة ثلاث سـنوات. وافقـت جَـدَّتي وسـتنتقل المـرأة في اليـوم نفســه. جهـزت جَـدَّتي السريـر في الغرفـة الإضـافية ووضـعت مناشـف نظيفـة

مطوية على الكرسي المجاور للسرير. قمت أنا بقطف بعض الزهور ووضعتها في فازة على ترابيزة في الغرفة. كما وضعنا من أجلها بعض أعداد مجلتي "السيدة الجميلة"، و"المنزل والحديقة" في الغرفة، وقرَّرت جَدَّتي أن تحضر وجبة مميزة للعشاء. لم تكن جَدَّتي مجبرة على تحضير الطعام للمستأجر؛ لكنها اعتبرتها وسيلة ترحيب بها، وقالت:

- ربما تكون متعبة من الرحلة الطويلة، كما أننا نريد إعطاءها انطباعًا جيدًا عن "زيمبابوي".

أعدت جَدَّتي حساء الجوز، ولحم "ويلينجتون" وبطاطس وكوسة وجزر مشوي. أما من أجل التحلية فأعدت بودنج الـ"كريم بروليه". كما أخرجت ثاني أفضل أطباق عشاء لديها، المرسوم عليه زهرة زرقاء وزهور أخرى صفراء. كانت هذه الأطباق مخصصة للضيوف فقط.

وصلت لمنزل جَدَّتي في اليوم التالي لأجد لديها شخصًا ما. كان شابًا ذا شعر مجعد بني اللون متخذًا شكل عيش الغراب فوق رأسه. كان يرتدي تيشيرت أسودَ، وبنطلونًا ذا لون باهت قصيرًا يصل حتى ركبتيه. كنا وقتها في الشتاء، لكن لم يبدُ عليه أنه لاحظ البرد. كانت ساقاه أكثر السيقان التي رأيتها في حياتي بياضًا. كما كان يرتدي في قدميه صندلًا. من نظرة واحدة تمكنت من أن أعرف بأنه إنجليزيًّا.

قال بمرح عندما رآني أدخل:

- مرحبًا.

أجبته في خجل:

- مرحبًا.

وجهت حديثي لجَدَّتي وكأنه غير موجود:

- يجب أن تري كـم الواجبـات الدراسـية التـي عـليَّ أن أنجزهـا يـا جَـدَّتي، أطنان. اللغة الإنجليزية، والرياضيات، واللغة الفرنسية! ليس لـديَّ فكـرة كيـف سأنجزها كلها.

كنت مدركة أن صوتي مرتفع أكثر عمَّا اعتدت عليه. ابتسـمت جَـدَّتي وهـي تشير إلى الرجل بيد مفتوحة:

- هذا "جيسون". وهذه هي حفيدتي "إيلي" يا "جيسون".

قال "جيسون":

- كنا نتحدث عنك لتوِّنا.

احمرَّت وجنتاي خجلًا، فقالت جَدَّتي ضاحكة:

- هذا هو المستأجر الجديـد، ولا أظـن أنـه سـيحب المجـلات التـي وضـعناها في غرفته.

- حدث خلـط للأسـف. كنـا أربعـة وصـلنا معًـا في اليـوم نفسـه، كـان مـن المفترض أن تأتي "روزي" هنا؛ لكن بما أنها تعمل في "مابيلو"، والتي كما أخـبروني تبعد عن هنا بميل في اتجاه الغرب، فأعتقد أنهم رأوا أنه من المنطقـي أن أقـيم أنا هنا وتقيم هي في مكان أقرب إلى "مابيلو".

كنت متفاجئـة بعـض الشيء. كـان يتحـدث بسُرعـة دون أن يتوقـف لأخـذ نفسه وبطريقة بريطانية واضحة تمكنه مـن أن يحـدد الأمـاكن والاتجاهـات في خلال ساعات من وصوله إلى المكان. ابتسمت جَدَّتي، وقالت:

- سـتعمل "روزي" في "مـابيلو" بيـنما سـيعمل "جيسـون" هنـا في مكتـب القنصلية. المسافة من هنا إلى عملها أطول. أومأت برأسي. قال "جيسون":

- لم تصل "روزي" من "إنجلترا" بعد.

ثم قال في مرح إنجليزي مفاجئ:

- أخبرتني جدَّتك بأنك تحبين القراءة.

قلت له:

- أجل.

شعرت بالغباء لأنني لم أجد شيئًا آخر أقوله. قالت جَدَّتي:

- كذلك "جيسون".

فابتسم، وأومأ برأسه. كان يجلس أمام ترابيزة المطبخ، ويداه تحيطان بكوب شاي.

- كل شيء. نعم، أقرأ أي شيء وكل شيء. من الكاتب المفضل لديك؟

شعرت بعقلي فارغ تمامًا، لسبب ما لم أتمكن من أن أفكر في أي كاتب. فقلت وأنا أحاول أن أكون مرحة:

- "إنيد بلايتون".

باءت محاولتي بالفشل. قلتها بوجه جامد وجاد حتى أن "جيسون" بدا متفاجئًا وارتسمت ابتسامة على شفتيه. قالت جَدَّتي في محاولة منها للمساعدة:

- ألست تحبين "شيكسبير"؟

لكن لم يكن بإمكانها أن تقترح كاتبًا آخر يصلح أكثر منه أن يكون محبوبًا لدى مراهق. قال "جيسون" في حماس على الرغم من تفاجئه الواضح:

- "شيكسبير"! تحبين الكتابات القديمة إذًا، أليس كذلك؟

- أحيانًا.

قلتها ثم شعرت كم بدوت حمقاء وغير حاسمة. أعطتني جَدَّتي كوب عصير برتقال؛ لكنني لم أتمكن من شربه. شعرت بأن حلقي ضيق، ويدي متعرقتان. نظرت للكوب، بينما يقول "جيسون":

- حسنًا، إن أذواقنا تختلف بالتأكيد. أنا رجل عصري. أقرأ حاليًا العديد من كتابات الستينيات. مثل "كيرواك"، و"هيلر"، و"بورخيس"؟ أسمعت عنهم؟

هززتُ رأسي نافية، فقال:

- لا؟ سأقرضك بعضًا من أعمالهم، وأخبريني إذا أعجبوك.

في اليوم التالي، ذهبت لمنزل جَدَّتي، ولم تكن هناك. تفاجئت بعض الشيء، حيث إنها اعتادت على أن تكون بالمنزل وقت الغداء. لم أعتد على الطرق على الباب قبل الدخول؛ لكنني فعلت ذلك هذه المرة. لم يرد علي أحد فطرقت مجددًا. انفتح الباب فجأة ورأيت أمامي "جيسون" بدا حينها غير مهندم ومرتبك. شعرت بأنه لم يتعرف عليَّ في البداية وجال بنظره من وجهي إلى الزي المدرسي، بدا وكأن هذا الأمر هو ما جعله يتعرف عليَّ.

- حسنًا، إنك حفيدة "إيفيلين"، أليس كذلك؟

- أجل.

شعرت بأنه أصغر من أن ينادي جَدَّتي باسمها الأول هكذا، لكنني توقعت أن هذا بسبب أنه إنجليزي، وقد قال جَدِّي إن لديهم معايير مختلفة عنا. قال أيضًا إنه هناك بعض الأولاد الذين ينادون آباءهم وأمهاتهم بأسمائهم الأولى في "إنجلترا".

- هل جَدَّتي هنا؟

- كلَّا، لقد ذهبت للمدينة كي تحضر بعض الأخشاب.

- أخشاب؟

- نعم. أنا آسف، تفضلي بالدخول. كم هذا وقح منِّي أن أتركك واقفة في الخارج هكذا.

تنحى جانبًا من أجل أن يفسح لي لأدخل. ترددت في الدخول فقال ضاحكًا:

- لا تقلقي، لم أقتل جدَّتك أو أي شيء من هذا القبيل.

دخلت والتفت هو ليتبعني. جلسنا في الصالة، قال لي:

- عفوًا لهذه الفوضى، أنا الذي تسببت فيها.

- هل تريدني أن أساعدك في أي شيء؟

قال وهو ينظر حوله إلى ممتلكاته وصناديقه الفارغة المتناثرة في كل مكان:

- لا، لا، أعتقد أن كل شيء تحت السيطرة. هذا هو سبب خروج جدَّتك في الواقع.

نظرت إليه في عدم فهم، فقال:

- آسف، لا يبدو كلامي منطقيًّا، أليس كذلك؟ سوف أعلق بعض الأرفف، لديَّ كثير من الكتب كما ترين، وقد ذهبت جدَّتك كي تشتري الخشب كي أصنع الأرفف وأضع الكتب عليها.

كان يُلوِّح كثيرًا بيديه وهو يتحدث ويؤكد على ثاني أو ثالث كلمة بإيماءة حازمة. قال وهو ينحني أمام بعض الروايات الملقاة على الأرض:

- وجدت هذا الكتاب الذي حدثتك عنه. لقد كنت أنت من حدَّثته عن رواية "البرتقالة الإلكترونية"، أليس كذلك يا.. آسف، إن هذا محرجٌ بالنسبة لي في الواقع؛ ولكنني نسيت اسمك.

- "إيلي".

- "إيلي"، لقد كنت أنت من أتحدث إليه، أليس كذلك؟

- نعم.

أجبته وأنا أشعر بالدوار من طريقة كلامه وتحركه السريعتين وهو يفكر ما إذا كنت أنا من تحدث معه أم لا. التقط كتابًا من على الأرض وأعطاه لي:

- حسنًا، لقد وجدته اليوم. يمكنك أن تقترضيه، أعتقد أنك ستحبينه.

كان "جيسون" أكبر منِّي بحوالي ثماني سنوات. بدا وسيمًا بطريقة أكاديمية بسبب شعره الداكن المجعد ونظارته، كما أن حقيقة أنه كان يرتدي بنطلونًا قصيرًا وصندلًا في الشتاء أضافا بعض الغرابة لجاذبيته. لقد جاء من ثقافة أخرى غير التي نشأت فيها، وكان مختلفًا عن كل الرجال الرياضيين، شاربي البيرة، مفتولي العضلات الذين لطالما أنجبتهم "زيمبابوي".

بدءًا من تلك اللحظات المحرجة الأولى، بدأت في قضاء كثير من الوقت مع "جيسون"، أقرأ كتبه وأناقشه فيها ونحن نشرب الشاي والقهوة. كنت في العادة أكون المستمعة، وهو المتحدث.

بدت كتبي طفولية بعض الشيء وشعرت بالحرج عندما أنظر إلى نسخ "حديقة مانسفيلد"، و"آمال عظيمة" المُتراصَّة على الرَّفِّ في غرفة نومي بجانب عديد من الروايات المماثلة. قرأت بغزارة وبسرعة، لم أحب دائمًا ما كنت أقرؤه، لكنني قرأته على كل حال. كانت هذه منطقة جديدة بالنسبة لي، ولم أرد أن أتخلف عنها. أجاب الأدب عن شيء ما بداخلي، حيث إنه أوضح لي شيئًا لم أتمكن من استيعابه من قبل: الشعور بالانفصال عن العالم، شعور ليس فقط بعدم الانتماء؛ ولكن أيضًا بعدم معرفة كيف أنتمي.

(18)

قضى "جيسون" وقتًا كثيرًا مع جَدَّتي. كان يعمل في القنصلية كمهندس في مشروع تطوعي بريطاني، والذي كان يعني أن يعمل في دولة من دول العالم الثالث لمدة ثلاث سنوات، كانت مهمته أثناء مدة إقامته هي نقل معرفته بدول العالم الأول إلى الفلاحين المساكين الذين يديرون القنصلية. في المقابل، تلقَّى مبلغًا ماديًّا قليلًا؛ لكن "الخبرة الأفريقية" التي تلقَّاها عوَّضته عن المقابل المادي. بإمكانه أن يعود مُجدَّدًا إلى "بريطانيا" بعد مرور ثلاث سنوات واثقًا من أنه لعب دور في إعادة بناء "زيمبابوي"، وقد علّم السكان الأصليين الفقراء في ثلاث سنوات أكثر مما تعلموه من المستعمرين الحُقراء في تسعين عامًا. في الواقع، تلقَّى راتبًا منخفضًا، ولا شيء سواه. أما عن "الخبرة الأفريقية"، فقد مالت لأن تكون محدودة للغاية بسبب حقيقة أن معظم الراتب الذي حصل عليه خُصص من أجل دفع إيجار غرفته وشراء طعامه.

كانت جَدَّتي في الغالب تعد الغداء والعشاء من أجل "جيسون"، على الرغم من أنها لم تكن مجبرة على ذلك، وفي المقابل كان يتحدث معها. كان بستانيًّا أيضًا، وكنت عندما أذهب إلى هناك في يوم السبت، غالبًا ما كنت أراه يدفع العربة اليدوية أثناء فعل شيء ما في الحديقة، أو يحفر لزرع بعض الزهور. قال "جيسون" مازحًا ذات مرَّة لو أن جَدَّتي كانت أصغر بثلاثين عامًا، لكان اختطفها وتزوجها. ضحكت جَدَّتي عندما قال هذا وأخبرته بأنه ليس نوعها المفضل، وأعتقد أنه جُرح عند سماعه لهذا لأنه تجهم، وقال:

- حسنًا إذًا. ما هو نوعك المفضل؟

قالت جَدَّتي:

- لم أتمكن من معرفة ذلك أبدًا. شخص قوي ومتحفز. شاب سيئ مثلما يقول الأمريكيون. أنت أفضل من اللازم.

ثم ضحكت. فداعبها "جيسون" قائلًا:

- لا أصدقك، يمكنني أن أتخيلك فقط مع رجل أنيق. يرتدي قُبَّعة وكل هذا. تذهبان معًا للعشاء والأوبرا، ومثل هذه الأمور.

بدا على جَدَّتي شعورًا بالاشمئزاز، وقالت:

- لا قدَّر الله، لا أعتقد أن هذا النوع من الرجال موجود على أي حال. إنه مجرد مظهر كاذب لا أكثر.

أما بالنسبة لي فقد كنت مقتنعة بأن مثل هذا النوع من الرجال موجود. بعد مرور شهر من مقابلة "جيسون"، كان هناك حفل راقص في المدرسة. كانت هذه هي السنة الأولى التي يُسمح لي أنا و"ماندي" أن نحضر حدثًا مماثلًا، حيث كنا حينها في السنة الرابعة. كنت متحمسة للغاية. بطريقة ما، على الرغم من أن الحفل كان مناسبة مدرسية، وسيعقد في صالة مدرسة في "بولاوايو" بـ"زيمبابوي"، فقد تخيَّلت أن يكون حدثًا راقيًا وناضجًا تعزف فيه فرقة موسيقى آلات وترية، ويغني شخص مثل "فرانك سيناترا" مرتديًا بدلة سهرة وبين الوقت والآخر يرقص رقصًا إيقاعيًّا. كنت أتخيل نفسي مرتدية فستان سهرة طويل وشعري أشقر طويل، على الرغم من أنه في الواقع كان قصيرًا ولونه يماثل لون الفئران. كنت سأبدو غامضة ومثيرة للاهتمام، سيتقدم الرجال لطلب يدي من أجل أن يراقصوني رقصات أراها أحيانًا "فالس"، وفي أحلام يقظة أخرى أكثر غرابة، تكون رقصة التانجو. في تلك الأوقات كنت أضع في شعري

مشبك شعر طويلًا أسودَ مُدبَّبًا ووردة حمراء. أما شريكي المختار، الرجل الوحيد الذي أتنازل كي أرقص معه كان دائمًا في كل مرَّة "جيسون".

أصبحت متمسكة بهذا الحلم بشدة، لدرجة أن الشاعر الشرق أوروبي الهارب من نظام الحكم الديكتاتوري الشيوعي وُضع على الرَّفِّ لبعض الوقت، مما أنساني حقيقة أنني في الواقع ليس لديَّ أي أحد أذهب معه إلى الحفل. كان يمكنني أن أطلب من "جيسون"؛ ولكنني كنت خجولة للغاية من أن أفعل ذلك. إن ثقة راقصة التانجو المتقدة كانت في الحياة الواقعية قلة ثقة موجعة لدى فتاة في السَّادسة عشرة من عُمرها. كانت "ماندي" ستذهب مع فتى يدعى "مارتن باين"، كان قائد فريق "ماتابيليلاند" لرياضة الرجبي لمن هم تحت الثامنة عشرة، مما جعل العديد من الفتيات يحسدنها عليه. تخيَّلت كم كن سيحسدنني عندما يرونني ذاهبة مع "جيسون". كانت مشكلتي الوحيدة هي كيف أطلب ذلك من "جيسون".

كانت أوَّل خطوة في خطتي هو أن أفضي بنيتي إلى "ماندي". لم تكن تحب "جيسون" على الرغم من ذلك، وكانت تشيح بوجهها كلما ذكرته. قالت لي ذات مرَّة:

- لا أفهم ما الذي ترينه فيه، إنه غريب فقط، هذا كل ما في الأمر.

أشعرني كلامها بالارتباك؛ ولكنني شعرت أيضًا بالارتياح في داخلي لأنها لو لم تكن تحبه، فلن يكون هناك أي منافسة بيننا، أكملت حديثنا، حيث سألتني:

- ماذا ستقول جَدَّتك؟ أليس كبيرًا بعض الشيء؟

أجبتها بضحكة متوترة:

- إنه في الرابعة والعشرين.

اتَّسعت عينا "ماندي" كأنني قلت إنه تخطَّى المئة عام.

- حسنًا، إن كان هذا هو ما تريدينه فلتفعليه.

- لا أعرف كيف أفعل هذا. تلك هي المشكلة.

ثم وضعت رأسي على الطاولة التي نجلس أمامها كأنني أشعر بالألم.

فكَّرت "ماندي" لبعض الوقت، ثم نصحتني قائلة:

- أخبري جدتك فهي تعرفه جيدًا.

قرَّرت أن أتحدث مع جَدَّتي في الأمر أثناء تناولنا شايَ بعد الغداء. كانت خطتي أن أجعل جَدَّتي هي من تقترح عليَّ الفكرة.

- هناك حفل راقص في المدرسة نهاية هذا الشهر.

أجابت جَدَّتي:

- حقًّا؟ وهل ستذهبين؟

أجبتها بأسف:

- لا أعرف بعد. ستذهب "ماندي" مع "مارتن" لاعب الرجبي.

- وماذا عنك؟ مع من ستذهبين؟

ثم نفخت في الشاي قبل أن تشربه.

- لا أعلم. لا يوجد أحد.

- هل تعرف "ماندي" أي أحد يمكنك الذهاب معه؟

هززتُ رأسي نافية، وقلت:

- لا، لقد سألتها.

- أنا متأكدة من أن بإمكانها أن تجد أحدًا، فهي تعرف كثيرًا من الناس.

- ليسوا نوعي المفضل. كما أنني لا أريد أن أذهب في موعد مع شخص اختاره لي أحد غيري، أريد أن أذهب مع شخص أعرفه.

- حسنًا، من تعرفين؟

- لا أحد.

كنت أعلم بأنني أبدو صعبة الإرضاء؛ لكنني أردت القضاء على كل الاحتمالات بأسرع وقت ممكن.

- يجب أن يكون هناك شخص ما.

- لا، لا يوجد.

- ماذا عن هذا الفتى الذي أعطاك رقم تليفونه؟

- على ظهر ملصق زجاجة البيرة؟

- حسنًا، لا نحمل جميعنا ورقًا زائدًا في جيوبنا. إن ما فعله نابع من تفكير خلاق.

تجهمت، وقلت:

- لا شكرًا. عدم الذهاب أفضل من أن أظل أشم رائحة نَفَسَه الذي يفوح بالبيرة طوال الليل.

- أنا متأكدة من أنه لا بأس به حقًّا. أعطه فرصة يا "إيلي"، ومن يدري.

- لا، شكرًا.

- حسنًا، هذا قضى على كل الاحتمالات، أليس كذلك؟ ينبغي عليك الخروج ومقابلة شخص آخر قريبًا.

أومأت لها في حزن، ثم جمعت أغراضي من أجل الذهاب للمنزل، فقالت:

- ابتهجي! عندما تفعلين سنقوم بحياكة فستان جميل من أجلك، وستكونين فاتنة الحفل.

ذهبت لمنزلي على الدراجة أقودها ببطء، وبقيت في غرفتي لبقية فترة الظهيرة. شعرت كأنني "سندريلا"، تُركت وحدي دون أن يكون لديَّ من أحبه ويحبني. تخيَّلت الفتيات يسألنني لماذا لن أذهب للحفل، تخيلتهن يضحكن عليَّ ويهمسن لبعضهن البعض. سيقولون عنِّي أنني "مملة للغاية"، أو حتى "غريبة الأطوار". حاولت أن أغير الصورة في ذهني، حتى إنهن حين يسألنني عن سبب عدم ذهابي إلى الحفل أنظر بعيدًا عنهن في غموض، ولا أرد إلى أن يخبرهن شخص ما فيما بعد أن حب حياتي قد قُتل في حادث مأساوي، وأنني تعهدت بألا أحب أحدًا بعده أبدًا. فيهمسن قائلات: "يا للأسف، إنها جميلة للغاية. يا للخسارة".

سمعت رنين التليفون، كانت جَدَّتي، قالت لي:

- جاءت لي فكرة، وأتمنى ألا ترفضي؛ لكنني أخذت خطوة فعليًّا في الأمر. عرضت على "جيسون" أن يذهب معك إلى الحفل وقد وافق. الآن، أخبريني ما رأيك. أعرف أنه أكبر منك بسنوات قليلة؛ لكن الأمر سيستغرق ليلة واحدة فقط. لو لن يسعدك الأمر فسأخبره.

لن يسعدني؟ لن يسعدني؟ لقد كنت أدور في الهواء وقتها، كنت أتدحرج على الأرض في ذهني، كنت سعيدة للغاية؛ لكنني لم أتمكن من أن أظهر مشاعري. قلت بأكثر نبرة مفاجئة ممكنة:

- "جيسون"؟ لكنه لن يرغب في أن يذهب معي.

فقالت جَدَّتي مؤكدة:

- حسنًا، ليس هذا هو ما قاله لي، وقد قلت له إن بإمكانه أن يأخذ سيارتي، حيث إنه لا يملك واحدة، فأنا أشك أنك سترغبين في الذهاب إلى الحفل خلفه على دراجته. ما يهمني الآن هو ما إذا كنت أنت سعيدة بهذا الترتيب.

- أجل، أعتقد ذلك.

قلتها في تعاسة على الرغم من أنني كنت سعيدة لدرجة أنني لم أكن لأمانع الذهاب على دراجة "جيسون"، وأضفت:

- شكرًا يا جَدَّتي.

- لا يزال الأمر في يدك يا "إيلي". أريدك فقط أن تكوني سعيدة.

ذلك السبت، ذهبت أنا وجَدَّتي إلى متجر السيد "باتل" لشراء قماش للفستان. كنت أعرف التصميم الذي أريده للفستان. رأيته في مجلة "سيدة جميلة". كان فستان من الساتان الأبيض وصدره على هيئة قلب، دون أكمام، ومعه شال أبيض من قماش الأورجانزا. رأيته في المجلة كانت ترتديه فتاة جميلة وهي تجلس في مؤخرة دراجة حبيبها النارية وتضحك للكاميرا بإثارة. فكَّرت بأنني سأصبح مثلها. سأكون في مكان هذه الفتاة.

وجدت أنا وجَدَّتي قماشًا يشبه الفستان الذي كانت ترتديه الفتاة الجالسة على الدراجة النارية، ومضينا فترة الظهيرة يوم السبت بكاملها نفصله. كان "جيسون" قد ذهب إلى "هاراري" مع أحد زملائه المتطوعين الآخرين، وهو إسكتلندي يعمل في الجامعة الحكومية. ذهبا ليريا كيف تبدو المدينة الكبيرة، وأيضًا ليستقبلا أحد زملائهما القادم من "إنجلترا". قرَّرا أن يسافرا في أوتوبيس محلي من أجل أن يحصلا على "إحساس حقيقي بالبلاد".

جاءت "ماندي" لتساعدنا في الحياكة، وأمضينا وقتًا مرحًا ونحن نتحدث مع جَدَّتي. تحدثنا عن الحفل ومَن سيرافق مَن، وعن الفتيان في العموم ومَن كان يعجبنا ومَن لم نكن نطيقه. سألت جَدَّتي "ماندي":

- كيف يبدو هذا الشاب "فانس".

ضحكت "ماندي" لأنها تعرف بأنني لا أحبه، وقالت:

- أوه، إنه لطيف يا سيدة "روجرز".

فسألتها جَدَّتي وهي تلمحني بطرف عينها:

- لماذا لا تحبه "إيلي" إذًا؟

فضحكت، وقالت:

- لا أعرف، أرى أنه وسيم.

سألتها:

- هل تحبين أن تخرجي معه إذًا؟

ابتسمت وهي تعرف بأنني أحرجتها:

- حسنًا.. لا، لا، ولكن هذا لا يعني أنه ليس لطيفًا.

صحت في انتصار:

- أترين؟ أترين؟ لا يمكن أن يكون لطيفًا جدًّا لو أنك لا ترغبين في مواعدته أيضًا.

قالت "ماندي" ضاحكة:

- وماذا عن "ستيفين أولبرايت"؟

أجبتها:

- ربما لو كنت فتى.

فسألت جدَّتي:

- حقًّا؟ ماذا تقصدين؟

أجابتها "ماندي" ضاحكة:

- إنه مثلي، فهو متعلق بأُمِّه كثيرًا.

قالت جَدَّتي وهي تقطع القماش بحرص:

- تعلق الفتى بأمه لا يعني بالضرورة أنه مثلي.

أصرت "ماندي" قائلة في قسوة بعض الشيء:

-لا؛ لكنه كذلك بالفعل.

قالت جَدَّتي وهي تنزع الدبابيس عن القماش:

- ظننت ذات مرَّة أنني أعرف شخصًا مثليًّا، الآن أعتقد أنه كان وحيدًا ليس أكثر.

تجهمت "ماندي"، وبدا عليها عدم فهم ما تقوله جَدَّتي، وعلقت قائلة:

- الوحدة لا تتسبب في أن يصبح الشخص مثليًّا.

- لا. أقصد أن أقول إنني لا أعتقد أنه كان مثليًّا بالفعل. إنها الظروف ليس أكثر.

قطَّبت أنا و"ماندي" ورفعنا حاجبينا في عدم فهم، ثم قالت جَدَّتي:

- أشعر بالأسف من أجلكما يا فتيات، لا يوجد حولكما مكانًا لطيفًا تذهبان إليه لمقابلة الفتيان.

تبادلت أنا و"ماندي" نظرة وابتسمنا عندما ذكرت جَدَّتي "الفتيان"، سألتها "ماندي":

- ماذا كنت تفعلين عندما كنت في مثل عُمرنا؟

- حسنًا، اعتدنا على الذهاب إلى السينما في بعض الأوقات، أو التنزُّه في الحديقة أو أمام البحر.

هذه المرَّة ضحكت أنا و"ماندي"، وقلت:

- الحديقة؟

وسألت "ماندي":

- هل كنتم تذهبون في رحلة بالقطار؟

قالت جَدَّتي مداعبة، بينما تتحرك إبر الحياكة التي وضعتها بين شفتيها للأعلى والأسفل محذرة:

- انتبها، كانت هذه الحديقة في "إنجلترا" قبل أن أنتقل إلى هنا.

سألتها "ماندي":

- وماذا فعلت عندما جئت إلى هنا؟

قالت جَدَّتي ضاحكة:

- الأمور نفسها، ما عدا التنزُّه على البحر بالطبع. النزهات في الحدائق، والسير على الأقدام، والسينما.

ثم قالت بصوتٍ عالٍ فجأة كأنما تكمل محادثة مع نفسها:

- الشيء الهام هو أنه حينما تكونين مع رجل، يجب أن تظلي منعزلة، بعيدة. حتى لو كنتما متزوجين، لا يجب أبدًا أن يظنوا أنهم يمتلكونك، يجب أن يُتركوا لهذا التساؤل دائمًا.

سألتها:

- لماذا؟

- إنه علم النفس. يريد الرجال دائمًا ما لا يستطيعون الحصول عليه، إذا لم يتمكنوا من الحصول عليك فسيريدونك طوال حياتهم.

فكَّرت حينها في جَدِّي، كيف كان ينتظر عودتها. ذكرى رؤيتي لجَدَّتي و"مايلز" في السرير معًا ظهرت فجأة أمامي، شعرت بطعنة حزن؛ لكنني لم أقل شيئًا. لم أرد أن أفسد المزاج الجيد.

أمضينا فترة بعد الظهر بالكامل في عمل الفستان، وبعد عدة ساعات أصبح جاهزًا تقريبًا، وبإمكاني أن أجربه. وقفت بقدمين عاريتين، أشعر بالبرد في ساقيَّ في مساء ذلك اليوم المنذر بالشتاء المبكر، بينما تسحب جَدَّتي من جانبي الفستان وهي تسألني ما إذا كان لدي مساحة كافية كي أتحرك، ثم سألتني مدى الطول الذي أردته وقامت بتثبيت الدبابيس على القماش. شعرت بأنني أجمل شخص في العالم. كان الفستان بالنسبة لي يمثل قمة الأناقة والفتنة، ولم أتمكن من منع ابتسامتي. لاحظت جَدَّتي ذلك وابتسمت هي أيضًا، وهي ترفع حاجبيها، وقالت:

- ستبدين جميلة يا ابنتي؛ لكنك ستشعرين بالبرد أيضًا، لديَّ شال يمكنك ارتداؤه، حيث يليق مع هذا الفستان.

أصبح الشال طرازًا قديمًا مما جعلني أبتسم لسذاجة جَدَّتي في مثل هذه الأمور؛ لكنني أحببتها للغاية مما جعل هذا الأمر لا يهم. كنت على استعداد لارتداء الشال، أو حتى ارتداء مائة شال، لقد كنت سعيدة للغاية.

سألتها "ماندي" ونحن ننظف المكان بعد انتهائنا:

- أين تعلمت الخياطة يا سيدة "روجرز"؟

كانت جَدَّتي تجمع قصاصات القماش من على الأرض، وقالت لـ"ماندي" التي كانت على وشك أن تلقي بحفنة من القصاصات في صندوق القُمامة:

- لا تلقي بها، سأصنع منها شيئًا ما.

نظرت "ماندي" إلى القصاصات بمفاجأة؛ لكنها وضعتها في طاعة على الطاولة بجانب أي قطع قطن شعرت بأن من الممكن استخدامها. ضحكت جَدَّتي، وقالت:

- لا.. لا، فقط قطع القماش.

احمرت وجنتا "ماندي"، ثم أخذت بكرات القطن وتخلصت منها، قالت جَدَّتي بعدها بقليل:

- الحرب، إنها المسؤولة عن أشياء كثيرة. لم أتمكن من التخلص من شيء من وقتها. كنا مقتصدين، لذا لم يكن لدينا الكثير وقتها. حتى لو كنت تملكين المال، لم يكن بإمكانك شراء كل ما تريدين. تسألينني كيف تعلمت الخياطة. حسنًا، كان هذا بعد الحرب. بعد أن انتقلت إلى هنا مباشرة. لم أكن أجيد الطبخ أيضًا، لم تسمح لي أُمِّي بالطبخ خوفًا من أن أفسد الوصفة وكان هذا كل شيء، خوفًا من أن تتحول مؤننا إلى أشياء غير صالحة للأكل. عندما انتقلت إلى هنا لم أكن أعرف ما هو المتاح. كان يوجد أشياء تباع لم نرها في "بريطانيا" منذ سنوات، مثل الآيس كريم. ذات مرَّة تناولته ثلاث مرَّات متتالية في جلسة واحدة. عندما تُحرمين من شيء ما، يمكنك أن تحاولي أن تعوضيه طوال حياتك، لكنك لا تنجحين في فعل ذلك أبدًا.

عندما أتيت إلى هنا وجدت أن النساء لديهن فساتين جميلة. أقمشة لم أرها مطلقًا في حياتي؛ لكنني لم أكن أملك أية أموال. لم يكن لديَّ مصدر دخل خاص بي لذا فقد تعلمت الخياطة.

سألتها "ماندي"، وهي ترتب بكرات القماش في علبة خياطة جَدَّتي:

- ولكن من علَّمك؟

- صديقة، امرأة ما أصبحت صديقة فيما بعد.

قلت محاولة أن أغيظها:

- الآن تبدين غامضة يا جَدَّتي.

أجابت جَدَّتي بجدِّية:

- لا، أبدًا. لقد كانت صديقة وهي من علَّمتني الخياطة وأنا مدينة لها منذ حينها.

سألتها:

- ماذا عن الطبخ؟ من علَّمك الطبخ؟

قالت جَدَّتي وهي تُعيد قطعة قطن إلى البكرة:

- صديقة أخرى، أيضًا في هذا البلد بعد الحرب. كما أخبرتكما، لم تكن أُمِّي تسمح لي بالطبخ خوفًا من أن أفسد مؤننا.

سألتها "ماندي" وهي تعبث بالقصاصات بأصابعها في عدم فهم:

- ما الذي ستفعلينه بكل هذا؟

ضحكت جَدَّتي بطبيعتها الطيبة، والتي قمعت تهكم "ماندي"، وقالت:

- ليس لديَّ فكرة! ماذا عن بنطلون من أجل الشتاء؟

في يوم الحفل، بزغت الشمس في سماء صافية وكانت السماء زرقاء والجو باردًا. أخذتني جَدَّتي يومها صباحًا إلى المدينة لشراء جوارب. اشتريت زوجين؛ حيث قالت جَدَّتي إنه يجب على المرأة أن تحتفظ باثنين، قالت وهو تومئ برأسها إيماءة جادة:

- يجب عليكِ أن تكوني مهيأة لأي شيء.

ارتديت حذاءً جلديًّا أسودَ جعلني أشعر بالنضج والأنوثة. أخذت بعض الوقت حتى اعتدت على المشي به وقد ضغط على أصابع قدمي. أعارتني جَدَّتي الشال وعلبة مسحوق تجميل في علبة ذهبية مُرصَّعة بلؤلؤة، وقالت:

- هذا شيء آخر على المرأة أن تحمله معها دائمًا، والعطر أيضًا.

كنت متحمسة للغاية، ارتديت في مساء ذلك اليوم الفستان والحذاء والجورب. أغلقت على نفسي بداخل غرفتي، وحاولت وضع مساحيق التجميل على وجهي ونفخ شفتي بإثارة. فكَّرت ما الذي من الممكن أن يحدث في اليوم التالي؟ هل سأقبل "جيسون"؟

عندما ذهبت لمنزل جَدَّتي، وجدتها جالسة في البلكونة مع "جيسون". شعرت بالتوتر المفاجئ وأخذت وقتًا طويلًا كي أسند دراجتي على حائط الجراج. لم أكن أعرف ما إذا كان عليَّ أن أحاول أن أبدو جادة أم سعيدة. بينما كنت أمشي في ممر المنزل، لاحظت شخصًا آخرَ يجلس معهما. كنت أراها من تجلس من ظهرها، ورأيت أن لديها شعرًا أسودَ طويلًا تلفه في عقدة فوق رأسها. كانت تبدو كراقصة باليه، وكان هناك شيء ما في جلستها يذكرني بطريقة تحرك ظهر القط عندما يمرر أحدهم يده على ظهرها، كأنها تكره لمسته على فرائها الأبيض الحريري. نظرت جَدَّتي تجاهي، وقالت:

- "إيلي".

على الرغم من أنها كانت مبتسمة، فإنني شعرت بأن هناك شيئًا ما على غير ما يُرام. قال "جيسون" بعدها مباشرة كأنه صدى لصوت جَدَّتي:

- "إيلي".

شعرت بالقلق متغلغل في صوته، ثم نهض أسرع من اللازم، امتلأت أفعاله بالإحساس بالذنب، ثم قال:

- هذه هي "روزي".

أحضر كرسيًّا من ركن البلكونة كي أجلس عليه. كانت حركته مفرطة في التهذيب وغير طبيعية. ذكَّرتني برودة الوسادة التي شعرت بها عندما جلست بإحساس كراسي غرفة انتظار الطبيب. كانوا قد أنهوا لتوِّهم تناول الغداء والأطباق وبقايا الطعام وأدوات المائدة المستخدمة متناثرة على الطاولة. كان هناك شيء ما في المناديل الملطخة أعطاني الانطباع بأنها كانت وجبة جيدة وأن جميعهم كانوا متخمين. لقد أنهيت بحضوري بهجة محادثة ما بعد تناول الطعام. قالت جَدَّتي:

- لقد وصلت "روزي" من "إنجلترا" لتوِّها، كان من المفترض أن تكون هي المستأجرة، أتذكرين؟

بالطبع كنت أتذكَّر؛ لقد كان هذا منذ أسابيع قليلة فقط. لماذا كانت جَدَّتي تتحدث بطريقة غير طبيعية؟ كانت كلماتها ثقيلة ومرغمة وظلت معلقة في الهواء بعد أن نطقتها بدلًا من أن تتلاشى كليًّا. نظرت إليَّ "روزي" في عدم ود، كانت تحمل سيجارة في يدها، وعندما تأخذ منها نفسًا تضيق عيناها بعض الشيء، ثم تنفخ خطوطًا مستقيمة من الدخان الأزرق، والذي يختفي بسرعة، كأن لديهم أمرًا عليهم اتباعه دون أي تعطيل. سألتني جَدَّتي:

- أترغبين في شراب؟ من المؤكد أنك عطشى بعد قيادتك للدراجة إلى هنا.

ترددت فقالت جَدَّتي بسرعة:

- هيا بنا إلى المطبخ لنرى ماذا بإمكاننا أن نجده من أجلك.

نهضت واتجهت إلى داخل المنزل. شعرت بالاستياء تجاه نبرة صوتها؛ كانت تتحدث معي كأنني طفلة تحتاج إلى تسلية. تبعتها على كل حال، حيث إنني أردت أن أعرف ماذا يجري. شعرت وكأن "روزي" تراقبني وأنا أبتعد.

ما إن أصبحنا وحدنا في المطبخ سألت جَدَّتي:

- جَدَّتي، هل هناك خطب ما؟

صبت جَدَّتي عصير برتقال في كوب، ثم أكملته بالماء، وقالت:

- حسنًا، لسوء الحظ لن يتمكن "جيسون" من الذهاب إلى الحفل معك يا "إيلي"، ليس بوجود "روزي" هنا. يبدو أنها وصلت هذا الصباح ولم تخبر أحدًا بذلك. ربما كانت تقصد أن تفعل ذلك كمفاجأة، لست أدري بالضبط. على أي حال، لم يرها "جيسون" منذ فترة وهما يريدان البقاء معًا لبعض الوقت.

ظللت ناظرة إليها دون أن أفهم كلماتها كليًّا، فقالت جَدَّتي:

- إن "روزي" حبيبة "جيسون". لم أكن أعلم ذلك أيضًا.

قالت ذلك كأنه من المفترض أن يشعرني بشعور أفضل. ظللت واقفة في مكاني مذهولة مما أسمعه. أكملت جَدَّتي كلامها كأنما لديها خطة لتحقيق ذلك:

- لا تقلقي، سنجد شخصًا آخر.

- نجد شخصًا آخر؟ إنها الخامسة والنصف مساء. من يمكننا أن..

سكت صوتي فجأة عند دخول "جيسون" المطبخ في خجل شديد. كان يضع يديه في جيبي بنطلونه الخلفيين وعلى وجهه نظرة اعتذار لي.

- أنا آسف للغاية يا "إيلي". أنا حقًّا آسف. لم أكن أعرف بأنها ستأتي. هل هناك شخص آخر يذهب معك؟

قلت في صوت ضعيف:

- لا، لا أعرف أي شخص آخر.

قال بصوت مماثل:

- يا للأسف.

لم يقل شيئًا آخر للحظة، ثم قال:

- سأعوضك عن الأمر. سآخذك للتنزُّه في مكان ما في عطلة نهاية الأسبوع المقبل.

التفت لجَدَّتي قائلًا:

- أيمكنني أن أقترض سيارتك في عطلة الأسبوع القادم؟

قالت جَدَّتي وهي تحاول أن تكون مرحة:

- نعم، نعم.

قال صوت ما فجأة:

- تقترض السيارة؟ لتذهب إلى أين؟

التفتنا كلنا لنجد "روزي" واقفة عند مدخل المطبخ، كانت قد خلعت حذائها وبدت حافية بغرابة كأنها في منزلها. كانت تضع سلسلة حول كاحل إحدى قدميها وترتدي عباءة طويلة زرقاء ورمادية. بدا "جيسون" متفاجئًا، وبدأ

يحكي لها عن حفل المدرسة في تلك الليلة. شعرت باحمرار وجنتيَّ، وتمنيت أن يصمت. قالت "روزي" عندما أنهى "جيسون" كلامه:

- أوه، حفل مدرسي.

ثم التفتت وذهبت للخارج مُجدَّدًا وهي تسوي شعرها بيدها أثناء مشيها. قام "جيسون" بمحاولة واهنة للضحك، ثم توقَّف وتبع "روزي" إلى الخارج. لم أتمكن من احتمال الأمر أكثر من هذا، فقلت إنني سأذهب لأتصل بـ"ماندي"، أخبرتني جَدَّتي أن أستعمل تليفون غرفتها، ذهبت إلى هناك، ولكنني لم أرفع السماعة، بدلًا من ذلك، استلقيت على السرير، وبكيت في وسادة جَدَّتي. لقد انتهى عالمي.

بعد وقت قليل، أتت جَدَّتي وجلست بجواري. ربتت على ظهري بيدها، وقالت:

- "إيلي" يا عزيزتي، أنا آسفة.

لم أقل شيئًا، وظللنا جالسين في صمت لبعض الوقت، ثم قالت فجأة:

- يمكنني أن أسأل أصدقائي.

قلت بغضب:

- تسألين أصدقاءك؟ ماذا تعنين بهذا؟

- حسنًا، ربما يعرف شخص ما أحد. ربما لدى أحدهم حفيد أو ابن أخ ليصطبحك.

مرَّت بي رجفة استياء، وقلت لها:

- عمَّ تتحدثين يا جَدَّتي؟ حفيد أو ابن أخ مَن؟ ليس بإمكانك أن تطلبي هذا من أحد. لم نعد في سنة 1914، أتعرفين ذلك؟

قالت جَدَّتي بملاطفة، وتجاهلت سُخريتي:

- حسنًا، ربما يوجد هناك شخص ما.

بكيت، وقلت:

- لا أريد أن أذهب مع أي أحد، أريد "جيسون". أريد الذهاب مع "جيسون" فقط.

أجفلت جَدَّتي، وقالت:

- أعرف يا "إيلي"، أعرف.

وصلت "ماندي" بعد مرور خمس عشر دقيقة، فقط اتصلت بها جَدَّتي عندما لم أفعل ذلك. قالت "ماندي":

- يمكنني أن أتصل ببعض الأشخاص، لقد طلبت من "مارتين" ليسأل.

زجرتها قائلة:

- هذا رائع، الآن كل من في "بولاوايو" يعرفون بأنه ليس لدي أحد يذهب معي إلى الحفل. أشكرك جزيل الشكر.

قالت "ماندي" وهي تشعر بالجرح:

- إنني أحاول فقط المساعدة، ظننت أنك لا تزالين تريدين الذهاب. لديك الفستان وكل شيء. سيكون من المؤسف ألا تذهبي.

- ما الفائدة؟ ما الفائدة من فستان جميل إذا كنت سأذهب مع شخص لا أعرفه.

قالت جَدَّتي في حيوية مفاجئة:

- هيا، توقفي عن الشعور بالأسف تجاه نفسك واذهبي.

زجرت مرَّة أخرى:

- أذهب إلى أين؟ بمَن تريدينني أن أتصل؟ أنا لا أعرف أي أحد.

- ماذا عن هذا الشاب الذي تحدثتما عنه من قبل؟ الذي أراد أن يخرج معك.

بحث عقلي دون جدوى لعدة لحظات، ثم قلت:

- "فانس"؟ "فانس تايلور"؟ من المؤكد أنك تمزحين. كلَّا، أشكرك. أفضل الذهاب مع سجين من سجن "إنجوتشيني". سيكون متحدثًا أفضل منه على أي حال.

وضعت الوسادة على رأسي. قالت "ماندي"، وهي تلتقط نبرة جَدَّتي الحماسية:

- نعم، ماذا عن "فانس"؟

أزحت الوسادة عن رأسي، وقلت:

- "ماندي"، لقد قلت إنك لا تقبلين الخروج معه.

- لكن هذه أنا، نحن نتحدث عنك أنت.

قلت بحسم:

- أشكرك!

- لا، لا، لم أعن ذلك. لقد عنيت أنكما، حسنًا، تليقان ببعضكما نوعًا ما.

أشحت بنظري بعيدًا عنها. لم أصدق أن من الممكن أن ينظر شخص ما إلى "فانس" وإليَّ ويظن أننا خرجنا معًا ذات مرَّة، ثم قالت وهي تومئ ناحية البلكونة:

- على الأقل هو معجب بك، وهذا أفضل من شخص ما لديه حبيبة.

توقف بكائي بالتدريج، ونظرت باستسلام إلى التليفون. قلت بصوت ضعيف حزين:

- ربما أنت على حق، ربما يجب عليَّ أن أعطيه فرصة.

أمسكت جَدَّتي دليل التليفون وبحثنا عن رقم "فانس". ظللت أنظر إليه طويلًا قبل أن أمسك سماعة التليفون وأتصل به.

كان موجودًا، وكان سعيدًا. كان قد خطط لمشاهدة فيلم على جهاز الفيديو – "الموت القاسي" – هل شاهدته؟ كان سيصبح من الكلاسيكيات. لكن لا، سيكون الحفل الراقص أفضل بكثير، كان يأمل في ليلة كهذه منذ وقت طويل، أخبرني أنه سيأتي لاصطحابي في السابعة.

شعرت جَدَّتي بالسعادة، وقالت:

- عظيم، لو أنه أتى لاصطحابك في السابعة، فبإمكاني أن أذهب إلى النادي البحري لمقابلة "مايلز" في حوالي السابعة والنصف. يبدو كأننا سنحظى بليلة لطيفة.

قلت بصوت منخفض لشعوري بالهزيمة:

- رائع، ما تمنيته طوال حياتي.

قالت وهي تحتضنني:

- أوه يا "إيلي"، يومًا ما ستتذكَّرين هذا اليوم وستضحكين، سترين.

قلت وأنا أستنشق:

- لا أطيق الانتظار.

كانت عيناي منتفختين من البكاء، قالت جَدَّتي:

- اسمعي، لماذا لا تأتيا أنتما الاثنان إلى النادي بعد الحفل وسنقابلكما هناك؟

أردت أن أقول بأن الخطط تظل تتحسن وتتحسن، قضاء الليلة مع "فانس تايلور" يتبعها سهرة في النادي البحري مع "مايلز تريفيليان". ماذا يمكن أن يكون أفضل من هذا؟ لكن كان هناك شيء ما في صوت جَدَّتي، نبرة تعاطف لم أتمكن من إنكارها. أعلم أنها كانت تقدم لي أفضل ما يمكنها عمله، كما أنها شعرت بالفعل وكأن ما حدث مسؤوليتها هي. أخذت نَفَسًا عميقًا، ثم تمكنت من أن أقول:

- حسنًا، ربما نفعل ذلك. إذا كان لدينا الوقت.

عندما وصلنا أمام النادي البحري تلك الليلة، كنت أشعر بالراحة أكثر مما كنت أشعر به قبل ذلك الوقت. لم يكن الحفل كارثيًا مثلما توقعت، على الرغم من أنه لم يبدأ بداية طيبة أيضًا. وصل "فانس" في شاحنة زرقاء صغيرة ذات إطارات صفراء، رغبت بأن تبتلعني الأرض عندما رأيتها. لحسن الحظ وصلنا متأخرين، واضطررنا لإيقاف السيارة بعيدًا عن المدرسة. عرض عليَّ "فانس" أن ينزلني عند المدرسة ويذهب ليبحث عن مكان يوقف فيه السيارة؛ لكنني قلت له مسرعة ألا يقلق وأشرت ناحية جراج مظلم قريب من السور، حيث سنكون غير ظاهرين إلى حد ما. كان "فانس" أيضًا مرتديًا حذاءً أبيضَ لامعًا، والذي أضاء حرفيًّا في الظلام بينما نمشي متجهين إلى المدرسة. لعنت في سري جَدَّتي و"ماندي" وتمنيت لو أنني قررت البقاء في المنزل.

تحسنت الليلة مع ذلك، فقد ابتهجت في صحبة أصدقائي حتى أنني كنت مستمتعة بوقتي. لم يسألني أحد ماذا حدث مع "جيسون"، حيث إنه لم يكن هناك أي أحد باستثناء "ماندي" كان يعرف بأنه كان من المفترض أن يأتي معي. احتفظت بالأمر سرًّا حيث إنني أردت أن يكون الأمر كله مفاجأة. كان لديَّ تخيل في ذهني عن وصولي مع "جيسون" والجميع يلتفت لينظر إلينا. حتى الموسيقى تتوقف، كان الجميع لينظرون إلى بعضهم البعض ويهمسون كم أننا نبدو رائعين معًا وكم أن "جيسون" وسيم. عندما وصلت مع "فانس"، لم تتوقف الموسيقى ولم يلتفت أحد لينظر إلينا، حتى إنه لم يلتفت إلينا أحد باستثناء بعض من أصدقائه الموجودين هناك عندما كانوا يقولون "كيف حالك يا صديقي؟"، و"يا إلهي يا رجل! من سمح لك بالدخول؟"؛ لكن الأمسية كلها لم تكن كارثية، وشعرت بأنني ربما أكون قد حكمت على "فانس" بقسوة.

بعد نهاية الحفل، قررت أن أذهب للنادي البحري حتى تشعر هي الأخرى بشعور أفضل حول ما آلت إليه الأحوال. قال "فانس" ونحن نسير باتجاه سيارته:

- النادي البحري؟ يا إلهي! أين يقع هذا المكان؟

ضحكت، وقلت:

- سأريه لك، ما إن تراه مرَّة، لن تنساه أبدًا.

وصلنا أمام النادي البحري، وأوقفنا السيارة؛ لكن "فانس" لم يتحرك فأرخيت قبضتي على مقبض الباب، وانتظرته يخرج. التفت إليَّ، وشعرت للحظة بأنه سيقبلني، وتمنيت أمنية عابرة بأن يفعل. تفاجأت من نفسي لأنني وجدت أنني ألتفت إلى الناحية الأخرى وأنظر من النافذة. قال وهو مبتسم:

- لقد قضيت ليلة رائعة.

لم أرد فاستطرد:

- ماذا عنك؟

فكَّرت للحظة فيه وهو يخرج من شاحنته الزرقاء ذات الإطارات الصفراء بحذائه الأبيض وترددت، ثم تمكنت من أن أقول بنبرة رسمية:

- أجل، حسنًا، لم تكن سيئة للغاية.

قال وهو لا يزال مبتسمًا:

- لا تبدين سعيدة.

- لا، حقًّا، كان الأمر رائعًا. شكرًا على حضورك.

جذب "فانس" مقبض الباب وفتحه ونزل، تبعته في تردد بعض الشيء. عندما وصلنا إلى أسفل السلم المفضي إلى داخل النادي البحري، التفت إليه قائلة:

- "فانس".

- ماذا؟

اقتربت منه لأعلى مثلما يقترب طفل من بابا نويل وقبَّلته على خدِّه، فضحك في حرج. لم يقل أحدنا شيئًا. فقلت وأنا أبتعد عنه وأصعد السلم:

- حسنًا، لنذهب ونرى ما إذا كانت جَدَّتي بالداخل.

سعدت جَدَّتي عندما رأتنا ولوَّحت لنا من مكانها على الطاولة التي تجلس أمامها مع "مايلز". كان "مايلز" يدخن؛ لكنه نهض ليحضر كرسيًّا، بينما تتدلَّى السيجارة من فمه. سألتني جَدَّتي بابتسامة مُداعبة:

- كيف سار الأمر؟

- جيد، شكرًا يا جَدَّتي.

وأومأ "فانس" برأسه، سأله "مايلز":

- هل عرفت نتيجة مباراة الكريكيت؟

بدا على "فانس" المفاجأة، وهزَّ رأسه قائلًا:

- لست من محبي رياضة الكريكيت.

قال "مايلز" متفاجئًا:

- حقًّا؟

كان هناك وقفة لبعض الوقت، ثم أمطرتني جَدَّتي بالأسئلة، ماذا كانت الفتيات الأخريات ترتدين؟ هل علق أحد على فستاني؟ متى انتهى الحفل؟ في النهاية نهض "فانس"، وقال إنه سيرحل.

- شكرًا على الليلة الرائعة يا "إيلي". يجب أن نكررها مرَّة أخرى.

صافح يد "مايلز"، وأومأ لجَدَّتي متمنيًا لها ليلة سعيدة، سألته جَدَّتي:

- أترحل مبكرًا هكذا؟ لم لا تجلس وتأخذ مشروبًا آخر؟

- لا شكرًا يا سيدة "روجرز". يجب أن أستيقظ غدًا مبكرًا.

سأله "مايلز" بصوت معلم لا يصدق عذر أحد طلابه لعدم أدائه واجبه الدراسي:

- في يوم الأحد؟

- سأذهب إلى "هاراري". سباق الدراجات النارية.

وحرك يديه كأنه يقود دراجة نارية.

قالت جَدَّتي:

- حسنًا، تصبح على خير إذًا.

ثم نظرت إليَّ واتَّسعت عيناها وأومأت إلي ناحيته، قلت له:

- تصبح على خير يا "فانس".

ثم ذهب وخرج من الباب. قالت جَدَّتي ما إن رحل:

- "إيلي"! كان يجب عليك أن تذهبي وتتمني له ليلة سعيدة.

ضحكت وقلت:

- لا يا جَدَّتي، لا أظن ذلك.

ضحكت وقالت:

- "إيلي"، أنت عديمة الفائدة. على كل حال، كيف سار الأمر... حقًّا؟

قلت وقد اتسعت عيناي، وضحكت:

- لا بأس بالفعل. بجانب أنه جاء مرتديًا حذاءً أبيضَ ويقـود شـاحنة زرقـاء ذات إطارات صفراء، لا بأس.

ضحكنا وقالت جَدَّتي:

- لا تكوني قاسية.

احتججت قائلة:

- أنا لست كذلك؛ ولكن كيف يمكنك أن تذهبي إلى حفل راقص مع شخص يرتدي حذاءً مزودًا بالكهرباء؟

صرخت جَدَّتي في ضحكة، حتى "مايلز" ابتسم نصف ابتسامة. قالت جَدَّتي:

- إذًا فلن تقابليه مرَّة أخرى؟

- لا، لا أعتقد ذلك. أحتاج إلى بعض الوقت كي أتعافى من رؤيته الليلة.

كنـت أعـرف أني أقسـو عليـه دون مـبرر؛ لكننـي كنـت أشـعر بـألم يخفـق بداخلي، وظننت أنني لو تعاملت مع الأمر باستخفاف فسيذهب هذا الشـعور. خلعت حذائي الذي كان يؤلم قدمي، واحتضنت جَدَّتي، قالت:

- أنا سعيدة لأن الأمر لم يكن سيئًا للغاية.

وقبَّلتني على رأسي، تنهَّدت، وقلت:

- لا لم يكن سيئًا للغاية.

كنت أشعر بالألم بعد أن استلقيت عـلى السريـر تلـك الليلـة. رقـدت عـلى ظهري، وجذبت اللحاف حتـى ذقنـي، كنـت أشـعر بـالبرد، لكننـي لم أنهـض كي أحضر بطانية أخرى. كانت قدماي تطلان من أسفل اللحاف، وكل ما كنت أفكِّر فيه كان لماذا لم يقبلني؟ لماذا لم يقبلني؟

(19)

حل شهر أغسطس واندلعت معه حرائق في الأشجار في المزارع؛ حرائق من النوع الذي يحرق بغضب وجوع، بينما تكتسح طريقها خلال العشب الجاف الطويل وأوراق الشجر المتساقطة في الشتاء. أحببت ذلك الوقت قبل موسم نزول الأمطار، تلك الأيام الذهبية التي بدت كأنما ستمتد للأبد. قبل الأمطار وقبل العواصف، عندما تتلون أشجار "الجاكاراندا" باللون البنفسجي الرائع، عندما تفوح من الهواء رائحة الملاءات القطنية الحديثة، عندما يمتلئ بالحياة، مثل إناء كبير ممتلئ بالماء عن آخره محمول بحذر كي لا تنسكب منه المياه؛ سيروي أكتوبر ظمأه، ويبصق الفائض على التراب أسفل قدميه. سيحضر نوفمبر معه البعث والأمطار؛ لكنه سيحضر العواصف أيضًا، والبرق والسماء السوداء. أما الآن، فهو وقت شهر سبتمبر، سبتمبر الذي يشفي ويخفف الألم ويريح.

يشهد شهر سبتمبر آخر فصل من السنة الدراسية. الامتحانات، والحفلات، والأمطار، والاستعداد للكريسماس. هناك شيء ما شعري متعلق بسبتمبر، أغنية، أو وعد. يعد ببداية جديدة، وفي الوقت نفسه يعلن عن نهاية ما. كلنا مخطئين في نصف الكرة الجنوبي. كان من المفترض أن يكون يناير الخاص بنا. كل يوم ذهبت لجَدَّتي على دراجتي، مرورًا بالشوارع الواسعة الممتلئة بالأشجار، وحتى الضواحي الكسولة. كان هواء الظهيرة المبكرة هادئًا باستثناء زقزقة الطيور الناعمة لبعضها البعض والسيارات التي تمر بتمهل بين الحين والآخر. في وقت متأخر من الظهيرة،

امتلأ الهواء برائحة المياه على التراب وصوت رشاشات المياه في الحديقة. امتدت أشجار "الجاكاراندا" على جانبي الطريق، تصل فروعها إلى الأشجار المقابلة لها على الجهة الأخرى من الطريق الأسفلتي كأنهم يفسحون لي طريقًا كي أمر. كنت واقعة في الحب وقتها، ليس في حب أحد؛ بل في حب الحياة. حاولت ذات مرَّة أن أكتب قصيدة عن الأمر. بدأت بها، وكتبت "شمس سبتمبر الحالي..." ثم توقفت. لم أتمكن من المواصلة، شعرت بأن الكلمات عديمة الجدوى، لا يوجد شيء يفسرها؛ لا يوجد شيء بإمكانه تفسيرها. سبتمبر: الكلمات فقدت معانيها.

رحل "جيسون". ذهب ليعيش في شقة أخرى مع بعض المغتربين الآخرين في طرف الشمال. "روزي" أيضًا كانت تعيش هناك. لم أره بعد أن رحل عن منزل جَدَّتي قط، حيث إنه لم يتواصل معها بعدها. شعرت بأنه تصرف سيئ منه وأعتقد أنها افتقدت صحبته؛ لكنها لم تحصل على مستأجر آخر، وقالت بأنها تفضل الأمور على هذا الحال.

خلال مرحلة دراستي الثانوية النهائية، تقدَّمت لعديد من الجامعات كي أدرس اللغة الإنجليزية والفن. كنت أعلم أنه من المرجح أنني لن أذهب، حيث إن والدي لن يتحملا التكاليف، لكنني أردت أن أعرف أن كان بإمكاني القبول، وأن أبقي على الفرصة متاحة. بدأت أفكر فيم سأفعله في السنة اللاحقة. كان لديَّ بعض الأفكار الرائعة عن العمل لبعض الوقت والادخار، ثم السفر إلى "إنجلترا". يمكنني أيضًا أن أعمل في "أوروبا" في جمع العنب والخدمة في المطاعم، ثم في النهاية أتعلم أربع أو خمس لغات أخرى، وأعيش في مكان ما يطل على البحر المتوسط. كانت العقبة الأكبر أمامي هي إيجاد عمل في "زيمبابوي" أولًا. كرهت فكرة أن أكون سكرتيرة أو موظفة استقبال في مكان ما؛ لكن لم يكن أمامي اختيارات كثيرة متاحة.

ذات ليلة كنت أجلس مع جَدَّتي في بلكونة منزلها، تحدثت معها عن مستقبلي وشعوري باليأس نحوه. كل ما أردت فعله هو قراءة الكتب والدراسة.

- لا تقلقي، إنه مجرد عام واحد، ويمكنك بعده أن تسافري لبعض الوقت.

قلت في بؤس:

- عام! عام كامل من حياتي أقضيه كسكرتيرة مثيرة للشفقة.

قلت بصوت رفيع:

- مرحبًا، أنا "إيلي" وأنا سكرتيرة، أنا غبية للغاية ولكنني أحب الطباعة ولعبة الصبر على الكمبيوتر. أنا لست طموحة لأنني ذات يوم سأتزوج صديقي. أجل، إنه لطيف جدًّا، وهو يلعب الرجبي.

ضحكت جَدَّتي، وأشحت بنظري بعيدًا عنها بازدراء، سألتني في جدِّية:

- لماذا تقولين هذا يا "إيلي"؟ حتى لو كنت سكرتيرة، فأنت لست غبية، وبإمكانك فعل ما هو أكثر من مجرد الطباعة وأنت بالفعل طموحة. عملك كسكرتيرة لا يجعل منك غبية.

- لكن هذا ما سيفكر فيه الناس.

- هذا ما تفكِّرين فيه أنت. تحلي بالثقة في ذاتك أكثر.

- الأمر ليس متعلقًا بي، بل بالآخرين، فهم ينظرون إلى النساء، ويفكِّرون في شيء واحد بشأنهن. ليس هناك فرصة لأكون مختلفة هنا. إذا كنت امرأة، فأنت شيء واحد فقط ولا شيء غيره.

قالت جَدَّتي كأنما شعرت بالإهانة:

- حسنًا، هذا ليس صحيحًا تمامًا، انظري إليَّ، أنا لست كذلك.

كان هذا صحيحًا، لم تكن جَدَّتي مثل النساء اللاتي وصفتهن، ومع ذلك إذا نظر أحدهم لحياتها فسيفكر في شيء آخر: الذهاب إلى النادي البحري كل أسبوع، ارتباطها برجل مثل "مايلز". لم أقل شيئًا من هذا، لم أرد أن أجرح شعورها.

- مشكلتك يا "إيلي" أنك تعتقدين أن هناك طريقة واحدة فقط للعيش، وإذا لم تتمكني من التكيف معها فستعتبرين نفسك منبوذة. حسنًا، أنت مخطئة. هناك كثير من الطرق المختلفة لتعيشي حياتك.

قلت في حسم:

- ليس في هذا البلد.

فقالت بشدة:

- نعم، في هذا البلد، ليس عليك أن تكوني "روديسية" كي تعيشي هنا يا "إيلي". اعثري على مساحتك الشخصية، طريقتك الخاصة لفعل الأشياء. أنت تحبين المكان هنا، أليس كذلك؟ أقصد البلد، هل تحبيه؟

- البلد، نعم؛ ولكن ليس الناس.

تنهَّدت جَدَّتي، وقالت:

- إذًا فلتبقي من أجل البلد. يمكنك أن تقابلي الناس الذين ترغبين في معرفتهم وأنت في طريقك.

قلت وأنا ألوِّح بذراعي:

- وكم من الوقت سيتطلب هذا الأمر؟ جَدَّتي، أريد أن أعيش، ليس فقط أن أكون موجودة. أريد الذهاب للمسارح والحفلات وأقابل الناس فعليًّا، أشخاصًا لديهم ما يقولونه عن أنفسهم، الذين بإمكانهم التحدث عن أشياء أكثر من.. الشراب والحفلات. سأموت يا جَدَّتي لو بقيت هنا. سأذبل وأموت.

مرَّت فترة صمت ونحن جالستين ننظر أمامنا أبعد من نبات الخشخاش وسلم البلكونة، ننظر تجاه ليل سبتمبر الدافئ المتأخر. شعرت بالدموع في نهاية حلقي، لكنني لم أبك.

قالت جَدَّتي بعد فترة:

- عندما جئت إلى هنا لأول مرَّة، لم أكن أعرف أي شخص.

قلت في ضيق:

- كان الأمر مختلفًا حينها.

فكَّرت لماذا يحدث هذا، إنه عندما تمر بمشكلة ما، تجد دائمًا شخصًا ما لديه قصة عن حياته الخاصة ليقارنها بقصتك؟ لم أرد أن أعرف أن كل الناس تمر بظروف مشابهة، أردت قصتي الخاصة، قصة فريدة من نوعها.

سألتني جَدَّتي وشعرت بنبرة ضيق تدخل على صوتها:

- لماذا؟ لماذا كان الأمر مختلفًا حينها؟

- لأنه قبل سنوات، كانت الأمور مختلفة. كانت تتم معاملة النساء بطريقة مختلفة، والرجال كانوا أكثر رومانسية. كان هناك حفلات ورقص و.. و..

بحثت عن الكلمة كأنني أنتشلها من الهواء، وقلت:

- رومانسية.

قالت جَدَّتي وهي تعتدل في جلستها:

- أتعلمين يا "إيلي"؟ لم يكن الأمر بهذا الشكل طوال الوقت. نعم، كان الرجال يعاملونك بشكل أفضل؛ لكن لم يمنع هذا قلبك من أن يجرح. نعم، كان هناك حفلات ورقص، لكن لم يمنع هذا من أن تشعري بالوحدة. لم تكن حياتنا كلها رومانسية، كان الأمر صعبًا. عندما أتيت إلى هنا، لم أكن أعرف أي شخص. كان عليَّ أن أخرج وأقابل الناس، وكان هذا صعبًا علي. تقولين إن الوضع وقتها كان أفضل للنساء؛ ولكن لم يكن بإمكاني الذهاب إلى أي مكان دون مرافق رجل. لم يكن بإمكانك الذهاب للسينما أو لتناول فنجان قهوة ببساطة، كان من المفترض أن تنتظري حتى يطلب أحدهم أن تخرجي معه، وإذا لم تجدي أحدًا يطلب منك، فلن تذهبي إلى أي مكان.

- لكنك وجدت من يطلب منك الخروج، أليس كذلك؟ لقد كنت تخبرينني دائمًا كيف أنك خرجتِ في كل الأماكن.

قالت جَدَّتي وهي تسترخي في كرسيها:

- بعد فترة، تطلب ذلك بعض الوقت.

- على كل حال لقد ظننت أنك كنت تعرفين العم "والي" وقتها. كنت تعرفين شخصًا واحدًا على الأقل.

ترددت جَدَّتي، وقالت:

- كنت أعرف العم "والي" بالفعل؛ ولكن...

كانت هناك وقفة طويلة نظرنا أثناءها إلى الليل، قالت جَدَّتي بعدها:

- لم يتمكن من الفهم دائمًا على الرغم من ذلك. أعني بسبب كونه رجلًا. لم يفهم دائمًا.

تنهَّدت، وقلت:

- جَدَّتي، عندما علمت بأنك ستنتقلين إلى هذا البلد، ألم تكوني سعيدة؟

- نعم، بالطبع كنت سعيدة؛ لكنني كنت خائفة أيضًا.

فقلت بإصرار:

- هل نظرت إليها على أنها حياة جديدة؟

- بالطبع. وخاصةً أن الحرب قد انتهت لتوِّها و"بريطانيا" كانت كئيبة للغاية. كنت...

قاطعتها:

- حسنًا، هكذا أشعر الآن، أريد حياة جديدة. أريد أن أسافر وأرى العالم. أتفهمين ما أقصده؟

قالت جَدَّتي وهي تنظر لأسفل بحزن:

- أعرف، كنت سأرى العالم أنا أيضًا.

ضحكت ضحكة خالية من المرح، ثم أكملت:

- لكنني توقفت في منتصف الطريق.

بعد أسابيع قليلة، مررت بدراجتي على منزل جَدَّتي وأنا في طريق العودة للمنزل. كنا في عام 1992، أسوأ عام مرَّ علينا في فترة الجفاف. وجدتها في الحديقة، تمشي على الممر الرملي الرفيع حاملة دلوًا ممتلئًا بمياه استحمام، وكانت تسكبها باقتصاد فوق شجيرات زهور الأقحوان المتناثرة المحيطة بالبلكونة وشجيرات اللافندر قرب الباب الخلفي. أبقت على معظم المياه من أجل زهورها، التي كانت تستلقي أسفل أشعَّة الشمس القاسية طوال النهار والتي أيضًا كانت تقف مثل صف من الجنود المهزومين، المنتظرين برؤوسهم منخفضة، أمام من أسرهم.

ابتسمت جَدَّتي عندما رأتني ولوحت بيدها. بدا عليها التعب واضحًا، ولأول مرَّة في حياتي شعرت أنها تبدو مسنة. شعرت بحب جارف مفاجئ تجاهها، وأردت أن ألقي بذراعي حول رقبتها. لم أفعل على الرغم من هذا، وفي المقابل، أخذت الدلو الذي كانت تحمله، ورويت الحديقة بدلًا منها. مسحت يديها في بنطلونها، وتنهَّدت، وقالت:

- أشكرك يا "إيلي"، أنت فتاة طيبة.

- أتساءل إلى متى سيستمر هذا الجفاف.

حدقت السماء الزرقاء إلى الأسفل دون أي فعل كرد منها على سؤالي؛ فكَّرت في أنها لم تكن تهتم.

بعد التجول في الحديقة، توجهت جَدَّتي إلى المطبخ، وصبت من أجلنا كوبي عصير برتقال طويلين باردين، وجلسنا في ظل البلكونة. سألتني جَدَّتي:

- ما المكان الذي أخبرتني عنه.. الذي تودين أن تدرسي فيه؟

لم أرد أن أخوض في هذا الأمر مجددًا. شعرت بالخجل بعض الشيء، ليس بسبب ما قلته فيما قبل، إنما بسبب ما فكرت فيه أثناء حديثنا، وهو أن جَدَّتي

كانت بطريقة ما تُعتبر فشلًا، لقد وافقت على أن تتكيف مع المجتمع الذي أردت أن أفصل نفسي عنه، كانت تُعتبر جزءًا مما كرهته.

ترددت في البداية، ثم قلت:

- "إنجلترا". جامعة "بريستول" لو سنحت لي الفرصة.

- وقدمتِ طلب التحاق فيها؟ ألم تقولي هذا؟

- نعم، قدمت طلبات التحاق لأماكن كثيرة.

مرت فترة صمت، ثم قالت:

- لديَّ خطة، لديَّ بعض الأموال في "إنجلترا".

نظرت للأسفل، ومررت يدها على ذراع كرسي الخيزران الذي كانت تجلس عليه، وأكملت:

- تركها لي أبي عند وفاته. ليس مبلغًا كبيرًا ولكنني بدأت في استثماره منذ عدة سنوات، وكان يدر بعض الربح من حينها.

حدَّقت فيها، وقلت:

- لديك أموال في "إنجلترا"؟ لم تذكري هذا الأمر من قبل مُطلقًا.

- في الحقيقة، لم أعرف كم كان المبلغ من البداية. عندما مات أبي، وُضع المال في حساب بنكي باسمي ونسيته تمامًا. كنت هنا حين مات، ولم أتحقق من الأمر أبدًا.

- لكن، جَدَّتي، استخدميه، استخدميه من أجلك. أنت تحتاجين إلى المال دائمًا، لماذا لا تستخدمينه؟

قالت:

- إنني أستخدمه بالفعل، بعضًا منه.

لوَّحت بيدها إلى الخلف تجاه المنزل، وقالت:

- هكذا أتمكن من تحمل تكاليف العيش هنا. لم يكن بإمكاني أن أفعل ذلك دون المال.

- ظننت أن المعاش..

ضحكت جَدَّتي ضحكة قصيرة أوقفتني، وقالت:

- المعاش! إنه ليس كافًا. في الحقيقة يا "إيلي" لم يكن بإمكاني أن أبقى بمفردي دون الأموال التي تأتيني من الخارج.

هتفت قائلة:

- حسنًا، لن أتمكن من قبولهم. كيف ستعيشين دون هذا المال؟

- العيش هنا ليس مكلفًا عندما تحولين المال، وأنا أستخدمه فقط لدفع الإيجار.

- حسنًا، لماذا لا تستخدمينه لأشياء أخرى؟ لم لا تسافري في عطلة؟

نظرت جَدَّتي ليديها، وأدرات خاتمًا تلبسه في سبابتها، وقالت:

- أتعلمين يا "إيلي"؟ عندما تقضين معظم حياتك وأنت معتمدة على الآخرين، فستريدين يومًا ما شيئًا من نفسك. ستريدين أن تتمكني من أن تقولي "لقد فعلت هذا أو ذاك، بمفردي".

بدت حزينة للغاية وهي تتحدث وعندما نظرت لأعلى مجددًا، نظرت في عيني مباشرة لعدَّة ثوانٍ، وقالت:

- لهذا السبب لا أستخدمه للسفر في عُطلة.

- لكنه مالك يا جَدَّتي.

أجابتني وهي تزمُّ على شفتيها بأسى:

- لا، إنه ليس مالي، ليس مالي.

- هل تعلم أمي؟ بأمر المال؟

أومأت جَدَّتي برأسها:

- أجل، أخبرتها عندما انتقلت إلى هنا. لقد ظلت تتحدث كثيرًا عن كيف أنني لن أتحمل تكاليف العيش هنا. لم أرد أن أعتمد على هذا المال على الإطلاق. لهذا

السبب قرَّرت أن أحصل على مستأجر؛ ولكنني أحب أن أكون بمفردي يا "إيلي". كل هذا...

ألقت بذراعيها مفتوحتين وكأنها تضم المنزل والحديقة، وأكملت:

- هو ملكي.

لم أكن أعرف ما إذا كان من المفترض أن أفرح أو أحزن من أجلها، أقبل عرضها أم أرفضه. لم أتمكن من اتخاذ قرار حول الأمر على الإطلاق.

قالت جَدَّتي بابتسامة مفاجئة:

- ستحتاجين للعمل على الرغم من ذلك، لو تحملت أنا تكاليف دراستك، فستحتاجين إلى أن تنفقي على نفسك.

بالكاد همست:

- لا بأس بذلك.

كنت على وشك البكاء وقتها.

بحلول شهر نوفمبر حُسم الأمر، سأذهب للدراسة في "إنجلترا". كنت مبتهجة للغاية؛ كانت سعادتي مفرطة. سأترك "بولاوايو". في اليوم الذي تسلَّمت فيه خطاب القبول من الجامعة، ذهبت بدراجتي إلى منزل جَدَّتي، ألقيت بالدراجة على العشب وذهبت للخلف، حيث كنت أعرف أنها ستكون هناك ترعى شتلاتها. احتضنتني بشدة وقبَّلتني على شعري. ارتعشت شفتاي قليلًا. خلال هذه السعادة شعرت ببدايات الحزن. أردت الرحيل ولم أرد، أردت الذهاب إلى "إنجلترا"، وكذلك أن أعيش للأبد في "زيمبابوي". هل سأعود يومًا ما؟ هل سيكون هذا هو آخر نوفمبر أقضيه في المكان الذي عشت فيه حياتي بأكملها؟ استطعت أن أرى عيني جَدَّتي الزرقاوين تترقرقان بالدموع ثم التفتت لتذهب إلى الداخل وهي تقول:

- هيا نتناول فنجاني شاي للاحتفال. أعتقد أنها ستمطر.

(20)

بالفعل تم الأمر، رحلت عن "زيمبابوي" وذهبت لأعيش في "إنجلترا". وجدت هنا صوتًا لم أجده من قبل. شعرت وكأنني قضيت حياتي بأكملها على مسرح، وعلى الرغم من ذلك لم أتمكن من أن أظهر تحت بؤرة الضوء. بطريقة ما ظل الضوء دائمًا بعيدًا عني. على الرغم من أنني لوحت له مرَّة أو مرَّتين كي أجذب انتباهه، فإنني ظللت في الظلام. والآن توقَّف وحملني بتوهجه وأنا بدوري نعمت بدفئه، وترعرعت في وهجه.

وجدت كل ما كنت أحلم به. "إنجلترا" لديها حضارة ممتعة للغاية؛ لديها فن وفوق كل شيء، لديها كتب. لم يكن هناك أي ضغط كي أتكيف، لا توجد حاجة كي أكون أي شخص عدا نفسي. من الغريب أن أكتشف الآن أن الحرية، أو فكرة الحرية، هي شيء يوجد في ذهن الإنسان. "إنجلترا" عند وصولي إليها ستكون إنجلترا نفسها بعد مرور أربعة عشر عامًا، وعلى الرغم من ذلك فقد تحولت لسجن بالنسبة لي.

رحلت عن "زيمبابوي" في يناير من عام 1993 وعملت في محل لبيع الكتب في "لندن"، في منطقة "جولدرز جرين" تحديدًا. كان لديَّ نية في أن أقرأ جميع الكتب هناك، حيث أبدأ بالأعمال الكلاسيكية ثم الأدب الحديث ثم تاريخ الفن والموسيقى. أردت أن أقرأ كي أملأ كل فجوات معرفتي حتى أتمكن من أن أومئ برأسي في حكمة عندما يسألني أحدهم عن "جيل البيت" Beat Generation،

أو "نهضة هارلم" The Harlem Renaissance، أو روايات "جراهام جرين"، أيًّا كان ما سأعرفه عن هذه الأشياء.

مع ذلك كنت منبهرة بالكتب المكدسة على الأرفف، لم تسمح لي وظيفتي بوقت كافٍ للقراءة، ولم يكن بإمكاني تحمل تكلفة شراء الكتب، حيث إنني كنت أجني بالكاد ما يكفي احتياجاتي، وما يتبقى أدخره من أجل دراساتي المستقبلية. تعلمت كيف أكون فقيرة، كيف أكتفي بالقليل؛ لكنني لم أحتج للمال في كل الأحوال. كان هناك الكثير لأراه، وتمكنت من استيعابه بسهولة. كنت أجلس أشاهد الناس يركبون ويخرجون من مترو الأنفاق، وهذا وحده كان طعامًا كافيًا لعقل جائع للتنوع والاختلاف. لو لم أتمكن من تحمل كلفة حضور إحدى المسرحيات، أقوم بمقارنة آراء النقاد عنها في مختلف الصحف. تعلمت أن أقدِّر متعة ادخار المال طوال الأسبوع لأجلس في مقهى وأنفق ما ادخرته على فنجان "كابتشينو"، وأنا أشاهد العالم يسير أمامي، أو أوفر طوال الشهر من أجل أن أشتري تذكرة حفلة بنصف الثمن.

عندما وصلت، أقمت مع "ميشيلي لوفت"، ابنة إحدى صديقات أُمِّي. كانت قد أمضت عامين في "بريطانيا"، وستظل فيها لعامين آخرين حتى تتمكن من استخراج جواز سفر بريطاني، وحتى لو أنها قررت أنها لا تريد البقاء في "بريطانيا"، فجواز السفر سيكون مفيدًا لها في كل الأحوال، كما كان مفيدًا لكثيرين غيرها. أعتقد أنني اعتبرت جواز سفري مفروغًا منه، ومع ذلك شعرت بالذنب قليلًا لإحساسي بأنه مُنح لي دون أن أفعل أي شيء سوى أن أكون سليلة عائلة بريطانية. لم أشعر بالذنب فقط بجانب أمثال "ميشيلي"؛ ولكنني أحيانًا شعرت بالذنب وأنا بصحبة البريطانيين الحقيقيين، هؤلاء الذين لم يولدوا وينشأوا في بلد بعيدة، والآن أتوا ليطالبوا بحقهم في بلد لا يحملون تجاهها أي ولاء.

كانت "ميشيلي" تملك شقة صغيرة على بُعد شارعين تقريبًا من محل الكتب الذي عملت فيه. لم تكن الشقة كبيرة بما يكفي لتتسع شخصين، والغرفة التي

كنت أنام فيها هي في الحقيقة دولاب كبير. كان بها سرير ملتصق بالحائط والباب عند فتحه يصطدم به، وكان هناك صندوق صغير به أدراج عند قدمي السرير والمساحة الوحيدة المتاحة لتعليق الملابس كانت عبارة عن خطاف ملصق بظهر باب الغرفة. لكن أي أحد في مكاني سيتمكن من إدراك إحساس الحرية، وحتى الكبرياء التي أعطتني إياهما الغرفة. كانت هذه هي خطوتي الأولى بعيدًا عن المنزل، أولى خطواتي على طريق شعرت بأنه سيحملني إلى النجاح والرومانسية ونوع الكمال الذي وجدته فقط في روايات "جين أوستين" والأفلام الرومانسية.

"ميشيلي" لديها غرفة كبيرة بها مساحة من أجل منضدة الزينة، ومكتب وأيضًا كنبة. هذه الكنبة غالبًا ما تكون مغطاة بالملابس والمناشف، كما أن "ميشيلي" ترمي فوقها حقيبتها كلما عادت من عملها. لم أكن أراها كثيرًا، حيث إنها كانت تغادر قبلي في الصباح، كما أنها تعود من عملها في "فولهام" في أكثر من ساعة، حيث تعمل في شركة للبناء. كانت تعود من عملها في وقت متأخر من الليل، وغالبًا ما تذهب لمقابلة أصدقائها بعد عملها، كما يأتي حبيبها من "ليفربول" في عطلة نهاية الأسبوع. كنت أسمعهما في غرفتها ليلًا، وأحاول ألا أفكر فيما يفعلان. لم أكن حسودة؛ كنت أفكّر أنني أفضل منها، حيث إنني في انتظار الشخص المناسب، الشخص الذي سيغير حياتي.

تخيلت نفسي أقابله في محل الكتب. سيكون شخصًا أكاديميًّا، قد يكون طالب بحث أو مؤلفًا مكافحًا. سيشتري شيئًا مثل رواية "الحرب والسلام"، وبينما يقوم بدفع ثمنها، سأسأله ما إذا كان قد قرأ أي شيء آخر من تأليف "تولستوي"، سأقترح عليه "الجريمة والعقاب"، وربما أقترح عليه أن أقرضه نسختي الشخصية (التي تُوجد بها ملاحظاتي في الهوامش، وهو ما سيثير إعجابه بالتأكيد.) سيكون لديه شعر بني مجعد مثير، ويرتدي نظارة تمنحه مظهر الشخص كثير القراءة؛ ولكن عندما يخلعها سيبدو جذابًا للغاية، على الرغم من أنه

لم يظهر هذا الجانب فيه للكثيرين من قبل. سنجلس معًا في الليل نتناقش في الأدب ونشرب النبيذ، ثم القهوة بينما تشرق الشمس. سنحظى بنقاشات كبيرة حول "تولستوي"، و"فوكنر"، نقاشات ستنتهي به وهو يجري مندفعًا في الليل، عادة ما يصاحب ذلك برق وأمطار غزيرة، وسأجري خلفه دون معطفي أو شمسية وألقي بذراعي حوله وأقبله بشغف، متناسية كل العناصر المحتدمة المحيطة بنا.

لسوء الحظ، إن أقرب ما أمكنني بلوغه من هذا التخيل هو عندما يسألني أحدهم ما إذا كان لدينا أي من مؤلفات "جورج أورويل". كان رجلًا في نهاية الثلاثينيات أو أوّل الأربعينيات، لديه شعر بني داكن، والذي بدا كأنه سيتجعد لو أنه أطاله أكثر من هذا بقليل، وعينان خضراوان جميلتان. نظرت إلى الرف بحماس وسرعة، وقلت:

- "أورويل"؟ أجل، بالطبع.

قال وبدا عليه الاستمتاع بسرعتي في البحث عما سأل عنه:

- هل أنت معجبة به؟

أجبته وأنا أمرر إصبعي على صف الكتب الذي كنت أبحث فيه:

- أليس الجميع كذلك؟

- لا أظن ذلك. ما كتابك المفضل له؟

نظرت إليه مسرعة، وقلت في اعتذار:

- لم أقرأ كل مؤلفاته.

- حقًّا؟

شعرت بنبرة تهكم في صوته كأنما لم يتوقع أن أكون قرأت أيًّا من مؤلفاته، فأجبته وأنا أحاول أن أكون حاسمة:

- "مزرعة الحيوانات" هي المفضلة عندي.

- "مزرعة الحيوانات"؟ نعم، الجميع قرأ هذه الرواية.

ابتعد بمُجرَّد أن وجد ما كان يبحث عنـه، وأردت أن أجـري وراءه كي أخـبره لماذا هي المفضلة عندي. إنها المفضلة عندي لأنني عشتها، كلنـا عشـناها، نحـن نعيشها في "زيمبابوي". أردته أن يقول لي: "هل أنـت قادمـة مـن "زيمبـابوي"؟". أردت أن أشعر بأنني مميزة، ولست مجرد عاملة بالمكتبة.

مدير المحل هو السيد "باركر" الذي قال لي في يومي الأول من العمل:

- نادني بـ"روبيرت"، وليس هراء "السيد باركر" هذا.

كان رجلًا ضخمًا سمينًا، وكـان يبـدو مـن الخلـف كفيـل صـغير، كـان هـذا بسبب تدلي بنطلونه بجانب تحركه بتثاقل في سـعادة داخـل المحـل، لا يتعجـل أبدًا، كأنه يتبع باقي أفراد القطيع إلى البحيرة.

كان يناديني بـ"زهرة روديسيا". أعد الشاي في الصباح قبل أن يُفـتح المحـل وكـان كل يوم يرشف رشفة ويقول: "جميل" كأنني أعددت شيئًا غريبًا، وليس مجرد فنجـان شاي متواضع. كان يضايقني، ويثير اشمئزازي عندما يقف خلفي، بيـنما أضـع الكتـب على الأرفف ويتنفس في مـؤخرة عنقـي وهـو يتحـدث عـن شيء مـا. لم يكـن مهـتمًا بالكتب مُطلقًا؛ لم يفهم لِمَّ قد يهتم بها أي شخص، وهو ما بدا لي غريبًـا مـن شـخص يحاول أن يبيعها لكسب قوته. بدأت أراه كدلَّالة على نوع ما مـن النظـرة البريطانيـة، السخرية المملة، وقلة الحماس تجاه أي شيء جيد، أي شيء نقي وحقيقي، ولا يتظاهر بأن يكون أي شيء غير حقيقته. كان بإمكانه الحصول على أي عمـل، مثـل بيـع كيـك "الدونات"، أو السيارات المستعملة، لن يهمه الأمر، ففي نهاية كل شهر سيحصل عـلى راتبه وكيفية حصوله عليها لن تهم.

لو أنني بقيـت هكـذا، بقـائي هنـاك وعمـلي في المكتبـة، ربمـا كانـت حيـاتي ستختلف تمامًا. ربما.. كم مرَّة نقول هذه الكلمة؟ في شهر سبتمبر من ذلك العام ذهبت إلى الجامعة، وبقيت هناك لأربعة أعوام.

بدأت هنـاك أشـعر بالانفصـال عـمَّا يحيطنـي. كانـت حيـاتي خياليـة، سلسـلة متواصلة من الشرب والحفلات، يتخللـها محـاضرات ونـدوات بـين الحـين والآخـر. استمتعت بالأمر في البداية، خاصةً بعد فترة إقامتي القصيرة في "لنـدن"؛ لكـن كـان هناك شيء ما لا معنى له في هذا الأمر، شيء يصعب علي فهمه. شعرت بأنه مكـان سيبتلعني، ثم يلفظني خارجه، مكان قد أفقد نفسي بداخله، ولا أجدها مرَّة أخرى.

كان هناك بعض الطلاب الـذين لا يقومـون بـأي شيء عـلى الإطـلاق. كـانوا هناك فقط لتجنب الاعتماد على الإعانة الحكومية، وفضلوا بدلًا من ذلك تـراكم القروض عليهم. كان هناك أيضًا آخرون امتلأت أحـاديثهم بالنظريـات والأفكـار والتأملات؛ لكنهم لم يذهبوا إلى أي مكان، لم يسافروا قط، لم يختبروا مـا تحـدثوا عنه بغزارة.

أدركـت في الجامعـة أن فتيـان مثـل "جيسـون" كثـيرون للغايـة ونمطيـون. واعدت بعضهم، ليس لفترة طويلة على كل حـال. تحـدثوا بإسـهاب عـن الأدب والسياسة؛ لكنهم كانوا مملين. كان كأنما قـرأوا كلهـم مـن الكتـاب نفسـه، عـلى الرغم من أن كل منهم نطق كلماته بحماس حقيقي كأن الأفكار هـي أفكـارهم الخاصة. وجدت نـفسي أبحـث عـن الأصـالة، عـن شـخص لم يكـن يعـرف عـمَّا يتحدث، يتحدث دون أن يفكر مسبقًا فيما يقوله.

كان غريبًا أن أعيش في مكان كـل شيء يوجـد فيـه مـنظم ومحـدد للغايـة. رأيت صفوفًا كثيرة من السيارات اللامعة الجديدة في ازدحـام المـرور في الصـباح المبكر؛ لا يوجد قطـع الحديـد المهترئـة التـي تحـوي ركابهـا إلى أن يـتم قـذفهم في الطريق، لا توجد أوتوبيسات تنبعـث منهـا الـدخان تتحـرك بتثاقـل عـلى الطريـق السريع، أو سحب الدخان التي تنفثهـا السـيارات في السـيارات التـي تمشي خلفهـا. في المقابل، تلويحات مهذبة من سائق لآخر، أو السـماح لأحـد قـادم مـن شـارع جـانبي بالمرور أو انتظاره في صبر حتى يوقف سيارته. لا يوجد قيادة متهورة؛ لا يوجـد سـائق

يصيح غاضبًا، بينما يقود بسُرعة خطيرة خلال الإشارة الحمراء، لاعنًا إياك لأن لديك الاحترام الكافي لتقف عندما تتحول إشارة المرور إلى اللون الأصفر.

كرد فعل، قررت أن أرتب كثيراً من حياتي حول النظام الذي وجدته في "إنجلترا"، على الرغم من أن لا شيء تناسب مع الأمر مثل الأشياء الإنجليزية. شعرت بالإحراج والخَرق والخوف أحياناً من أن أتكلم حتى لا تكشفني لهجتي. أسوأ ما كان هناك هو الروتين، وحمله الثقيل على قلبي. لقد غرق مثل الصخرة بين ضلوعي، وكل مرَّة أحاول ابتلاعه يؤلمني، ولا أتمكن من هضمه، لا يختفي أبدًا. لقد كان يرتفع ويسقط كلما تنفست؛ كان يحتك بقلبي وينهك حوافه. حاولت مقاومته، أن أتحدث بابتهاج؛ لكن هناك كثيراً من الحواجز التي نشأت كلما دخلت في أي غرفة. أجبت عن كل الأسئلة الطفولية حول "أفريقيا"، عن الجفاف وآكلي لحوم البشر، والأسود والزرافات. حاولت أن أسأل عن مدينة "تشيلمزفورد"، و"كامبريدج"، والطريق السريع الذي يوصل بين مدينتي "لندن"، و"ليدز"؛ لكن المحادثة كانت محاصرة للغاية ومحددة كأنها لا تجد طريقًا لها سوى الارتطام بحوائط سجنها؛ لكنها ظلت كما هي، فارغة. دوت هذه المحادثات بفراغ مؤلم في كوابيسي، كوابيس عن حوائط تنهار بداخلي وأنا نائمة، وعن السقف المنهار الذي كان يؤويني من برودة رياح "إنجلترا".

كانت تلك الأعوام الأربعة وقتًا للاكتشاف لعدَّة نواحٍ؛ الدراسة فتحت أمامي عالمًا مختلفًا تمامًا بالنسبة لي. فقدت نفسي فيما أفعله؛ لكن بطريقة أخرى، ظلت حياتي ثابتة، وظللت أنا الفتاة السابقة نفسها: انطوائية وتنقصها الثقة. في حين أن الحياة في "لندن" أجبرتني على أن أعتاد على الخروج كثيراً، إلا أنني أصبحت خجولة في الجامعة مجددًا. لم يكن الضوء الذي سقط فوقي هو ضوء المسرح الساحر؛ إنما الضوء العلوي في حجرة العمليات. هنا كانت حياتي عرضة للتدقيق والتشريح.

السفر ليس كافيًا إن أراد الشخص أن يغير من نفسه، فالرحلة الأعظم عندما نتعمق داخل أنفسنا، بدلًا من خارجنا وبعيدًا عنا. لن تتمكن من تغيير نفسك إذا لم تكن تعرف نفسك في الأساس، وماذا بإمكانك فعله، وهذا هو ما لم أعرفه قط وهو السبب الذي منعني في النهاية من التقدم في حياتي. تخبطت في "إنجلترا" وأنا أسير دون قاعدة، دون حجر أساس، ودون جذور. أصبحت تائهة بعد وقت قليل، مقهورة، مثل خيمة وسط عاصفة وحبلها الرئيسي مُرتخٍ وتركها كي ترفرف وتخفق في الرياح الشديدة.

راسلتني جَدَّتي خلال كل هذه الأعوام. كانت خطاباتها السميكة المكتوبة على ورق أزرق تصلني بين الحين والآخر، تخبرني من خلال خط يدها الممتد أخبارها الأخيرة: حديقتها، من أتى لتناول الشاي معها، مشاكلها مع السيارة، السياسة. أخبرتني عن بستانيًّا جديدًا وظفته لديها، وعن اسم زوجته وأسماء أطفاله، وأعمارهم. كانت خطاباتها مثل الأحاديث التي نخوض فيها أثناء شرب الشاي، مليئة بالتفاصيل، وأحيانًا تكون عشوائية. كنت أتفاجأ أحيانًا عند انتهائها، موقعة في النهاية بكلمة "جَدَّتك" البهية، كم كانت تهدهدني نبرة هذه الخطابات. كانت إحدى الصلات الواهية التي أبقيت عليها مع "الوطن". كانت تجعلني متصلة بها عبر القارات والجبال والأنهار، خلال المكان والزمان؛ صلة بحياتي القديمة، حياتي الحقيقية، وربما، بنفسي.

لم يكتب "تولستوي" بالطبع رواية "الجريمة والعقاب"، ولم أكن قد قرأتها بعد، كما لم أقرأ "الحرب والسلام".

(21)

كنت غالبًا ما أفكِّر في "أفريقيا" منذ أن رحلت عنها. لقد ظلت مثل مساحة صمت وعزلة واسعة بين حياتي هنا وحياتي هناك. حاولت أن أصل إليها بـذهني في الصباح الباكر، وتوقعت أن أشعر بدفء شمسها عبر قـدميَّ. تخيَّلـت بـرودة الفجر من حولي، وسماع صوت منزل يستيقظ، وصيحات المستيقظين الناعمـة لبعضهم البعض. لم أتمكن من تجاوز حقيقة هذه الأحاسيس بينما تُفتح عينـاي وترى أمامها الفراغ البارد في غرفتي الإنجليزية.

في أوَّل أربعة أعـوام كنـت بعيـدة فيهـا عـن "زيمبـابوي"، عـدت مـرَّتين. في المناسبتين، قضيت ليلة بعد ليلة ناظرة إلى النجوم تطفـو دون أي اهـتمام بي في الليل الحالك. عندما أعود إلى داخل المنـزل أشـعر بالـدوار وبـؤس الخـوف مـن الأماكن المغلقة. كنت أستيقظ في وقت متأخر من الليل وأجلس محملقة خـلال النافذة، والستائر مسدولة لجانبيها. إن الشيء الأكثر جمالًا من النهـار الأفريقـي هو الليل الأفريقي وهو ما احتجت إليه، ورغبت فيه بشـدة ليكـون لي وحـدي بالكامل؛ في تلك الساعة كانت أمنيتي قد تحققت.

عند رحلتي الأولى للمنزل، استقبلني والـداي في المطـار، وأثنـاء الطريـق إلى "بولاوايو"، لم أصدق كيف ظل كـل شيء مـثلما كـان ولم يتغـير أي شيء. عنـدما ترحل لبعض الوقت عن مكان ما، تتوقع بشكل ما أن يكون قد تغير معك؛ لكن

كان هناك نفس العمال بالورشة، نفس الجرسونات في مطعم "هادون وسـلاي"، ونفس الحروف المفقودة من لوحة السوبر ماركت المحلي.

على الرغم من ذلك، فقد تغير شيء واحد. عندما ذهبت لزيارة جَـدَّتي لأوَّل مرَّة، وجدت هناك "مايلز"، كان يجلس معها في الخارج. شـعرت بعـدم الراحـة، أردت أن أرتمي في حضنها؛ ولكنني شعرت بالضيق لوجوده هناك. كانا يضحكان حول شيء ما، بينما أمشي تجاههما في الممر، وعندما رأتني جَدَّتي لم تتحـرك، بـل ابتسمت وفتحت ذراعيها من أجلي. توقعت أن أجدها سعيدة أكثر لرؤيتي وفي المقابل فقد انحنيت فقط وقبَّلتها.

قالت جَدَّتي وهي تمسك بذراعي وتومئ موافقة على شكل جسدي:

- تبدين جيدة، ألا تبدو جيدة يا "مايلز"؟

نظر "مايلز" تجاهي وقال دون أن يبتسم:

- إنك تحتاجين إلى بعض أشعَّة الشمس يا فتاة.

ضحكت جَدَّتي وقالت وهي تلوِّح له بيدها أن يبتعد:

- لا تستمعي إليه.

لاحظت فجأة أن جَدَّتي لديها رباط طبي حول ساقها الـيُسرى مـن الخلـف. فسألتها في اهتمام:

- ماذا حدث لساقك يا جَدَّتي؟

تجهَّمت جَدَّتي وقالت:

- لقد فعلت أمرًا سخيفًا. كنت أسقي الحديقة والتفَّ الخرطوم حول ساقي بطريقة ما. سقيتُ، واصطدمت هذه السَّاق بهذا الأصيص.

وأشارت تجاه أصيص زهور حديدي صدئ بالقرب من الصنبور.

- وهل أنت بخير؟

ضحكت، وقالت:

- أجل، بخير. أتت الطبيبة وعالجتني، وقالت إن الشفاء سيتطلب بعض الوقت. بسبب سني!

- منذ متى حدث هذا؟

- منذ شهر تقريبًا.

التفتت ونظرت لـ"مايلز"، فأومأ برأسه بهدوء موافقًا، فقالت:

- نعم، منذ شهر تقريبًا.

قلت في استياء:

- لم تخبريني بذلك.

- بم كان سيفيد ذلك؟ كما أن الأمر ليس خطيرًا لهذه الدرجة.

- لم تخبرني أُمِّي أيضًا.

- لأنني لم أخبرها.

لم أرد عليها. لم أحب أن أفكِّر في أن جَدَّتي تتقدم في العمر، وتصبح مثل باقي الجَدَّات: صغيرات الحجم وشعرهن أبيض ونظرهن ضعيف، تمتلئن بكل الأمراض الممكنة. شعرت بعدم الراحة؛ لكن أكثر من هذا، شعرت بأنني منبوذة، ليس فقط من "مايلز"، ولكن من أُمِّي أيضًا. أكثر من هذا، شعرت بالاستبعاد بسبب المسافة والزمن. لم يكن مسموحًا للحياة أن تتغير بهذه الطريقة. نهضت وأخبرتها بأنني سأذهب لمقابلة "ماندي"، وسأعود مُجدَّدًا فيما بعد.

قالت جَدَّتي دون أي مفاجأة أو استياء أو رغبة في أن أبقى مدة أطول:

- نعم، نعم، اذهبي بالطبع. يجب عليك أن تقابليها. عودي إلي فيما بعد. سنتناول العشاء معًا.

رحلت دون أن أقبِّلها وداعًا، وهو ما لم أفعله قط قبل ذلك. عندما ركبت السيارة ونظرت في ساعتي، وجدت أنني بقيت هناك لأقل من عشر دقائق.

لقد تحدثنا فيما بعد على العشاء المكون من حساء الطماطم والخبز والسلطة. قالت في اعتذار:

- إنها ليست مصنوعة في المنزل للأسف.

وأومأت برأسها لساقها، وقالت:

- إنها تعيقني قليلًا.

سألتني عن دراستي والكتب التي كنت أقرؤها ثم تومئ كلما ذكرت اسم مؤلف تعرفه. قالت بعد فترة صمت قصيرة وهي تسترخي في كرسيها وتنهي تناول شريحة خبز:

- هل قابلت أي شخص؟ أعني شخصًا مميزًا؟

أجبتها وأنا أنفخ بهدوء في ملعقتي الممتلئة بالحساء:

- إذا كنت تقصدين حبيبًا فلا. ليس هناك شخص "مميز" كما تطلقين عليه.

سألت متفاجئة:

- لا أحد؟ إن هذا محبط. ظننت أنك ستقابلين أحدهم هناك.

مرَّت فترة صمت قصيرة، ثم قلت:

- أشعر بأنني غير متكيفة هناك.

كان هذا اعترافًا كبيرًا بالنسبة لي، باعتبار أنني أنا من رغبت في الذهاب إلى "إنجلترا". قالت جَدَّتي وهي تنظر إليَّ:

- لقد كنت أعتقد أن هذا هو ما تشعرين به تجاه العيش هنا.

شعرت بالضيق فجأة، كأنما تحاول جَدَّتي أن تقول إنني لا أتكيف مع أي مكان. قالت وهي تضع مرفقيها على الطاولة وتدفع طبق الحساء بعيدًا عنها:

- حسنًا، يمكنك أن تعودي.

- كيف تسير الأحوال هنا؟

- بخير، بخير. من الممكن أن تكون أفضل على الرغم من ذلك. هذه الساق اللعينة تعطلني في أوقات كثيرة.

ابتسمت، ولكنني تمكنت من ملاحظة أن الأمر يضايقها، وأكملت قائلة:

- طلب منِّي "مايلز" الانتقال للعيش معه.

فاجأتني الكلمات، وعند رؤيتها لتعابير وجهي ضحكت جَدَّتي ضحكة قصيرة، وقالت:

- إنها ليست المرَّة الأولى التي يسألني فيها طوال هذه الأعوام. إنه يقول الآن إنني أعرِّض نفسي للخطر وبإمكانه الاعتناء بي.

سألتها في تردد:

- ثم؟

- ثم لا شيء، رفضت مثلما أفعل دومًا. لقد أصبحت مُسنَّة على أن أفعل ذلك.

ضحكت ومالت على الطاولة بخبث، واستطردت:

- تخيَّلي ماذا سيقول الجيران عنِّي.

ضحكت ضحكة ساخرة. لم تهتم جَدَّتي مُطلقًا بما يقوله الناس.

عندما توجهت إلى المطار بعد ذلك بأسبوعين، أردتها أن تقول أنها تريدني أنا، تحتاج إليَّ أنا. تمنيت أن تطلب منِّي أن أبقى؛ لكنها لم تفعل، وفي المقابل تمنَّت لي التوفيق وودَّعتني بقبلة.

- وداعًا يا جَدَّتي.

ابتسمت، وظننت أنني رأيت ابتسامتها مترددة، وقالت:

- إنه ليس وداعًا أبدًا، فقط أراك لاحقًا.

نادتني وهي واقفة على سُلَّم منزلها وأنا أتَّجه للسيارة:

- تمتَّعي بحياتك يا "إيلي"، فنحن نعيش مرَّة واحدة فقط.

عندما اقتربت من الحصول على شهادتي، على الرغم من أن الفرصة سنحت لي لأغادر، بدا لي العالم قريبًا ومتوعدًا للغاية، مثل عجوز ثمل يترنَّح في الطريق أمامك ويتعثَّر، على الرغم من محاولاتك لتجنبه هو والإحراج الذي يسببه مثل هذا الموقف. قررت أن أتقدم للحصول على منحة من أجل درجة الماجستير؛ لم أتوقع أن تتحمل جَدَّتي تكاليف هذا أيضًا.

لم يكن الأمر سهلًا في كل الأحوال. على الرغم من أنني أملك جواز سفر بريطانيًّا، فإنني كنت أعامل كطالبة أجنبية. عندما بحثت عن المنح المتاحة للطلاب البريطانيين، أخبروني أنني بريطانية. علمت أن هناك منح دراسية للاجئين والمهاجرين والمعاقين؛ لأبناء الصيادين البرتغاليين الذين ماتوا على الساحل الأوروبي، للأيتام الألبانيين والرومانيين المولودين بين 1975 و1982، ولأبناء الجواتيماليين المسئولين عن تربية الخنازير الذين أرادوا أن يكملوا دراسة علم الأحياء المجهري. باختصار، كانت هناك منح دراسية متاحة لكل الأشخاص من أي نوع، إلا لو كنت أبيض البشرة من "زيمبابوي".

كنت أعلم بأن الطريقة الوحيدة كي أحصل على الماجستير هي من خلال حصولي على المنحة الدراسية. كنت على استعداد لأن أقتل نفسي كي أصل إليها، كنت أضغط على نفسي يوميًّا لأقصى حد ممكن، أحضر جميع المحاضرات، جميع الدورات التعليمية، أكتب كل المقالات وكل الامتحانات. في النهاية حصلت على نتيجة وتلقيت منحة لإكمال دراساتي. في الوقت نفسه، كان هذا عندما بدأت الأمور تأخذ منعطفًا خاطئًا. كنت مثل الساعة التالفة، غير قادرة على الرنين، لكن بداخلها توتُّرًا حبيسًا. من خلال انغماسي في عملي، اعتدت على فن الاعتماد على نفسي، أملأ وقتي بالأحداث والواجبات وتجاهل الفجوة الكبيرة الموجودة بداخلي في مكان ما، والتي اتسعت مع الوقت بالتدريج إلى أن أصبحت تهدد بابتلاعي بالكامل. عدت إلى "زيمبابوي" للمرَّة الثانية منذ أن رحلت عنها وأنا مُنهكة؛ لكن سعيدة في الوقت نفسه.

بدت جَدَّتي مختلفة هذه المرَّة، كانت عصبية، وغير صبورة، وكأنما تشعر بالمرارة حول شيء ما. شعرت بالغرابة في أوَّل أيام بقائي هناك. لم تسألني أي أسئلة، ولم تهنئني على حصولي على المنحة الدراسية. شعرت بأنها استاءت من عودتي، مما أشعرني بالتوتر حول التواصل معها. في آخر يوم من عُطلتي التي استمرت لأسبوعين، ذهبت لمحل السيد "باتل" لشراء بعض القطن، رآني فاتجه ناحيتي مبتسمًا ابتسامة واسعة كعادته وهو يدلك يديه في بعضهما البعض وقال:

- كيف حال جَدَّتك؟

- بخير، شكرًا.

- إن جَدَّتك فخورة بك، أليس كذلك؟

قلت بابتسامة ضعيفة:

- ربما.

- لا، لا. ليس ربما. هي كذلك. كل مرَّة تأتي إلى المحل، تتحدث عنك دائمًا. إنها فخورة بك جدًّا جدًّا.

شعرت بالدموع تتجمع في عينيَّ، وابتسمت في خجل ورحلت. لماذا لم يكن باستطاعتها أن تظهر لي أنها فخورة بي؟

تلك الليلة، حكيت لأُمِّي كيف كانت جَدَّتي تتصرف. لم تقل شيئًا، وأكملت فقط في تقليب صلصة اللحم التي كانت تعدها. فيما بعد، أتت إلى غرفتي وأنا مستلقية، قالت وهي تضع كيسًا بلاستيكيًّا فوق حقيبتي:

- ظننت أنك ربما تريدين أن تأخذي معك بعضًا حلوى "الفادج" التي تعدها جَدَّتك، هناك علبة شاي أيضًا في الداخل. أعرف أنك لا تجدين شايًا جيدًا في "إنجلترا". إنه ليس بمثل جودة شاينا.

أومأت لها فأتت وجلست بجواري، وقالت:

- إن جَدَّتك لا تقصد أن تـتصرف معـك هكـذا. إنهـا تفتقـدك كثـيرًا عنـدما تكونين غير موجودة.

وانحنت عليَّ واحتضنتني، وقالت:

- كلنا نفتقدك.

لكن لم يكن ذلك كافيًا للإبقاء علي هناك. لقد بدأت رحلة، وعلى الرغم من اضطراري للتصرف بقسوة، فهي رحلـة صـممت عـلى أن أكملهـا. العـودة تمثـل بالنسبة لي خطوة للخلف. كنت أتقدم بشكل جيد، هذا ما كنت أقوله لـنفسي، ويمكنني أن أتقدم بشكل أفضل من هذا.

تعلَّمت في سن مُبكِّر أن بإمكـان الحيـاة أن تنهـار بسـهولة شـديدة؛ أنـه لا شيء يدوم للأبد؛ كل شيء قابل للتدمير. ربما كـان هـذا الـدرس هـو السـبب في أنني شعرت في بعض الأحيان أنني أنتظر طوال الوقت شيئًا مريعًا يحدث، شيء سيدمر أيًّا كانت السعادة التي لديَّ. لم تكن لـديَّ الشـجاعة في تقبُّـل أي حالـة من حالات السعادة؛ ابتعدت عنها، خائفة من أن تهجـرني. لـو أننـي لم أمتلكهـا أبدًا، فلن تتمكَّن من هجري؛ لا يمكنها أن تتركني.

يرنُّ التليفـون مُجـدَّدًا وأتـرك ماكينـة الـرد الآلي تجيـب. صـندوق الرسـائل ممتلئ، ومع ذلك فهو يصـدر صـفيرًا مـرَّتين متتـاليتين، ثـم يعـود مـن البدايـة. مكالمة أخرى فائتة.

(22)

بحلول وقت إنهائي للماجستير، كانت قد جاءت "ماندي" إلى "إنجلترا" أيضًا، حيث تعيش وتعمل في "لندن". حصلت على شهادة الفنـون الجميلـة مـن جامعـة "رودز"، وعملت في وكالـة إعلانيـة، حيـث تصـمم الشـعارات. كانـت تعـيش في منـزل ضخم بالقرب من دار قضاء "إيرل"، وكان المنـزل مقسـم بـين الاثنـي عشر شخصًـا المقيمـين بداخله. لقد تقاسموا الإيجار والفـواتير، كـما تقاسـموا غـرف النـوم وغـرف الجلـوس، والطعام. كان المنزل متكدسًا؛ لكن كان هناك كثير مـن الضـحك والحفـلات والشراب، وكانت طريقة ممتازة لتوفير الأمـوال. معظـم المقيمـين في المنـزل كـانوا مـن "جنـوب أفريقيا"، أو "زيمبابوي"، على الرغم من وجـود امـرأة مـن "نيوزيلنـدا"، وزوجـين مـن "كندا" أيضًا. لم أرد الاختلاط بالزيمبابويين كثيرًا، حيث إنني لم أرَ فائدة مـن السـفر لـو أنني اختلطت فقط بأشخاص من بلدي. بجانب أنني عندما أنظر للماضي، أظن أننـي عانيت من جرح في كبريائي أيضًا. كنت أريد الرحيل عن "زيمبابوي" بأي شكل، وأردت أن يظن الجميع أنني أقضي وقتًا رائعًا في "إنجلترا"، لذا فـآخر مـن أردت رؤيـتهم هـم الأشخاص الذين رحلـت عـنهم. مـع ذلـك، وربمـا بسـبب شـعوري بافتقـاد جـذوري، وجدت نفسي أذهب لقضاء بعض الوقت مع "ماندي" مرَّة كل شهر. كل مرَّة أستمتع بوقتي هناك، وعندما أعود أشعر بالكآبة.

اتصلت بـ"ماندي". قالت لي:

- تعالي. تعالي إلى "لندن" وابقي معي لبعض الوقت.

- لا أستطيع، لم أنهِ فصلي الدراسي بعد.

- حسنًا، تعالي بعده. تعالي بعد انتهائه.

كان هذا ما فعلت. حصلت على الماجستير، وانتقلت إلى "لندن". كان هذا في أغسطس 1998، كان يومًا دافئًا؛ بل حارًّا أيضًا. وصلت لمنزل "ماندي" أحمل حقيبة سفر وحقيبة ظهر؛ كل ما امتلكته حينها. كان الأمر غريبًا بالنسبة لي أن أتشارك مع اثنين آخرين غرفة واحدة، كان العدد يزيد في عُطلة نهاية الأسبوع. بطريقة أخرى، كان الأمر رائعًا. وجود أشخاص حولي طوال الوقت أنساني الضجيج داخل رأسي وأخفى الفجوة بداخلي، والفراغ في صدري الذي كانت الرياح تعصف من خلاله.

حصلت على عمل كموظفة استقبال في شركة محاماة تُدعى "لاوري ومكنيل" في شارع "ستراند" بلندن. كان الأمر مؤقتًا، وسيستمر لعدة أشهر فقط. كانت "ريبيكا"، الفتاة الكندية التي تعيش في المنزل، ستسافر في "أوروبا" لمدة ثلاثة أشهر وأرادت من يحل محلها في العمل حتى تعود. كنت سعيدة بالفرصة، حيث إنها أعطتني الفرصة كي أجني بعض الأموال الإضافية، بينما أبحث عن شيء مناسب أكثر كما أنها لم تكن مرهقة، كنت فقط أردُّ على التليفون وأقابل العملاء. كان ترحيبًا مريحًا بعد أربعة أعوام من الدراسة الشاقة. ظننت أن الأمر سيكون جيدًا لي. ظننت أن هذا هو ما كان خاطئًا؛ إنني فقط أحتاج لاستراحة. احتجت لأن أكون مع الناس، لأستمتع بحياتي وأعيش في راحة لبعض الوقت. ظللت أقول لنفسي طوال الوقت بأنني سأكون بخير.

أثناء إقامتي في 19 شارع "كانينج" قابلت "مارك". كانت قريبته "باتريشيا" تعيش معنا في المنزل. كانت من "جنوب أفريقيا" من مدينة "كيب تاون"، وتعمل محامية مبتدئة في شركة قريبة من شارع "بوند". لم تكن من أجمل النساء؛ في الحقيقة، عندما رأيتها لأول مرَّة شعرت بأنها قبيحة بعض الشيء، ومع ذلك،

فهناك شيء ما يتغير في وجهها عندما تتحدث إليها، كأنها قطعة صلصال تشكلها المحادثة كلما طالت. ربما يحبها الناظر إليها؛ ولكن إذا لم يرها لمدة قصيرة سيجدها قبيحة مرَّة أخرى. بدا كأنها كلما تحدثت زاد جمالها.

كانت تتحدث عن كثير من الأشياء، معظمها متعلقة بـ"جنوب أفريقيا": التمييز العنصري، "مانديلا"، الجريمة. ليست هي فقط؛ بل أصدقاؤها أيضًا، فلاحظت بأن الجنوب أفريقيين لديهم قليل من المواضيع التي يتحدثون عنها. كانوا مهووسين بالأمر؛ لكنني أدركت بعد ذلك بقليل بأن في قلب كل تلك المحادثات هناك شعورًا جوهريًّا بالذنب والعار، الحاجة للتحدث عن تاريخ بلدهم، الحاجة لأن يجدوا مكانًا بداخله، حتى من مكان بعيد عنه مثل "إنجلترا". كانت تلك هي المرَّة الأولى التي جعلتني أفكِّر في "زيمبابوي" حقًّا. وجدت نفسي أقرأ روايات أفريقية أكثر وأكثر: "نادين جورديمر"، و"أندري برينك"، و"دوريس ليسينج". خلال محادثاتنا الليلية أيًّا كان الموضوع المتعلق بمجتمع "جنوب أفريقيا"، بدأت بالشعور بالخجل. كنت سعيدة أكثر لابتعادي عن "أفريقيا". شعرت بشعور عميق بالرضا في كل مرَّة أنهي كي ملابسي أو غسل الصحون. كنت أقوم بمهام "جايمسون" نفسها دون أي شكوى. لم أحتج لخادمة أو بستاني، وشعرت بالخجل لاحتياجي إياهما في يوم ما. قالت "باتريشيا" بأن الحل الوحيد لكي يتجاوز المجتمع الجنوب أفريقي محنته هو أن يعمل ذوو البشرة البيضاء في المهن نفسها التي امتهنها السود، وافقتها كليًّا على رأيها. عندما انتقدت سلوك ذوي البشرة البيضاء لعدم سماحهم لخدمهم بأن يتناولوا طعامهم معهم على الطاولة نفسها، أومأت لها موافقة من كل قلبي، وعندما قالت إنه ليس هناك أي فرق بين الأسود والأبيض، كنت أوَّل شخص يؤيدها.

عندما كنت أصفو لأفكاري وحدي، كنت أعرف أن الموقف أعقد مما اعترفنا به أنا وهي. كان من الأسهل أن نلوم أنفسنا على مشاعرنا بالمنفى؛ فقد برَّرت

موقعنا الحالي، وقرارنا بترك البلاد التي زعمنا أننا نحبها. بالنسبة لـ"باتريشيا"، لم تصل "زيمبابوي" للدرجة نفسها التي وصلت إليها "جنوب أفريقيا"، فقد كانت في الوضع السعيد نفسه الذي يميز أي دولة جديدة. صفوة المجتمع الأسود أصبحت مبجلة، وموقرة باعتبارهم مثال النجاح في "أفريقيا". هذا هو ما كان الجميع يطمح إليه. التفرقة بين الأغنياء والفقراء لم يُنظر إليه بأنه المشكلة الأساسية. يُهنَّأ شخص أسود على تحقيقه لحياة جيدة؛ في حين أن شخصًا أبيض يُنتقد لحيازته أموالًا كثيرة يعيش بها في "أفريقيا"، بينما يموت آخرون جوعًا. قالت "باتريشيا":

- أعتقد أن الطريقة الوحيدة لي لأعيش في "أفريقيا" الآن هي أن أكون فقيرة وأسكن في كوخ.

قابلتُ "مارك" عندما أتى إلى "لندن" من أجل مقابلة عمل، وأقام معنا لليلة. كان وسيمًا بطريقة تقليدية؛ لكن ليس "نوعي المفضل" على الإطلاق. أشقر، ونظيف، وحليق، ولديه عينان عسليتان، كان يرتدي بنطلونًا أصفر شاحبًا، وقميصًا ذا خطوط زرقاء وبيضاء، وقد شمَّر عن كُمَّيه، كاشفًا عن ذراعين سمراوين طويلتين، وحذاء برباط. في خيالات فترة مراهقتي حول الفنان الروسي الهارب، تخيلتنا نتقابل ونقع في الحب على الفور. نظرة واحدة على بعضنا البعض تربط قدرينا معًا للأبد. مقابلة "مارك" كانت أقرب شيء مررت به من هذه الخيالات في الحياة الواقعية. منذ أن رأيته للمرَّة الأولى، علمت أننا سنحب بعضنا البعض. أخبرتني "باتريشيا" بأنه إنجليزي؛ لكنها كانت مخطئة. لم يكن "مارك" إنجليزيًّا، على الأقل ليس كليًّا. لقد وُلد في "جنوب أفريقيا"، وعاش في "إنجلترا" منذ كان في الخامسة عشرة من عُمره. كان والداه إنجليزيين في الأصل، وقد عادا إلى "بريطانيا" في منتصف الثمانينيات، على الرغم من أنهما ظلا يملكان ملكية في

مدينة "كيب الشرقية" بـ"جنوب أفريقيا"، والتي زاراها كل عام أو اثنين. كان عمله يفرض عليه أن توظفه الشركات الكبيرة لتحسين مفاهيم التسويق لديها. نظمت شركته كل شيء من الأبحاث حول المنتجات، وحتى المؤتمرات الصحفية والإعلانات. لقد سافر في أنحاء العالم كواحد من رؤساء الشركة، مما جعله يكسب كثيراً من المال. عندما أخبرته بأنني موظفة استقبال، لم يضحك أو يتهكم؛ بل بدا مهتمًا اهتمامًا حقيقيًّا بما أفعله.

قلت له وأنا أبرِّر لنفسي ما أفعله:

- إنها ليست مهنة أبدية بالنسبة لي.

- ماذا ستفعلين بعدها؟

- لست متأكدة. ما زلت أبحث.

ابتسم وقال:

- لا بأس في البحث.

كنا نفعل بعض الأشياء، مثل التنزُّه في حديقة "هايد بارك"، وركوب مركب في البحيرة، ومشاهدة الأفلام القديمة في دور سينما مهملة وفنية، ونكتب لبعضنا البعض إيميلات طويلة وطريفة. ظننت أن هذا هو الشخص المنتظر. هذا هو من كنت أبحث عنه، ووجدته أخيراً.

كان "مارك" هو من أقنعني بالعودة للجامعة والحصول على الدكتوراه. بقينا معًا لعامين، وظللت طوال هذا الوقت أعمل في شركة "لاوري ومكنيل"، حيث قرَّرت "ريبيكا" الكندية أن تعمل في وظيفة أخرى عند عودتها من سفرها. لم أظن أنني سأتمكن من تحمل تكاليف الدراسة مرَّة أخرى، ولم تعد حياة الطلبة المقتصدة جذابة بالنسبة لي بعد الآن.

لكن حياة موظفة الاستقبال لم تكن لي أيضًا، وبدأت أشعر بأنني أصبح ما كنت أخاف من أن أتحول إليه. أتت النقطة الفاصلة عندما اتصل بي أحد

الشركاء ليخبرني بأن السيد "إيشيجورو" سيأتي إلى المكتب ذلك اليوم في الثانية بعد الظهر. رددت بعدما قالها:

- السيد "إيشيجورو"؟ ليس المؤلف بالتأكيد. "كازو إيشيجورو"؟

قال السيد "مكنيل" دون أن يحاول أن يخفي المفاجأة في صوته:

- لقد سمعت عنه من قبل؟ هذا رائع.

أجبته وأنا سعيدة لأنني تمكنت من الرد عليه بهذه الثقة:

- لقد استمتعت برواية "بقايا اليوم" للغاية.

- إنه ليس الرجل نفسه، لا تتحمسي هكذا. إن لديه الاسم نفسه فقط.

ثم أضاف دون داعٍ:

- إنه ياباني.

لم أكن أظن أنه سيكون أي شيء آخر غير ذلك.

طلب منّي "مارك" أن أنتقل للعيش معه، وبدا لي ذلك كأنسب رد. أخبرني بأن الطريقة الوحيدة كي نكون معًا هي أن نعيش معًا بالفعل، وأي شيء أفضل من أن نعيش مع الشخص الذي نحبه؟

على الرغم من ذلك، بعد انتقالي للعيش معه مباشرة، بدأت الأشياء تأخذ منحى خاطئًا. كانت شقته باردة ولطيفة، ذات حوائط بيضاء وأثاث أسود معدني، وشعرت بشعور مميز بعدم الراحة منذ البداية بأنني كنت أرتب حياتي حول حياة شخص آخر. استلقت كتبي في عدم راحة على أرفف مكتبته حتى فرشاة أسناني بدت غير لائقة في أسف بجانب فرشاته.

تراجعت علاقتنا لمستوى أقل، لم يكن مزاجيًّا أو بعيدًا، ولا حتى سريع الغضب؛ لكنه كان باردًا، وهو أسوأ بكثير جدًّا. لم نعد نفعل أي شيء بجانب شرب فناجين لا نهائية من الشاي وغسل الصحون. لم يكن مهتمًا بما كنت أفعله أو بأي شيء

أقوله. كنت أعتقد في بعض الأحيان أنه يفضل موظفة الاستقبال التي قابلها أكثر من الطالبة التي أقنعني بأن أصبح عليها. بدوري، كرست كل وقتي أكثر لعملي، وغالبًا ما كنت أذاكر لوقت متأخر من الليل، وكنت أذهب للمكتبة في عطلة نهاية الأسبوع. كنا نعيش على أكل الوجبات السريعة والوجبات المجمدة من محل "سينسبري". قلت لنفسي إنني لم أكن أطبخ لأنني لم أكن أملك الوقت الكافي؛ لكن كان الأمر أكثر من ذلك. لم نعد مطلقًا نجلس إلى الطاولة ونتحدث؛ كنا غالبًا ما نأكل في مواعيد مختلفة. كنت أعود للمنزل متأخرة لأجد "مارك" جالسًا أمام التليفزيون يأكل بيتزا، وفي أوقات أخرى لم أكن أستطيع انتظاره، فأقوم بتسخين وجبتي أولًا، ثم يسخن هو وجبته عندما يعود. هكذا كانت حياتنا.

ذات يوم، بعد عام ونصف العام معًا، ذكر اسم امرأة تعمل معه، "مويرا شارب". بمُجرَّد أن سمعت اسمها عرفت أنها المرأة التي سيتركني "مارك" من أجلها. مَن من الممكن ألا يفعل ذلك، من أجل اسم كهذا، اسم مثل السكين؟ لو كانت شخصية في كتاب، كنت سأضع خطًّا تحت اسمها. كان يتحدث عنها بشكل عابر، أمر متعلق بصفقة ما؛ لكنني كنت أعرف. أعتقد أنه بطريقتي الخاصة كنت بدأت أتقبل فكرة رحيله عنّي.

ذهبنا ذات ليلة مع بعض زملائه إلى بار بجانب نهر "التيمز". كانت ليلة صيفية جميلة وأتذكر أنني كنت أفكِّر بأنه ينبغي علي أن أكون سعيدة؛ لكنني كنت أنهار في داخلي. كنت أشعر بكدمات، محطمة، كأنما كان لديَّ نزيف داخلي. لم يغازل "مارك" "مويرا" قط. لم يقل أي شيء عنها أو لها جذبت انتباهي. كانت الشيء التي عرفت من خلاله أن هناك شيئًا ما بينهما هو شيء صغير وغير هام أبدًا، كان فعلًا لم أكن لألحظه على الإطلاق لو أنني كنت أنظر إلى الجهة الأخرى. كانت نظرة رمقها بها، عابرة، لم تدم أكثر من نصف ثانية؛

لكنها كانت كأنه أبعد شعرها عن عينيها أو اعتصر يدها أو أطبق بشفتيه على شفتيها. عرفت في تلك اللحظة أن علاقتي بـ"مارك" قد انتهت.

من السهل الإكمال في التظاهر، أن نتشارك الشقة نفسها، والسرير نفسه، أن ندخل الغرفة كزوجين، وأن نذهب لتناول العشاء في الخارج بين الحين والآخر، أن نكون "مارك" و"إيلي" اللذين تتم دعوتهما في ود هنا وهناك؛ لكن ليس من السهل، ليس ممكنًا حتى، أن نتشارك الروح نفسها، وهو ما يحدث عندما نكون واقعين في الحب، أن نفكِّر في الشيء نفسه في الوقت نفسه. هذا هو ما رأيته في النظرة العابرة التي تشاركاها. رأيت أنهما تشاركا الروح نفسها، ولن يتمكن أي قدر من الإقناع والتوسل من إرجاع روح قد هربت بالفعل.

كنت أتحدث مع سكرتيرة "مارك" عندما أدركت ما الذي سأفعله. كنت سأنهض من مكاني، دون أن أودع أي شخص، وسأخرج من البار ومن حياة "مارك" للأبد. كان الهواء دافئًا على وجهي وأنا أنزل على السلم. أشرق النهر أمامي، ومشيت لمسافة ما قبل أن أتوقف لأشاهد الناس على مراكبهم، يبحرون في طريقهم. جلس آخرون على المقاعد أمام النهر، والبعض الآخر كانوا يجرون بمحاذاته، أو يمشون أو يدفعون عربات الأطفال، أو واقفين فقط ناظرين تجاهه مثلي. ظللت أقول لنفسي إنني سأكون بخير. بطريقة غريبة شعرت بالراحة. لم يكن هناك شجار، لم يكن هناك صراخ أو بكاء؛ مجرد رحيلي في صمت.

كنت قد مشيت لمسافة طويلة قبل أن أدرك أنني لا أعرف إلى أين أذهب أو ماذا سأفعل. لم أرغب في العودة إلى الشقة؛ لم تكن شقتي بكل الأحوال. ظللت فقط أمشي، أقف أحيانًا؛ لكن غالبًا كنت أمشي. لم يكن معي كثير من الأموال، فقط ما يكفيني لقضاء ليلة في بار؛ لكن كان معي دفتر الشيكات. نظرت إليه وفكرت بأنني أنا المخطئة فيما حدث، كان عليَّ أن أحاول أن أصلح الأمور منذ فترة طويلة؛ لكنني لم أرغب في ذلك. شعرت بتعب شديد انتابني فجأة، وأردت

فقط أن أستلقي في أي مكان وأنام. رأيت تاكسي على مسافة منِّي وباندفاع مفاجئ منِّي، لوَّحت له.

سألني السائق وهو يمضغ علكة:

- إلى أين يا حبيبتي؟

- إلى فندق "فير تاور".

قلتها وغُصت في المقعد. لقد كان فندقًا متوسط المستوى على بعد شارعين من الشقة.

حجزت غرفة مفردة، وبعد أن انصرفت عنِّي نظرات العاملين بالفندق المتشككة، حيث كانوا يبحثون عن أمتعتي، أخذت المفاتيح وصعدت للغرفة وخلعت فستاني، ثم استلقيت على السرير، حيث أصبحت أهدأ.

بعد ذلك بكثير، طلبت خدمة الغرف: سمك فيليه وليمونًا وصوص العشب، وبعض الخضراوات، وسلطة جانبية. طلبت أيضًا كأس نبيذ أبيض، وشربت في نخب بقية حياتي. كنا في منتصف الصيف وعبر الضوء من خلال الستائر مما جعل أدوات المائدة تومض على قطعة السمك في عجرفة بعض الشيء، هكذا فكَّرت، حيث كانت السمكة هي محور اهتمامي وقتها. قطعت بسكيني في اللحم الناعم الأبيض، وغرست الشوكة في البروكلي المطهو. أتذكَّر أنني فكَّرت منذ تلك اللحظة أن مذاق السمك سيرتبط عندي بالحزن، وكنت سعيدة لأنني اخترته من قائمة الطعام، لأن بإمكاني أن أعيش دون أكل السمك لما تبقى من حياتي.

(23)

أعتقد أن هناك بعض الأشخاص الذين سيشعرون بأنني تجاوزت حياتي في "إنجلترا" بطريقة ما، وأنني تعاملت معها على أنها أمر تافه، ولم أكشف كثيرًا عن تفاصيلها. الحقيقة هي أنها لم تكن بهذه الأهمية بالنسبة لي. كما قلت سابقًا، لا يمكنك أن تغير من نفسك طالما أنك لا تعرف نفسك جيدًا، وهذا هو ما كان عليَّ أن أعرفه. وكيف لي أن أعرف أن وقت تصفية الحساب سيحين بهذه السرعة وبطريقة قاسية كالتي حدثت.

انتقل "مارك" من الشقة، ظن أنه التصرف اللائق من ناحيته، على الرغم من أنه لم يكن علميًّا جدًّا، لأنني لم يكن في مقدرتي تحمل تكاليف الإيجار؛ لكنه كان مهذبًا بطريقة تليق برجل خائن، وقرر أن يشاركني دفع الإيجار حتى أجد مكانًا آخر. أكملت دراستي، وأعطيت بعض الدروس الخصوصية لتساعدني في دفع الفواتير. في الواقع لم يساعدني ذلك الأمر كثيرًا؛ لكنني استمتعت به أكثر من الدراسة. كتبت لجَدَّتي خطابًا أخبرتها فيه عن "مارك"، ثم أرسلت إلي خطابًا آخر تخبرني فيه أن أتبع غرائزي؛ لكنني لم أفهم تمامًا ما قصدته بذلك.

بعد انتقال "مارك" بفترة قصيرة، حلمت بأنني مستلقية في حوض استحمام وُضع في عدم استقرار أعلى حافة سلم الطوارئ الحديدي المؤدِّي للأعلى خارج الشقة. كنت خائفة من أن يخرج أحدهم ويراني هكذا، عارية؛ لكنني في الوقت نفسه لم أكن أحاول أن أخرج. في المقابل، كنت أنظر لنفسي عبر

المياه، ولسبب ما، حيث إن الأحلام لا تحتوي على أي منطق، قرَّرت ألا أستخدم الصابون للاستحمام فقط غسلت جسدي بالمياه. على جانبي حوض الاستحمام، رأيت خطوطًا بنية صغيرة من القذارة تنساب.

حكيت لجَدَّتي عن ذلك الحلم في خطاب، كانت بارعة في التحليل النفسي، وأردت أن أعرف تفسيرها لما رأيت.

كتبت لها: "لماذا كان حوض الاستحمام قذرًا طالما أنني لم أغتسل؟ لم أكن لأدخل في حوض قذر مُطلقًا. أنا مُعتادة على أن أغسله دائمًا قبل استخدامه".

بعد سنوات من مشاركة العديدين الإقامة في الشقق، كنت تقريبًا مهووسة بمعرفة معنى الحلم.

تفاجأت عندما جاءني اتصال جَدَّتي لتتحدَّث حول الحلم. المكالمات التليفونية من "زيمبابوي" كانت مكلفة ونادرة.

- كنت أفكِّر في حلمك. العُري في الأماكن العامة يوحي دائمًا بالخوف من الإحراج، بالظهور بطريقة معينة.

- هممم.

كان هذا هو ردي الوحيد، لم أرد منها أن تتعمق في الأمر أكثر من هذا؛ لكنها أكملت:

- ربما أيضًا الحساسية تجاه شيء ما، هل أنت خائفة من شيء ما أو شخص ما؟

كان على جَدَّتي أن تعرف أفضل من أن تسألني أسئلة حادة ومباشرة كهذه. قلت:

- لا شيء منهما.

- إن هذا الخوف سيبرر وجودك في مكان مرتفع. أعرف أنك لا تحبين الأماكن المرتفعة.

- صحيح.

- أنت لا تفعلين أي شيء، أنت فقط ترقدين في مياه رائقة، ولا تستخدمين الصابون بتعمُّد.

- نعم.

- حسنًا، إن ذلك يعني أنك لست نظيفة. ليس تمامًا. أنت تحاولين أن تتجاهلي شيئًا ما بدلًا من مواجهته. المياه الرائقة دائمًا ما تشير إلى التعميد وإعادة الإحياء؛ لكن ما يضعف هذا التفسير هو وجود الحلقة القذرة حول الحوض.

لم أقل أي شيء.

- هل تفهمينني؟ هل ما زلت معي؟

- أجل يا جَدَّتي، أنا هنا.

- هناك شيء ما عليك التغلب عليه.

- مثير للاهتمام.

- هل لديك أي فكرة عمَّا أتحدث؟

- لا.

- حسنًا، فكِّري في الأمر وأخبريني.

- لا أصدق أنك اتصلت فقط لإخباري بذلك.

- أنت في مشكلة يا "إيلي" وأريد مساعدتك.

توقفت للحظة فقالت:

- "إيلي"؟

- أشكرك يا جَدَّتي.

- لا بأس يا حبيبتي. أنا فقط قلقة، أنت تعرفينني.

- أعرف.

- الآن، متى ستحصلين على وظيفة ملائمة؟

كانت تلك هي آخر مرَّة أسمع فيها صوت جَدَّتي، فقد ماتت بعدها بثلاثة أسابيع.

الجميع يخاف مكالمات منتصف الليل، مكالمات "تعالَ بأسرع وقت، لا نعرف كم تبقى لها من الوقت"، أو مكالمات "أنا آسف لأنني أنا من يخبرك بأن فلان قد مات. كان الأمر سريعًا، لم يشعر بأي شيء".

كان لديَّ شعور بعدم معرفة أين أنا فجأة وأنا أقف بجانب التليفون في ضوء الصباح الباكر الشاحب. فكَّرت في أنها قد ماتت وأنا نائمة؛ وأنا أحلم، كانت روحها تخرج من جسدها وتترك هذا العالم خلفها. هل أتت إلى هنا؟ هل حامت حول جسدي النائم وودَّعتني؟ لم يكن لديَّ أي وقت لأودِّعها، فهل كان لديها بعض الوقت لتفعل ذلك؟ هل مررت يدها في شعري؟ هل مالت فوق جسدي وقبَّلتني مثلما كانت تفعل عندما كنت طفلة وأتظاهر بأنني نائمة عند دخولها غرفتي؟ ألم يكن بإمكانها البقاء والتشبُّث بجسدها المحتضر وانتظار وصولي قبل أن ترحل؟

دائمًا ما يأتي الموت فجأة. حتى هؤلاء الذين ظلوا جالسين في الانتظار بجانب المحتضرين وهم يحملون أيديهم لا يتوقعونه أيضًا. يقولون إن الأمر يظل صادمًا وهم ينظرون في الغرف المزدحمة بحثًا عمَّن يتوقعون رؤيته. إنه الأمر الوحيد المؤكد في حياتنا ومع ذلك يظل يفاجئنا؛ يظل لدينا الشعور بالخداع.

الجزء الثَّاني

(1)

ذات ليلة عندما كنت طفلة، حلمتُ بأنني أسير في حديقة مُمتلئة بالثعابين. كان عليَّ أن أشق طريقي خلال كتلة من الثعابين التي التفَّت في تلاعب حول كاحلي باستهزاء شرير خجول. كان أمامي ممر مُنحنٍ فيه ثعبان سمين وغليظ مُلتفٌّ على قمَّته. كانت عيناه ضيقتين، مشقوقتين من المُنتصف، وهو يتظاهر بالنوم، ينتظرني لأقترب منه.

تمكَّنتُ من أن أرى "جايمسون" في مكان ما وناديت عليه أطلب منه المساعدة، عندما استدار كان وجهه مُغطًّى بحراشف زرقاء لامعة، وكانت عيناه صفراوين. كان لديه لسان مشقوق يخرج ويدخل من فمه. عندما استيقظت وجدت أن وسادتي مُبتلَّة. لقد تقيَّأتُ وأنا نائمة.

امتدت "أفريقيا" من أسفلي دافئة وبنية، وأنا أنظر إليها من نافذة الطائرة. بدأت بالشعور بالتوتر وخوف الأماكن المغلقة. كم مرَّة اشتقت إلى الأرض الدافئة البنية وسماء "أفريقيا" الممتلئة بالنجوم؟ ألم أكن أبكي حتى أنام ليلة بعد ليلة وقد استنفدني الحنين إلى الوطن والاشتياق؟ الآن ها أنا قد عدت. الوطن. اجتاحتني موجة باردة من الواقع والتي بدت وكأنما ستغير لون السماء والأشجار. بدا المنظر خاليًا بدلًا من أن يكون واسعًا. كان المكان مهجورًا، وغير محبوب. الأشجار، والصخور، وحتى المباني بدت سخيفة، كأنما حاول أحدهم

بيأس أن يملأ المنظر الطبيعي بالأشياء؛ لكنها بقت غير مُنتهية، غير مُكتملة البناء. رأيت كل العيوب في بلد حاولت أن ألونها بظلال رائعة من البرتقالي، والأحمر، والبني، والأخضر الداكن، والأزرق، والآن ها هي تستلقي أمامي، لوحة مائية باهتة، أرض بهتت بفعل الشمس... الواقع.

المرَّة الأخيرة التي رأيت فيها "مايلز" كانت في مطار "هاراري". كنت قد وصلت لـ"زيمبابوي" ذلك الصباح؛ لكنني اضطررت للانتظار ليوم آخر حتى أجد رحلة توصِّلني إلى "بولاوايو". كان هذا بعد سماعي الخبر بثلاثة أيام. قُتلت جَدَّتي على يد سارق في الساعات الأولى من الصباح الباكر. قالت الشرطة لأُمِّي إن الضواحي مكان سيئ. لم تكن جَدَّتي تملك سورًا لحمايتها أو حائطًا أو جهاز إنذار وأقفال الأبواب لم تكن لها فائدة. كانت هدفًا سهلًا، امرأة عجوز تعيش بمفردها.

عندما وصلت للفندق حجزت غرفة للإقامة فيها وقتها، وجدت رسالة في انتظاري. فتحتها وأنا متفاجئة ونظرت إلى اسم المرسل في الأسفل. كانت من "مايلز". طلب منِّي أن يقابلني في المطار تلك الليلة، كان سيرحل إلى "إنجلترا". شعرت بالغضب بداخلي فجأة، لم تكن جَدَّتي قد دُفنت بعد، ولن تكون جنازتها قبل عدة أيام على الأقل، لماذا كان سيرحل؟ شعرت بأن جزءًا منِّي أراد أن يمزق الرسالة ويتظاهر بعدم تسلُّمها؛ لكن كان هناك أيضًا جزء منِّي يعرف أن جَدَّتي لم تكن تريد ذلك. كانت تريدني أن أذهب لمقابلة "مايلز".

كان قد سلَّم حقائبه عندما وصلت إلى المطار وجلس أمام ترابيزة في بار المطار، كان يدخن سيجارة ويحدق في مشروبه ويقلبه بين الحين والآخر بإصبعه. كان يشرب الجين مع ماء الصودا. ارتدى بنطلونه القصير الأزرق ذا العلامة التجارية وقميص جولف أبيضَ، وحذاءً جلديًّا وجوربًا أبيضَ قصيرًا. لم أعرف كيف أقترب منه وماذا أقول. "مرحبًا"؟ "مساء الخير"؟ كنت سعيدة عندما نظر للأعلى ورآني، لم يبتسم، أعطاني نظرة سريعة قبل أن يزيح الحقيبة عن المقعد المقابل له. قال:

- اجلسي.

لم يكن أمرًا أو تحية. أكمل:

- هل تريدين شرابًا؟

رفضت، فقال:

- كما تحبين.

أطفأ سيجارته في المطفأة ونفخ دخانًا من ركن فمه. قلت له في اتهام:

- أنت راحل إذًا!.

- أجل، لقد بعت كل شيء، لم يبقَ لي شيء الآن.

أخبرني أنه لن يعود مُجدَّدًا أبدًا. كل ما كان يملكه عُرض للبيع في مزاد علني: كتبه، أثاث منزله، سيارته، وحتى مجموعة أسطوانات الموسيقى. ستوضع الأموال في حسابه البنكي، وكان يشك إذا ما كان سيحتاج إليها. قال إنها غير مفيدة، أموال لا قيمة لها. لم أتمكن من تخيل منزله فارغًا وكل ما بداخله قد اختفى. إدراكي بأن من الممكن أن نفعل الشيء نفسه في منزل جَدَّتي جعلني أغمض عيني للحظة وأحاول أن أنتشل نفسي من موجة المشاعر التي انتابتني وقتها. كيف من الممكن أن يقضي شخص ما سبعة وسبعين عامًا على سطح الأرض ثم يمحى كل أثر له بهذه السرعة؟ فراغ حيثما كان ذات يوم توجد حياة، فراغ تام حيثما كان هناك يقين.

صدر صوتي في همسة جافة:

- لم يُدفن جسدها بعد.

شعرت بألم الدموع في نهاية حلقي. قال وهو ينظر للأسفل:

- أعرف ذلك.

فرك جبهته بيده. مرَّت عدة ثوانٍ قبل أن ينظر للأعلى مُجدَّدًا وكانت عيناه ممتلئتين بالدموع، تفاجأت بمثل هذه المشاعر من شخص لطالما عرفت أنه متحجر القلب، وقال:

- لا يمكنني أن أذهب.. الجنازة.

لم يكمل. أومأت له، لم أقل شيئًا حتى لا أبكي. مرَّت فترة صمت قصيرة أخرى، ثم تنحنح، وقال:

- هناك بعض الأشياء أود منك أن تفعليها من أجلي.

كان يراقب وجهي وهو يتحدث.

- كان لدى جَدَّتك ابن.

قلت له وأنا أنظر مباشرة لعينيه:

- أعلم ذلك. هل هذا ما أردت أن تخبرني به؟

كان صوتي مليئًا بالتهكم البغيض؛ كانت هذه نبرة طورتها من أجل التحدث مع "مايلز" عبر السنوات.

- بالطبع لا. كنت متأكدًا من أنك تعلمين هذا الأمر، على الرغم من أنها لم تكن تحب أن تتحدث عن الأمر.

لم أقل شيئًا. الحقيقة هي أن جَدَّتي لم تتحدث معي عن الأمر مُطلقًا، كما لم يفعل أي أحد غيرها. قال وهو ينقر على رأسه بإصبعه، ثم أراحها على صدغه:

- هناك صورة له في الدرج المجاور لسريرها. أريد منك أن تتأكدي أن تُدفن الصورة معها. هناك أيضًا قُبَّعة، قُبَّعة خضراء، من ملابس الجيش، تحتفظ به جَدَّتك في الدولاب الكتاني.. أعلاه على ما أعتقد. كان ملكًا لـ"جيريمي".

- أعرف.

قلتها بثقة زائدة عمَّا شعرت بها في الواقع. كيف عرف "مايلز" عن كل هذا؟ لقد اكتشفت أمر القُبَّعة بالصدفة؛ لكن هل أرته جَدَّتي هذا بإرادتها؟

- عديني بأنك ستتأكدين من دفن هذين الشيئين معها.

أومأت له لكن كلماته بدت غريبة بعض الشيء، كأنني كنت سأواجه مشكلة. قال بضحكة قصيرة:

- هناك أمر آخر. لا أظن أن رأيي يهم فيما يخص هذا الأمر؛ لكن بإمكانك أن تقولي إنها فكرتك أنت.

تلعثم صوته وهو يتحدث ومد يده إلى علبة سجائره وأكمل:

- في جنازتها، أريدك أن تقرئي هذا.

أعطاني ورقة مطوية. فتحتها وقرأت، كانت إحدى سونيتات "شكسبير" مكتوبة بخَطٍّ "مايلز" غير المهندم والمشتت. قال "مايلز" منشدًا:

- "ولكن صيفك ذا لن يغيب".

أخرج سيجارة أخرى وأدارها بين إصبعيه وأنا أنظر له في دهشة فقال بتهكُّم:

- نعم، إنه "شكسبير".

- أنا..

قاطعني قائلًا:

- لم تظني أنني أعرف أيًّا من قصائده، أليس كذلك؟

قلت في غيظ:

- أجل في الواقع.

أشعل سيجارته، وأغمض عينيه نصف إغماضة ونفخ خطًا طويلًا من الدخان، وقال:

- هناك الكثير مما لا تعرفينه عنِّي. لكنك لم تعطني الفرصة قبل ذلك قط. كنت دائمًا وما زلت تظنين أنك على صواب طوال الوقت.

شعرت بلدغة فقلت مدافعة:

- أنت لم تحبني قط.

- نعم، حسنًا، كان الأمر صعبًا. مثل محاولة استخراج دم من الصخر.

أخذ نَفَسًا طويلًا من سيجارته وأخرجه من أنفه، واستطرد:

- إن الأمر مُثير للسخرية، أليس كذلك؟ أنني أنا من يعرف بأمر "شكسبير"، وليس هو.

شعرت بالحيرة، لماذا يقارن نفسه بجَدِّي؟ وبمثل هذه المرارة؟ ألقى بعقب السيجارة في المطفأة وسحقها بإبهامه وسبَّابته، وقال:

- لكننا على الرغم من ذلك حمقى. كلنا حمقى، حمقى مسنون.

توقف عن الكلام لدقيقة، ثم قال وهو ينظر في المدى:

- لقد عرضت عليها الزواج ذات مرَّة. كنا في "كيب تاون"؛ لكنها رفضت.

ظهرت ابتسامة ساخرة على ركن فمه، واستطرد:

- قالت لن أكررها ثانية. كان هذا كل ما قالته؛ لكنني كنت أعرف السبب. كان هو السبب؛ كانت لا تزال تحبه.

قلت بشك:

- تحبه؟ كان هو من يحبها، وليس العكس.

نظر إليَّ في غرابة، ثم بدا وكأنه أدرك شيئًا لتوِّه. اعتقدت أن عينيه ضاقتا قليلًا وشفتيه زُمَّتا لنصف ثانية. اومأ برأسه في سُخرية، وقال:

- كل رجل يقتل الشيء الذي يحبه.

مرَّت فترة صمت أخرى وابتسم وهو ينظر بعيدًا عنِّي، حيث بدا عليه أنه يتذكر شيئًا، نظر للأسفل، وظلت الابتسامة على شفتيه، وقال:

- قلت لها، هل تتزوجينني؟ قالت لا، متظاهرة بأنها نسوية، وأنها تأخذ موقفًا من نوع ما بعدم زواجها مجددًا؛ لكنني كنت أعرف. كنت أعرف. كنا نمشي بمحاذاة الشاطئ، وكان هناك كلب ميت لفظته الأمواج على الشاطئ.

توقف للحظة، ثم أكمل:

- كان ذلك حزينًا للغاية.

أشار إلى رقبته، وقال:

- كان يرتدي طوقًا. كان من الواضح أنه كلب شخص ما.

توقف للحظة أخرى، ثم قال:

- تلك هي أقوى ذكرى لديَّ من ذلك اليوم.

جلسنا في صمت لبعض الوقت، ثم نظر حوله في حيرة. حمل حقيبته، ووضع علبة سجائره في جيب قميصه، ثم نهض. نهضت أنا أيضًا.

- ابن أخي سيتواصل معك. هو المسؤول عن المزاد. أعطيته رقمك في "بولاوايو" تحسبًا لأي ظرف.

كنا واقفين أمام بوَّابة المُغادرة. التفت إليَّ وتنهَّد. كان رجلًا مسنًا، "مايلز"، رجلًا مسنًا مرهقًا.

- إلى اللقاء يا "إيلي".

علق حقيبته على كتفه، ومد يده ليصافحني. صافحته في تردد فوضع يده اليسرى فوق يدي، وقال:

- لقد رأينا أفضل الأوقات يا "إيلي"، أفضل الأوقات.

امتلأت عيناه الزرقاوان بالدموع، وتنفس بصعوبة، وقال:

- وداعًا يا صديقتي.

لم تكن هناك أي سُخرية في صوته. أجبته:

- وداعًا يا "مايلز".

شعرت فجأة بأن لديَّ كثير من الأسئلة أودُّ أن أسأله عنها. الأشياء التي قالها لم تعنِ شيئًا. في مكان ما تحت الكلمات، يوجد معنى دفين، مثل تمساح يسبح في صمت أسفل السطح الطيني للمياه؛ لكنه رحل، حاملًا حقيبته على كتفه وتذكرته في يده، جسد يصغر أكثر وأكثر كلما مشى مبتعدًا في اتجاه بوَّابة الرحيل إلى المنطقة التي خلفها. كانت تلك هي آخر مرَّة أرى فيها "مايلز تريفيليان".

(2)

كنا في نهاية عام 2004. لم أعد إلى الوطن منذ خمسة أعوام، وخلال ذلك الوقت تغيَّرت "زيمبابوي" تمامًا. الهجمات على الأراضي أطلقت موجة من الذعر والخراب، ومزَّقت البلاد وتركتها تنزف في خوف. هناك أشخاص أبعدوا أنفسهم عن كل هذا، حيث اشتروا صحفًا أجنبية وشاهدوا القنوات التليفزيونية الفضائية مثل: "سكاي نيوز"، و"بي بي سي وورلد"، وأعادوا مشاهدة مسلسل "الأصدقاء" F.R.I.E.N.D.S بلا نهاية. اهتموا بتقارير الطقس لكل البلاد باستثناء بلدهم، شعروا بالتعاطف مع الأزمة الفلسطينية، أو الأعمال الوحشية في العراق؛ لكنهم تناسوا العنف في بلدهم، حيث حبسوا أنفسهم خلف أسوار أمنية وحوائط أسمنتية وأنظمة الإنذار المعقدة. كما أنهم قدموا طلبات للحصول على أي جواز سفر شعروا بأنهم مخولون للحصول عليه مهما كان ذلك بعيدًا عن متناولهم واشتروا العملات الأجنبية من السوق السوداء كلما أتيحت لهم الفرصة. أصبحت أيام اقتناء منازل بحدائق كبيرة وحمَّامات سباحة معدودة. اكتسبت منازل المدينة والشقق شعبية واسعة، حيث تتمتع ببوَّابات متصلة بأجهزة تحكم عن بُعد ومركبات بها أنظمة تتبع بالقمر الصناعي. على المستوى الاقتصادي، كانت "زيمبابوي" تتحرك تجاه نفس معايير جارتيها "زامبيا"، و"موزمبيق"، وعلى المستوى الاجتماعي كانت

تتحول إلى "جنوب أفريقيا"، دولة يعيش فيها الكثيرون خائفين طوال الوقت من السرقة، أو الاغتصاب، أو الاختطاف، أو القتل.

لا يمكنني أن أكتب أكثر من ذلك. ضُربت خمس عشرة مرَّة. خمس عشرة. من يحسب عددها؟ من الذي يحسب الكدمات والعظام المكسورة؟ من يحسب الدموع والندبات؟ من يحسب؟

عندما عدت، اصطحبني أبي من المطار. كانت أُمِّي في السرير. نحتت وفاة جَدَّتي ظلالًا داكنة أسفل عينيها. نهضت عندما رأتني قرَّبتني منها في عناق ضعيف ويائس. كانت تشبه جَدَّتي بشكل مُخيف؛ شعرها الكستنائي البني الذي كان يومًا ما ناعمًا مثبتًا في الخلف بمشبك رأس قديم كان ملكيًّا ليفسح عن وجهها، كما ظهر خطَّان من الشعر الأبيض فوق أذنيها.

كان جَدِّي جالسًا في البلكونة على كرسيه المفضل، بجانبه كوب به بيرة؛ لكن بدا أنه نسي أمره تمامًا. تحدثنا لعدة دقائق، ثم صمت وهو ينظر تجاه الحديقة دون أن ينطق بكلمة.

عندما ذهبت إلى السرير تلك الليلة، فكَّرت كم أنني عادة ما أحب إحساس الملاءات الجديدة والنظيفة والمكوية. كان بإمكاني أن أشم رائحة الشمس والرياح التي جففتها. عادة ما كنت أستمتع بهذا، رائحة الشمس والمنزل؛ لكنها الآن تجعلني حزينة بشكل لا يطاق وأنا أرقد في السرير وذراعاي متقاطعتان مثل حبيب مخدوع يرفض أن يرقد في أحضان الشخص الذي جرحه.

لم يتغير شيء في اليوم التالي. بقيت أُمِّي في الفراش، وظل جَدِّي في البلكونة. تُركت العديد من المشروبات بجانبه دون أن تُمس. ظل جالسًا ينظر إلى الحديقة في صمت. لم أرد ألا أفعل شيئًا. لم أرد فقط ان أجلس أو أستلقي، أردت أن أكون فعالة، ولم يكن لديَّ كثير من الوقت للتفكير. أخذت مفاتيح

منزل جَدَّتي، وركبت السيارة. ربما كان ينبغي عليَّ أن أخبر أحـدًا؛ لكننـي أردت فقـط أن أبتعـد، أن أكـون قريبـة منهـا. احتجـت أيضًـا إلى أن أحضر القُبَّعـة والصورة، على الرغم من أنه لا يزال عليَّ أن أخبر أُمِّي عن طلب "مايلز".

أوقفت السيارة خارج منـزل جَـدَّتي، وجلسـت فيهـا لعـدة دقـائق. وجـدت سيارتها لا تزال في المدخل، الوحش الأزرق الهائـل الـذي عرفتـه معظـم حيـاتي. كانت هذه السيارة يومًا ما شيئًا أبحث عنه كعلامـة عـلى مكـان وجـود جَـدَّتي. كانت تقريبًا جزءًا من "بولاوايو" نفسـها. الآن، هـا هـي واقفـة، كحـارس عقـار هادئ خارج المنزل.

جلستُ أستجمع شجاعتي كي أدخل. أعرف بأن مشـهد الجريمـة نفسـه قـد نُظف؛ لكن سيظل الأمر غريبًا. لم أكـن في منـزل جَـدَّتي مـن قبـل بمفـردي عـلى الإطلاق. في النهاية، فتحت باب السيارة وخطوت للخارج. حاولت أن أتذكَّر آخر مرَّة كنت هناك وبماذا فكَّرت وشعرت.

دخلتُ عبر البوَّابة الجانبية. أصدرت البوَّابـة صريـرًا عنـدما فتحتهـا مـثلما كانت تفعل كلما جئت لزيارة جَدَّتي، مما جعل قلبـي يخفـق. لمـاذا توقعـت أن تختلـف الآن؟ ومـع ذلـك بطريقـة مـا توقعـت أن يختلـف كـل شيء. شـعرت بالاستياء عندما وجدت كل شيء كما كان.

لماذا تظل الطيور تغرد؟

لماذا تضيء النجوم فوقنا؟

ألا تعرف أنها نهاية العالم؟

لقد انتهى كل شيء عندما فقدت حبك.

كانت الحديقة تذبل في الحرارة. لم يسِق أحد الزهور في البلكونـة ولا العُشـب. فكَّرت في أنه مـن الصواب أن أفعـل ذلـك أولًا، وإذا كانـت جَـدَّتي تشـاهدني مـن مكان ما، فسـيجعلها ذلـك سـعيدة. لم يكـن بـاب كـوخ الحديقـة مغلقًـا، وفتحتـه

بسهولة؛ لكنني لم أكن مُهيَّأة لما وجدته بداخله. صينيَّات مُمتلئة بالشتلات، وجاروف، وشوكة زراعة، زوج قفازات بدا كأنما مالكتهما خلعتهما لتوِّها، ثم ذهبت لتفعل شيئًا سريعًا، ثم تعود في أي لحظة لتضعها مجددًا. فاق هذا قدرتي على التحمل، كان هناك كثير من أغراضها، مما جعلني أشعر بالحزن الشديد. في الخارج، في حرارة الصباح الباكر المتلألئة، استندت على سور البلكونة وتنفست بعمق. لم أتمكن من البكاء، لم أسمح لنفسي بذلك. ليس الآن. قلت لنفسي لاحقًا، لاحقًا عندما ينتهي كل شيء. لاحقًا.

عدتُ إلى الكوخ مُجدَّدًا بعد أن لململت شتات نفسي جزئيًّا. عبرت أشعَّة الشمس عبر النافذة، ومليارات ذرَّات الغبار رقصت بفتور في حرارتها. أخذت صفيحة ري الماء وتوجهت للصنبور. بدا وعاء النعناع الذي كانت تحتفظ به أسفل الصنبور مُنكمشًا وذابلًا، حيث إنه كان يعيش عادة على قطرات المياه التي كانت تتساقط من الصنبور عندما يكون متصلًا بالخرطوم. قرقر الصنبور قبل أن تندفع منه دفعة مياه بنية، والتي ملأت منها صفيحة رش المياه. وضعت الرشاش على الصفيحة مع علمي بتقييدات استخدام المياه الحالية؛ لكنني لم أهتم. تدين لي "بولاوايو" بخدمة. بعدها وجدت المفتاح الصحيح، وضعته في القفل وفتحت الباب الأمامي.

لم أكن متأكدة مما كنت متوقعة أن أجده. إكسسوارات متفرقة في أرجاء المنزل؟ أُزيل الأثاث؟ دماء متناثرة على الحوائط؟ بدلًا من ذلك، وجدت كل شيء في مكانه المعتاد: الكنبة، والكرسيان بجانب بعضهما البعض بكل راحة في الصالة، غطاء الطاولة مفروشٌ كما المتوقع على ترابيزة الطعام بالمطبخ، المرآة معلقة في المدخل.

هل كان هذا صحيحًا؟ لم تكن جَدَّتي تضع وسادة حمراء على الكنبة الزرقاء. أزحتها وسويت ستائر النافذة الشبكية. مررت إصبعي على ترابيزة القهوة وابتسمت بأسى، كدت أسمع جَدَّتي تطقطق بفمها بقرف هادئ.

كانت مفكرة جَدَّتي بجانب التليفون مكتوب عليها رقم السباك، واسم "مارتن"، و"الأربعاء الساعة الرابعة". كان هناك خربشة على شكل زهرة في منتصف الصفحة. في المطبخ، فتحت الثلاجة ووجدت قطعة "كيشي" بالجبن وإناء حليب، ونصف زجاجة نبيذ أبيض على رفِّ الثلاجة. ترددت. فكَّرت في أنه يجب التخلص من هذه الأشياء؛ لكن كان ذلك مبكرًا. بجانب أنني كنت خائفة من أن ألمس أي شيء، خائفة من أن أمد يدي وأشعر بشيء كانت هي آخر من لمسه.

لم أتمكن من دخول غرفة النوم، كان الوقت مبكرًا على فعل ذلك أيضًا، حيث إن الجريمة حدثت بداخلها. مسرح الجريمة، كان الدولاب المصنوع من قماش الكتَّان في المدخل، فتحته ورجعت للخلف للحظة لكي تغمرني رائحتها. انقبض قلبي في حزن وأردت أن أخرج كل شيء وأفرك وجهي في كل الملاءات وأغطية الوسادات وأغطي نفسي بأي شيء يحمل رائحتها؛ لكن لم أتمكن من فعل ذلك، لم أتمكن. قلت لنفسي ليس الآن، ليس هنا.

كان كل شيء مرصوصًا بعناية على الأرفف، ومقسمًا، مثلًا: ركن للملاءات، والمناشف، وركن لأغطية الوسادات، ولمفارش الترابيزات، ولمناديل الطعام. على الرف العلوي، كانت هناك مكواة وغلاية مياه احتياطية. وقفت على كرسي، ومددت يدي إلى نهاية الرف. توقعت أن أجد القُبَّعة مُلقاة هناك وحدها، كأنها أوَّل مرَّة أكتشف وجودها؛ لكنني لم أجدها. كان هناك صندوقان من الكرتون، وصندوق آيس كريم قديم، وصندوق به أجزاء من شيء محطم. أبعدته عن الطريق، ومددت يدي إلى أحد الصندوقين، كان ثقيلًا، مما جعل من الصعب إخراجه. كدت أسقط عن الكرسي؛ لكن في النهاية تمكَّنت من أن أحمله للأسفل.

أحب أن أرى نفسي كشخص لم يتطفل عن قصد على حياة شخص آخر؛ لكن أحيانًا تُلقي الحياة بأشياء في وجهك وتتحداك كي تأخذ زمام الأمور، حتى ولو لم تظن أنك جاهز لمثل هذا التحدي. الحقيقة لديها طريقة معينة لإظهار

نفسها، أو ترك أدلَّة على المرء أن يتتبعها. من المؤسف أن الحياة ليس بها مفتش أو محقق، أو ضابط ذو عين ثاقبة، والذي يكشف الحقيقة أمام المشاهد المنتظر، يشرح كل أفعال ونوايا جميع المنخرطين في القصة، وينهي الأمر بلطف في النهاية بابتسامة واثقة راضية، بينما يبدأ تتر النهاية.

كان الصندوق الأول ممتلئًا بدفاتر الفواتير. وكانت الدفاتر قديمة ذات غلاف مُقوًّى باللون الأزرق الداكن، ومكتوب على مقدمة الصندوق بخَطٍّ ذهبي متكسر "دفاتر فواتير". نظرت في بعض منها ورأيت شيئًا ما على الظهر أيضًا؛ لكن الحروف هنا قد بهتت، ولم أتمكن من قراءة الكلمات بشكل سليم. وضعتها مُجدَّدًا في الصندوق، وبحثت عن الرف مرَّة أخرى. ربما كانت القُبَّعة في الصندوق الآخر.

تمكَّنت من إنزال الصندوق الآخر بصعوبة أقل. كان وزنه أخف، وليس ممتلئًا مثل الأول. وجدت كتابين آخرين ذوي أغلفة مقوية وسفينة من الكرتون مع صورة لكوب كوكتيل فيه شريحة برتقال وشمسية فوقه. رأيت كلمة "ذا جراند بيرا" مطبوعة في الأسفل وتحتها كتب شخص ما رقم: 255. كان هناك كيس بلاستيكي في قاع الصندوق. أخذته وفتحته. كان مليئًا بالصور.

أخذتُ صورة من بين الصور ونظرت فيها، كانت صورة لجَدَّتي وهي صغيرة. كانت مرتدية ملابس السباحة وتنظر إلى السماء، وتضع يدها اليسرى خلف رأسها، وترتدي نظارة شمسية. كانت الصورة بالأبيض والأسود، وعلى الرغم من ذلك لاحظت كيف أن شعرها كان داكنًا، وفكَّرت كم تبدو أنيقة، شفتاها مزمومتان معًا، وعيناها تنظران بعيدًا عن الكاميرا. أخرجت صورًا أكثر. كان بها صور أكثر في ملابس السباحة، بعضها وهي تبتسم، وبدت في صور أخرى تنظر بازدراء واستياء للشخص الذي يصورها. كان هناك صورة واحدة فقط تبدو فيها كما هي عليه في العادة؛ لكن هذه المرة تبدو وكأن

الكاميرا التقطتها دون أن تنتبه، كأنما كانت تنظر لأعلى أثناء قراءتها أحد الكتب أو قائمة طعام وجدت فيها طبقها المفضل.

لكن لم تكن تلك الأشياء هي ما جذبت اهتمامي، كان هناك صور أخرى، صور لـ"جيريمي"، ابنها، خالي، على الرغم من أنني لم أتخيله بهذا الشكل. بعض الصور كانت له وهو طفل في المدرسة، شعره مُسرَّح على جانب واحد، تبرز رابطة عنقه من ياقة البلوفر الصوفي؛ بعض الصور الأخرى أظهرته نائمًا على ظهره يقرأ كتابًا، أو بجانب قلعة من الرمال، أو بجانب عربة لعبة خشبية، أو مع كلب بني ضخم. كانت هناك واحدة له وهو طفل رضيع ويجلس في حوض استحمام مستدير. وصورة أخرى وهو يرتدي قميصًا أبيضَ، ويرفع رأسه الناعم الأملس مبتسمًا.

في بعض الصور الأخرى بدا أن شعره يتساقط، صور ظهر فيها القلق واضحًا، تعاسة واضحة: صور له في زي الجيش. في إحداها، جلس على ما يبدو أنه سفح تَّل وينظر بعيدًا عن الكاميرا في اتجاه الأفق. يداه مُسندتان في راحة على ساقيه وهو يغمض عينيه نصف إغماضه، وبندقيته مُلقاة بجواره. في صورة أخرى، كان يدخن سيجارة. في أخرى، يجلس خارج خيمة. كانت تلك الصورة هي الأسعد بين كل الصور، حيث كان يضحك فيها. تساءلت كم مضى من الوقت بعد هذه الصورة حتى قُتل. كان يشبه جَدَّتي، أو حملت عيناهما النظرة نفسها. كان بإمكاني أن أرى شخصًا آخر فيه، في دائرية ملامحه؛لكن ذلك الشخص لم يكن جَدِّي. أحد الأقرباء الآخرين ربما؟

وجدتُ داخل الكيس البلاستيكي كيسًا آخر أصغر منه، صُنع من بلاستيك أكثر سُمكًا، مطبوع عليه بشكل مائل كلمة "باربورز" بحروف حمراء مع عنوان المحل ورقم التليفون. كان هذا هو مكان جَدَّتي المفضل للتسوق كلما ذهبت إلى "هاراري". كان بداخله مُغلَّف بُنِّي، ولم أخمن أبدًا ما سأجده. كانت شهادة وفاة. شهادة وفاة "جيريمي". كان مكتوبًا تاريخ الوفاة: 21 فبراير 1971، مكان الوفاة: "بولاوايو"، ثم سبب الوفاة: انتحار.

(3)

منذ تلك الليلة الحاسمة التي وجدتُ فيها قُبَّعة "جيريمي" وارتديتها بفخر على رأسي، ثم جريت تجاه جَدَّتي وذراعاي ممدودتان، وقابلتني هي بنظرة فزعة، اصطدمت يومها بحائط أسمنتي من الحزن ظل يتماسك أكثر وأكثر بمرور السنين، كنت غالبًا ما أحاول تخمين ظروف موته. الأمر ليس متعلقًا بأن أحدًا لم يذكره من قبل، لأنهم كانوا يذكرونه؛ لكن كان مجرد شيء عابر، مثلما يتذكر شخص ما صديق قابله مرَّة واحدة، أو شخص لم يره أو يسمع عنه أي أخبار منذ بعض الوقت. كانت أُمِّي تعلق أحيانًا على تصرف معين أقوم به، وتقول: "اعتاد أخي أن يفعل ذلك"، أو: "كان لدى أخي مدرسًا كهذا"، أو: "لم يحب "جيريمي" مادة الرياضيات أيضًا".

على الرغم من ذلك لم تكن تتطرق إلى التفاصيل، مما جعله يظل مجرد رسمة أكملها من خيالي وافتراضي، وقد تلونت بالموت. لم أشعر أبدًا بأنني مصرح لي بأن أسأل عنه، حيث إنه عندما يموت شخص ما يتحول إلى إله مصغر، شيء ما نتحدث عنه بهمسات هادئة ولا يُسمح بذكره بأي شيء مسيء، لأنه لا يصح لنا التحدث بسوء عن الموتى.

لم أكن أعرف كيف مات. افترضت أنه قُتل في الحرب؛ لأن هذا هو الانطباع الذي خلقه الأشخاص الذين افتقدوه: عائلته. عندما يتحدث الناس عن الأبطال و"كم أن الحروب مضيعة للأرواح"، ألا يفكر المرء في كل الأفلام الحربية التي شاهدها، حيث

يموت الجنود بالحركة البطيئة في المعارك، خطابات أمهاتهم الأخيرة في جيوبهم، وصورة حبيباتهم قريبة من قلوبهم؟ الأبطال لا يقتلون أنفسهم.

ارتعشت يداي عندما قرأت كلمة: انتحار. شعرت بالخوف فجأة كأنما شخص ما يراقبني. نظرت خلفي متوقعة أن أجد سكينًا يتجه ناحيتي في اندفاع خلال الهواء. حملت كتابًا من الصندوق، ونظرت في الصفحة الأولى. أحدها كتب عليه "1953" وكلمة "دفتر فواتير" مكتوبة بشكل مائل عليه. قلبت إلى الصفحة التالية لأجدها مغطاة بكتابات، في الواقع، كانت ممتلئة بالكتابات، كتابات جَدَّتي. من الواضح أنها استخدمت الكتاب لتكتب فيه مذكراتها اليومية، بين الحين والآخر كان يوجد تاريخ مكتوب فوق شيء ما مُدوَّن. 12 يونيو 1953، 13 يونيو 1953، 14 يونيو 1953. أحيانًا توجد فجوات توحي بمرور عدة أيام دون كتابة أي شيء، وأحيانًا أسبوع، وغالبًا أكثر من هذا. حملت الكتب الأخرى؛ كانت مثل السابق، أقدمها كان بتاريخ 1947.

قرأت بعض الأجزاء المتفرقة، كان بعضها عصيًّا على الفهم، والبعض الآخر كان مُشوَّشًا بسبب بُقع الحبر. شعرت بالخوف. لم أرد أن أبقى هناك أكثر من ذلك. أخذت كل الكتب والصور ووضعتها في صندوق واحد بسرعة، ثم أغلقت الدولاب، وتقريبًا خرجت من المنزل وأنا أجري حاملة الصندوق تحت ذراعي. انتابني ذلك الشعور مجددًا.. الشعور نفسه الذي انتابني عندما ودعت "مايلز". كان هناك شيء ما بدأ يتشكل، يظهر على السطح، مثل جثة تطفو على سطح النهر الذي أُلقيت فيه. لا شيء يبقى مختبئًا للأبد. كانت هناك أسئلة أردت أجد إجابة عنها. لم يعد بإمكانهم إخفاء أمر "جيريمي" عنِّي؛ لن أرضى بأي شيء عدا الحقيقة بعد الآن.

بمجرد أن وصلت إلى المنزل، اتجهت لغرفة أُمِّي، كانت مستلقية؛ ولكنها مستيقظة. حيتني بابتسامة شاحبة:

- "إيلي"، تعالي اجلسي معي.

جلست بجوارها، فقالت:

- كيف حالك؟

كان صوتها منخفضًا وحزينًا؛ لكنها كانت تحاول أن تبدو إيجابية، نظرت إليها بحِدَّة، فقالت:

- لقد ذهبت لمنزل جَدَّتك، أليس كذلك؟ قلت لأنني أظن أنك ستذهبين هناك.

- نعم، هذا ما فعلت.

ابتسمت قائلة:

- كأنها لا تزال هناك.

قلت متجاهلة إغراء الانسياق وراء الحنين للذكريات:

- هناك بعض الأشياء أود أن أسألك عنها.

كي أمنع نفسي من التراجع عن طريق سؤالها عن أشياء أخرى، أضفت مسرعة:

- أمور عائلية، عن جَدَّتي، وعن..

أومأت أُمِّي برأسها، قلت:

- لا أريد التطفل؛ لكنني أحتاج إلى أن أعرف.

تنحنحت، وقالت:

- ما الأمر؟

كانت تداعب حافة بطَّانيتها بإصبعها في حزن، قلت:

- منذ وقت طويل، أخبرتني جَدَّتي أنها كان لديها ابن، وأنه قُتل في الحرب.

كنت أحاول أن أحثَّها على أن تقول شيئًا؛ لكنها لم تفعل، فأكملت:

- الآن، هذا الابن، أخوك.. حسنًا..

تلعثمت فقالت كأنما سمعت فقط كلماتي الأولى:

- إنه لم يُقتل في الحرب؛ بل قُتل بسبب الحرب.

سألت في حيرة:

- ماذا تقصدين؟

مرَّت لحظة صمت طويلة، كانت عينا أُمِّي مثبتتين على السقف، لكنها لم تكن تراه؛ كانت بعيدة للغاية، قالت:

- لم يتمكن من احتمالها، كان مجرد طفل فعلًا. واحد وعشرون عامًا. كان هذا ذنب أبي، بسبب حديثه عن الحرب، وكيف أنها شيء رائع.

توقفت عن الحديث مرَّت أخرى ورأيت ابتسامة تظهر على شفتيها عند تذكرها لأخيها؛ لكن تغير وجهها مُجدَّدًا واكتسى بالحزن، وقالت:

- كان في إجازة لعدة أيام فعاد للمنزل. كان جَدُّك وجَدَّتك يعيشان وقتها في "إيلاندا". تدرب جدُّك على أن يكون ميكانيكيًّا في وقت متأخر من حياته، وعمل في ورشة "فوكس" لخمسة أعوام. لم تكن مهنة مربحة، وكان هناك عديد من المشاكل المعتادة: المال، لم يكن لدينا ما يكفينا أبدًا. كنت لا أزال في المدرسة، وأمامي سنة قبل أن أنهي دراستي. كان "جيريمي" مختلفًا، هادئًا للغاية؛ بل أكثر من هادئ، مكبوتًا. كأنما سُحبت منه الحياة بشكل ما. أتذكَّر كيف كان يجلس أمام طاولة المطبخ دون أن يقول أي شيء. لم يكن هناك أي أحد بالمنزل عندما عاد وظل جالسًا وحده ساعتين. لم يحضر لنفسه كوب شاي أو أي شيء آخر، لا شيء، ظل جالسًا فقط. عدت من المدرسة، كنت وقتها في مدرسة "تاونسيند". كانت قريبة من منزلنا، واعتدت أن أذهب إليها بالدراجة.

توقفت عن الكلام مُجدَّدًا، وفكَّرت للحظات، ثم أكملت:

- رأيته جالسًا هناك، أمام طاولة المطبخ، كنت متحمسة وسعيدة لعودته، وجريت تجاهه.

توقفت للحظة.

- لم يستطع حتى أن يعانقني.

نظرت إليَّ.

- لم يتمكن حتى من أن يفعل ذلك.

ظلت تعبث بحافة البطانية. بدا كأنما مضى بعض الوقت قبل أن تتحدث مجددًا:

- أعددت له الشاي، وجلست معه إلى أن عاد أبي. شعر بالذعر عند رؤيته لـ"جيريمي". حاول أن يجعله يبتسم. تحدث معه عن الرجبي والكريكيت، وكيف أننا سنربح الحرب؛ لكنني رأيت الخوف واضحًا عليه ذلك اليوم، خوفًا مروعًا.. لم يتحدث "جيريمي" كثيرًا يومها، سأل فقط عن أُمِّي عدة مرَّات. لم يكن أبي يعرف أين كانت، ظل يقول "في الخارج، ذهب إلى الخارج"؛ لكننا انتظرنا طوال اليوم ولم تعد.

ابتلعت ريقها، ثم أكملت:

- في النهاية، أخذت أبي إلى الخارج وسألته ما الذي يحدث. قال لي إنه لا شيء يحدث؛ لكنني علمت أن شيئًا ما ليس على ما يُرام. كان ذلك واضحًا في نظرته، ثم قال إنها فعلت ذلك من قبل، ظلت في الخارج طوال اليوم. لم تخبره أين كانت. لم ألحظ لأنني غالبًا أظل في المدرسة حتى الخامسة؛ لكنه قال بأنه اتصل بالمنزل عدة مرَّات خلال اليوم، ولم تكن موجودة، وعندما سألها فيما بعد أين كانت فقالت ليس في أي مكان؛ لكنها لم تظل في الخارج طوال اليوم هكذا من قبل. سألت أبي ماذا حدث لـ"جيم"، فأخبرني أنه رأى ذلك من قبل، رأى الشيء نفسه يحدث لرجال في الحرب. أخبرني أنهم يسمونها "الصدمة".

توقفت عن الكلام. امتلأت الغرفة المعتمة بالصمت لدقيقة أو أكثر، سألتها في النهاية:

- كيف؟ كيف مات؟

- برصاصة. وجَّه مسدسه لرأسه و...

لم تكمل.

- كنت في المدرسة عندما أتوا واصطحبوني. قدموا لي شايًا، شايًا محليًّا، وعندما كنت أجلس هناك أدركت أنني لم أدخل مكتب مديرة المدرسة قبل ذلك مُطلقًا، وشعرت بمدى غرابة الفكرة وقتها. كانت الستائر مصنوعة من قماش

قطني ذي لون أصفر جميل، أتذكَّر ذلك، كانت أوَّل مرَّة أدخل ذلك المكتب والأخيرة أيضًا؛ لكنني أتذكَّر الستائر. لونها أصفر جميل، مثل أشعَّة الشمس. أبي هو من وجده، كان قد أخذ اليوم إجازة كي يجلس مع "جيريمي". ذهب ليشتري لبنًا.. ثم عاد للمنزل ووجد "جيريمي".

- ماذا عن جَدَّتي؟

ضاقت عينا أُمِّي، وقالت:

- ألقت باللوم على أبي، وهو ألقى باللوم عليها.

تمكنت من أن أرى أي جانب اختارت أن تقف معه. قلت في محاولة باهتة وضعيفة كي أقف في صف جَدَّتي:

- إنها لم تكن تعرف.

- لم تكن تعرف؟

شعرت بالغضب يتسرَّب إلى نبرة صوتها مجددًا.

- لم تكن تعرف أنه كان في المنزل.

عرفت بمُجرَّد أن نطقت بتلك الكلمات أنني مخطئة.

- كان ينبغي عليها أن تكون في المنزل. لقد كانت تعرف. كانت تعرف! كانت تعرف ولم تهتم.

- لكنكم لم تعرفوا أن "جيريمي" سيأتي للمنزل.

- كلَّا! كانت تعرف أنه كان هناك. اتصلت في وقت متأخر بعد الظهر، وقالت إنها ستعود قريبًا. لقد تحدثت معه، مع "جيريمي". أخبرته أنها ستعود للمنزل.

- أين كانت؟

كان هذا هو السؤال الذي اعتقدت أن إجابته هي الحل لهذا اللغز. تنفست أُمِّي بعمق، أغلقت عينيها، وأطلقت زفرة، وقالت:

- لا أعرف. حتى هذا اليوم لا أعرف أين كانت. لم تخبرني قط. أخبرتني أن الأمر لا يعنيني، ثم قالت إنها كانت مع صديق ولم تخبرني مَن. في النهاية استسلمت. أعتقد أنني لم أكن أريد أن أعرف.

نهضت، قلت لها وأنا متجهة إلى الباب:

- سأعد الشاي.

لم تسمعني وأكملت حديثها:

- كانت مدمرة، غير قابلة للمواساة؛ لكنها لم تُلم نفسها قط. لقد ألقت عليه باللوم، وعلى قصصه عن الحرب. لقد حاول. حاول أن يصلح خطأه؛ لكن لم يكن هناك أي فائدة. لطالما كان زواجهما متأرجحًا. حاول العم "والي" أن يصلح بينهما، حاول أن يقول بعض الأشياء؛ لكن مجددًا، كان كل ذلك دون فائدة. كان طيبًا للغاية. نظَّم بعض الأمور، وقام بعمل الترتيبات.

- كان العم "والي" يعيش في "بولاوايو" إذًا؟

- لا، لا لم يعش هنا. لم يعش في "بولاوايو" منذ مدة طويلة. كان يعيش في "هاراري، ساليزبيري". عاش هناك لسنوات. أظن أنه كان يعمل هناك. كان مهندسًا وأتى في بعض الأوقات إلى مكتب "بولاوايو" لأسبوعين أو أكثر. ظننت أن جَدَّتك ربما كانت معه، كان سيصبح ذلك منطقيًّا؛ لكنها نفت ذلك، لم تكن معه. لم يمر وقت طويل بعد ذلك ثم انتقل إلى "جنوب أفريقيا".

- لماذا؟

- لماذا انتقل؟ حسنًا، لم لا؟ أظن أنه أراد بداية جديدة. كان يكرهها، أقصد الحرب. سخر منا طوال الوقت. البيض. كان يقول أطفال الكشافة يحملون البنادق. بعد ذلك "جيريمي"...

- لماذا قلت إن الأمر كان سيصبح منطقيًّا؟

- ماذا؟

- قلت بأن الأمر كان سيصبح منطقيًّا لو أن أُمِّي كانت مع "والي" في ذلك اليوم.

- لماذا؟

- حسنًا، لقد كانوا أقارب، على الرغم من أننا لم نره كثيرًا. كان ينجز بعض الأعمال في "بولاوايو".. لقد قلت ذلك لتوِّي، أليس كذلك؟

أومأت لها، وقلت:

- ماذا عن جَدِّي وجَدَّتي؟ بعدما حدث. لماذا لم ينفصلا وحسب؟

قالت أُمِّي في سُخرية:

- لم يكن الأمر بهذه البساطة، أليس كذلك؟

ضحكت ضحكة قصيرة جافة، ثم أضافت:

- بقاؤهما في المنزل معًا وشجارهما أكثر قبولًا اجتماعيًّا. لم أتمكن من احتمال الأمر أكثر من ذلك، كل الصراخ، لذا تركت الجامعة. لم أُنهِ عامي الأخير.

نظرت لي نظرة ذنب كأنني اتهمتها بالكسل أو الاستسلام، وقالت:

- كنت سأرسب على كل حال. قابلت أباكِ بعدها بفترة قليلة. كان يدرس وقتها، لذا فلم يكن مجبرًا على التجنيد.. حسنًا، أنت تعرفين كل ذلك. ثم أتيت أنت. احتجت إلى المساعدة في البداية. كانت هناك بعض التعقيدات وقمت باستئصال الرحم. أخبروني أنني لن أتمكن من الإنجاب مرَّة أخرى، لذا انتقل جدَّك وجدَّتك للعيش معنا. كنت سعيدة لحصولي على مساعدتها، وهي أحبتك للغاية. أحيانًا كنت أشعر بالغيرة بعض الشيء.

حملقت فيَّ قليلًا، وامتلأت عيناها بالدموع، وقالت:

- كان شعورًا رائعًا. كأنما أصبحنا عائلة مرَّة أخرى.

تقطَّع صوتها:

- شعرت أن بإمكاني أن أعتني بها هي أيضًا، على الرغم من أن أبي قال إنها لم تذهب إلى الخارج مثلما فعلت وقتها؛ لكن الشجارات بدأت مُجدَّدًا بعد فترة.

بدأت في البكاء، وهي تقول:

- أردت أن أغيرهما. أردت أن يكون كل شيء على ما يُرام. لقد فقدت شخصًا ما أنا أيضًا.

كان الوقت قد حان كي أتوقف عن استجوابها، على الأقل في الوقت الحالي. لم أخبرها عن المذكرات. أردت أن أحميها، على الرغم من أنني لم أكن متأكدة مما كنت أحميها. لم يكن هذا فقط؛ أردت أن أكشف هذا الغموض بنفسي، لمرَّة واحدة وللأبد. لم أعد أريد أن أحمي نفسي من الماضي. أخذت الصندوق إلى غرفتي ووضعته في الدولاب. سرٌّ آخر.

(4)

"17 أكتوبر 1947،

عزيزي "ج"،

استيقظت اليوم في الصباح الباكر، وأوَّل ما فكَّرت فيه كان أنت. كنت أشعر ببعض التعب، وبينما أكتسب مزيدًا من الوعي، حاولت أن أحمي نفسي من ألم تذكر رحيلك. كم يبدو غريبًا أن أفكِّر في أنه منذ أسبوع فقط، استيقظت بجانبك وظللت أراقبك وأنت نائم. كنت مستلقيًا قريبًا منِّي جدًّا، قريبًا لدرجة أنني كنت أشعر بأنفاسك الدافئة على وجهي. رجعت للخلف قليلًا حتى أتمكن من أن أراك بشكل أوضح. لم تكن قد حلقت ذقنك، فتلألأت ذقنك المنبتة بالأحمر في الضوء القادم من الخارج. اليوم، أستلقي وأتخيل نفسي أتتبع خطوط وجهك بيدي. أمررهما على جبهتك، وعينيك، وعلى أنفك ثم إلى شفتيك. يمكنني أن أشعر بالانحناءة البسيطة لشفتك العُليا والتماسك الناعم في الشفة السُّفلى وانحدار ذقنك. أنا ممتلئة بالحزن على فقدان شخص ما، وعدم القدرة على شرح ما بداخلي. كان لدينا عالم، ووقت يكفينا؛ لكن فات الأوان.

"إيفيلين"

5 ش "جروف"، "جورتون"، إنجلترا".

"20 سبتمبر 1947،

عزيزتي "إيفيلين"،

أنا سعيد لأنك أخبرتني عمَّا فعلته، لا، لن أتخذ منك موقفًا أخلاقيًّا وأعاتبك على أفعالك. لا داعي لأن أقول أن أخبارك فاجأتني على الرغم من كل شيء.

هذا الرجل، "ج" كما تحبين أن تطلقي عليه، يبدو جذابًا – ويشبهك جدًّا – ومع ذلك فهو يريد أن يحصل على كل شيء. أفضل نصيحة بإمكاني أن أقدمها لك، إذا كان بالفعل تعيسًا في زواجه كما يقول، هي أن تجبريه على أن يأخذ قرارًا ما وبسرعة، وإلى أن يفعل ذلك، عليك أن تبقي بعيدة.

عزيزتي "إيفيلين"، مهما كنت تظنين أنك كتومة، أؤكد لك أن هناك شخصًا ما سيلاحظ: نظرات، أو حتى نظرات خاطفة؛ مثل هذه الأشياء. آخر شيء تريدين حدوثه لك هو تدمير سُمعتك. لقد ذكرت من قبل كيف أن "روديسيا" مكان رجعي. إن الأمر مُتشابه في كل المجتمعات الصغيرة، صدقيني، سواء كنت في "بولاوايو"، أو مدينة في "هامبشير". عديني بأنك ستكونين حذرة.

لا بد أن عملكم معًا صعب عليك؛ لكن عليك أن تتعاملي مع الأمر. أليس من المحتمل أن تحصلي على عمل في مكان آخر؟ ألا تفكِّرين في العودة إلى "إنجلترا"؟ من المؤكد أنك لا تفكِّرين في بقاء بقية حياتك هناك.

أنت تقولين إنك تحبيه؛ لكن بإمكانك أن تحبي شخصًا آخر. ألا تحسبين أن كل ما يحدث هو جرأة لحظية؟ هل ستظلين مفتونة به لو أنه كان يعيش مع أمه وأبيه، وعرض عليك الزواج، وقدم إليك كل ما يملكه؟ لماذا نريد دائمًا ما لا يمكننا الحصول عليه؟ إنه متزوج، انتهى الأمر. عليك أن تواجهي الأمر وتقابلي شخصًا جديدًا. ألا يوجد عندك عديد من الحفلات الراقصة؟

خطابي".

"20 أكتوبر 1947،

عزيزي "ج"،

لقد بدأت في كتابة هذه الخطابات لك مع علمي بأنني لن أرسلها؛ لكنني أحتاج إلى الشعور بأنني أتحدث إليك، بأنك تقرأ كلماتي. هل تشعر بما أشعر به؟ فيم تفكر؟ هل تستيقظ في الصباح وتفكِّر فيَّ؟ هل تشعر بالحنين أم بالارتياح لأنني خارج حياتك، وأن بإمكانك العودة إلى وجودك التقليدي دون وجودي أمام باب منزلك أتوسل إليك كي تدخلني؟

هل تفكِّر فيَّ على الإطلاق؟ هل يمكنك أن تنظر إليها وتشعر بالسعادة من قرارك؟ هل سامحتك؟ ماذا قالت لك؟ إنني امرأة سيئة، بأنني مغوية؟ أم أنني مجرد نزوة من نزواتك، وإن علاقتنا ليست أكثر من مجرد شيء يضل فيه الرجال بين الحين والآخر. أفضل أن أكون السابقة. أفضل أن أكون المرأة السيئة، المرأة الشريرة المغوية، عن أن أكون لا شيء. لا تجعلني أصبح لا شيء.

إيفيلين".

كان هناك المزيد من الخطابات، عشرون أو أكثر. بعضها كان في مغلفات مُغلقة، وأخرى في مغلفات مفتوحة. كان هناك أيضًا قصاصات من الورق: ملاحظات كانت ثنياتها الصفراء توحي بأكثر من الكلمات البسيطة المكتوبة عليها. "الغداء؟"، "النادي 4 مساء نعم؟ لا؟"، "آيس كريم. بوَّابة الحديقة. 1 مساء"، "ملكك؟".. وغالبًا تكون الكلمات مُلغزة أكثر "52؟ الغداء" أو "52. 6 مساء".. هل هذا رمز؟ عنوان؟ شخص؟

بجانب الخطاب الذي افترضت أنه من صديقتها "ماجوري"، الذي كان يفتقد باقي صفحاته، وجدت خطابًا آخر لم تكتبه جَدَّتي.

"23 ديسمبر 1947،

عزيزتي "إيفيلين"،

مرَّت ساعة كاملة منذ أن رأيتك، وعلى الرغم من ذلك فهي تبدو طويلة للغاية! أنا مهووس بالتفكير فيك. أفكِّر فيك: في رائحتك، في لمستك. في مذاقك. لماذا لا أتمكن من إخراجك من رأسي؟ أقول لنفسي إنك عشيقتي.. مجرد علاقة غرامية. أخبر نفسي بأنني متزوج، ملتزم للأبد بشخص آخر. ما الذي يجعلني أرغب فيك لهذه الدرجة إذًا؟

أسأل نفسي ما إذا كان السبب هو أنك بدأت بمواعدة "إل". هل أشعر بالغيرة؟ هل أرغب بما ليس بإمكاني الحصول عليه؟ هل فقط فكرة وجودك مع شخص آخر هي ما تجعلني أريدك أكثر؟ هل وقعت في شرك الملكية الذي أرفضه بشدة؟ أريدك أنت. أريد أن أمتلكك. أحملك بداخلي. أنت جزء منِّي ورؤيتي لك مع شخص آخر تشعرني بأن هناك يدًا تمتد بداخلي وتقتلع، ليس قلبي، ليس شيئًا تافهًا مثل هذا الشيء الموجود داخل صدر كل رجل؛ لكنه شيء، شيء صغير؛ لكنه حيوي، شيء نادر نما بداخلي. أنا أحبك. يا لها من كلمات سطحية مبتذلة؛ لكن كيف يمكنني أن أعبر بغيرها؟ أنت أعز لديَّ من بصري، الهواء والحرية؟ أنا مثل "كورديليا" أمام "لير": لا أجد أي كلمات تعبر عمَّا أشعر به.

هناك الكثير الذي لا أعرفه عنك. لا أعرف كيف تبدين في الصباح. كيف تختارين ملابسك. ما إذا كنت تتناولين الشاي على السرير أم الطاولة؟ هل أنت سريعة الغضب؟ أتخيلك وأنت تربطين شعرك، تضعين أقراطًا في أذنيك، وترشين عطرًا على رسغيك

ورقبتك. أتخيلك ترتدين فستانك وهو ينساب فوق ملابسك الداخلية والطريقة التي تغلقـي بهـا أزراره. أتخيلـك وأنـت ترتـدين جواربـك وتضـعين قـدميك في الحذاء. لمسة من الروج على شفتيك. أتخيل نفسي هنـاك مسـتلق عـلى السريـر أشاهدك وعندما تجهزين، تميلين تجاهي وتقبلينني وتخبرينني بأنك سـتعودين إلى المنزل وقت الغداء. المنزل. منزلنا.

هل يمكننا العيش معًا يا "إيفيلين"؟ أنـت أصـغر منِّـي بكثـير. هـل سـتملِّين منِّي؟ هل ستنظرين في مكان آخر؟ هل ستظلين مخلصة عندما أكـون أنـا رجـلًا عجوزًا؟

ربما فات الأوان على كل ما أقوله. ما مدى جدية علاقتك بــ"إل"؟ هـل كنـا سنحظى بطفل؟ لا يعرف أحد كيـف أشـتاق إلى طفـل. ربمـا هـذه هـي أعمـق رغباتي.

أعرف أنك تتساءلين عمَّا إذا كنت سأترك زوجتي أم لا. لقـد عرفتهـا لأكـثر مـن عشرين عامًا. ليس لدينا أطفال؛ لكن لدينا منزل، وأصدقاء، وعائلة. تلك هي الأشياء التي تربطني بها.

ربما أنا أعطلك وأقف في طريق سعادتك مع شـخص آخـر.. "إل"؟ يجـب أن أذهب. أريد أن أبقى. لديَّ كثير لأقوله، ومع ذلك لا أجد شيئًا. لا يوجد طريقـة أخرى لقوله.

مع حبي،

ج".

كنت قد بدأت في قراءة الخطابات وأنا أظن أن قراءتها سـتكون أسـهل مـن قراءة المذكرات الملطخة بالحبر التي بدت الكتابات فيها لا نهائيـة، واحـدة تلـو الأخرى؛ لكن بـدلًا مـن المسـاعدة في مـلء الفجـوات، فقـد خلقـت مزيـدًا مـن الفجوات. أسئلة أكثر دون إجابات. من هو "ج"؟ ماذا حدث؟

منذ زمن طويل، عندما كنت في المدرسة الثانوية، حدثت مشكلة لي أنا و"ماندي" بسبب خطاب كتبته لها خلال حصة العلوم. كتبت فيه: "أشعر بالملل"، كان ردها: "وأنا أيضًا، ونَفَس السيد "برينجل" يفوح بالبصل. وجدته يميل من فوقي، آمل ألا يكون يختلس النظر تحت ملابسي". صادر السيد "برينجل" الورقة من أمامي وأنا أكتب: "إنه يبدو منحرفًا بعض الشيء". احتُجزت أنا و"ماندي" بسبب ذلك.

قالت جَدَّتي عندما كنت أنا وهي و"ماندي" نجلس في بلكونتها في مساء تلك الجمعة بعد أن انتهى عقابنا: "لا تكتبي خطابًا تخافين من أن يعثر عليه أحد".

قالت "ماندي" وهي تأخذ رشفة طويلة من كوب عصير البرتقال الذي قدمته لنا جَدَّتي: "حسنًا، لا ينبغي لأحد أن يقرأ رسائل شخص آخر".

أومأت جَدَّتي موافقة، وقالت: "دعيني أعيد صياغة ما قلته. لو أن شخصًا ما قرأ الخطاب، لا يجب أن تمانعي. يجب ألا يكون به أي شيء يحمله أحدهم ضدك".

سألتها: "ماذا عن خطابات الحب؟ من المؤكد أنها أشياء خاصة". قالت جَدَّتي: "إلى حد ما". تجعَّدت جبهة "ماندي" في حيرة، بينما أكملت جَدَّتي: "لكن بعد مرور فترة تصبح ملكية عامة". قالت "ماندي" وهي تضع كوبها وتلعق شفتيها بلسانها: "لم أعد أفهم". قالت جَدَّتي وهي تثني يديها على ساقيها: "دعيني أوضح لك، فكِّري في كل قصص الحب العظيمة. "بيرسي"، و"ماري شيلي"، و"وينستون تشرشيل"، و"كليمينتاين تشرشيل"، و"روبرت"، و"إليزابيث باريت براونينج"، من أيضًا؟ حسنًا أنتما تفهمان ما أعنيه. نحن نعرف فقط عن علاقاتهم فقط عن طريق ما كتبوه لبعضهم البعض. لم يشعلوا النار في الخطابات أبدًا، أو يتخلصوا منها. لقد احتفظوا بها. لماذا؟ لأنهم أرادوا أن يُعثر عليهم".

أعيد الخطابات في مغلفاتها، ثم أضعها جميعًا في صندوق أحذية قديم. هل أرادت جَدَّتي أن يُعثر عليها؟ بواسطة مَن ولماذا؟ ماذا أرادت أن يُكتشف؟

عندما ضُبطت أنا و"ماندي" نكتب عن السيد "برينجل"، لم نكن نحن أكثر من عانى من تبعات ما فعلناه. لقد أحرجنا الأمر؛ لكنه كان مجرد مزحة. وُضعنا في الحجز وأزلنا الأعشاب الضارة من الملعب الرياضي طوال فترة الظهيرة؛ لكن كان هذا كل ما في الأمر. لقد كان السيد "برينجل" هو من شعر بالإحراج الشديد، تُرك ليفكر في رائحة نَفَسَه السيئة، ودروسه المملة، وما إذا كان يظن معظم الطلبة أنه منحرف أم لا.

كان لديَّ شعور بأنني على وشك أن أشعر ببعض ألم السيد "برينجل"، بينما أنقِّب أكثر في ماضي جَدَّتي؛ لكن كان يجب عليَّ أن أعرف. كنت عازمة على أن أعرف.

(5)

قالت أُمِّي بنعومة، بينما بدت على عينيها المُكحَّلتين التعب والإرهاق:

- كنت مؤمنة بالله وأنا طفلة. أجبرتني أُمِّي أنا و"جيريمي" على الذهاب لمدرسة يوم الأحد كل أسبوع. كنا ننشد الترانيم، ونقرأ قصص الإنجيل. كنت أعرفها جميعًا، كل القصص. كنت أفكر أنني لا أمانع أن أعيش حينما وقعت تلك القصص، أن أكون "هانا" أو "روث". كنتُ أشعر وكأن الشمس تسطع دائمًا في تلك القصص. كان بإمكاني أن أعيش داخل إحدى تلك القصص ولا أموت أبدًا. لم يمت أحد في تلك القصص. توقفت عن الإيمان بعد وفاة "جيم". جاء رجل ما إلى منزلنا بعد الجنازة، كان رأسه أصلع، ويرتدي بدلة داكنة ويضع في جيب قميصه قلمًا ذهبيًّا. كان يفوح برائحة الموت، وهو يحمل مفكرته البيضاء وإنجيله. رأيت إلهًا مختلفًا إذًا، إله يسعى للانتقام، إلهًا غيورًا أخذ منك كل من أحببت ثم أرسل إليك رجلًا مرتديًا بدلة داكنة ليتلو عليك آيات من الإنجيل ويخبرك عن خطة الله. قال لي: "تلك الأشياء أُرسلت إلينا كي نصبح أقوى. كل تلك الأيام المشمسة في أرض كنعان كانت كذب، خدعة".

سألتها بعد فترة صمت قصيرة:

- هل كنت سعيدة أثناء نشأتك؟

لم تجبني في البداية، ارتعشت شفتها السُّفلى، ثم قالت:

- من الصعب أن أجزم. بماذا أقارنها؟ كانت هناك بعض الأوقات السعيدة بالطبع. كانت مرحة للغاية.. أُمِّي. كان هناك حفلات راقصة وحفلات عشاء؛

لكنني أظن أنها كانت أسعد معي أنا و"جيريمي".. خصوصًا "جيم"، لقد كانت تعشقه.

- هل شعرت بالغيرة؟

توقفت للحظة، وفكَّرت ثم قالت:

- نعم.

أخذت شهيقًا عميقًا، ثم أخرجته بتنهيدة، وقالت:

- لطالما فكرت بأنها أحبته أكثر منِّي.

- لماذا؟

- لماذا أحبته أكثر منِّي؟ لأنه صبي؟ لأنه الأكبر؟ لأنني أحبطتها في بعض الأشياء؟ لا أعرف؛ لكنها كانت تقول دائمًا إنني ابنة أبي.

مرَّت لحظة صمت أخرى ثم أكملت أُمِّي:

- لم تكتفِ بي. لم تكتفِ بي أبدًا. حتى بعد موت "جيم"، لم أتمكن من إعطائها دعمًا كافيًا، وقد استاءت منِّي بسبب ذلك. لأنني لم أتخذ موقفها نفسه كليًّا، لأنني حاولت أن أدعم أبي أيضًا. نعم، أعتقد أن هذا هو السبب.

- هل كانا سعيدين يومًا ما، جَدِّي وجَدَّتي؟

أومأت برأسها:

- أحيانًا كانا ينسجمان. لقد كان يحبها، كان يقدِّس الأرض التي تمشي عليها؛ لكنه لم يكن الشخص المناسب لها، وكان يعرف ذلك وهي جعلته يدفع ثمن ذلك.

- يدفع ثمن ذلك؟ إن هذا أقوى من اللازم، أليس كذلك؟

- لقد كان مجرد شعور موجود دائمًا. استياء. لقد كرهته بسبب حبه لها.

تلاشت أُمِّي مُجدَّدًا في داخلها وظلت هادئة لفترة طويلة. نهضت كي أرحل فقالت فجأة:

- ذهبنا إلى "ديربان" ذات مرَّة. كانت رائعة. أمضينا ساعات على الشاطئ، نبني قلاع الرمل، ونجمع المحار، ونسبح في المياه. كانت أُمِّي تستلقي أسفل شمسية الشاطئ الكبيرة. كانت تبدو رائعة للغاية؛ ترتدي نظارات شمسية وملابس سباحة سوداء. في أوقات الليل، كانت تُحمِّمني أنا و"جيم"، ثم تأتي خادمة لتقضي الليلة معنا، بينما يذهبان هما للعشاء. كانا يذهبان إلى بار الفندق أو لأحد مطاعم المأكولات البحرية بمحاذاة الساحل. أحببت مشاهدتها وهي ترتدي ملابسها: تثبت قرطيها، وترتدي جواربها، وتضع حذاءها، وترش عطرًا على رقبتها. اعتادت أن ترشه أيضًا خلف ركبتيها. كنت أحب رائحتها كثيرًا.

ارتعش صوتها، وقالت متلعثمة:

- لقد كنا سُعداء للغاية.

فيما بعد، بحثت في كومة المذكرات: 1955، 56، 57. كان 1957 هو العام الذي ذهبوا فيه إلى "ديربان".

"8 أغسطس 1957،

إننا نقضي أجمل أوقاتنا، وللمرَّة الأولى أشعر بأننا عائلة. نقضي النهار على الشاطئ مع الأطفال، وفي الليل نذهب لنتناول عشاءنا في الخارج. لقد رقصنا معًا بعد العشاء ليلة أمس. لم أحجم عنه عندما أحاطني "إل" بيديه وقادني في صالة الرقص. إنه يجعلني أشعر بأنني جميلة، وبأنني ساحرة بسبب الطريقة التي ينظر إليَّ بها، الطريقة التي يضغط بها بيده على منتصف ظهري. أوقات مثل تلك تجعلني أعتقد أن بإمكاني أن أحبه، أعتقد أنني أحبه بطريقة ما حنونة، ويا ليتني لم أحب "ج" أولًا، لم أكن لأرغب في أي شيء أكثر من تلك العينين العاشقتين. إنه ليس تحدٍ بالطبع، وأتساءل ما إذا كنت سأمل منه مع مرور

الوقت أم لا. لكن هناك أشياء أخرى بإمكاني أم أملأ بها وقتي: الأولاد مثلًا. يمكنني أن أطبخ، وأن أخيط وآخذهم لكل الأماكن المختلفة وأشغل وقتي. يبدو الأمر مهمًا الآن فقط على كل حال؛ لكنني لن أحتاج إلى الحب عندما أصبح أكبر سنًّا، ليس الحب الجسدي، يكفيني حب أبنائي وزوجي المخلص. هناك أشياء أخرى مهمة في الحياة. مرَّت ثلاثة أعوام منذ أن رأيت "ج"، وأعتقد أن بإمكاني أن أقابله الآن وأنا أكثر هدوءًا".

"5 أغسطس 1957،

تلقيت مساء اليوم برقية من "ج". إنه هنا، لا أعرف بماذا أشعر، الحماس من جهة ولا شيء من الجهة الأخرى. كاد "إل" يرى البرقية في يدي، حيث إننا كنا قد عدنا لتوِّنا من الشاطئ وهو ذهب مع الأطفال لمحل الألبان لشراء الآيس كريم. توقفت عند مكتب الاستقبال لشراء بعض الطوابع من أجل البطاقات البريدية التي أرادت "فرانسي" و"جيريمي" إرسالها لأصدقائهما، وفجأة مالت موظفة الاستقبال ناحيتي وأعطتني البرقية. قالت وأنا آخذها: "وصلت منذ دقيقة".

لم أتمكن من تخمين المرسل، حتى عندما رأيت الكلمات، لم أتمكن من التصديق واضطررت إلى أن أقرأها عدة مرَّات كي أتأكد. "أنا هنا، سأتصل بك. ج". كنت أطويها وأضعها في حقيبتي عندما دخل "إل" وسألني إذا كنت بخير. قال: "تبدين شاحبة. لم لا تذهبين للاستلقاء؟ سأشغل عنك الإرهابيين الصغيرين".

هززتُ رأسي وأنا أشعر بالذنب، قال في إصرار: "هيا اذهبي، أنت تستحقين بعض الراحة".

بقيت في الغرفة حوالي عشر دقائق ثم سمعت طرقات على الباب. أخبرني الحمَّال بأن هناك رجلًا اتصل بي وسيعاود الاتصال بعد خمس دقائق، وسألني عمّا إذا كان بإمكاني الانتظار في

الاستقبال. كنت متوترة للغاية، وقلقة من أن يراني "إل"، أشعر بالذنب من مشاعري، لدرجة أنني كدت أقرر ألا أذهب. لكن لماذا؟ لمَ لا أخبر "إل" بأن "ج" هنا وأرتب معه كي يقابلنا. لماذا أكمل هذه الحيلة في حين أنني منذ عدة أيام فقط كتبت أن بإمكاني أن أقابل "ج" دون أن يطرف لي جفن؟ فكَّرت في أن أجلس في البلكونة وأتأمل البحر. وبينما أجلس هناك سيرن التليفون في الأسفل وسيخبرون "ج" بأنني لست موجودة أو أننا قد رحلنا. لا يهم. سأظل جالسة أتأمل البحر، تمتلئ أذناي بصوته، وسيرن التليفون، ولن أكون موجودة.

لكنني كنت موجودة، بالطبع كنت موجودة. كما كنت موجودة بعد ذلك بعد الظهر في العنوان الذي أعطاني إياه: 52 شارع "بايونير". أخبرت "إل" بأنني سأذهب لشراء بعض التذكارات. أرادت "فرانسي" أن تأتي معي، وكادت تفسد الأمر بكامله. تشبثت بيدي وقالت: "أرجوك يا أُمِّي، أرجوك". "إل" هو من منعها. لقد رأى أنني أريد أن أبقى بمفردي وقبل أن أغادر مباشرة، دسَّ بعض الأموال في يدي وقبَّلني وقال: "اشتري لنفسك شيئًا لطيفًا، ولي أيضًا".

حاولت أن أبتسم وأقبله؛ لكن شفتيَّ وقعتا على جانب فمه في محاولة خرقاء مريعة.

أنفقت جزءًا من المال على ركوب تاكسي إلى شارع "بايونير". إنه صف من منازل المصيف خارج "ديربان". شعرت بالذنب؛ لكنني شعرت أيضًا بأنني أعاقب نفسي. قررت أن أقابل "ج" فقط وأتحدث معه وأعطيت لنفسي وقتًا معينًا لأنتهي فيه. سأكون هادئة بشكل متعمد وسأتحدث كثيرًا عن الأطفال. لن أستسلم له، هذا هو ما قلته. لن أسمح له بأن يتحكم فيَّ مثلما اعتاد.

كان الجو حارًّا، كان حارًّا بلزوجة، مما جعل فستاني يلتصق بي، وشعرت بحرارة جلدي تحت الماكياج وأنا أخرج من التاكسي وأخطو فوق الطريق الأسفلتي الساخن. بدا البحر أبعد مما يجب عليه أن يكون من منازل يُفترض أنها تقع على البحر. كانت هناك حديقة

صغيرة ممتلئة بالنخيل وعدة سلالم متكسرة تُفضي إلى بلكونة صغيرة. كان "ج" ينتظر. كان قد صب شرابًا ما، ولا يزال يصب الآخر عند وصولي. اهتز الكوب في يده عندما فتح ذراعيه من أجل أن يعانقني.

ابتسم ابتسامة واسعة عندما رآني؛ على الرغم من ذلك تمكنت من أن أرى أنه متوتر، قال وهو يضع الكوب على الطاولة: "اعتقدت أنك لن تأتي".

تأملت المكان حولي. كان منزل شاطئ بسيط. لا توجد به وسادة أو سجادة في غير مكانها. من الواضح أنه لم يكن يسكن فيه. سألته: "أين تسكن؟".. "مارجيت، قريبًا من هنا".. "بمفردكما؟".. "لا".

توقف للحظة ثم أكمل: "مع أصدقائنا".. "لم أكن أظن أن هذا مسموح لك".. "إنها لا تعرف. أنا لم أكن أعرف. لقد مرَّ ثلاثة أعوام".. "أعرف. كيف عرفت أننا هنا؟".. "إشاعة. كنا نفكر في الهروب معًا لمدة طويلة".. "منزل من هذا؟".. "أصدقاء".. "عائلة "ترومان"؟".

تردد ثم تمكن من أن يبتسم ابتسامة ضعيفة، وقال: "تخمين جيد".

لاحظ انزعاجي فقال: "إيفي، أرجوك، لدينا يوم واحد. واحد فقط. أوَّل واحد منذ ثلاثة أعوام. دعينا لا نفسده، أرجوك".

توقف للحظة، لم أنظر إليه وثبت نظري على الحديقة، بينما أكمل: "لقد حاولت، أنا أحاول بكل جهدي".

تلعثم صوته: "أفكر فيك كل يوم".

ابتلعت جرعة كبيرة من الجين وماء الصودا، وركزت نظري على الانحناءة الطويلة لأقرب نخلة منِّي. "أنا أيضًا، أنا أيضًا"! أردت أن أصرخ. أردت أن أبكي فحملت كوبي أمام فمي وتجاوزت الأمر.

قال وهو يبعد شعري للخلف برقَّة:"إيفي".

فيما بعد، ونحن نستلقي بجانب بعضنا البعض على السرير وهو يكتب اسمه على صدري، جسده رطب وندي بجانب جسدي، قال لي مُجدَّدًا إنه يفتقدني. سألته ضاحكة في سخرية بعض الشيء وأنا أستند على الوسادة: "مثل صديق قديم؟".. "أكثر من ذلك يا "إيفي". أنت تعرفين ذلك".. "متى وصلت؟".. "الأسبوع الماضي".. "الأسبوع الماضي؟ وسترحل؟".

استلقى بصعوبة على ظهره ولم ينظر في عيني وهو يقول: "غدًا".

خفق قلبي، لكن لماذا أشعر بالخذلان؟ ماذا عليَّ أن أتوقعه منه؟

لم أسأله مجددًا. رقصنا، كان هناك راديو قديم، زر الصوت به لا يعمل واضطررنا إلى أن نجتهد كي نسمع الكلمات في البداية:

"إنه ليس القمر الباهت الذي يحمسني، الذي يشوقني ويسعدني.. كلَّا إنه فقط القرب منك..

لكن عندما احتضنا بعضنا البعض ورقصنا ببطء شديد..

استطعنا بعد قليل من الوقت سماع الكلمات".

سأل فجأة وهو يبتعد عني: "كم الساعة؟".

تلك الكلمات القديمة المألوفة، قلت: "العادات القديمة لا تنسى بسهولة". تجهَّم، وقال: "سيأتي "بول" في الخامسة ليصطحبني".. "بول"؟ أنت تمزح".. "لا، لا أمزح. كيف تظنين أنني جئت إلى هنا؟".

نظرت على السرير غير المرتب، وقلت: "لكن أنا.. أعني، المنزل...".. "لا تقلقي سأرتب كل شيء بمُجرَّد أن...".. "أرحل".

أكملت جملته وسحبت يدي بعيدًا عن يديه وأكملت: "سأكون سريعة".

توسل إلي: "لا يا "إيفي"، لم أقصد ذلك. "إيفي"!".

اختطف ملابسي من يدي وألقى بها في الغرفة. إحدى القطع علقت بأحد الإكسسوارات المعلقة، مما جعلها تسقط على الأرض وتتحطم. سألته في غضب وأنا أحاول ان أبتعد عنه: "كيف ستفسر ذلك؟".

أردت أن أحطم كل شيء في الغرفة فقط لأقول أنني كنت هناك. "لا أهتم! لا أهتم! "إيفي" لا تذهبي من فضلك، ليس الآن على الأقل".

لكنني رحلت. أحسست بعدم الراحة في ملابسي أكثر مما شعرت به عندما وصلت، والشيء الوحيد الذي أردته وقتها كان أن أستحم، لكن كان عليَّ أن أذهب لعدة محلات أولًا. اشتريت لـ"جيم" مشكالًا ولـ"فرانسي" صندلًا أحمر مطاطيًّا.

قلت لـ"إل" عندما عدت: "لم أجد شيئًا لنفسي، اشتريت فقط أشياء من أجل الأطفال".

أراد أن يقبلني؛ لكنني ابتعدت عنه، رأيت مُجددًا تلك النظرة في عينيه. إنها المرَّة الأولى التي أراها في تلك الإجازة، تلك النظرة التي تقول إنه يعرف أنني لا أحبه. قلت في ضيق واضح: "أريد أن أبدل ملابسي. أريد أن أستحم أيضًا. كان الجو حارًّا للغاية اليوم".

ابتسم كأنما وضح له ذلك الأمور، وقال: "بالطبع. لكن لا تأخذي وقتًا طويلًا لأننا سنخرج للرقص الليلة".. "الرقص".. "لقد سمعتني، سآخذك لنرقص".

حاولت أن أبتسم وقلت: "إنني متعبة للغاية. الحرارة...".. "الاستحمام سيريحك تمامًا".

حاولت في تلك الليلة. حاولت بالفعل. كنت أستعد عندما أتى "إل" من خلفي وأنا أغلق فستاني. قال وهو يقبل مؤخرة عنقي: "اتركي لي هذا".

أردت أن أتراجع، أن أرتعش، أن أبتعد عنه؛ لكن بدلًا من ذلك التفتُّ وقبَّلته. في الواقع، قبَّلته مرَّتين. كانت المفاجأة والسعادة واضحتين في عينيه، وبعد ذلك في الليلة نفسها أخبرني أن هذه كانت المرَّة الأولى التي أبادر أنا فيها بتقبيله. حاولت أن أستمتع

بوقتي. ذهبنا لـنرقص في نـادٍ لـيلي في منتصـف "ديربـان". كـان ممتلئًـا بـدخان السجائر ومزعجًا؛ لكن "إل" أحبه. ظللت أفكر فيما حـدث في الظهـيرة، متمنيـة أن أكون مع "ج"، أرقص معه عارية على أنغام الراديو بدلًا من ذلك، ومع ذلـك أشـعر تجاهـه بالكراهيـة، تجاهـه وتجـاه نـفسي للاستسـلام وأنـا أتـذكَّر تلـك الكلمات. كان سيأتي "بول توماس" ليصطحبه! لماذا يظـل محافظًـا عـلى صـداقة متينة مع أشخاص يحتقرونني بوضوح؟

كيف تركنا الأمور تصل إلى هذا الحال؟ ما القرارات التي اتخذناها؟ لا شيء، مرَّة أخرى، لا شيء. أنا لا أسأل حتى. لقد ذهبنا أبعد كثيرًا من أن نـتمكن مـن العـودة. هناك كثير من الناس متورطين الآن. لقـد خـذلت نـفسي مـرَّة أخـرى. أنـا عاهرتـه، عشيقته. يأمرني فأتبعه. كان ينبغي علي أن أترك التليفون يـرن، ويـرن، ويـرن. كـان ينبغي علي أن أجلس وأتأمل البحر وأملأ ذهني بصوته. لماذا لا أتمكن من توديعـه؟ لا أتحمل فكرة ما فعلناه أنا و"ج". نحن لم ندمر حياتينا فقط؛ بل حياة كل المقربين منا أيضًا. لن نتخلص من هذه العلاقة أبدًا. أبدًا.

فيما بعد، عندما عدنا، ذهبت لأطمئن على الأطفال، ورأيت "فـرانسي" نائمـة وهي ترتدي صندلها الجديد. امتلأ قلبي بالألم وانحنيت لأقبلها".

(6)

"8 يونيو 1954

أستيقظ أحيانًا في الليل وأفكِّر فيما فعلته. لماذا عدنا إلى هذه العلاقة مجددًا؟ لقد رحل عن "بولاوايو" لخمسة أعوام وعاد الآن وأنا معه ولا يمكنني ألا أسأل نفسي عن سبب بقائي معه.

تساءلت ما إذا كان بإمكاني الهروب؛ لكن لن أتمكن من أخذ الأطفال معي لو فعلت ذلك، ولن أتمكن من تركهم أبدًا مهما حدث. لقد دمرت حياتي؛ لكنني لن أفعل ذلك بهم. المرأة التي تترك أبناءها ترتكب الخطيئة الكبرى على الإطلاق. قد تصنَّف المرأة العازبة التي تهرب مع رجل متزوج كمدمرة بيوت، وقد يشعرون بالأسف من أجل امرأة متزوجة دون أطفال لو فعلت ذلك؛ لكن زوجها هو من سيبدو موقفه سيئًا، سيتساءل الناس هل هو ممل، أم بخيل، أم يضربها؟ هذا هو أسوأ ما قد تواجهه هذا المرأة. أما المرأة التي لديها أطفال لا تتركهم أبدًا. ربما لو كان لدى "جيريمي" فقط وعرف "ليونارد" الحقيقة فسيتحطم قلبه؛ لكنه لم يكن ليقول لأي أحد إن "جيريمي" ليس ابنه؛ لكن الآن مع طفلين، نحن الآن عائلة والنساء لا تدمر العائلات".

"17 أكتوبر 1954،

على الأقل عندما كنت عزباء كان بإمكاني أن أرى نهاية: قرار سأضطر أن أتخذه. لكن الآن نحن نلتقي، نمارس الحب، ثم نترك بعضنا البعض. الآن لا توجد نهاية. نحن ندور في دوائر متزايدة أسرع وأسرع. لا أمل في نهاية أو قرار. قال لي مرَّة إنه لا يمكنه أن يتركها بسبب "الروابط التي تقيده"، والآن أنا أيضًا مقيدة. ما الهدف من كل هذا؟ كل مرَّة ندمر أنفسنا أكثر قليلًا، كل مرَّة نموت ميتة صغيرة. الآن ليس هناك اشتياق، مجرد فراغ؛ ليس هناك رغبة سوى الرغبة في الموت. لكن المرأة لا تفعل ذلك أيضًا، أليس كذلك؟ أن ترغب في الموت.

كل ليلة أقول إن هذه هي النهاية. لا يمكن أن يستمر الأمر؛ ينبغي أن ينتهي، ثم بعد ذلك كل صباح يتجدد الأمل مرَّة أخرى. أراه أمامي في كل ساعة لا أعيشها وفي كل يوم ينقضي، الساعات فارغة والأمل يموت".

"24 أكتوبر 1954،

اليوم، كنت في المدينة بالقرب من محطة القطار، وفكَّرت أن بإمكاني أن أركب القطار وأرحل. "كيب تاون"، ثم "إنجلترا". أبدأ مجددًا. كنت سأفعل ذلك، كنت سأفعل ذلك حقًّا، لولا أنني تذكرت أنني وضعت حساء في الفرن وتساءلت ماذا سيحدث لو احترق ولم يجدوا شيئًا يأكلونه. يبدو الأمر سخيفًا؛ لكنني لم أتمكن من الامتناع عن التفكير: بماذا كنت سأفكر لو أن أُمِّي تركتني، ولم يكن هناك أي شيء آكله سوى حساء محترق؟ لذا عدت إلى المنزل بدلًا من ذلك ووجدتهم هناك، الثلاثة، جالسين في انتظاري. صرخوا بمُجرَّد دخولي من الباب قائلين: "عيد ميلاد سعيد".

كان هناك كيكة ولافتات ونفخ "جيم" في بوق ورقي، وانتفخ خداه الورديان في فخر. أعطتني "فرانسي" ثلاث زهرات أقحوان صفراء، ثم احتضنني "ليونارد" بشدة وقبلني على عنقي.

بكيت حينها فتوقفوا عمَّا يفعلونه. رأيت ظلًا يرتسم على وجه "فرانسي" وانفتح فمها كأنها على وشك أن تبكي، قلت لها: "لا بأس، لا بأس. إن أمك سعيدة للغاية فقط، سعيدة للغاية". فيما بعد وأنا مستلقية فكَّرت: "أنا مزيفة. إنهم يحبون شخصًا مزيفًا. كم سيكرهونني لو أنهم عرفوا وسأخسرهم للأبد. للأبد. يجب أن ينتهي الأمر، هذه المرة يجب أن ينتهي".

"25 أكتوبر 1954،

انتهى الأمر. لقد أخبرته".

"4 نوفمبر 1954،

أهدئ نفسي؛ أقول لنفسي إن الأمور بخير. أحيانًا أجد بعض النظام في الحياة، ويمكنني أن أنغمس بداخله. أستيقظ، أتناول الإفطار، أشرب شاي الصباح في العاشرة صباحًا، ثم الغداء، شاي بعد الظهر في الرابعة، العشاء، ثم النوم. أتطلع لكل مرحلة تالية ولا أتمكن من احتمال أي خلل يحدث في هذا الروتين".

"5 يناير 1955،

بدأت بالذهاب للكنيسة. أحد قرارات العام الجديد. اخترت أن أكون كاثوليكية هذه المرَّة، يناسبني الشعور بالذنب".

"17 يناير 1955،

لا أعرف كيف أفكِّر في الرب. معظم حياتي تخيلته رجلًا، رجلًا عجوزًا. يرتدي روب أبيض ويجلس في كرسي ضخم محاط بالملائكة في مكان يُسمى الجنة. إنه أبيض، هل يجب أن يكون كذلك؟ أحاول أن أتخيله أسود؛ لكن لا أتمكن من فعل ذلك. هل يجب أن يكون لديه لون من الأساس؟ هل يجب أن يكون رجلًا؟ فكرت باقتضابٍ اليوم أن الرب يمكن أن يكون امرأة سوداء. امرأة سوداء كبيرة لديها ثديان يرتفعان ويسقطان عندما تضحك، ضحكة عميقة ظريفة. تصوُّر مضحك؛ لكن هذا التصور لا يبقى في ذهني. دائمًا ما أعود لتخيل الرجل العجوز ذي الروب الأبيض.

ربما نتخيل الرب كي نريح أنفسنا، قد تكون الهيئة التي نتخيله عليها لا تهم، أم أنها مهمة؟ إلهي غاضب، منتقم، غيور. يطالب الملك "لير" بالحب المطلق من "كورديليا" ومن الجميع. أما الإلهة السوداء، فهي حنون، ومتفهمة. تعرف كيف تحب شخصًا؛ تحب الشخص الخاطئ. تجذبني إلى صدرها الضخم وتتركني أبكي. يداها ناعمتان وبنيتان ومريحتان. إنها لا تصدر أحكامًا على أحد".

"24 يناير 1955،

هناك بعض الأشياء التي لا يخبرك أحد عنها وأنت تكبر، مثل أين تذهب الشمس خلال الليل؛ والقمر خلال النهار، أو ما الرعد، ومن أين تأتي الأطفال. تفسير الأحلام. أين

نذهب عندما نموت. يقصون عليك قصصًا حول ذهاب الشمس للنوم وأن الرب غاضب من أمر ما، وعن طيور اللقلق والملائكة، بابا نويل وجنية الأسنان.

يومًا ما سأل أحدهم أمه: "لماذا نحن هنا؟"، فحكت له قصة عن خلود بعيد عن المتناول وثعابين، ونساء ورجال، ونجمة فوق إسطبل خيول؛ لكن لم يجب كل ذلك عن سؤاله، لماذا؟ لماذا كل هذا؟ لماذا ننظف خلف أذنينا؟ لماذا نرتب غرف نومنا؟ لماذا نتعلم أن 12 × 12 تساوي 144؟ لماذا ومتى سينتهي كل ذلك؟ متى سيخبروننا بأن هذه الحياة لا تهم، بأن أرواحنا ستطفو لأعلى تجاه أشياء أجمل، موجودة خلف السماء الزرقاء؟ لماذا لا نموت الآن بدلًا من كل هذه التكرارات التي لا تنتهي: غسيل الأسنان، تلميع الرفوف، الذهاب للنوم، الاستيقاظ؟

عندما يكون المرء طفلًا يتوقع الكثير من الحياة، وهو أمل يفقده غالبًا مع مرور الزمن. شيء ما سيحدث. ربما ليس الآن؛ بل فيما بعد، عندما أكبر قليلًا، عندما أنضج. حينها تمتد الأبدية عبر السماء الزرقاء؛ في الشمس المتعبة العجوز وهي تغرق في الأفق وفي الغبار الذهبي لليل؛ في شعاع الشمس العابر خلال الأشجار وصوت صراصير الليل في ليالي الصيف. لا نتوقع أن ينتهي أي من هذا.

ثم هناك أنت، هناك في مركز الكون، تقطع الأزهار في مرح وتقطع العشب من الأرض المقاومة في ملل، تدهس النمل وتضحك عندما تطير الطيور بعيدًا وأنت تصفق بيديك. سينتهي العالم عندما تنتهي أنت".

"21 مارس 1955،

فوّت الغداء يوم الثلاثاء الماضي لأنني تأخرت في البنك. اختبرت أسوأ شعور ممكن أثناء عودتي إلى المنزل. كل الأطباق كانت قد أزيلت عن الطاولة. برد ما تبقى من الشاي

في البراد، ولم أتمكن من احتمال رؤية الأطباق بها بقايا الأكل في الحوض. شعرت بأنني تم نسياني، كأن بإمكان الحياة أن تكتمل من دوني في سعادة؛ لكنني لم أشعر بالارتياح لذلك، بل شعرت بالكآبة بسبب نسيانهم لي بهذه السهولة.

عاد "إل" لعمله. كان الطفلان كانا نائمين. ذهبت لغرفة "جيم" ووجدته نائمًا، ورأيت بجانبه مجلة "بويز أون" السنوية مفتوحة. صعدت على السرير، وشعرت بالتعب يغمرني وأنا أحتضنه وأنام. أظل أخبر نفسي بأن هذا لن يستمر للأبد".

باقي صفحات المذكرات كانت فارغة: صفحات بيضاء ناعمة ذات خطوط متقاطعة لطيفة. كانت هناك صورة في الخلف. كانت تشبه واحدة رأيتها من قبل، باستثناء أنها أُخذت من زاوية مختلفة قليلًا. امرأة مسنة، حقيبتها تتدلى بجانبها، أزرار سترتها الصوفية مغلقة، ترتدي حذاءً مناسبًا في قدميها. مكتوب في الخلف: "أمي، "ماتابوس"، 1953". كانت تشبه جَدَّتي، أو أن جَدَّتي كانت تشبهها، ولسبب ما لا أفهمه تذكَّرت جملة تعلَّمتها في محاضرة عن الأدب المعاصر: "إن العالم يتغير بشكل درامي كل عشرة أعوام في القرن العشرين أكثر مما كان يتغير كل مئة عام في الماضي". على الرغم من ذلك كان هناك شيء ما متعلق بوقفتها، في الطريقة التي مال جسدها بها للأمام قليلًا. ذقنها مرتفع قليلًا مما أوضح ثقتها بنفسها، ومعرفتها بالكثير من الأمور، وإيمان بالعالم نادرًا ما نراه في أيامنا الحالية. من الرائع أن نواجه الحياة، ونحن نعرف مكاننا، ونحن نعرف ماذا نعطي لأننا نعرف ماذا يجب علينا أن نتوقع في المقابل، ونحن نؤمن بأن لا شيء يتغير ولن يتغير.

(7)

"12 مايو 1960،

يكره الروديسيون الشتاء بشكل عام؛ لكنـه مـن أوقـاتي المفضـلة في السـنة. أحب الدخول التدريجي في الشتاء في شهر مايو والخروج منه في أغسطس. لقـد نشأت على كراهية الغبار. كانت أُمِّي تنظف المنـزل مـن الغبـار طـوال الوقـت، ولقد اقتنعت بأنه شيء ينبغي التخلص منه بأي ثمن. على الرغم من ذلـك فهنـا أنا أحبه؛ لكن ربما أكون مثل أُمِّي، لا أحبه عـلى الترابيـزات والكـراسي؛ ولكـن في الخارج تحت الشمس. كل شيء في الشتاء هنا يكون بني اللون. يصـبح العشـب جافًا ورطبًا، ويتشبث بالتربة الرملية الناعمة، متعلق بالحياة في يأس.

جلست أمام النافذة اليوم وراقبت أشعَّة الشمس وهي تعبر خلال الأشـجار في الحديقة الخلفية. لم تكن مثل أشعَّة الشمس الباهتة التي نراها في "إنجلترا"؛ لكن كان بها لمعة ساطعة شديدة، دون حرارة الصيف اللزجة. كان الجـو دافئًـا تحت أشعَّة الشمس؛ لكن ذلك الدفء لا يسخن الهـواء لـذلك فـالجو في الظـل كان باردًا. أحب الذباب الضوء، وظل يرقص ويصـفق بجناحيـه تحتـه بحـماس. يومض اليوم بكل الحماسة والأمل اللذان يبعثهما نهار صيفي إنجليزي.

الصباح يكون مظلمًا. يظهر الشروق ببقعة برتقالية في الأفق. تكون الطيور قد استيقظت. أريد أن أتدفأ تحت البطانية ولا أخرج إصبعًا واحدًا خارج السرير، ومع ذلك فمن المحبب إليَّ الانغماس في البرد، فهو يعيد إيقاظي ويجددني. أحب صدمة المياه الباردة على وجهي. تصيح "فرانسي" و"جيم" وأنا أوصلهما إلى المدرسة في الصباح: "انظري يا أُمِّي، إننا ندخن".

وفي المساء، في الفترة المبكرة منه، البحث عن سترة أرتديها، إشعال المدفأة، والاستحمام بالماء الدافئ".

"12 أغسطس 1960،

أكاد أتذوق الغبار في الهواء. أشعر كأنني أقفز للأعلى والأسفل وأدور في دوائر. أشعر بأنني ذاهبة في إجازة، إلى البحر. هل من الغريب أن يكون مثل هذا الطقس الجميل في مدينة غير ساحلية يجعلني أرغب بالذهاب إلى البحر؟ أشعر أن بإمكاني البدء من جديد، أن الربيع هو طريقة الطبيعة في إعطائنا فرصًا ثانية. قد يشعر البعض بمثل شعوري في أوَّل شهر يناير: وقت الإقلاع عن التَّدخين، والكيك، والسباب. لكن بمُجرَّد مجيء ثاني أيام ذلك الشهر، تبدأ هذه الوعود بالاختفاء. لا يتعلق الربيع بالاستسلام؛ بل بقبول التحديات. تخرج حينها مضارب التنس، وأحذية الجري، وملابس السباحة.

هذه الليلة، عندما مررت بجانب غرفة "جيم" ونظرت بالداخل، ظننت أنه نائم ومددت يدي كي أغلق نور الغرفة عندما فتح عينيه وقال: "غني تلك الأغنية التي تغنيها عندما تكونين سعيدة".

لم أعرف أية أغنية يقصدها وبدأ في الغناء: "النسمة المرتعشة تحتضن الأشجار، بنعومة". قلت: "أهذه هي الأغنية التي أغنيها حين أكون سعيدة؟".

قال "ليونارد" الذي كان يقف عند الباب: "نعم، تلك هي الأغنية التي تغنيها ماما وهي سعيدة".

"4 سبتمبر 1960،

ذهبت اليوم إلى الحديقة. أخذت الأطفال في وقت الغداء، ومشينا لبعض الوقت، ثم جلسنا، وتناولنا الطعام. كان هناك رجل بالقرب منا، رجل أفريقي، بستاني يعمل في حوض زهور جديد. لم ينظر إلي حتى حييته، وحينها أعطاني أكبر وأعرض ابتسامة رأيتها في حياتي. لمس قبعته وأومأ برأسه في تحية. سألته وأنا أقترب منه: "ماذا لديك هنا؟".

بدا متفاجئًا للحظة، ثم مد كفيه وهما ملتصقتان ببعضهما على هيئة كأس، رأيت في حفنة من التربة الناعمة زهرة برتقالية صغيرة للغاية. ارتعشت يداه وهو يسحبها من التربة، وهزّ جذورها الضعيفة وأطلق حريتها، فكَّرت أنه كان يرتعش من الإثارة وليس بفعل السن، وقال: "نبات "الأذريون" يا سيدتي".

ثم أعاد الشتلة الضعيفة في أمان جسده.

لا يمكنني ألا أفكِّر في أن "ليونارد"مخطئ، فهو يعتقد أن من الجنون أن المجلس قد زرع أشجارًا غير أصلية. من بإمكانه كراهية شجر الـ"جاراكاندا"؟ ليست فقط الأشجار ما لا يحب، بل الزهور أيضًا، أي نوع من النباتات "لم يوجد في الأصل في روديسيا" كما قال بالضبط. لكن عندما أرى الحدائق ممتلئة عن آخرها بالزهور في أغسطس، وأستنشق

رحيـق البـازلاء الحلـوة، الأمـس واليـوم والغـد، وعنـدما تزهـر زهـرة "الليلـك" وخريف الـ"جاكاراندا"، وعندما يمتلئ الهواء بثقل عطر الياسمين، لا يسـعني إلا أن افكِّر في أنـه مخطـئ. عنـدما أرى البسـتانيين الأفارقـة يعملـون في الحـدائق برعاية حنونة، وأرى كما رأيت، تلـك اليـد الممـدودة تجـاهي وصـاحبها يقـول: "هذه من أجلك يا سيدتي".

وأنظر في عينيه، حيث أرى تقريبًا فرحة أب وهو يحمل ابنه المولود حـديثًا لأول مرَّة، التراب تحت أظافره، تتساقط التربة الناعمة من يديه. الفخر في زهور "الكوبية" و"البتونيا" و"الأذريون".

تشاجرت أنا و"ليونارد" بالطبع؛ لكنه لم يرد أن تخروج الـأمور عـن السـيطرة. إنـه لا يزال خائفًا من فقداني، خائف من أن أخرج يومًا ما وأقول له: "أنا لم أعد أحبك".

أرى تلـك النظـرة في عينيـه، النظـرة المتـوترة، والطريقـة التـي تجعلهـما ينخفضـان إلى الأسـفل في استسـلام. هـل أحتقـر تلـك النظـرة أم أنهـا تصـيبني بالإحباط؟ لا؛ لكن أحيانًا أشعر بالطغيـان، نعـم، تلـك هـي الكلمـة الصـحيحة، طغيان قوتي، قدرتي على الإيلام".

كان هناك حادث وحيد بدا أنه يؤثر على سلام جَـدَّتي، أم يمكننـي أن أقـول شخص واحد؛ أُمِّي.

"8 يوليو 1961،

أجدها أحيانًا طفلة غريبة جدًّا وأشعر بالإحباط لأنني لا أتمكن مـن تجـاوز هـذا الشعور بالغرابة. أشعر بأنني دائمًا ما أجرحها بشكل ما. أجدها تنظر إليَّ بتلك العينـين

الكبيرتين البنيتين الممتلئتين بالاشتياق وأعرف بأن الأمر سيتطلب أكثر من مجـرد احتضانها لأجعلها تصدق أنني بجانبها. أشعر بهـا تـؤنبني. إنهـا تراقبنـي، لـيس باشتباه لأنها ليست طفلة ذكية؛ ولكن بألم كأنني في بعض الأوقات أفعل بعـض الأشياء المريعة تجاهها، أو أحبطها بطريقـة غـير قابلـة للإصـلاح. "جـيم" سـهل: عناق، وقبلة، وأمرر أصابعي عبر شعره، لكن ليس "فـرانسي". "فـرانسي" تخـاف منِّي.

منذ عدة أيام، بدأ "زنبور" ببناء عش له على المصباح المجاور لها. مكان غريب؛ لكنه كان يعمل بطريقة منظمة وهو يطن، بدا عليه الابتهاج بين الحـين والآخـر. لا تتمكن "فرانسي" من النوم دون أن يكون مصباحها مُضاءً؛ إنها عادة اعتادت عليهـا منذ صغرها والتي لم نتمكن من أن نتجاوزها لسـوء الحـظ. لكنهـا الآن لا تريـد أن تضيء مصباحها خوفًا من أن يحترق "الزنبور"، لذا فقد بكت، وبكـت، وأصرت عـلى أن تنام بجانبنا. حاولت أن أشرح لها أن "الزنبور" قد يبقى في مكانه لوقـت طويـل، ولهذا لا يمكن لها أن تنام بجانبنا إلى الأبد. كان "ليونارد" متعاطفًـا في البدايـة؛ لكـن حتى هو تجهم في الليلة الثانية عندما أتت مُجدَّدًا إلى غرفتنا.

اصطحبتها إلى غرفتها، وأنا ممسكة بيدها، وحاولت أن أريها بأنه لـيس هنـاك مـا يخيف فيها. كان الدولاب وصندوق الأدراج مغلقين، ودخل الغرفـة بعـض النـور مـن خارجها، لذا فلم تكن مظلمة بالكامل. جلست عـلى حافـة السريـر تـدير أصـابعها في دوائر، بدا على فمها الصغير تعبير غضب شديد ورفضت تمامًا أن تخلـد للنـوم. قلـت لها في إصرار: "لا يمكننا أن نستمر هكذا".

كنـت متعبـة وبإمكـاني أن أسـمع نـبرة حـدة الغضـب في صـوتي: "سأشـعل الضوء".

مددت يدي لأصل إلى الحبل؛ ولكن كانت يـدها أسرع وأمسـكت برسـغي. بدأت تبكي وحاولـت أن تحـول بينـي وبـين المصـباح، فقلـت: "إنـه "زنبـور" يـا "فرانسي"، مجرد "زنبور". سيلسعك. لماذا تريدين مساعدته؟".

تنفست بعمق وأنا حاول أن أحافظ على هـدوئي، وأخرجـت ملابـس النـوم ونظمت ملاءة السرير من أجلها كي أوضح لها موقفي؛ لكنها ظلت على هيئتها الدفاعية. دفعت يدي بعيدًا وبعـثرت البطانيـة مُجـدَّدًا وفجـأة وجـدت نـفسي أصرخ: "فرانسي، أرجوك!".

مددت يدي لزر المصباح وأضـأته. نظـرت إلي "فـرانسي" برعـب شـديد، ثـم بكت بشدة وجرت إلى خارج الغرفة.

بعد ذلك بقليل أتى "ليونارد" وسألني لماذا قتلت "الزنبـور"، فصرخـت فيـه قائلة: "لم أقتله. أنظر، إنه لا يزال حيًّا".

كان ذلك حقيقيًّا، كان "الزنبور" لا يـزال عـلى المصـباح دون أن يبـدو عليـه التأثر بكل ما حدث على الإطلاق. لكن "فرانسي" لم تهتم بكل هذا. ظلـت تـبكي حتى نامت على السرير بين ذراعي "ليونارد"، كـان يمسح عـلى شـعرها ويقبـل جبهتها ويتمتم بأشياء مختلفة لها. رأيتهـا وهـي تسـترخي، رأيتهـا تـترك نفسـها تستريح، أن تُحَب وأدركت أنها ليست هكذا معي أبدًا. لم تتركني قط أحبها".

(8)

خبر وفاة جَدَّتي لم يصل إلى الأخبار العالمية، فبعد كل شيء، لم تكن جَـدَّتي تعـيش في مزرعة، ولم يشتبه بأن مقتلها له دوافع سياسية. لم تهـرول فـرق الأخبـار إلى مسرح الجريمة ولم تنتظر لتجري مقابلات مع أُمِّي. لم يكن الأمر يهمهم لأنه لم يتضمن جنود قدامى ولم يقدم مادة صحفية تشير إلى قوات شرطة دون المستوى.

وصفت الشرطة الأمر بأنها قضية محسومة. كان من الواضح أنهـا حالـة سرقـة أخذت منحى خاطئًا. اقتحم أحدهم منزل جَدَّتي وهـي اسـتيقظت ورأتـه في غرفـة نومها، ارتعب لرؤيتها فضربها، لم يقصد أن يقتلها؛ لم يكن يعرف أنها في المنزل. قُبض عليه بعد يوم واحد. كانت الأغراض المسروقة لا تزال معه. في المحكمة، حُكم عليـه بأنه مذنب وصدر الحكم بالسجن مدى الحياة. صرَّح المتحدث باسم الشرطة خارج قاعة المحكمة بأنه سعيد بأن العدالة قد تحققت. ظن الناس أن "زيمبـابوي" دولـة دون قانون، وأنه من الممكن أن يفلـت الشـخص بجريمـة قتـل؛ لكـنهم مخطـؤون، فالسرعة التي تعاملت بها الشرطة مع هذا الأمر خير دليل على ذلك.

ضُربت جَدَّتي خمس عشرة مرَّة على رأسها بكعـب بندقيـة "إيـه كي-47"، لم يتبقَ أي شيء من وجهها. قاتلها كان عاطلًا عن العمل؛ كان هكذا لعدة شـهور. كان يبيع التحـف في السـوق خـارج دار البلديـة إلى أن توقَّـف السـائحون عـن المجـيء بسـبب العنـف الـذي رأوه في التليفزيـون في "بريطانيـا" و"الولايـات المتحدة" و"أوروبا" وأي مكان آخر. كان العنف الـذي رأوه مـن الحكومـة ضـد المزارعين البيض. ربما توقفوا عن المجيء لأنهم ظنـوا أن البـيض فقـط هـم مـن

كانوا يُستَهدفون. العديد من السود أيضًا ماتوا؛ لكن أخبار موتهم لم تصل أبدًا إلى مكاتب الأخبار العالمية.

في البداية، لم أرغب في معرفة اسم الرجل الذي قتل جَدَّتي. لم أرد أن أعرف أي شيء عنه لأنني لم أرد أن أشعر بالأسف تجاهه. لم أرد أن أتخيل بماذا شعر، ما إن كان نادمًا على ما فعل، وما إن كان قلقًا حول من سيطعم أبناءه أثناء وجوده في السجن. وضعت الصحيفة المحلية صورة له في الصفحة الأولى. كانت يداه مكبلتين ويقوده ضابطان إلى الزنازين. كان يرتدي بنطلون و"تي شيرت" عليه صورة "ميكي ماوس" على الصدر. كان من بين الأغراض التي سرقها وعاء سمن، وكيس سكر، وعلبة مربى "كاشيل فالي" بالخوخ. نسيت الشرطة بأن تُعيد تلك الأغراض. لم يعلق أي أحد حول من أين استطاع هذا الرجل أن يحصل على البندقية ولم أفهم أبدًا لماذا اضطر أن يضرب جَدَّتي خمس عشرة مرَّة.

في الواقع، لم تقم الشرطة بجهد كبير كي تقبض عليه؛ إنه هو من سلم نفسه إليهم بعد وفاة جَدَّتي بيوم. لم يصدقوه في البداية في قسم الشرطة، وضحكوا عليه وعاملوه كمجنون، فأخبرهم عن الندبة، الندبة التي في ذراع جَدَّتي: بقعة براد الشاي. قال: "إنه أنا، أنا آسف".

دُفنت جَدَّتي في جنازة بسيطة حضرها فقط أفراد العائلة. على مر السنوات، العديد من أصدقائها ماتوا أو انتقلوا للعيش في مكان آخر. ماتت السيدة "فان هيردين" بسبب السرطان، انتقلت السيدة "كويتزي" إلى نيوزيلاندة، والسيدة "باتيرسون" إلى "إنجلترا"، والسيدة "بينسون" إلى دار للمسنين. كان السيد "باتل" لا يزال موجودًا وقد أرسل زهورًا؛ لكنه لم يحضر الجنازة. رأيته في المحل في اليوم السابق. على الرغم من أنه بدا لي دائمًا مسنًّا؛ لكنني لاحظت تعبًا ما فيه الآن والذي كان مختلفًا. كان يميل بكل ثقله على المنضدة، وشريط القياس لا يزال معلقًا على رقبته كما كان لسنوات.

قال وهو يهزُّ إصبعه مشيرًا إليَّ:

- يومًا ما، سينادينا الـلـه جميعًا، وعليك أن تكوني مسـتعدة، أتفهمـين؟ لأن الـلـه سينادينا جميعًا.

لم أقل شيئًا في استياء من نبرة اللوم التي حملها صـوته، كأنما كانـت جَـدَّتي جاهزة وفي انتظار الرجل الذي قتلها.

قال وهو يشير إلى الجنازة:

- لا أعتقد أنني سأذهب، كلَّا، لن أذهب.

التفت لأغادر المحل وأنا أشعر بالدموع على وشك أن تنهمر؛ ولكنـه نـاداني مرَّة أخرى. تمكنت من أن أرى كيف جاهـد لـئلا ينهـار في تلـك اللحظـة حيـث اختنق صوته وهو يتكلم:

- لقد عرفت جدتك منذ مدة طويلة للغاية. أتعرفين؟

الدموع في عينيه جعلتهما لامعتين بشكل غريب وبدا أنه يحاول ألا يطـرف عينيه وهو يتكلم:

- كنت أعرفها قبل أن تتزوج بوقت طويل.

قال تلك الكلمات وكأنه يبصقها من فمه حتى أنني ظننت أنـه عـلى وشـك أن يذبحني وهو يتحدث:

- إنني أعرفها، إنني أعرفها.

حملقت فيه دون أن أعرف ما أقول ولا أفهم ما يقوله:

- لم تودعني قط، جدتك.

مسح دموعه من على خديه بضربة خرقاء مثل شخص ما يغرق، وقال:

- كانت تقول دائمًا أراك قريبًا. أترين؟ هذا هو ما سأتذكره. أراك قريبًا فقط.

حاولنـا أن نختـار أناشـيد مبهجـة لجنـازة جَـدَّتي: "كـل الأشـياء لامعـة" و"جميلة" و"اجعلني مسارًا لسلامك". كـما غنينـا أيضًـا "أهـب نـفسي لـك يـا بلدي"، وهو نشيد أخبرت جَدَّتي أُمِّي ذات مرَّة أنها تريده أن يُنشد في جنازتها.

بدا هذا الأمر في غير مكانه في ظل تلك الظروف. دُفنت قُبَّعة "جيريمي" مع جَدَّتي. حملتها أُمِّي طوال وقت الصلاة ثم وضعتها فوق التابوت. كان هناك بعض أغصان الزهور، وواحد آخر كبير ممتلئ بزهور بيضاء معلقًا بالخارج. كان هناك كارت ورسالة دون اسم. كانت الرسالة تقول: "ولكن صيفك ذا لن يغيب". إنه "مايلز"، إنه "مايلز" ولا أحد غيره.

(9)

- ما أكثر ما تريدينه في حياتك؟

كنت أمشي مع "مارك" في طريق "توتنهام"، كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل. أعتقد أنه كان ثاني لقاءاتنا أو الثالث. قلت:

- أريد أن أكون سعيدة.

شعرت بأن الجملة بدت فارغة من المعنى، أو مبتذلة، لدرجة أنني ضحكت وحاولت أن أسخر منها قائلة:

- مرحى، سعيدة.

غنيتها كأنني مريضة نفسية أُطلق سراحها لتوِّها. فقال في إصرار وجدِّية أكثر:

- حقًّا؟

- أنا جادَّة، إن الأمر يبدو فقط، أنت تعرف، كثير عليَّ.

لوحت بيدي في الهواء لأوحي بأنني ليس لديَّ كلمات لكي أصف شعوري.

- ما الذي يجعلك سعيدة؟

توقفنا عن المشي وقد وقفت للحظة مستندة على كابينة تليفون. أخذتُ نَفَسًا عميقًا كأنني سأقول شيئًا عميقًا وذا معنى، ثم قلت:

- آيس كريم بالشوكولاتة كل يوم، في الإفطار والغداء والعشاء.

ضحكت للغاية عند رؤية وجه "مارك" المتجهم أمام تصرفي الأبله. قال لي عندما وصلت لباب منزلي:

- أريد أن أعرفك يا "إيلي".

كنت متعبة؛ لكنني ابتسمت. كان شيئًا رائعًا ورومانسيًّا منه وعند تلك المرحلة لم أظن أن الأمر سيكون مستحيلًا.

لكن ماذا يعني أن تعرف شخصًا ما. أعني أن نعرفهم حقًّا؟ تلقيت إيميلًا ذات يوم، إحدى تلك الرسائل التي يجب عليك أن تمررها لعشرة أشخاص آخرين خلال نصف ساعة لو أنك تريد الحظ الحسن خلال ثلاثة أيام. عشرة أشياء لم تكن تعرفها عنِّي. أرسلته "ماندي" إليَّ وعليَّ أن أكتب العشرة أشياء الخاصة بي ثم أرسلها لها ولتسعة أشخاص آخرين. قالت إن لونها المفضل هو الأحمر. قلت لها في إيميل آخر إنها كاذبة، إنها لا ترتدي الأحمر أبدًا. إنها واحدة من الأشياء التي يقولها الناس لبعضهم البعض كي يبدو أنهم مثيرين للانتباه. أليست المرأة التي ترتدي الأحمر جريئة وشجاعة وطموحة؟ أليس لهذا السبب ترتدي النساء المديرات حمالات صدر حمراء؟ إنها تعطيهن ثقة، هكذا تقول مجلات علم النفس. أو حمالات الصدر السوداء، ليس البيضاء، وبالطبع ليس ذوات لون البشرة نفسه. من يريد أن يتلاشى داخل نفسه؟

أفكِّر في جميع الأشياء التي لم يعرفها "مارك" عنِّي. لم أكن أحب أثاث منزله المعدني على سبيل المثال، باستثناء، ربما، الغلاية ومحمصة الخبز. لم أحب روايات "توم كلانسي" و"جون جريشام". أعتقد أن كان بإمكانه أن يعرف ذلك بنفسه نظرًا لأنني لم أكن أمتلك أيًّا من رواياتهما وأنه لم يرني أقرأهم قط. لكن هل لاحظ ذلك؟ لو أننا كنا ذهبنا لواحد من تلك البرامج التليفزيونية التي يسألون فيها الأزواج عن بعضهم البعض، كم عدد النقاط التي كنا سنسجلها؟ إن "توم كلانسي" من الأمور السهلة؛ لكن ماذا عن الأشياء الأخرى؟ درجة الروج؟ مقاس الخصر؟ الشامبو المفضل؟ هل قام أحد من قبل بكتابة كل تلك الأشياء وقال هذا هو أنا، ستجد كل شيء تحتاج إلى أن تعرفه عني هنا.

قال لي "مارك" بعد مرور فترة قصيرة من سؤاله عمَّا يسعدني:

- أخبريني عن حياتك.

أجبته وأنا أنظر في رعب ساخر:

- من أين أبدأ؟

- من البداية.

تجهَّمت، وقلت:

- إنه طلب طويل بعض الشيء. انظر، اسألني بعض الأسئلة. اسألني عن أي شيء. فقط قل ما تفكر فيه وأنا سأجيبك.

أعتقد أنه كان من المنطقي أن أبدأ من البداية لو أنني أريد أن أصل لعمق هذا اللغز. عمق هذا اللغز! كم بدا ذلك كجملة من "الخمسة المشهورون"! كما يصيح "ديك" في عزم: "يجب علينا أن نصل لعمق هذا اللغز!".

أو بعزم. عزم شديد. كل من في "الخمسة المشهورون" لديهم عزم شديد، وكطالبة درست الأدب ينبغي عليَّ أن أعرف أنه لا توجد بدايات. في بدايتي توجد النهاية. من قال ذلك؟ أنا البداية والنهاية.

أقدم مذكرات جَدَّتي كانت بتاريخ 1947. وجدتها في أسفل الصندوق؛ كان غلافها المُقوَّى الأزرق مغبراً؛ لكن الحروف على الظهر لم تتلاشَ مقارنة بالباقين، وكانت الصفحات مستوية: أكثر شيء نحبه هو أكثر شيء نستخدمه.

"9 يناير 1947،

لقد جدَّد إيماني بالحياة. بعد تسعة أيام فقط من العام الجديد، ولا أكاد أتخيل الحياة من دونه. منذ أن عاد للعمل أراه كل يوم؛ لكنني أحاول ألا أتعامل معه بمودة زائدة عن الحد كي لا تظهر مشاعري، على الرغم من أنني أشعر بأنها واضحة تمامًا على وجهي".

"12 يناير 1947،

ذلك المساء ذهبنا للتمشية في الحديقة. اشترى آيس كريم وجلسنا على العشب وأكلناه معًا. لم نتمكن من أن نمسك بأيدي بعضنا البعض أو نترك نظراتنا تفضحنا؛ لكن تناول الآيس كريم، مشاركته كانت هي قبلتنا الخفية. يذكرني هذا بوقت قبل أن أقابل "تيموثي" مباشرة - كم يبدو ذلك الآن بعيدًا جدًّا! كنت قد أنهيت المدرسة لتوِّي ولم أكن قد بدأت العمل في "رامبولت". قررت أنا و"ماجوري" أن نذهب إلى "مارجيت" ليوم. كنا في الربيع وقتها؛ أدفأ من أن نظل مرتدين معاطفنا، لذا فقد خلعناهما وحملناهما على ذراع واحدة. تلاشى الدفء مع الشمس وكنا سعيدين لأنهم معنا في الليل. اضطررنا إلى أن نجري كي نلحق بالقطار حتى نعود للمنزل قبل انقطاع الكهرباء والغارات الجوية. تشاركنا في كيس من البطاطس الشيبسي في طريق العودة للمنزل. لم يكن معنا نقودًا تكفي كي نشتري كيسًا لكل منا؛ لكن كان هناك متعة مباركة في اقتصادنا، كأنما لن يكون مذاقهما جيدًا هكذا لو أن بإمكاننا أن نشتري اثنين، أم أن سبب ذلك هو تأثير تهديد الغارات الجوية؟ ربما كان هذا هو مصدر إثارتنا".

"15 يناير 1947،

قال إنه سيأتي اليوم؛ لكنه تأخر في النادي. اتصل من هناك ليخبرني بأنه سيتناول العشاء مع أصدقائه. قال إنه يفضل أن يكون معي؛ لكنها ستكون هناك.

أنا مُحبطة للغاية. كنت أتطلع لرؤيته طوال اليوم. سيسافر غدًا لمدة ثلاثة أيام. كيف لي أن أعيش دون رؤيته؟".

"16 يناير 1947،
يوم كامل بدونه. بقي يومان آخران".

"21 يناير 1947،
لا أعرف. أنا فعلًا لا أعرف. لم يتصل، ولم يمر بي، ومن المؤكد أنه قد عاد منذ يومين على الأقل. لا يمكنني أن أتصل به أبدًا. هذا خطأ، الأمر بكامله خطأ، ولم يكن عليَّ أن أنخرط فيه من البداية. هذا هو كل ما يمكنني أن أفكِّر فيه وأكره نفسي للموافقة على أي شيء".

"22 يناير 1947،
لقد عاد! لقد أتى مساء أمس وكنت سعيدة للغاية لدرجة أنني لم أتمكن من التظاهر بغير ذلك. كنت أجلس بجانب النافذة أدخن سيجارة وأقرأ عندما سمعت طرق على الباب. نظرت في الخارج ورأيته. توقَّف قلبي عندما سمعت السيدة "و" تخبره بأن الوقت تأخر كي يدخل. لم أعرف ما إن كنت أريده أن يرحل أم لا. أردت أن أشعر كيف سيكون الأمر وهو لا يمكنه رؤيتي والتحدث إليَّ، وأن يكون هناك حائط بيننا. جلست على السلم أشعر بالسعادة وأنا أسمعه وهو يحاول أن يلاطف السيدة "و" كي تسمح له بأن يراني؛ لكنني شعرت بقلبي يخفق عندما سمعته يقول: "حسنًا، سآتي مرَّة أخرى خلال الأسبوع عندما يسمح وقتي. أخبري "إيفي" أنني سآتي الأسبوع المقبل". كيف يمكنه أن يستسلم بهذه السهولة؟ هل هو يفكِّر في حقًّا فقط عندما يكون لديه بعض وقت الفراغ؟".

"4 أبريل 1947،

ظهر في وقت مبكر للغاية هذا الصباح، في السَّادسة! سمعت طرقة على باب غرفتي، فجذبته بسُرعة إلى الداخل عندما عرفت أنه هو وهمست قائلة: "ماذا تفعل هنا؟ ستتسبب في طردي".. "آسف. كان الباب الأمامي مفتوحًا، والخادمة في الخارج تتحدث مع أحدهم على الطريق. لم تلحظني وأنا أدخل، أعدك بذلك".

تلاشى غضببي. كنت سعيدة للغاية لرؤيته. رقدنا لبعض الوقت معًا على سريري. قال إن هذا هو الشعور الذي سيشعر به عندما يستيقظ كل صباح بجواري. قلت وندمت في اللحظة نفسها على ما قلته: "أشعر بالأسف من أجل زوجتك".

لا أريده أن يظن أنني أفكِّر في مستقبل معه. لن يمكنني أن أجبره على أن يهجرها. لم يذكر ذلك الأمر في كل الأحوال. عليَّ أن أكون قنوعة لهذه اللحظة.

لم يحظ بوقت ليرد على ما قلته بأي حال حيث كان هناك طرق على الباب وكانت السيدة "و" في الخارج تطلب الدخول. قالت من خلال فتحة المفتاح: "تفتيش الغرفة".

لكن كان لدي شعورًا بأنها تشتبه بوجوده هنا. لا أعرف كيف؛ لكن المرأة تعرف كل شيء بسرعة. اندفع "ج" خارج النافذة ووقف هناك في البلكونة الصغيرة بينما سمحت للسيدة "و" بالدخول. نظرت في أرجاء المكان، وأسفل السرير، وفتحت الدولاب بثقة جعلتني أعرف حينها أنها توقعت أن تجد شخصًا ما. "كل شيء في مكانه".

كان هذا هو ما قالته فقط قبل أن تلقي نظرة أخرى سريعة في المكان وتخرج مسرعة من الباب. قال "ج" وهو يعود إلى الداخل: "اذهبي أنت، سأرحل عندما أتأكد من رحيل الجميع. لا تقلقي".

قبَّلني ثم نزلت للأسفل لتناول الإفطار. طوال اليوم كنت سعيدة، وعلَّق الجميع في العمل على هذا. ظللت أفكِّر، هذا هو ما نشعر به عند الاستيقاظ بجانب شخص ما، هذا هو الشعور".

(10)

ماذا أعرف عنها؟ عندما أتت جَدَّتي إلى "بولاوايو" لأوَّل مرَّة، نزلت في منزل بـه غرف للإيجار أدارته أرملة يهودية تـدعى السـيدة "ويزمـان". كـان مصـدر دخلهـا الوحيد، وكانت إدارتها له صارمة. على جميع البنات أن تدخل المنـزل في السـابعة طـوال أيـام الأسـبوع وفي التاسـعة والنصـف في عُطـلات نهايـة الأسـبوع. تأكـدت السيدة "ويزمان" من وجودهن بغرفهن عن طريق الطـرق بعكازهـا عـلى أبـواب الغرف وهي تمر في الممر، على كل نزيلة أن تقول اسـمها. لـو أن إحـداهن أرادت أن تتأخر بعد موعد حظـر التجـوال، تقـوم السـيدة "ويزمـان" بالاسـتماع لقصـتها بعناية. كانت تتصل بدار السينما، وتسأل عن موعد انتهاء فيلم المساء أو مضـيف أو مضيفة الحفلة التي دُعيت لها إحدانا لتتمكن مـن الاتصـال بهـما في أي وقـت وكل التفاصيل التـي تحتـاج إليهـا كي تعـرف كـل شيء: مـن سـيكون هنـاك، مـن سيصاحبها، ومـا نـوع الموسـيقى التـي مـن المـرجح أن تُعـزف في الحفلـة. كانـت السيدة "ويزمان" تظن أن موسيقى الجاز لديها تأثير مفسد على عقول الشباب.

كان المنزل يقع في شـارع "بـورو"، عـلى بعـد شـارعين مـن شركـة "سـتوتون وجيمس". كانت تمشية قصيرة من المنزل للعمل في الصـباح والعـودة إلى المنـزل في المساء. أعدت جَدَّتي ساندويتشات لغدائها، وكانت تأكلها في الحديقة، حيـث تجلس هناك في وقت الغداء مع باقي فتيات المكتب.

بالتدريج اكتسبت بعض الأصدقاء، وعرض عليها بعض الشباب الخروج، وذهبت للسينما، وحفلات الشاي في "ذا جراند"، ونزهات، حتى إنها ذهبت لحفلة ذات مرَّة في مبنى البلدية. على الرغم من أن جَدَّتي كانت أرملة؛ لكنها كانت في التاسعة عشرة من عُمرها فقط. امتدت حياتها أمامها وقد اكتشفت حريتها الجديدة.

أخبرتني بكل هذا مرَّات عديدة: السيدة "ويزمان" مرتدية ملابس الأرامل السوداء وهي تضرب بعكازها على باب جَدَّتي؛ النزهات في الحديقة في الأيام التي يكون العُشب فيها قصيرًا والزهور مزدهرة ولم يكن النهر مقززًا، والسارقون لم يكونوا مختبئين بالجوار. الحفلات الراقصة في "ذا جراند" قبل أن يصبح مهجورًا، قبل أن يهدموه تقريبًا، قبل أن يحولوه لما سيكون أوَّل سوق تجاري في "بولاوايو" مثل الأسواق التجارية التي تذهب إليها الفتيات في "بيفرلي هيلز 90210"، قبل أن تنفد نقود المستثمرين وحماسهم. قبل وقبل.. ومع ذلك، كان كله حقيقيًّا. حقيقيًّا بالفعل؟ عشرة أشياء لم أكن أعرفها عن جَدَّتي، أولها، أنها كانت في علاقة غرامية.

"11 أبريل 1947،

ذهبت لمنزله بالأمس. إنه في الضواحي، منزل جميل بُني منذ خمسين عامًا تقريبًا. لديه أجمل حديقة رأيتها في حياتي، سواء في إنجلترا أو هنا في المستعمرة. لديه كثير من الزهور، وأخبرني أنه زرع حتى البازلاء الحلوة. قال لي إن أي شيء يمكنه أن ينمو في أي مكان في ظل الظروف المناسبة، كما يقول إنه تمكن أيضًا من زراعة النرجس البري.

قبل أن يعود إلى الداخل، قطف من أجلي بعض "الجهنمية". قال وهو يقلبه بين أصابعه: "إنه شائع هنا مثل الطين. شائع للغاية ومع ذلك جماله يفاجئ المرء. كم تولد كثير

من الزهور وتزدهـر دون أن يراهـا أحـد وتضـيع حلاوتهـا في هـواء الصـحراء".. "سمعتك تقول ذلك من قبل".. "ربما، إنها واحدة من القصـائد المفضـلة عنـدي. "توماس جراي". رثاء كُتب في فناء كنيسة ريفية".

قابلت مساعده الأول، خادمه، "سامسون". إنه رجل أفريقي كبير، أطول من إطار الباب، محارب "نديبيلي" حقيقي. كما أنه ممتلئ الجسد.. ليس رجل تود أن تتشـاجر معه. يقول "ج" إنه ذهب إلى "بورما" مع بنادق الملـك الأفريقيـة. يمكننـي أن أتخيلـه مخيفًا في زيه العسكري.

جلسـنا في البلكونـة وأحضر "سامسـون" صـينية شـاي، ومعهـا ألـذ كيكـة شوكولاتة تذوقتها في حياتي، ناعمة وداكنة ورطبة. قال "ج" بفخر وهو يعطينـي قطعة سميكة على طبق: "سامسون هو من أعدها، إنه بارع في أمور المطبخ".

أخذني في جولة في المنزل. لم يكن كبيرًا للغاية من الداخل: غرفتا نوم، وغرفة جلوس، ومطبخ، وحمَّام، ومكتبة. في المكتبة، أراني مجموعـة كتبـه وهـو يخـبرني عن كتبه المفضلة ويخبرني العديد من مواضيعها.. "لا يوجـد كثـير مـن روايـات الجريمة هنا للأسف؛ لكن بإمكانك أن ترى أي شيء آخر يعجبك".

قلت في دعابة وأنا أمرر عينيَّ على الكتب في الرَّفِّ أمـامي: "مـاذا لـديك في منزلك الأساسي لو أن هذا هو منزلك الثاني؟".

أجاب باقتضاب: "لا أحتفظ بكتبي هناك، إن كتبي خاصة. هذا المنزل خاص بي. لا تأتي زوجتي هنا تقريبًا. إنها لا تسافر معي في الأغلب".

ألاحظ حزنًا في كلماته أم أنها مرارة؟

"متى تجد الوقت للقراءة؟ تبدو دائمًا بأنك تفعل شيئًا ما".. "أحب القراءة".

كان دفاعيًّا بعض الشيء في رده في البداية ثم عاد لطيفًا، وأكمل: "أردت أن أقرأ الكلاسيكيات في "أوكسفورد"؛ لكن لم يسمح أبي بذلك. اضطررت لأن أقوم بعمل شيء مفيد، لذا ذهبت لدراسة الهندسة في "كامبريدج". الشعر، الشعر هو المفضل لديَّ".

أخذ كتابًا وأعطاه لي. قصائد مجمعة.

"خذي، اقرأي هذا".

كان أمر وليس مجرد اقتراح. لم أفتحه.

أعلن "سامسون" أن الغداء جاهز، حيث أكلنا في غرفة الطعام: "باتيه" الكبد، لحم مشوي، وحلوى "بودينج يوركشاير"، وبازلاء، وجزر، وبطاطس مشوية (أخبراني فيما بعد بأن آخر ثلاثة أشياء كانوا من الحديقة) وكيك الشوكولاتة. كان الطعام لذيذًا. قطع "سامسون" اللحم لشرائح رفيعة وقدَّم الخضراوات بملعقة فضية. ظل واضعًا منشفة شاي على كتفه خلال تقديمه الطعام. اختفى ونحن نأكل ثم عاد وأخذ الأطباق وقدَّم الطبق التالي.

"هل يفعل هذا طوال الوقت؟ أم عندما يكون لديك صحبة فقط؟".

قال "ج" في مفاجأة: "طوال الوقت".

مما جعلني أبتسم. تساءلت ما إن كان "ج" قد أعد ساندويتش في حياته من قبل.

بعد الظهر، جلسنا في الخارج وقرأ "ج" شعرًا بصوت مرتفع. كان صوته قويًّا وواضحًا، جريئًا تقريبًا وسط صمت الظهيرة:

"كنت هنا من قبل لكن دون أن أعرف متى أو كيف

أعرف العشب خلف الباب

الرائحة الثاقبة الجميلة

الصور المتنهدة

الأضواء على الشاطئ".

سألني بينما تنتهي فترة الظهيرة: "هل ستبقين؟"

كنا نشرب نبيذًا في البلكونة بعد الشاي. قلت: "السيدة ويزمان".

هزَّ كتفيه وقال: "يمكن التعامل معها. ماذا عنك؟".

قلت بينما كانت معدتي متقلبة: "لست متأكدة".. "سأجعل "سامسون" يرتب الغرفة الإضافية. يمكنك البقاء، يمكننا تناول العشاء معًا، يمكنك أن تقرئي أو تفعلي ما يحلو لك. وتذهبي للنوم وقتما تحبين".

خفق قلبي قليلًا تجاه عرضه الذي بدا بريئًا كي أبقى. قلت في جرأة بعض الشيء: "حسنًا، حسنًا، سأبقى".

هكذا بقيت. أرسلنا مع "سامسون" رسالة إلى السيدة "ويزمان" تخبرها بأنني مرضت بشكل مفاجئ وسأقضي الليلة في منزل عمي وزوجته. تناولنا ما سمَّيناه "عشاءً خفيفًا": شرائح من اللحم البارد متبقية من الغداء، وبطاطس صغيرة، وأفوكادو، وبيض مسلوق وسلطة. كما كان هناك "بودنج" الأرز للتحلية. أحضر "سامسون" القهوة إلى مكتب "ج" بعدها وجلسنا نشاهد الخرائط لساعة تقريبًا.

قال "ج" وهو يشعل سيجارة بيد وبالأخرى يحافظ على الخريطة مفتوحة: "أرغب في الذهاب إلى غرب أفريقيا".

نظرت لمساحة أفريقيا الشاسعة، ممتلئة بأنهار كالعروق وملطخة بالغابات وهو يكمل: "إننا متحضرون للغاية هنا، بالمقارنة مع أماكن أخرى في القارة، إننا نسبقهم بسنوات، بل بعقود".

لاحظت نبرة إحباط في صوته. غامرت بسؤاله: "أليس ذلك شيئًا جيدًا؟".. "أحيانًا".

ظل منكبًا على الخريطة. لمعت سيجارته باللون البرتقالي وتكونت دائرة صغيرة من الرماد عند نهايتها وقال وهو يلتفت إليَّ: "في أوقات أخرى، أعتقد أنه من المثير الذهاب لأماكن لم تُكتشف بعد، حيث لا توجد صناديق بريد ومحطات إطفاء وصفوف صغيرة منمقة من المنازل في الضواحي. أتفهمين ما أعنيه؟".

أومأت له، لكنني قلت: "لا أعتقد أنني مِمَّن يصلُحون للعيش في الأكواخ الطينية".. "لا؟".

نظر إليَّ وابتسم ثم عاد لينظر إلى الخريطة مُجدَّدًا، وقال: "أنا أرغب فقط في الرحيل، الرحيل فقط".

كنت متفاجئة، بسبب حبه الشديد للخرائط، ظننت أنه شخص يود الحصول على منافع النادي، وصناديق البريد، ومحطات الإطفاء.

قال وهو يأخذ يدي بين يديه: "يومًا ما".

ظننت حينها أن ذلك "اليوم" كان يتضمنني وشعرت بقشعريرة تسري في عمودي الفقري. يومًا ما.

لم أنم في غرفة الضيوف.

أوصلني "ج" للمنزل اليوم. دخل وتحدث مع السيدة "ويزمان". أثار أعصابي بسهولة كذبه على السيدة "ويزمان" حول مرضي، كيف لم يتمكن هو وزوجته من أن يتركاني أعود في تلك الحالة. بعد أن رحل، التفتُّ كي أغادر غرفة الجلوس وأذهب للأعلى، لكنها نادتني: "إيفيلين".

التفت ونظرت إليها: "أجل يا سيدة ويزمان".. "أريد أن أحكي لك قصة، اجلسي".

كانت الغرفة حارة لأنها لم تفتح النوافذ؛ لكن الستائر كانت مفتوحة دخلت أشعَّة الشمس الحارقة عبر الزجاج، وشكلت مربعات صغيرة من الضوء على السجادة. جلست على الكرسي ذي المسندين بالقرب من الباب، على الحافة الدافئة، مستعدة للاستماع.

نهضت ووقفت أمام رفِّ الموقد. أشارت لصورة بجانب مرفقها، وقالت: "أتـرين هذا الرجل؟".. "نعم".. "هذا زوجي".

ثم فتحت صندوقًا من خشب الماهوجني ونظرت بداخله. يداها الناعمتـان الرقيقتان قلبتا شيئًا ما. كانت صورة أخرى. رجـل آخـر، هـذا الرجـل أكـبر سـنًّا وأكثر أناقة. كان لديه شارب صغير ويرتدي زي طيار، قالت: "هذا الرجل حطّـم قلبي".

بـرودة كلماتهـا فاجـأتني، ثـم أكملـت: "الفتيـات لا يتـزوجن الرجـال الـذين يحطمون قلوبهن. الفتيات يتزوجون من يهتمـون بهـن. الرجـال الـذين يحطمـون قلوبهن يأخذون معهم كل القطع".

ألقت بيديها لأعلى في ضعف، واستطردت: "لا شيء يبقى للرجل اللطيف".

لم أقل شيئًا لأنني لم أعرف ما أقول.

"أتظنين أنني لم أكن شابة ذات يوم يا "إيفيلين"؟ أتظنين أننـي لا أعـرف كيـف هو الحب؟".

قلت وأنا أنهض: "شكرًا يا سيدة "ويزمان"، شكرًا؛ لكنني لست واثقة مما تلمحـين إليه".

اقتربت من الباب، لكنها أكملت كلامها كأنني لم أتحـرك عـلى الإطـلاق: "لقـد أتـت زوجته لتراني".

توقفت.

"قالت لي: لا تأخذي زوجي منِّي. لـدينا أطفـال، يمكننـا أن نتشـارك فيـه. لا تأخذيه".

ضحكت بطريقة ساخرة، وأكملت: "ثم أتى الكاهن ليراني. يقول لي عليك أن تتركي هذا الرجل لحاله. إنه متزوج ولديه أطفال. لكنني أحبه وقـد أخـبرني أنـه سيترك زوجته. ذات يوم، اختفى. تركوا البلاد، ذهبوا لجنوب أفريقيا".

لوَّحت بإصبعها في الهواء، وقالت: "لم يقل لي كلمة واحدة. ولا واحدة".

توقفت للحظة ثم أكملت: "ذلك اليوم تحطم قلبـي. ذلـك اليـوم لم أتمكـن من النهوض عن السرير. أبدًا. لم يعد بإمكاني التحرك".

مرَّت فترة صمت أخرى فتوجهت للباب مجددًا، هذه المرَّة تركتني أذهب، وقالت: "تذكري فقط: إنهم يأخذون معهم كل الأجزاء يا "إيفي"، كل الأجزاء".

بدت غرفتي حزينة وبائسة. التوقع الرائع الذي توقعته في اليوم السابق كان لا يزال معلقًا في الهواء عند دخولي؛ لكنه تلاشى في الضوء الفارغ ليوم أحد هادئ. فتحت النافذة وتمكنت من سماع صوت ضحكات على مسافة منِّي محمولة على الهواء النقي لشارع "بورو". نظرت في أرجاء الغرفة؛ كانت ملاءة السرير مستقيمة؛ حتى الكتاب الموضوع على الطاولة المجاورة لسريري كان موضوعًا باستقامة. غرقت ببطء على حافة السرير، سقطت حقيبتي على الأرض. ماذا أفعل الآن؟

استيقظت ذلك الصباح وذهبت إليه. وجدت "ج" جالسًا في البلكونة يشرب الشاي. كان يجلس مرتديًا رداءً منزليًّا خفيفًا؛ لكنني ارتديت ملابس رسمية تمامًا قبل أن أخرج. أحضر لي "سامسون" الشاي وقد أخفض عينيه عندما قلت له: "صباح الخير" و"شكرًا". صب لي أفضل كوب شاي على الإطلاق، مضبوط تمامًا؛ لكن عندما علقت على ذلك، لم يرد. ربما اعتبرها إهانة، لا أدري. ابتسم "ج" وحده كأنني جاملته هو.

أحضر "سامسون" الجريدة لـ"ج" وبعدها بقليل أخبرنا أن الإفطار جاهز.

قال "ج": "إنه رائع، أليس كذلك؟".. "عظيم!".. "تعلم كل هذا أثناء الحرب".

رفعتُ حاجبيَّ، بينما استطرد: "من الواضح أن قائده في "بورما" هو من علمه كل هذا. أراد إفطارًا إنجليزيًّا جيدًا كل صباح على الرغم من أنهم كانوا في أعماق الأدغال، لذا فقد علمه. كما علمه أيضًا كيف يحضِّر فنجان شاي رائع".. "أين ذهبت؟".. "شباب مذهلون، الأفارقة، يقول البعض إن من الصعب تعليمهم؛ لكن هذا الرجل مثال حي على أن بإمكانهم التعلم. مثال حي".

فـيما بعـد ونحـن نأكـل سـألته: "لم تجـب عـن سـؤالي".. "حقًّـا؟ أي سـؤال تقصدين؟"..." أين ذهبت؟ ماذا فعلت أثناء الحرب؟".

ابتلع ما في فمه من طعام ببطء ثم أخذ رشفة طويلـة مـن الشـاي قبـل أن يربت على شفتيه بالمنديل بهدوء واسترخى في كرسـيه ثـم قـال: "كنـت هنـا. لم أنجح في الاختبار الطبي".. "حقًّا؟ لمـاذا؟".. "مشـكلة في القلـب، عيـب صـغير، لا شيء خطير".

ثم ضحك وأكمل: "لا يوجد سبب لأن تقلقي. إنه سبب أبعدني عن الحـرب ليس أكثر".

سمعته ينـادي مـن غرفتـه وهـو يرتـدي ملابسـه قـائلًا: "متـى تريـدين أن تعودي؟".

كنت واقفة أنظر لصـورة في غرفـة الجلـوس وخفـق قلبـي عنـدما سـمعت السؤال، ثم أكمل وهو يضبط كمي قميصـه ويحـاول ارتـداء الحـذاء في الوقـت نفسه: "لا أريدك أن تتعجلي أو أي شيء؛ لكنني فقط عـلي الخـروج فـيما بعـد. سأقابل بعض الأصدقاء في النادي. كنت أفكر أن أعيدك في التاسعة".

قلت وأنا أحاول ان أدخل بعض الحماسة في صوتي: "التاسعة إذًا".

كنت أتساءل في نفس الوقت لماذا كلف نفسه بالسؤال.

إن لديه نظامًا وأنا لست جزءًا منه. سيذهب إلى النادي، سيتصـل بزوجتـه، سيتناول الغداء مع أصدقائه. سيعود بسيارته إلى المنزل وسـيعد لـه "سامسـون" العشاء. سيشرب النبيذ ويدخن سيجارة ويقرأ بعض الشعر ثم يخلـد إلى النـوم. بإمكانه أن يضيفني أو يحذفني حسب الحاجة؛ لكننـي لسـت جـزءًا مـن ذلـك النظام".

(11)

"15 يوليو 1947،

لم أره لأسابيع. لقد عاد إلى ساليسبيري".

"20 يوليو 1947،

لقد عاد. رأيته في المكتب. ابتسم لي؛ لكنه ابتسم أيضًا لـ"ويندي جارنيت" وسألها عن ابنها الصغير. إنني أكرهه".

"22 يوليو 1947،

لقد فعلت شيئًا سخيفًا للغاية اليوم. اتصلت به على تليفون النادي. أخبرني الموظف بأنه ليس هناك وسألني ما إذا كنت أريد ترك رسالة من أجله؛ لكنني بالطبع لم أستطع. حسنًا، بالطبع أستطيع؛ لكن من الأفضل أن أكون كتومة قدر الإمكان. اتصلت مُجدَّدًا وقت الغداء وأخبروني بأنه يأكل وأيضًا سألني ما إذا كنت أريد أن أترك رسالة، ولم أفعل. حاولت مرَّتين أخريين دون جدوى. في النهاية اتصل بي وسألني ما إذا كنت قد حاولت

أن أتصل به في النادي. أجبته وأنا أحاول أن أكون متفاجئة قدر استطاعتي: "لا، كنت بالخارج طوال اليوم. كنت مشغولة".

قلت الكلمة الأخيرة بتأكيد وبدا صوتي مرتفعًا وحادًّا حينها، مما جعلني أظن أنه عرف. من المؤكد أنه سيعرف أنني أنا من اتصلت.

"3 أغسطس 1947،

اتصل بي اليوم وسألني ما إذا كنت أحب أن أنضم إليه هو وبعض أصدقائه على العشاء في منزله. شعرت بالقلق - أصدقاؤه؟ لكنه عاملني كأنني ابنة أخيه؛ وقدمني إليهم على أنني ابنة أخيه وشعرت بأنهم عاملوني بلطف كأنني طفلة طوال الليلة. لن أضع نفسي في مثل هذه التجربة المؤلمة مرَّة أخرى!

"أنيت ترومان" امرأة أمريكية؛ صوتها عالٍ، ومتهورة وفظة. على الرغم من أنها ممتلئة الجسد قليلًا، كانت ستبدو جميلة لولا فكها العريض والطريقة التي يتحرك بها فمها الذي تشبه كلب "البولدوج". لديها شعر مجعد داكن ويبدو كأنه غارق في زيت، وبشرة زيتونية تجعل أي شخص يظن أنها أوروبية إلى أن تفتح فمها. إنها تستمتع بمغازلة "ج"، فهي تلمس ذراعه، وتضع يدها على كتفه، وتخفض عينيها في إثارة وهي تتحدث معه وتستخدم صوتها البناتي أثناء ذلك.

"بول ترومان" أيضًا ذو صوت عالٍ. لقد وُلد في "روديسيا" لكنه قضى حوالي عشر سنوات في إحدى جامعات "إنجلترا" خلال الحرب. إنه ذلك النوع من الرجال الذي يريد أن يكون صديق الجميع، والذي يريد أن يعتبره الجميع شخصًا جيدًا. متملق، تلك هي الكلمة المناسبة. إنه

يعتقد أنه مرح ويقول الكثير من الدعابات ثم يضحك بصوت عالٍ. يبدو الاستياء على فم "أنيت" عندما يفعل ذلك؛ تختفي شفتاها بالكامل كي تشبه صندوق بريد منزعجًا.

كما أنه معتاد على خبط "ج" على ظهره، وهو ما ألاحظ أنه لا يريح "ج" كثيرًا. إنه لا ينتظر دعوة من أحد كي يتناول الشراب من على ترولي المشروبات بثقة شديدة ويحب أن يعطي من حوله انطباعًا بأنه ثمل، على الرغم من أنني أشك في ذلك حقًّا ، فهو يظن أن ذلك يجعله يبدو جذابًا ومثيرًا.

لمرَّة أخرى، أعد "سامسون" ألذ لحم خنزير مشوي مع صوص التفاح، والبطاطس المشوية، والجوز والفاصوليا الخضراء. كان هناك حساء عيش الغراب كبداية و"بودنج" زنجبيل على البخار بعده ثم تشكيلة رائعة من الجبن والبسكويت. لم أرَ من قبل مثل هذه التشكيلة في حياتي!

لكن ما أفسد الأمر هو الصحبة الموجودة. عند نقطة ما، كانوا يتحدثون عن الموقف المحلي. كانت هناك بعض النقاشات مؤخرًا في الصحف حول مستويات المعيشة التي تقدمها السلطات للسكان الأصليين الذين يعملون في المدينة. أغلب هؤلاء السكان الأصليين هم الرجال الذين يعيشون في فنادق الرجال في المقاطعات. ولا يُسمح لهم باصطحاب زوجاتهم ولا عائلاتهم ليقيموا معهم.

قال "بول": "حسنًا، إن الأمر يناسبهم تمامًا، فلديهم نساء في بلدهم الأصلية ونساء هنا. إن فاعلي الخير البيض هم فقط من يرون أن هذا الأمر سيئ. إن الرجل الأفريقي يحب ذلك، أليس كذلك يا "سامسون"؟".

كان "سامسون" يحمل أطباق الحساء عندما ألقي إليه هذا التعليق. لم يقل كلمة، فقط وضع طبقًا فوق طبق بعناية دون أن تلتقي عيناه بأي أحـد. قالـت "أنيت": "إن "بول" يقول إن بإمكانهم أن يفعلوها طوال اليوم".

نفخت دخانًا أزرقَ وسطنا، أبعدته عنِّي بيدي وهي تكمـل كلامهـا: "أعنـي هؤلاء الرجال، وهم لا يثيرون أي مشاكل مـع مـن يفعلونهـا - بضـعة نسـاء في الليلة تجعلهم مشغولين".

ارتفع حاجبا "ج" وبدت ابتسامة على شفتيه. لم يقل أي شيء ولم يشرب حتى من النبيذ. قال "بول" مخاطبًا "ج": "إن هؤلاء الأشخاص الـذين يريـدون تحقيـق المسـاواة بين كل الأعراق لا يفهمون الأمر جيدًا، أليس كذلك؟ إنهم يتحـدثون عـن الأمـر؛ لكـن هل يريدونه أن يتحقق فعلًا؟ هل يريدون حقًّا أطفـال أفارقـة يـذهبون إلى المـدارس مع أطفالهم؟ هل يريدون أن يتشاركوا أماكن الاغتسال، ويـأكلوا في المطـاعم نفسـها؟ بحق اللـه، هل تريدهم في النادي؟".

لم يتكلم "ج"، نظف نظارته وأشعل سيجارة. كان مبتسـمًا عـلى الـرغم مـن ذلك؛ لكنني ظننت أنه يبتسم بسبب انفجار "بول" الحماسي ولـيس لمـا يقولـه. رأيت نفسي أقول فجأة: "ما المشكلة في المساواة؟".

اتجهت عينا "ج" ناحيتي، بدا مهتمًا بما لدي لأقولـه. هـزت "أنيـت" كتفيهـا في استياء ونفخت سحابة أخـرى مـن الـدخان الأزرق. أعـاد "بـول" مـا قلتـه في حدة: "ما المشكلة؟ سأخبرك مـا المشـكلة، إنهـم ليسـوا متسـاوين. إنهـم ليسـوا مثلنا. ليس هناك...".

نقر على رأسه بقوة بإصبعه السـبابة، فقلـت محافظـة عـلى ثبـات وهـدوء صوتي: "إن هذا غير عادل، أليس كذلك؟".. "الحياة ليست عادلة. البقاء للأصلح. يجب أن نعرف ذلك، فنحن في "أفريقيا" بحق اللـه".

تحدث "ج" فجأة وقال: "إن "إيفي" لا تعرف شيئًا عن "أفريقيا". إنها تريد طرقًا مستوية وأحواض زهور وحدائق، ودون حيوانات متوحشة".

شعرت بتأنيب في كلماته، على الرغم من أنه لا يزال مبتسمًا وينظر إليَّ باهتمام، ضاقت عيناه عندما كان ينفخ دخان سيجارته. قلت: "أنا لم..".

لكنني توقفت، كانت "أنيت" تنظر إلي بفضول خبيث وقالت: "انتظري حتى تبقي هنا لعدة سنوات يا عزيزتي. ستغيرين رأيك قريبًا جدًّا".

التفتت عنِّي في ملل، لكن "ج" أكمل قائلًا: "إن "إيفي" ليست من النوع المغامر، ليست من النوع الذي يسافر دون خرائط".

حملقت فيه، كان فمه يتسع بابتسامة وأكمل: "إنها ليست مثلك يا "أنيت". أتعرفين أن "أنيت" عندما أتت هنا لم تكن حتى قد رأت خريطة لـ"أفريقيا"، لم تكن تعرف أين تقع وما شكلها؟".

ابتسمت "أنيت" بابتهاج لمدحه وأمسكت سيجارة أخرى ومالت تجاه "ج" كي يشعلها لها.

"وهل الجهل يجعلها مغامرة؟".

رمقتني "أنيت" بنظرها، ووضع "ج" يده على ساقي أسفل الطاولة، أبعدتها مما جعله يبتسم.

لم يكن هناك من يستمع إلى "بول" الذي عاد للتحدث عن موضوع السكان الأصليين.

"أعني أن الحياة ليست عادلة، إنها ليست عادلة. عليك إما أن تأكل أو تؤكل".

لم يبدُ أن تعليقه الأخير يناسب حجته؛ لكنني رأيت أن الأمر لا يستحق أن أتناقش مع شخص مثله، أكمل قائلًا: "أثناء الحرب، كانت توجد هنا عائلة لديها خمسة أبناء. أربعة منهم ذهبوا للحرب، كلهم ماتوا".

ضرب على الطاولة بكفه، مما جعل آنية الطعام الفضية تقفز، واستطرد: "أصدرت السلطات قرارًا بأن الابن الخامس عليه أن يبقى هنا حتى يحتفظ الأبوان بمن تبقى منهم.

وماذا حدث؟ أرسلوه لقاعدة "ثورنهيل" الجوية، إنه مدرب طيران ويومًا ما يحلق بالطائرة ويحدث عطل في المحرك، ويسقط ويموت".

وضع سبابته بقوة على الطاولة وقفز كل شيء مرَّة أخرى، وقال: "الحياة ليست عادلة".

أجبته: "إنها قصة حزينة؛ لكن لا تحمل أي صلة بموقف السكان الأصليين في روديسيا".

تنهد "بول" في استياء وأدار عينيه، وقال: "لا تحمل أي صلة؟ بحق الله".

قالت "أنيت" فجأة: "اصمت يا بول".

لكنها لم تقل ذلك لمصلحتي؛ لقد شعرت بالملل وأرادت أن تغير الموضوع. نهضتْ واتجهت إلى "الجراموفون"، وضعت أسطوانة جديدة دون أن تعرف ما هي. كانت أغنية "جاز"، ولم تكن مناسبة لجو العشاء. قلت وقد بدأ يظهر الغضب في صوتي: "إن "الجاز" هو موسيقى السود".

أشاحت بعينيها عنِّي ونظرت إلى "ج" وقالت وهي تعود للترابيزة: "إن ابنة أخيك جدية أكثر مما يناسب عُمرها".

قال "ج": "هذا هو بالظبط ما قلته لها".

على الرغم من أنه لم يقل لي هذا من قبل وأكمل: "عليها أن تجد شابًا لطيفًا".

ابتسمت "أنيت" في تكلف وشربت ما تبقى من شرابها، ثم لوحت بكأسها أمام وجه "ج" باستفزاز، وقالت: "أحضر لي واحدًا آخر يا عزيزي من فضلك".

قلت وأنا أدفع كرسيَّ للخلف: "اعذروني، أحتاج إلى بعض الهواء النقي".

كان هواء الليل البارد مريحًا ومرحبًا أكثر من ترابيزة العشاء المفعمة بالدخان. أصوات صراصير الحقل العالية كانت مريحة، إضافة إلى الروائح التي وصلت إليَّ والمنبعثة من أحواض الزهور. إن هذا الوقت من السنة جميل جدًّا؛ الربيع: رائحة الغبار واللقاح تغمر المكان. تمشيت

في الحديقة لبعض الوقت، متمنية ألا أعود للداخل مجددًا. أراد جزء منِّي أن أخرج من البوَّابة وأعود لمنزل السيدة "ويزمان"، بينما الجزء الآخر، الجزء العملي، فكر تفكيرًا أفضل.

تمشيت في الخلف إلى حديقة الخضراوات ولبعض الوقت تجولت بجانب كل صف من صفوف الشمندر والخس والطماطم والبصل والجزر.. والقائمة لا تنتهي. كانت تفوح من الأرض رائحة رطبة ودافئة. تخيلت كل شيء ينمو بهدوء في الظلام، تنتشر الجدور، مثل المياه المتساقطة؛ لكن أسفل الأرض، وتطفو بكسل في كل حوض.

اكتشفت حينها أن الباب الخلفي مفتوح؛ سقط الضوء متجمعًا في الممر. كان هناك شخص يجلس بالداخل: إنه "سامسون". كان يجلس على كرسي صغير يلمع أحذية "ج". لم يقل أي شيء، كل ما سمعته هو صوت احتكاك الفرشاة بالحذاء.

قلت بصوت عالٍ: "مساء الخير يا سامسون".

كنت أسمع صوت "الجراموفون" من المنزل يبدأ مجددًا: أغنية "جاز" أخرى. أجاب "سامسون": "مساء الخير يا سيدتي".

لا أظن أنه رفع عيناه فاستطردت: "ليلة جميلة".

يا له من شيء بريطاني مني أن أقوله. أتساءل كم ليلة مثل هذه عاشها "سامسون" في حياته؟ لم أعتبر عدم رده عليَّ بمثابة الإهانة. لا أظن أنه يراني كشخص مخول لأن يتحدث معه. ربما رأى أنه من الغريب أن تتحدث معه امرأة بيضاء. أدركت أنه من المرجح أن "سامسون" أحضر القهوة إلى غرفة الجلوس وإلا لم يكن ليجلس هنا يلمع الأحذية.

"هل انتهيت من عملك الليلة يا "سامسون"؟".

مرَّت لحظة صمت قصيرة، ثم قال: "معذرة يا سيدتي؟".. "هل انتهيت من عملك؟".. "أجل يا سيدتي".. "لا بد أنك قد ارتحت، انتهى يوم آخر من العمل".

قال وهو يكمل التلميع: "كلّا يا سيدتي".

لم أتمكن من التفكير في أي شيء آخر أقوله له؛ لكنه أصبح فجأة الشخص الوحيد الذي أود أن أتحدث معه.

"لقد ذهبت للحرب، أخبرني سيدك ذلك، أليس كذلك؟".

ندمت في الحال على مثل هذا السؤال. لقد انتقل الأمر من اللطف المعتاد إلى شيء آخر أكثر عملية بكثير. ماذا بإمكانه أن يقول؟ نعم، لقد قضيت وقتًا رائعًا؟ كثير من الأشخاص قُتلوا؟ إن هذا مريح أن كل ذلك انتهى وعادت الأمور لطبيعتها؟

توقف التلميع للحظات ثم عاد مرَّة أخرى وقال: "أجل يا سيدتي، لقد ذهبت إلى الحرب".

كان صوته منخفضًا وجادًّا؛ لكنه لم يكن حزينًا.

مرَّة أخرى، لم أجد شيئًا أقوله. وقفت لبعض الوقت أنظر إلى الحديقة، أنظر إلى المساحة الشاسعة للسماء والنجوم وفكرت فجأة بأنني سأموت يومًا ما ولن يهم كل ذلك. هذا المساء، وعائلة "ترومان"، و"ج"، ولحم الخنزير المشوي بصوص التفاح، و"سامسون" ينظف الأحذية في الظلام، كل ذلك لن يعني شيئًا. لن يعرف أحد بكل ذلك، لن يتذكر أحد.

قال "سامسون" فجأة: "بورما، ذهبت إلى "بورما" مع بنادق الملك الأفريقية".

ظللت لا أجد ما أقوله وكافحت كي أعثر على الكلمات الملائمة، ثم قلت: "لا بد أنها كانت تجربة مثيرة".. "أجل يا سيدتي".

مرَّت لحظة صمت أخرى، ثم قال: "كانت جيدة، جيدة جدًّا. عندما عدت إلى الوطن أعطوني دراجة".. "دراجة؟".. "نعم يا سيدتي، لأقوم ببعض المهام بواسطتها. كل جندي من السكان الأصليين لديه دراجة".

كان هناك لحظة صمت أخرى قطعتها قائلة: "عليك أن تعلمني كيف أطهو ذات يوم".

توقف عن التلميع ولمحت نصف ضحكة في الظلام، وقال: "لا، من المؤكد أنك تطهين أفضل منّي".. "لا، على الإطلاق. إلا إذا كنت تقصد الفاصوليا على الخبز".

ضحكت ضحكة قصيرة ولم يكن هناك أي رد فأكملت: "لم تسمح لي أُمِّي بالطهي حتى لا أبدد المؤن".

تساءلت إذا كان يفهم كلمات.

"أجل يا سيدتي".

فجأة دخل شخص ما المطبخ وفتح الأدراج محدثًا ضوضاء عالية، لقد كانت "أنيت".

"سامسون، أين الكؤوس؟ إننا نشرب الشمبانيا".

أطلت برأسها من الباب الخلفي وهي تحمل كؤوسًا في يديها. وقف "سامسون" على قدميه في ثوانٍ، وحرك الكرسي الصغير من مكانه من أجلها، ثم رأتني في الظلام.

"يا إلهي، ها أنت هناك! لقد قلت للآخرين أن من المرجح أنك عدت للمنزل. سامسون تعالَ هنا".

عادت إلى الداخل وهي ترقص وتبعها "سامسون"، لاحظت أن زيه الكاكي قصير بعض الشيء عند كاحليه.

(12)

"أغسطس 1947،

حظينا بأسوأ نزاع ممكن هذه الظهيرة. ليلة أمس، عندما كان "بول" و"أنيت" راحلين، عرض علي "بول" أن يوصلني للمنزل، وافقت وركبت السيارة، ربما أسرع من اللازم، وأنا أحمل حقيبتي. نظر إليَّ "ج" في مفاجأة بسيطة، نظرت "أنيت" إليه ثم إليَّ وابتسمت في خبث. إنها واضحة ككتاب مفتوح، أم أن نظرة الاشتباه هذه طبيعية.

أوصلاني في وقت متأخر؛ لكن السيدة "ويزمان" أعطتني مفتاح الباب قبل مغادرتي: تقول إنها تثق بي كفاية كي تعطيني المفتاح؛ لكن أشعر بأنها أعطتني إياه لأنها لا تثق بي على الإطلاق. لم تتمنَ لي "أنيت" ليلة سعيدة. كانت عيناها مغلقتين وهي مستلقية في كرسيها. عاد شعور "بول" بالشهامة مرَّة أخرى وأصر على أن يرافقني إلى الباب الأمامي، على الرغم من أنني أكدت له أنه لا حاجة لذلك. أراد أن يقبلني؛ لكنني أدرت خدي، بينما هو يميل عليَّ ويقبّل أذني في المقابل. كان نَفَسَه معبقًا بالكحول. اعتصر يدي أيضًا وقال إنه يأمل في أن يراني قريبًا. فكرت أنه سيريد ذلك طالما لا أذكر السكان الأصليين!

اليوم أتى "ج". كان متحمسًا بشكل زائد في البداية: تحدث بصوت عالٍ للغاية مع السيدة "ويزمان"، كانت ضحكته مدوية في غرفة الجلوس الصغيرة، وظلت تنظر تجاهي محاولة أن تقرأ تعبيرات وجهي. قال إنه يريد أن يصحبني لتناول الآيس كريم؛ لكنني

أخبرته أن "أودري" تتوقع مساعدتي لعمل فستان هذه الظهيرة، بعد نصف ساعة من حينها بالضبط، لذا لم يكن لدينا وقت كافٍ.

لاحظت أنه تفاجأ، فهو لم يعتد على أن أقاومه. اقترح أن نتمشى معًا، على الرغم من أنني رفعت حاجبي في ملل لأريه أنني لست متحمسة لفكرته، لم أتمكن من التفكير في سبب يمنعني من ذلك.

تمشينا قليلًا على الطريق؛ كان الجو حارًا، حيث كانت الساعة الثانية والنصف، ولم تخف حدة الحرارة بعد. عصفت الرياح بالغبار تحت أشعة الشمس مما سبب دوامات برتقالية؛ كان الابتهاج في كل مكان، والخفة، كأن من الممكن على أي شخص أن يجري ويقفز ويطير في حركة واحدة سريعة. لكنني لم أشعر بالخفة. كنت أنتظر نوعًا من الأسف، أو على الأقل تفسيرًا لسلوك الليلة السابقة؛ لكن لم يكن هناك شيء من هذا القبيل، كان هناك فقط هذه البهجة المبالغ فيها، كانت محاولته حسب اعتقادي هي أن يجعلني أفكِّر في أنني تخيلت الأمر بكامله، ويجعلني أظن أنني جدية أكثر من اللازم؛ وأنه لم يقصد شيئًا من تهكمه مني أمام أصدقائه.

لم أتحدث كثيرًا. عند نهاية الطريق، التفتنا كي نعود من الطريق نفسه الذي أتينا منه. كنت أعرف أنه يدرك أننا قريبًا سنصل إلى المنزل وسينتهي حديثنا. توقَّف فجأة؛ لكنني أكملت سيري لعدة خطوات قبل أن ألتفت وأواجهه. قال كأنما أتته فكرة رائعة: "أتعرفين ما الذي تحتاجين إليه؟".. "ماذا؟".

كان صوتي هادئًا ومولًا.

"منزلك الخاص، شقة على الأقل. أنت لست في حاجة للسيدة "ويزمان" وقواعد منزلها".

لو أنه ينتظر رد فعل، فإنه سيتأخر.

"أحب ذلك المكان، شكرًا".. "أنت لا تحبينه".. "بلى، أحبه، شكرًا".

فتح فمه كأنه سيقول شيئًا ثم أغلقه مرَّة أخرى بما يشبه الابتسامة.

"يمكنني أن أرتب لك شيئًا في مكان ما كي تعيشي فيه. وحدك".

شعرت بطعنة من الغضب ملأت عيني بالدموع. كان حلقي متوترًا وخرجت من الكلمات مخنوقة بغرابة: "لا أحتاج إليك، شكرًا".

اختفت الابتسامة ومد يده ليمسك يدي؛ لكنني جذبتها والتفت وركضت عائدة إلى المنزل. أغلقت الباب من خلفي بالمفتاح ثم ركضت لغرفتي بالأعلى، دون أن أتمكن من أن أكتم دموعي أكثر من هذا.

عاد في حوالي الساعة الرابعة. كانت السيدة "ويزمان" في الخارج. جذب يدي ما إن فتحت الباب له وأخذني لسيارته. كنت أدرك تمامًا ما يفعله وتساءلت ما إن كان هناك من يراقبنا. قاد السيارة إلى منزله دون أن ينبس أحدنا بكلمة. كان الشاي بانتظارنا في البلكونة، الشاي وكيكة شوكولاتة ضخمة. قبل أن يسمح لي بالجلوس، اندفع إلى الحديقة وقطف غصن ياسمين من الزهور المزروعة عند سور المنزل. كان عطرها عميقًا وغنيًا. وضعها بين يدي وأقفل عليهما بيديه في شيء من اليأس.

"لا تتركيني أبدًا يا إيفي".

قالها وقربني منه حتى أصبح يمسك كتفيَّ مثلما يفعلون في الأفلام وشعرت برغبة سريعة لألقي رأسي للخلف كأنني أشعر بنشوة عارمة، لأنني شعرت بها حقًا. ظننت أنه سيقولها حينها: "أحبك، أحبك يا إيفي". لكنه لم يقلها، ليس بمثل هذا الوضوح، على الرغم من أنني فهمت ما يقصده. في النهاية قال: "أنا آسف. سامحيني، لقد كنت غبيًا".

تلك الليلة فتحت نافذة غرفتي لأقصى قدر ممكن أن تصل إليه وملت بجسدي إلى الخارج.

كان هواء الليل دافئًا بشكل ممتع وأتت الأصوات من الغرف الأخرى. ربطت غصن الياسمين في الستار؛ لكن كل ما أمكنني أن أشمه كان رائحته "هو"، تلك الرائحة الرائعة التي لا يسببها غسول ما بعد الحلاقة أو العطر؛ لكنه شيء لا يمكن تعبئته أو تعريفه. كم أحبها. أحبها وهي تغمرني ولا يمكنني أن أفكر في أي شيء آخر.

"15 أغسطس 1947،

الحرارة شديدة للغاية. استيقظت قبل الفجر وجلست أشاهد شروق الشمس. إن هذا هو أفضل وقت في اليوم؛ لكنه لا يستمر كثيرًا. في كل يوم تكون السماء زرقاء؛ لكن حتى هذا سيختفي قريبًا، ويتركها بيضاء بشكل مؤلم، خالية من الألوان مثلما أكون أنا خالية من الطاقة. يسمونه شهر الانتحار.

أخبرت "ج" بأن علينا أن ننهي هذه العلاقة. إن نهايتها محتومة. سينكشف أمرنا عاجلًا أم آجلًا. سأضطر في النهاية أن أرحل وهو سيخسر عمله.

"لا أريد أن أتركها".

أجبته وأنا أشعر بالترنح بسبب كلماته، كلمات صادقة، صادقة بقسوة: "لم أقل أنك تريد ذلك".

أكمل دون أن يسمعني: "هناك الكثير أود أن أفعله معها".. "تفعله معها؟".

وضع رأسه بين يديه وتشابكت أصابعه حول عنقه. كان هناك بعض الصمت. لم يجب عن سؤالي. أشعلت سيجارة. التَّدخين يعطيني الثقة عندما لا أجد ما أقوله. سألته فجأة: "هل خنت زوجتك من قبل؟".

على الرغم من أنني لم أكن أريد أن أعرف إن كان كـذلك أم لا. كـان صـوتي محايدًا بشكل غريب كما لو أنني طبيبة نفسية تسأل مريضها سؤالًا، وسـأكتب الإجابة وأضعها في ملفه بعد رحيله.

استقام في جلسته وتنهد وقال: "نعم".

كانت تلك هي الإجابة التي أرهبها. أخذت نَفَسًا آخر من السيجارة وسألته: "كـم مرَّة؟".

هزَّ كتفيه، كنت أحترق مـن الألم؛ لكننـي لم أقـل شـيئًا. كـان كعـب حـذائي متدليًا من قدمي وركزت على تحريكه لأعلى وأسفل، شعرت براحة من الإيقاع.

"وهل هي تعرف ذلك؟".. "نعم".. "تعرف عن كل المرَّات؟".

فكَّر لثوانٍ ثم أجاب: "نعم، كل المرَّات".. "هل ستخبرها عنَّا؟".

تجعد وجهه في حزن، وقال: "إيفي، أنت.. مختلفة".

أوقعت بعض الرماد على أرضـية البلكونـة عـلى الـرغم مـن وجـود مطفـأة سجائر بجانبي. يمكنه على الأقل أن يكون مبتكرًا.

جاهدت حتى أبقي على نبرة الحياد في صوتي وأنا أسأله: "من كُنّ؟".

هزَّ كتفيه في ضيق: "لا أدري. نساء!".. "أتمنى ذلك".

غطى وجهه بيديه، وقال: "كُنّ مجرد نسـاء".. "مجـرد نسـاء؟".. "انظـري يـا "إيفي"، لقد ظللن في حياتي لمدة أسبوع أو أسبوعين على الأكثر. مجرد المتعة، لا شيء جاد".

مد يده تجاه يدي. لم أحركها بعيدًا؛ لكنني لم أعطها له. ألقيت بيدي الأخـرى عقـب السيجارة المشتعلة في حوض الزهور، شيء يكرهه "ج". تنهد وأبعد يده وعدنا نجلـس في صمت.

"هي لا تمانع كل ذلك؟ زوجتك؟".. "نعم، إنها تمانع؛ لكنها تتحمل".

ثم قال كأنه يوضح: "إنها تحبني".

أشحت بعيني بعيدًا عنه.

"إنها تحبني. انظري، إن لدينا صداقة أقوى من أي علاقة".

جعل بكلامه العلاقة تبدو سطحية وتافهة بالمقارنة التي عقدها.

"والصداقة في المقام الأول".. "وعلاقتنا لا يمكنها أن تنافس هذه الصداقة، أليس كذلك؟".

توقف عن الكلام، ارتخت كتفاه ثم قال: "هذا مختلف".

التفتُّ بعيدًا عنه، لكن هذه المرَّة تحرك كي يصبح في مقابلتي بالضبط، وقال: "إيفي، أنت مختلفة. أنا لم أشعر أبدًا..".

توقف باحثًا عن الكلمات المناسبة، ثم استطرد: "لم أشعر أبدًا بمثل هذا الشعور مع أي أحد".

مرَّر أصابعه عبر شعري، ثم نزلت يداه على كتفي، وقال: "لا تتركيني".

هتفت وأنا أمتلئ بالغضب فجأة: "ما الفائدة؟ ما الفائدة؟".

ارتمى في كرسيه في هزيمة. بحثت يداي عن سيجارة أخرى؛ لكن العلبة كانت فارغة. قال فجأة: "أنت محقة".

ثم قال بهدوء أكثر: "أنت محقة".

كانت ابتسامته لامعة ومرغمة عندما التفت إليَّ في النهاية مجددًا، وقال: "لقد كنت ظالمًا. يجب علينا إنهاء الأمر، أنت محقة".

كانت معدتي تؤلمني وأكاد أسمع الرعد في أذني، بينما أحاول أن أحافظ على تماسكي. غرست أظافري في كفيَّ. حاولت أن أتحدث: "إنه من الأفضل...".

لكن عينيَّ كانتا ممتلئتين بالدموع".

قالت أُمِّي وأنا أدخل المطبخ:

- هناك إيميل من "مارك".

- هل هناك أحد آخر؟

- بعض رسائل التعزية. لم يعد هناك أحد يرسل البطاقات البريدية الآن، أليس كذلك؟

كانت تبحث في الدولاب عن علبة أكياس الشاي. قلت وأنا أجلس أمام الطاولة:

- ليس في "زيمبابوي"، لا يرسل أحد بطاقات التهنئة بالكريسماس في "زيمبابوي".

قالت وهي تفتح علبة مغلفة بورق "الفويل" وتأخذ عدة أكياس شاي:

- إنه أمر حزين.

بدأت المياه تغلي في الغلاية، قلت فجأة:

- ماذا عن العم "والي"؟ هل أخبرته؟ هل راسلته؟

تجهم وجه أُمِّي في حزن وهي تصب المياه المغلية فوق أكياس الشاي، وقالت:

- لا أعرف ما أفعله حيال هذا الأمر. فكَّرت في أن أفعل ذلك؛ لكنه مسن للغاية، هل سيكون الأمر أكثر مما يحتمل؟ أعني.. إنها جريمة قتل.

حركت أُمِّي الشاي ببطء، بينما تتصاعد الحرارة في خيوط الدخان.

- لكن من المؤكد أنه يريد أن يعرف.

- حسنًا، هذا هو ما أعنيه. هل هو يريد ذلك؟ هل يريد أن يعرف؟ لا أعرف مقدار التواصل بينهما خلال الأعوام العشرة الأخيرة. لم تذكره قط إليَّ.

- ربما مات.

أفزعتها الفكرة:

- ربما.

لكنها عادت لتقول:

- لا، كانت أُمِّي ستخبرني. كانت ستعرف من شخص ما.

- ربما ظنوا أن الأمر يفوق قدرتها على التحمل.

لم أكن أسخر منها؛ لكنها نظرت إليَّ بسُرعة كأنما تظن أنني كنت أسخر منها.

شربنا الشاي في صمت. حملقت في الفراغ، كان وجهها لا يزال منتفخًا بسبب الحزن وقلة النوم، كان شعرها الأبيض ملقى للخلف في ذيل حصان مفكوك وغير مرتب.

- من السهل أن نفقد التواصل، أليس كذلك؟ حتى مع عائلتنا. سهل للغاية.

(13)

كان جَدِّي "ليونارد روجرز" جديدًا في شركة "ستوتون وجيمس". عامل بناء، وليس مهندسًا. وسيمًا بطريقة تقليدية، كما وصفته جَدَّتي في مذكراتها:

"يعرف أنه جميل الشكل، هو من الرجال الذين ينظرون كثيرًا لأنفسهم في المرآة وواجهات المحلات ويمشط شعره للخلف بيده؛ والذي يعرف أيضًا أنسب وضع يسمح له بعرض جمال شكله، ويكرر تلك الوقفة عندما يكون في صحبة النساء. إنه ليس النوع الذي أجده جذابًا؛ لكن هناك ذلك الخجل الطفولي الجذاب فيه والذي أجد فيه راحة شديدة بعد "ج". إنه صريح وأمين، عليه أن يتعلم كيفية المغازلة غير الصريحة، وأيضًا لم يتعلم بعد كيف يتلاعب أو يخدع".

ذهبا معًا لحفل الكريسماس، على الرغم من أنها اختارت أن تبقى في المنزل ليلة العام الجديد، بينما خرج الجميع. توسل إليها "ليونارد" أن تذهب معه إلى الحفل الراقص في مبنى البلدية؛ لكنها رفضت وأخبرته أن السبب هو ارتباط شخصي لديها "منذ عدة شهور". جلست وحدها تبكي. كان "ج" في "سايسبيري" ليحتفل بالكريسماس والعام الجديد. كما أنه ألمح إلى أن عمله في "بولاوايو" سينتهي قريبًا. نظرت في الخطابات مرَّة أخرى.

"أنا ممتلئة بالحزن لخسارة شخص ما، لعدم استطاعتي أن أشرح ما الذي أشعر به بداخلي".

في بداية عام 1948 عاد "ج" إلى "بولاوايو".

"8 يناير 1948،

سوف يتركها. لقد أتى ليراني اليوم – أتى "ج". بدا لي أكبر سنًّا، على الرغم من أنه كان جادًّا فقط. تفاجأت السيدة "ويزمان" لرؤيته واختلقت عذرًا كي تترك غرفة الجلوس بعد أن وصل بقليل. أغلقت الباب وراءها وهو شيء لا تفعله أبدًا. تحدثنا: الأمور العادية. مجرد أسئلة لا تقود لأي مكان. جلست على كرسي، بينما جلس هو على الكنبة ممسكًا بقبعته في يديه.

قال فجأة كأنما يجيب على سؤال سألته له: "سوف أتركها".

لم أقل شيئًا.

"لقد فكَّرت في الأمر".

كان في صوته الشعور بالنهاية كأنه أراد منِّي أن أنهض حينها وأخرج من المنزل بصحبته، دون أي أسئلة. لم يكن ينظر إليَّ؛ لكنه الآن رفع عينيه منتظرًا رد فعلي. جازفت بسؤاله: "ماذا عن عملك؟ وسمعتك؟".

هزَّ كتفيه كأنما لا يهمه كل ذلك، لكن كان بإمكاني أن أرى أن تلك الأشياء تقلقه.

"لن أكون أوَّل شخص يحصل على طلاق".

كنا نعلم أن تلك لم تكن هي المشكلة.

"و..؟ زوجتك؟".

نظر للأسفل وتنحنح وقال: "سيكون الأمر صعبًا عليها؛ لكنني سأعمل على ألا تحتاج لأي شيء".. "هل أخبرتها؟.. "ليس بعد".. "ليس بعد".

كررت الكلمات وأن أسمع الكلمات تدور ببطء على لساني.

"سيكون ذلك وقتًا صعبًا. هل أنت مستعدة لذلك؟ قد يتحدث الناس...".

ضحكت بداخلي بتهكم. كم مرَّة أخبرته بأن الناس يعرفون وهو لم يصدقني قط. جازفت مُجدَّدًا بسؤاله: "هل ستبقى هنا؟".. "دعينا نرَ كيف ستسير الأمور. إن كان بإمكاننا احتمال العاصفة. ربما قامت النقابة...".

شعرت بموجة من الحماس؛ لكنني بقيت هادئة وسألته: "متى؟".

هزَّ رأسه بسُرعة وقال: "لست متأكدًا".. "لست متأكدًا؟".

كان قلبي مثل بالون أطفال ترفعه الرياح لأعلى؛ لكن عنقه لم يكن مربوطًا، ثم تُرك فجأة فطار في أرجاء الغرفة ببلاهة ليصدم الأشخاص والأغراض في الغرفة ثم سقط على الأرض دون حركة.

"قريبًا".

لم أسأله أي شيء آخر. نهض حينها وجاء إليَّ، وركع عند قدمي، وأخذ يديَّ وقبلهما، وقال: "أعتقد أن الأمر سينجح يا إيفي".

قبلته أنا أيضًا".

"28 يناير 1948،

كان "سامسون" يعطيني دروسًا في الطهي. أذهب هناك عندما ينتهي العمل مبكرًا في الثالثة يوم الخميس. في البداية كان معارضًا للفكرة؛ ضحك ثم أصبح متواضعًا ثم خجولًا بعض الشيء، كأنه شعر بالإهانة بشكل ما. لكن "ج" تحدث إليه وفي النهاية استسلم للأمر وأعلن هزيمته. كان كل شيء جاهزًا من أجلي عندما أتيت لأتلقى درسي الأول. كان قد

جهز لي مريلة مطبخ مكوية حديثًا ومطوية في انتظاري على الطاولة. كان هناك وعاء كبير لخلط المقادير، وملعقة خشبية، وملعقـة معدنيـة، وسـكين، وملعقتا شاي، وطبق وميزان مجهزان بجانب بعضها البعض في صف واحـد عـلى جانـب الطاولة. على الجانب الآخر وضع مجموعة من العلب: سكر، ودقيق، ومسحوق خبز، وعلبة مربَّى فراولة، كما كان هناك كيكة زبد صفراء في طبق بجانبها بعض البيضات.

قال وهو يربط مريلته بإحكام على خصره: "سوف نعد كيكة".

فعلت مثله وأنا معجبة بشعوره بالسلطة عـلى الـرغم مـن تـوتره الواضـح. قلت بعد أن انتهيت من غسل وتجفيف يديَّ وارتداء المريلة: "حسنًا، مـن أيـن أبدأ؟".

لاحظت أنه قد أشعل الفرن ودهن أوعية الخبز بالزيت. في البدايـة ظننـت أنه رأى أن تلك المهمة دون المستوى كي أقـوم بهـا. لكننـي كنـت مخطئـة، لقـد أنزلني لمكانة وزن المكونات. أخبرني "سامسون" عن كل الأوزان.. ونخل الـدقيق بالغربال، وكسر البيض في الوعاء - لكني لم أخفقهـا! هـو مـن يضرب، ويخفـق، ويصب، ويمزج المكونات وفي النهاية أعد كيكة "فيكتوريا" إسفنجية شهية.

قال "ج" بأنها كانت لذيذة، أفضل من كل مرَّة، على الرغم من أنني أخبرتـه بأن كل ما فعلته حقًّا كان وزن المكونات.

"حسنًا إذًا، من الواضح أن "سامسون" كان يصنعها بشكل خاطئ كـل هـذا الوقت".

غمز لي بعينه وقبلني.

لكنني أردت أن أعدها أنا بنفسي. توسلت لـ"سامسـون" كي يتركنـي أعـدها في المرَّة التالية.

"لقد شاهدتك، أعرف كيف أفعلها".

زمَّ شفتيه وتنهد فقلت: "يمكنك أن تركز على العشاء".

أشرت إلى قطعة اللحم الكبيرة على لوح التجفيف في انتظار أن تُقطع.

"فقط دعني أحاول. دعني أريك".

كانت محاولة فاشلة. رأيت عيني "سامسون" تنظر تجاهي بين الحين والآخر وبدا كأنما لديه شيء يقوله؛ لكنه لم يفعل وعاد لتقطيع البصل أو تقشير البطاطس.

عند موعد عودة "ج" إلى المنزل، كانت الكيكة قد قُطعت وأصبحت جاهزة للتقديم. لم أتمكن من النظر لعيني "سامسون" في البداية، ثم انتحبت قائلة: "ماذا حدث؟ لماذا؟".

سحب "سامسون" كرسيًّا وأشار لي لأجلس، وقال: "إن من المهم أن تطهو المرأة لزوجها، أليس كذلك؟".

أومأت له وأنا أعي اختياره للكلمات، ثم سألني: "لماذا؟".

كان سؤالًا لم يطرحه علي منتظرًا منِّي أن أجيبه، حيث أكمل: "لأن على المرأة أن تظهر الحب".. "والرجل..؟".

بدأت الجملة لكنه رفع إصبعه محذرًا.

"المرأة تظهر الحب والرجل يستقبل الحب".. "لكن..؟".. "لا، هكذا هو الحال. الرجل يوفر الطعام والمرأة تطهيه كي تظهر تقديرها. كي تظهر...".

توقف هنا عن الكلام منتظرًا مني أن أقول معه كلمة "الحب" لكنني لم أفعل. أكمل هو الجملة بمفرده. أمسك وعاء مزج المقادير غير المغسول من جانب الحوض، والملعقة الخشبية لم تزل بداخله وبدأ بخلط خليطًا خياليًا. فعل ذلك ببطء لكن بحزم، حيث يريني كيفية حمل الملعقة، يراقب الخليط يسقط ببطء، ثم يحمله بالملعقة مجددًا، مبتسمًا في رضا عن الخليط، نعومته، ومرونته، واستسلامه له. قلت ضاحكة: "أنا متأكدة من أنني فعلت كل ذلك".. "لا. لا، لم تستخدمي هذا".

نقر على صدره وتجهم وهو يقول: "الحب. لقد استخدمت هذا". نقر على رأسه. "كنت أشاهدك، كنت تفكرين في الوقت، تنظرين في الساعة، تفكرين في أنه على وشك الوصول وتريدينها أن تكون جاهزة، لذا ففعلت هذا". قام بتحريك الملعقة بسُرعة مبالغ فيها داخل الوعاء، وقال: "لا يجب أن تحركي الملعقة في الوعاء، بل تكشطين. لقد لعقت أصابعك".

نظرت إليه متساءلة فاستطرد: " يجب ألا تلعقي أصابعك أبدًا. هذا ليس من أجلك، بل من أجله هو".. "ذلك الرجل الذي علمك كيف تطهو يا "سامسون"، قائدك في "بورما"، هو من أخبرك هذا الكلام عن الحب، أليس كذلك؟".

توقف "سامسون" عن الكلام ونظر للأسفل. وضع الوعاء على لوح التجفيف والتفت إلى العشاء الذي كان يعده".

في خلال عدة أشهر، أصبحت جَدَّتي طاهية وخبازة ناجحة: كيكة الشوكولاتة، والكيكة الملفوفة السويسرية، وخبز الفواكه، والبسكويت، والدونات، والكيكات الرقيقة. كما أنها جازفت بطهي الحساء والتحلية ثم بالأطباق الرئيسية: اللحم المشوي، و"السوفليه"، وحساء اليخنة، والفطائر. لكن بدا كأن موطن قوتها هو الكيك، خصوصًا كيكة "فيكتوريا" الإسفنجية. كان يقف "سامسون" بجانبها يحثها قائلًا: "أخفقي أسرع". أو يقول: "أكثر، أكثر".

وهو يُقلد حركة الخفق بيديه. كانت جَدَّتي تشعر بالإرهاق في نهاية فترة الظهيرة، وعادة ما يكون "ج" هو فقط من يأخذ شريحة من الكيكة الذهبية الدافئة. قال لها "سامسون" ذات يوم وهما يقفان في ممر البلكونة يشاهدان "ج" يأكل دون أن يلاحظ وجودهما: "أترين؟ إنها ليست من أجلك. أترين ذلك؟".

كانت تلك الفترة تحمل الكثير من الإثارة لجَدَّتي. رحلاتها إلى المطبخ أعطتها شعورًا بالاكتمال لم تشعر به من قبل. كتبت تقول: "أشعر بأنني قد نضجت أخيرًا". كما أن تلك الفترة قربتها أكثر وأكثر من "ج". أصبح يتوقع مجيئها لمنزله مرَّة كل أسبوع في وقت متأخر من الظهيرة، حيث يجلس منتظرًا والطاولة معدة، والكؤوس والأطباق في أماكنها، وشرائح سميكة من الكيك مقطوعة، والمربى السميكة الحمراء تخرج منها. أو ربما توضع بعض الساندويتشات على طبق، والبسكويت يوضع بشكل جميل على هيئة هرم. كانا يجلسان ويتحدثان بينما تغرب الشمس وتنسحب الحرارة وتتسلل برودة المساء.

لو أن جَدَّتي ستمكث للعشاء، كانا يشربان بعض الخمر، دائمًا ما يكون الجين مع ماء الصودا وشريحة ليمون، ونبيذ على الطاولة. كان "سامسون" فخورًا بها مثلما كانت فخورة بنفسها، تخبر "ج" عن إنجازاتها بازدهار، كأنما تقول له إنها تحبه. هذه المرأة، إنها تحبك.

(14)

"17 مارس 1948،

حدث اليوم أكثر موقف محرج مررت به في حياتي. في وقت الغداء ذهبت للتنزُّه في الحديقة ورأيت أجمل زهرة "غرنوقي" ذات لون وردي غامق رأيتها في حياتي. أعرف أن ليس لدى "ج" مثلها في حديقته لذا فقد قطفتها ووضعتها في منديلي. بعد العمل ذهبت لمنزله متمنية أن أفاجئه بها.

دخلت من البوابة واتجهت للبلكونة، وأنا أنظر طوال الوقت للزهرة في يدي. كنت على وشك أن أفتح الباب عندما لمحت حركة عند جانب المنزل. نظرت تجاهه ورأيتها هناك: "رييت". لم تكن بمفردها؛ بل كانت "أنيت" بصحبتها. كانتا تقفان معًا تلك الوقفة التي تعبر عن الاهتمام الذي يتملك النساء عند مناقشة أمور الحديقة؛ لكن رأتني كلتاهما ونظرتا تجاهي. أبعدت يدي عن مقبض الباب: هذه الحركة التي توحي بالتعود على ما أفعله لن تبعد الاشتباه عنِّي. قالت "أنيت" شيئًا ما لـ"رييت"، ثم أدارت ظهرها لي، كانت تدخن سيجارة.

أتت "رييت" ناحيتي؛ لكنها لم تلوح بيدها أو تبتسم. يمكنني أن أكون عاملة توصيل أو موظفة بريد بسبب علامات الترحيب التي أبدتها تجاهي. قلت بصوت ممتلئ بالحيوية أكثر من اللازم: "مرحبًا!".

يمكنني أن أرى أنها لاحظت ذلك هي أيضًا، وأجابت بالقدر نفسه من انعدام الحماسة: "إيفيلين".

كانت جملة تقريرية أكثر منها ترحيبية. ربما كانت تؤكد بعض الشكوك التي تنتابها. قلت وأنا أحاول أن أبدو مرحة؛ لكنني بدوت متوترة وصوتي مرتفع وحاد: "لم أكن أعرف أنك هنا".

ندمت في الحال على ما قلته، لأن ما الذي أفعله هناك إذا لم أكن أتوقع وجودها؟ حاولت أن أقول كل شيء مرّة واحدة؛ لكنه خرج منِّي بسُرعة وتوتر: "أعني، أعني، لم أكن أعرف أنك هنا حتى أخبروني. إنه.. زوجك.. هو من أخبرني أنك هنا وأن علي أن أمر وأحييك".

ثم قلت كأنما يحتاج الأمر بعض التأكيد: "كيف حالك إذًا؟".

أجابتني قائلة: "كم هذا لطيف".

على الرغم من أنني لم أجد أي شيء في صوتها أو أسلوبها ما يدعم ما قالته. نظرت إلى الزهرة في يدي فقلت بمرح مجددًا: "زهرة الغرنوقي".. "أعرف".. "لقد أحضرتها من أجلك".

رأيت على وجهها ابتسامة غريبة والتي جذبت ركني فمها للخلف باقتضاب؛ لكنها لم تكن ابتسامة تقدير، بل كانت تسخر منِّي، قالت وهي تمعن النظر في حوائط البلكونة، ثم إلى يديَّ: "إنها مقطوفة، أليس كذلك؟".. "نعم".

لم تحاول أن تأخذها منِّي ولم أحاول أن أعطها إليها وقلت: "هل لديك كوب؟ يجب أن أضعها في الماء".

أومأت باتجاه المنزل وقالت: "سيعثر لك "سامسون" على شيء ما".

بدأت بالالتفات تجاه الحديقة وهي تقول: "هل ستبقين لشرب الشاي؟ "أنيت" ستبقى".

تظاهرت بالنظر في ساعتي وقلت: "عليَّ أن أعود".. "ربما في وقت آخر".. "نعم، سيكون ذلك لطيفًا".

كانت يدي على مقبض الباب وأنا أتحدث.

"سآخذ هذه الزهرة إلى الداخل".

بدا كل شيء غريبًا علي داخل المنزل، كأنني لصة، شخص أتى كي يقتحم المكان ويسرق شيئًا ما. الكنبة والكراسي في غرفة الجلوس، والوعاء النحاسي على ترابيزة القهوة، وحتى الصور، العديد منها مجرد خرائط مؤطرة على الحوائط، بدا كل شيء في غير موضعه. مررت بجانب مكتب "ج" ورأيت الباب مغلقًا: أهذه هي الغرفة الوحيدة في المنزل التي أوجد بها؟ أختبئ بداخلها كي يأخذني فيما بعد ويتأملني بعمق، أن يكتشفني في حب واستمتاع؛ لكن في النهاية يضعني على الرَّف مرَّة أخرى.

كانت الغلاية تغلي عندما دخلت المطبخ، حملها "سامسون" وصبها في براد الشاي الكبير. رأيت كيكة "فيكتوريا" الإسفنجية على المنضدة، مقطوعة بعناية وعليها سكر مطحون.

نظر "سامسون" لأعلى، عيناه كانتا تستوعبان الموقف بسرعة؛ لكنه لم يقل شيئًا. لماذا يستمر ذلك في مفاجأتي؟ من المؤكد أنني لا أتوقع منه أن يعلق على علاقتي بسيده؟

أريته الزهرة فأخذ كوبًا من على الرَّف وملأه بالمياه. قلت له بالمرح المتصنع نفسه الذي استخدمته مع "رييت": "أشكرك يا سامسون".

قال دون أن ينظر تجاهي: "سأخبره، سأخبر سيدي بأنها منك".

أعرف أنه كان بإمكاني تعقيد الموقف أكثر. أن أترك رسالة، شيئًا ما، يعني شيئًا آخر. لكنني بدلًا من ذلك قلت بصوت عالٍ وبمرح شديد: "إلى اللقاء!".

حاولت ألا أبدو كدخيلة، أو متآمرة.. شخص يدمر ما هو جيد ويأخذ ما يعتقد أنه ملك له. أردت.. أريد، أن أكون عادية، أن أكون نفسي فقط. "إيفيلين سوندرز" تضع زهرة "غرنوقي" مقطوفة في الماء. زهرة "غرنوقي" أحضرتها من أجلها، لا من أجله هو. أردت أن يكون "سامسون" مجرد خادم بالمنزل، طاهيًا، وجهًا يدخل ويخرج من الخلفية، وليس كمساعد في المؤامرة، أو معاون في هذه المهمة المفزعة. أردت أن أخرج من المنزل

وأتمكن مـن التفكـير في أصـدقاء أذهـب لمقـابلتهم، رجـل شـاب أحبـه، والـذي سأتزوجه وأنجب له أطفالًا. أردت أن أفكر في الطهـي والخبـز والمحافظـة عـلى طرف فستاني. فجأة خطرت لي فكرة ما، عندما كان "سامسون" يحرك الشـاي في البراد ببطء وتتصاعد منه منحنيات الدخان إلى الهواء، كل ما أحبـه، ربمـا تحبـه هي أيضًا. ليس بإمكاني أن أشـير إلى أي شيء وأقـول إن هـذا ملـك لي، إن هـذا ملك لي".

(15)

بعد مرور أسبوعين من جنازة جَدَّتي، تلقت أُمِّي رسالة مـن شركـة المحامـاة التـي كانت تتعامل معها جَدَّتي، حيث يطلبون منها تحديد موعد من أجل قراءة وصيتها.

قالت لي:

- افعلي أنت ذلك.

مـررت لي الخطـاب أثنـاء وقـت الغـداء ونحـن جالسـتان في مطـبخ نشرب الشاي. بدأت أُمِّي تنهض عن السرير أكثر، على الأقل في النصف الأول من اليوم.

حددت موعدًا لليوم التالي وأنا أتساءل عن مقدار المال الذي من الممكن أن تتركه جَدَّتي لأي أحد؛ فهي لم تكن أبدًا امرأة ثرية. أدخلني السـيد "مبوفـو" إلى مكتبه. كان رجلًا قصيرًا وسـمينًا ذا رأس أصلع ووجـه مشرق ضـاحك. تخيلـت جَدَّتي تستمتع بالتعامل معه. كان مكتبه كبيرًا ومريحًا وممتلئًا بلوحات "لنـدن" من العصر الفيكتوري على الحائط. كـان هنـاك دولاب للملفـات خلـف مكتبـه وُضعت أعلاه فازة بها زهور صناعية وبجانبها صورة مدرسية لطفل صغير. وضع موبايله بالقرب من يده اليمنى وظل ينظر تجاهه طوال وقـت محادثتنـا كأنـه رنَّ في صمت وقد فاتته المكالمة.

قال السيد "مبوفو" مبتسمًا وهو يقرأ الوصية قبل أن يلخصها من أجلي:

- الآن دعينا نرَ. "ستذهب كل مجوهراتي لابنتي فرانسيس ماكينتاير".

أومأت وأنا أتوقع أنها تركت القليل ثم أكمل قائلًا:

- "منزلي الواقع في 52 شارع "لاوسون" بالضواحي بكل ما فيه أتركه لحفيدتي "إيلي ماكينتاير". هذا فقط، هناك فقط شرط واحد بأن تحافظي على الحديقة كما حافظت عليها ولا تحدث أي تعديلات في المنزل".

قلت وأنا أشعر بأن هناك مشكلة ما:

- المنزل؟ لا يمكنها تركه لي. إنها لم تكن تملكه، أليس كذلك؟

ابتسم السيد "مبوفو" واسترخى في مقعده وقد ارتخت لفة من الدهن فوق ياقة قميصه، وقال:

- بلى؛ كانت تملكه. لقد اشترته عندما انتقلت إليه منذ خمسة عشر، أو ستة عشر عامًا.

كان يراقب تعبيرات وجهي. تساءلت ما الذي كان يعرفه؟ ما الذي يبدو كأن الجميع يعرفونه ما عداي؟

- كيف؟ لقد عملت في محل "هادون وسلاي"، لم يكن لديها هذا الكم من المال. كيف اشترته؟

هزَّ السيد "مبوفو" كتفيه وارتسمت على فمه ابتسامة مقلوبة، ثم تجعد وجهه كأنما وجد إجابة ما وقال ببطء:

- إن كنت أتذكَّر جيدًا، فهي لم تشتره بالفعل.

- ماذا يعني ذلك؟

- لقد مُنِح إليها.

- مُنِح إليها؟

- نعم، شخص ما من "بريطانيا" منحها إياه. أتذكَّر الآن. أحد الأعمام، أعتقد أن هذا هو ما أخبرتني به.

- أحد الأعمام.. ألا تذكر اسمه؟

قال وهو يبحث في بعض الأوراق:

- لدي سندات الملكيـة، دعينـي أرَ. سـندات ملكيـة منـزل رقـم 52 بشـارع "لاوسون" بالضواحي... "كادوالدار لويد". كان هو مالك المنزل وأعطـاه لجَـدَّتك عندما انتقلت إليه.

كان "كادوالدر" هو مالك المنزل.. مهلًا.. مهلًا، مهـلًا، أردت أن أصرخ. انتظـر لحظة واحدة. دعني أستوعب كل هذا. تنفست بينما ينظر لي السـيد "مبوفـو" نظرة قلقة، وقلت:

- 52.. بالطبع، بالطبع، بالطبع.

"4 أبريل 1948،

عاد "ج" مبكرًا اليوم. كان هناك عاصفة رعدية ضخمة، ولم أكـن أخبـز، لأن الكهرباء انقطعت. كنت في الصـالة، أقطـع نموذجًـا للخياطـة، جالسـة وسـاقاي متقاطعتان، وهو وضع جعل الفسـتان يرتفـع لمنتصـف فخـذي. كانـت سـاقاي ناعمتان وبنيتان وتألقت الزهور الحمراء على فستاني من دفـئهما. كلـما نظـرت إليهما شعرت أكثر بأنني واقعة في الحب – في حـب قـوتهما، وشـبابهما، وهيئـة عضلاتهما، وملمسهما الحريري، وأيضًا الشمس التي أعطتهما ذلك اللون البنـي، والشوارع التي جعلتهما أقوى، واليدين اللتين تلمسانهما.

سمعت صوت خطوات في البلكونة وأدار أحدهم مقبض الباب؛ لكنـه كـان مغلقًا. نهضت واتجهت لأفتحه متمنية أن يكون هو، وأنا أكاد أعـرف أنـه هـو. كان هو بالفعل، لم يكن مرتديًا معطفًا، كانت على رأسـه فقـط قبعتـه لتحميـه من الأمطار. كان قميصه وبنطلونه مبتلـين بالكامـل؛ لكنـه ضـحك عنـدما خطـا فوق العتبة.

سألني وهو يخلع حذاءه وسترته ويعطيني قبلة كبيرة: "لماذا أغلقت البـاب هكذا؟".. "لا يمكنك أن تتوقع مَن سيأتي فجأة".

ضحك وجذبني من كتفيَّ وقال: "ليس أكثر من هذا".

ثم ضحك مُجدَّدًا ودفعني مقابل الحائط وهو يلمس خديَّ بيديه وأكمل: "سنرحل".

لم أتمكن من التحدث، لم أتمكن من نطق كلمة واحدة. قال وهو يقبلني: "إلى "بيرا"، هل ستأتين؟".

"10 أبريل 1948،

بينما أكتب هذا، ينطلق القطار محدثًا طنينًا في الليل. أنا متحمسة للغاية، وأحب للغاية. كلما تقدمنا خطوة في طريقنا، اعتقدت أن شيئًا ما خاطئ سيحدث. أن يلاحظ أحدهم طريقة تعاملنا؛ يجد أحدهم التذاكر. كنت خائفة لدرجة أنني ظننت أن هناك من سيصل لبعض النتائج عن طريق البلوزة التي اشتريتها حديثًا! شعرت بأنها تكشف عن وجهتنا بشكل واضح! كنت خائفة من أن أبتسم أكثر من اللازم وحاولت أن أبدو متجهمة بعض الشيء طوال الأسبوع الماضي. عندما يكتشفون غيابي، من المرجح أنهم سيعتقدون أنني مُت وسيبحثون عن جثَّتي!

أجلس في مكاني وأنا أشعر بحركة القطار، الاهتزاز وصرير العجلات وهي تحملني بعيدًا. سيكون "ج" هناك في انتظاري. إن من الصعب عليّ تخيلنا نمشي معًا كزوجين عاديين، ذراعي متعلقة بذراعه".

"14 أبريل 1948،

أمضينا طوال اليوم على الشاطئ، التقط "ج" عدة صور. إننا ننـزل في فنـدق جميل يُدعى "ذا جراند". تطل بلكونة غرفتنا على البحـر مبـاشرة. لقـد اشـتقت لهذا طوال كـل تلـك السـنوات. لا يسـع جـزء منِّـي إلا أن يشـعر بـأنني عـدت لمنزلي".

بعد ذلك بأسبوعين، تزوَّجَت جَدِّي.

قالت أُمِّي عندما عدت للمنزل:

- لقد اتصل أحدهم. قال إنه ابن أخي "مايلز". شيء ما عن الكتب. سيتصل مرَّة أخرى فيما بعد.

قلت وأنا أهزُّ كتفيَّ:

- كتب؟ ربما يريد أن يعرف ما الذي عليه أن يفعلـه بالقُمامـة التـي اعتـاد "مايلز" قراءتها.

- لقد فاجأني ذات مرَّة.

كانت أُمِّي تنظف منضدة المطبخ بقطعة قماش مبللة، حيث تـدفعها حـول المنضدة في دوائر بهدوء وأكملت:

- لقد قال أحد الاقتباسات من "شكسبير"، لا أتذكَّر الآن أيهـا بالضـبط، ربمـا كان من مسرحية "الملك لير" حسب اعتقادي. قلت له: "إذًا فقد قرأتها؟" فقـال: "قرأتها كلها" أعتقد أنه ظـن أننـي أتعامـل معـه باسـتهزاء؛ لكـن لم يكـن هـذا صحيحًا، كنت فقط متفاجئة. أعتقد أن تعليمه كان جيـدًا بعـض الشيء. لم يبـد عليه ذلك، لكنه كان كذلك. كان يعرف الكثير من مؤلفات "شكسبير".

- هناك كثير من الناس يقتبسون من مؤلفات "شكسبير" دون أن يعرفوا أنهم يفعلون ذلك.

- حقًّا؟

- "فلتبتعدي أيتها البقعة اللعينة".

- أعرف هذه الجملة.

- "من الأفضل ألا تكون دائنًا ولا مدينًا"، هذا أيضًا من "شكسبير".

- حقًّا؟ لا أعرف هذه الجملة.

- "هاملت"، أترين؟

- هناك جملة أخرى، من "هاملت"؟ ما تلك الجملة؟ "كل رجل يقتل الشيء الذي يحبه"، إنها هي، أليس كذلك؟

- إن هذا "أوسكار وايلد".

- حقًّا؟ تبدو كأنها جملة من تأليف "شكسبير" بشكل ما. كانت أُمِّي تقولها كثيرًا.

توقفت وفكَّرت قليلًا، ثم قالت:

- أتساءل ماذا كانت تعني.

(16)

"20 يناير 1949،

أتى "ج" لزيارتي هذا الصباح. لم يقل أي شيء؛ لكنه جلس وأمسك يدي وأنا أرقد في غرفة المستشفى البيضاء. كانت البطانيات مطوية بشدة، فلم أتمكن من أن أرفع جسدي كي أقبله. نظر ليديَّ، رأيت على وجهه حزنًا شديدًا. اعتاد أن يقول إنه من السهل قراءة تعبيرات وجهي، حيث إنه يعبر مباشرة عن قلبي وعقلي. لكنني تحدثت اليوم دون انقطاع أو تفكير عن أشياء مبهجة وتافهة وحاولت أن أتجاهل الضجيج في أذنيَّ وطعنات الألم في صدري والذي شعرت بأن طعناته أعمق كلما طال وجوده معي، وكان وجهه مليئًا بالأسف.

قال وهو يمسك بيدي ويضغط عليها برفق: "إنه ابني، أليس كذلك؟".

هززتُ رأسي نافية وقلت: "لا".

كان صوتي رفيعًا وخشنًا. حاولت أن أبتسم وأنا أكمل قائلة: "إنه ابن "ليونارد". بالطبع إنه ابن ليونارد".

أومأ برأسه في حزن. أحضر معه من أجلي باقة زهور صفراء صغيرة، أخبرني أنه قطفها من حديقته. لم أعرف كم بقي معي دون أن يقول أي شيء، ممسكًا فقط بيدي، يقلبها ويضغط عليها. في النهاية رحل. قبَّل يدي ورحل. صرت بمفردي".

اتصل ابن أخو "مايلز" مرَّة أخرى. امتلأ صوته بحرارة لاعب "كريكيت"، لاعب جيد، و"شاب يُعتمد عليه"، أو شخص يمكن الاتصال به في أي وقت كي يأتي لمساعدة صديق، يمكنه أن يحرس المرمى في لعبة "الكريكيت" أو يبيع ممتلكات عمِّه. قال بأن لديه شيئًا ربما أرغب في الاحتفاظ به، شيء ما شعر بأنه لن يتمكن من التفريط فيه أو تخزينه؛ شيء ما شعر بأنه من المفترض أن أحصل عليه.

سألني فجأة:

- أترغبين في تناول العشاء معي الليلة؟

للحظات لم أجد الكلمات المناسبة لأجيبه، وشعرت بالرفض يطوف من حولي؛ لكنني لم أتمكن من الإمساك به ولثانية أو اثنتين تلعثمت، فقال مازحًا وابتسامته تخرج من بين كلماته:

- إننا تقريبًا أقرباء، وأنا لديَّ أقرباء قليلون ولن أمانع في أن أحصل على أحد آخر. بالإضافة إلى أنني أعد "لازانيا" شهية للغاية.

قلت دون حماس:

- حسنًا.

ضحك ضحكة قصيرة حادة، وشعرت بنبرة شعور بالإهانة في صوته وهو يقول:

- لست مضطرة لأن تفعلي ذلك.

- متى آتي؟

- في السابعة.

- حسنًا، أين تعيش؟

كتبت عنوانه وطويت الورقة ووضعتها في جيب بنطلوني الخلفي.

- لا تنسي.

- لن أنسى.

قال فجأة:

- فلتجعليها السَّادسة والنصف.

ثم شرح طلبه قائلًا:

- من أجل مشروب ما قبل العشاء.

ثم تغير صوته إلى صوت مستعمر أرستقراطي، وقال:

- النبيذ في البلكونة بينما يعود السكان الأصليون من الحقول.

لم يكن رجلًا ضخمًا، أكثر منِّي طولًا، وليس نحيفًا؛ لكن لم يكن جسده متناسقًا جدًّا أيضًا. لديه شعر بني قصير للغاية وعينان زرقاوان داكنتان جدًّا. وسيم؟ نعم، بشكل تقليدي. شخص لطيف، يحب إطلاق النكات؛ لكن ليس النكات البذيئة، كما أنه حسَّاس. الرجل الذي بإمكان الفتاة أن تتحدث معه، وتشاهد بصحبته الأفلام الغربية العاطفية، كما يمكن الاعتماد عليه في إرسال الورود: الرجل الحديث، على الطريقة الـ"زيمبابوية". كان يعيش في منزل في "فامونا"، في مجمع ذي اسم إسباني مثل "سانتا في" أو "سانتا مونيكا"، أو واحد من تلك الخيارات الشائعة لمنازل المجمعات، والبعيدة عن "فامونا" أو "بولاوايو" أو "أفريقيا".

اكتشفت أنه يحب جمع الفن الاستعماري والأفريقي، حيث وجدت صورًا لـ"بولاوايو" حوالي عام 1910 على الحوائط في الصالة وقناعين أفريقيين على الطاولة كأنه ينوي تعليقهما في وقت ما. كان هناك أيضًا مقعد "تونجا" ومنحوتات متنوعة وسجادة مصنوعة من القش بالقرب من المدفأة. كان يوجد على الطاولة المنحوتة الصغيرة العديد من المؤلفات الأدبية من "روديسيا" مثل: "أماكن عظيمة تغمرها الشمس" و"روديسيا: الرجل والطريق الممتلئ بالذهب". شعرت بأنها مجرد أغراض مثل الأقنعة الخشبية.

قلت له وأنا أرتشف الجين مع ماء الصودا وأشاهده يطهو:

- مكان جميل.

- هذا؟

نظر حوله كأنما يراه لأول مرَّة وهزَّ كتفيه، وقال:

- ليس سيئًا. لم أجد الوقت الكافي كي أهيئه. كنت في "زامبيا" خلال السنوات الثلاث الماضية وقبل ذلك كنت في "هاراري"، حيث نشأت، لذا "بولاواي" جديدة بالنسبة لي.

- لماذا انتقلت؟

- لأسباب مختلفة.

صب صوص البشاميل السميك على شرائح "اللازانيا"، ثم لعق بعضًا منه عن أصابعه قبل أن يمسحهم في مريلته، وقال:

- أعذريني للعق أصابعي. الشخص يعتاد على بعض العادات السيئة أثناء بقائه بمفرده.

- أعرف.

نظر لي بسُرعة ثم وضع الوعاء في الحوض.

- لماذا انتقلت؟ دعينا نرَ. انهار عملي، وصديقتي تركتني، وفي الواقع، لم أكن أحب السكان الأصليين.

ضحك، واستطرد:

- كل ما قلته حقيقي، ما عدا الجزء الأخير.

تجاهلت فضولي لأن أسأله عن صديقته متمنية ألا يكون واحدًا من هؤلاء الرجال الذين يستمتعون بتبادل القصص الحزينة كطريقة للتحدث مع النساء، وسألته:

- ماذا تعمل الآن؟

- لا شيء في الواقع.

وضع "اللازانيا" في الفرن وشغَّل العدَّاد، وقال:

- لا يمكنني أن أعيش دون واحدة من هذه.

أشار تجاه العدَّاد، وقال:

- إنه شيء خاص بالرجال، على ما أعتقد. من المرجح أنني سأنسى وسأذهب لشرب زجاجة بيرة أخرى. وهو ما ذكرني الآن...

اتجه للثلاجة وأخرج زجاجة بيرة "كاسيل"، وقال:

- أتريدين شرابًا آخر؟

هززتُ رأسي نافية ورفعت كوبي لأريه أنه لا يزال ممتلئًا لأكثر من نصفه. قال في خوف ساخر:

- عليك أن تحاولي أفضل من هذا.

- أنا لا أشرب بسرعة.

- ما يجعلك تنفقين أقل عندما تخرجين.

أخذ جرعة كبيرة من البيرة ونظر إلى الطاولة والتي كان قد جهزها سابقًا، قال وهو يفتش داخل أحد الأدراج:

- تنقصنا ملعقة. في الحقيقة، لقد انتقلت إلى "بولاوايو" بحثًا عن بداية جديدة، أو يمكنك أن تقولي بحثًا عن منظور جديد. ها قد وجدت واحدة. أقصد الملعقة، وليس المنظور.

وضع الملعقة على الطاولة بعد أن مسحها بمريلته، وقال:

- لطالما رأيت هذا المكان على أنه ذلك العالم البطيء القديم. أتيت هنا ذات مرَّة مع أبي في طفولتي لزيارة عمي "مايلز" الذي أخذنا في جولة ذات صباح في عدة أماكن. كان الوقت مبكرًا واضطررنا إلى التوقف في أحد التقاطعات حتى تمر ثلاث سيارات قبل أن نتمكن من المرور، أتذكَّر "مايلز" يهزُّ رأسه غير مصدق طبيعة المرور.

ضحك؛ لكنني لاحظت حزنًا في مكان ما عندما فكَّرت في "مايلز"، ثم قال:

- لقد كان عجوزًا ذا مزاج سيئ. حسنًا، ربما أنت تعرفيه أفضل منِّي.

توقف كأنه ينتظر منِّي أن أقول شيئًا، أن أناقضه على سبيل المثال، أو أقوم بالتصرف المهذب وأصر على أن "مايلز" لم يكن من هذا النوع.

- "عجوز ذو مزاج سيئ" هو أفضل وصف.

ابتسم، وقال:

- لم يكن في الواقع عمي مباشرة، لقد كان عم أبي. كان جَدِّي أخاه الوحيد ثم مات جَدِّي ولم يتبق غيره. لم يتزوج "مايلز" أبدًا، وكنت أنا ابن وحيد، لذا فقد كان آخر أقربائي المتبقين، بجانب أبي بالطبع؛ لكنه يعيش في "أستراليا" وأنا هنا، لذا فأنا الوحيد المتبقي.

- أنت أيضًا ابنًا وحيد؟

- بالضبط.

- وأين أمك؟

ألقى الملعقة في الحوض ما أصدر جلبة، وقال:

- ماتت. انتحرت عندما كنت في الرابعة. الصورة التي أحملها في ذهني لتلك الليلة واضحة للغاية. عندما أفكِّر فيها، تدور مثل بكرة الفيلم في عقلي، كل لقطة كاملة ومستقلة، ومع ذلك فكل لقطة في حاجة للقطة السابقة والتالية كي يكتمل معناها.

عندما جلسنا على طاولة العشاء، رأيت خلفه رفوفًا من الكتب ومجموعة من الفيديوهات بالقرب من التليفزيون. حاولت قراءة بعض العناوين؛ لكنه كان يتابع نظراتي طوال الوقت، أين كنت أوجهها. لم أرد أن أعطيه الانطباع باهتمامي لما يقرؤه ويشاهده. كنت أعرف أنه يبحث عن علامة الإدراك في عيني، إدراك أي اهتمام مشترك بيننا، أرض مشتركة، موضوع يمكنه من أن يقول عليه نعم، إنها تفهمني؛ إن هذا شيء مشترك بيننا.

في الواقع، لم أرده أن يفترض مثل هذه الافتراضات. لم أرد أن يأخذ عنِّي شخص ما فكرة معينة خاصة وهو لا يعرف عنِّي كل شيء.

سألته وهو يضع قطعة من "اللازانيا" في طبقي ويقدم لي سلطة يونانية من وعاء خشبي ضخم:

- ماذا تعمل بالضبط؟

ابتسم، وقال:

- ألم تخمني بعد؟ أنا طاهٍ.

قلت ضاحكة:

- إذًا من الأفضل أن يكون هذا الطعام شهيًّا، وإلا فأنت مطرود.

بدا كأنه شعر بالارتياح لسلوكي المرح، وقال:

- نبيذ؟

- لا شكرًا، أنا لا أشرب كثيرًا.

- كلمات أخيرة مشهورة!

- لا حقًّا، أنا لا أشرب.

- أعرف من خبرتي أن من يقولون ذلك دائمًا يشربون. والآن، أتريدين بعض النبيذ؟

- لا، شكرًا.

- حسنًا، فلتفعلي ما تريدين؛ لكنني سأشرب البعض.

فتح الزجاجة، حيث أصدرت فرقعة لطيفة ثم ترك الزجاجة على الطاولة تتنفس مثلما يفعل الخبراء.

- عملت في فندق صغير يطل على نهر "الزامبيزي" في "زامبيا" لثلاث سنوات. قابلت صديقتي هناك، حيث كانت تعمل في الفندق نفسه، تدير المكان، وتقوم بإجراء الحجوزات، ومثل تلك المهام. بعد ذلك أغلق الفندق أبوابه وهربت صديقتي مع صياد فأتيت إلى هنا آملًا أن أفتتح مطعمًا؛ لكن لم يحدث الأمر. أنا هنا منذ أربعة أشهر ونقودي على وشك النفاد. سأحاول أن أجرب الذهاب إلى "موزمبيق" في العام الجديد. لديَّ صديق هناك يريدني أن أدير فندقًا يملكه.

- وما المشكلة في ذلك؟

- الـروتين. أردت أن يكـون لي منـزلًا في الضـواحي. واحـد مـن تلـك المنـازل القديمـة الاسـتعمارية الطـابع ذات الأسـقف العاليـة، وألـواح أرضـية خشـبية، وقطعة أرض. إن البلديـة هـي مـن احتالـت عـلي في هـذا الأمـر، أخـبروني أنهـا منطقة سكنية، لا يوجد ضوضاء، وبها مرور.

- أنت تحب الأشياء القديمة؟

أومأ برأسه في حيوية موافقًا:

- أحبها.

- لديَّ بعض الكتب القديمة التي يمكنك أن تأخذها.

- رائع. إن القدم يبدو عليها، أليس كذلك؟ أعنـي، إنهـم ليسـوا كتبًـا قديمـة فقط، يبدو عليهم القدم؟

كنت محقة، كانت هناك تلك النظرة التي كان يهدف إليها. إنه يحب الأشياء التي تبدو قديمة والكتب ستعطيه الانطباع بأنه شخص قارئ نهـم، شـخص يقـدر المـاضي. رأيت وقتها فجأة كم يبدو إنجليزيًّا، أو على الأقل كان ذلك هو ما يطمح إليه.

سألني:

- ألا تريدينها؟

- لا أحبها. إنها كتب قديمة و.. حسنًا، قديمة. كان لدى جَدَّتي عديد منها ولا أعرف ماذا أفعل بنصفها.

- أعرف هذا الشعور. لقد كلفني "مايلز" بمهمة شاقة للغاية، ما يذكرني الآن.

نهض واتجه ناحية ترابيزة صغيرة في ركن غرفة الطعام، وقال:

- إن سبب دعوتي لك هنا الليلة هو كي أعطيكِ هذا.

عاد إليَّ حاملًا ظرفًا مغلفًا بورق "المانيلا"، وأعطاه لي بتباهٍ وهو يجلس مجددًا.

وجدت بداخل المغلف صورة، أخرجتها وحملقت فيها بمفاجأة. كانت صورة لي مع جَدَّتي. كنا نقف بجانب "شيرلي"، سيارتها الزرقاء الضخمة، أقف بجانب الباب المفتوح وجَدَّتي تنظر إليَّ مبتسمة. أخذنا تلك الصورة قبل أن نذهب لمزرعة "مايلز" ذلك اليوم منذ سنوات عديدة. أدرتها لأنظر إلى الخلف بسُرعة وسألته:

- من أين أحضرتها؟

- وجدتها بين عدة أغراض. أوراق، وصور. ظننت أنك ربما ترغبين في الحصول عليها.

قلت دون أن أنظر للأعلى:

- أشكرك.

- لقد أحبها حقًّا.

قالها كي أشعر بشعور أفضل لكنها فاجأتني. خدشت بالشوكة في طبقي وأنا أتناول السلطة مما أصدر صوتًا عاليًا. قال وهو يأخذ رشفة من النبيذ ثم أدار الكأس قليلًا في يده:

- هل تظنين.. هل تظنين أنها أحبته؟

وضعت شوكتي محاولة ألا أظهر استيائي من سؤاله. لم أظن أننا نعرف بعضنا بما يكفي كي نتبادل وجهات النظر حول علاقة جَدَّتي و"مايلز". شعرت بالغيظ لمحاولته التعامل معي بألفة. في الوقت نفسه كنت أعرف أن بإمكاني أن أسحقه بنبرتي الساخرة لذا فقد كذبت عليه قائلة:

- نعم، أعتقد أنها أحبَّته.

كذبت عليه لأنني لم أرد أن أحطم قلبه. يكفيه ما يشعر به من حزن.

بعد العشاء جلسنا في البلكونة نتناول التحلية. كان الهواء ثقيلًا منذرًا بالأمطار، والحرارة تكاد تخنقنا. لمع البرق؛ لكنه كان لا يزال بعيدًا عنَّا.

تساءلت إذا كانت ستنتهي العاصفة قبل أن تصل إلينا أم لا. سمعت نقيق الضفادع، تتنافس أصواتها الجميلة العميقة مع صوت الصراصير الحادة كي تكوِّن صوت الليل. أكلنا الخوخ في عصير الفاكهة، وتلاها قهوة أعدها داكنة وقوية ومرَّة. أتى قطه "ألفي"، وهو قط بني ممتلئ، ليجلس على قدمي ثم نام بارتياح، كانت مخالب قبضتيه الصغيرتين تفتح وتغلق على إصبعي.

لم يكن رجلًا كتومًا؛ لكن وحدتنا هي ما جمعتنا معًا، وحدتنا على الرغم من أنه لم يدرك ذلك عنِّي على الأرجح. أعتقد أنه خلط بينها وبين استقلالية العقل. أعتقد أن سبب هذا هو الأسئلة التي سألها وتلك التي لم يسألها. شعرت بأنه يريد شيئًا منِّي، إجابة ما، أنني من الممكن أن أجد حلًا لشيء ما من أجله.

اقتربت الأمطار منا. تلاعبت الرياح بمفرش الطاولة بصخب مما جعلها تنقلب على الطاولة. كان الجو لا يزال حارًّا؛ كنت أشعر بالرطوبة على وجهي. ظننت أن عليَّ أن أطبع هيئة تلك الغرفة على ذاكرتي بشكل أوضح، الشعور بالعاصفة المقتربة، والموسيقى الباهتة في الخلفية، وعينيه الزرقاوين، وإحساس مخالب القطة التي تنغرس في إصبعي، ومذاق القهوة في فمي.

كان هو من يتحدث طوال الوقت، كما يفعل دائمًا الأشخاص الوحيدون. أعتقد أن ذلك هو ما يحدث؛ لقد وجد جمهوره متمثلًا فيَّ؛ لفظه الآخرون بعيدًا عنهم. أحببت ذلك، أن أكون مطلعة على أفكار الآخرين، ويمكنني الاعتراف بأنه كان مثيرًا للاهتمام بالنسبة لي. كنت خائفة على الرغم من ذلك من الوقت الذي سيطلبني فيه كي نتقابل لنتحدث. لقد عشت بالقرب من سطح مشاعري حتى إنني شعرت أحيانًا باقترابهم من أن يكونوا ألمًا جسديًّا. ظهرت هادئة؛ لكنني كنت أثرثر بكلام غير مفهوم بداخلي. لم أرد أن أصرح بكل ذلك. كان سيصبح ذلك أكثر من اللازم، كل ما كبته بداخلي رقد عاريًا مثل الإكسسوارات الملقاة في الأكشاك بالسوق، معروضة للجميع كي ينظروا عليها ويفحصوها ويلمسوها.

فكَّرت فجأة، ما فائدة كل ذلك. لو أنني أردت أن أتكلم، هل كان لينصت إليَّ؟ كل ذلك اللطف والاهتمام المختلق بحياتي. شعرت بأنني مثل كتاب من كتبه، شيء ما على الرَّف لا يقرؤه أبدًا. قررت ألا أقابل "توني" مجددًا.

قبل الذهاب للنوم تلك الليلة، جلست لبعض الوقت أنظر من النافذة إلى السماء. حاولت أن أفكِّر في "إنجلترا"، كيف هي الآن: الجليد والنباتات، النهارات الباردة والليالي المتجمدة؛ كيف تؤلمني أصابعي عندما أنسى القفاز أو عندما أكشط الجليد عن السيارة. إنجلترا. كم أشتاق إليها الآن؛ تفاهة الحياة هناك، والحماية التي أشعر بها من الحياة – القفل المزدوج، وأقفال "ييل"، والتدفئة المركزية، والأخبار. أتمنى أن أكون هناك الآن، لم أكن لأتمكن من مشاهدة الشروق، تلك الأشـعَّة الميتة الكريهة، والغبار. كم كرهت الغبار، وصباح أيام الأحد؛ الوحدة التي أشعر بها فيهم. على الأقل في "إنجلترا" يمكنني أن أنغمس في التسوق. يمكنني أن أحمي نفسي من صمت يوم الأحد في "إنجلترا"، أقي نفسي منه مثل البرد.

شعرت بشيء ما يتحرك خلفي مما جعلني أقفز في فزع؛ لكنها كانت المروحة تدور في أرجاء الغرفة. فكَّرت في أن النُّعاس بدأ يغالبني. رقدت على السرير وتنهدت، شعرت بدموع بطيئة تنحدر على خديَّ.

أخذت العاصفة وقتًا طويلًا حتى وصلت. بعد قليل، سمعت الأمطار تنقر على السقف. شعرت وأنا راقدة في مكاني بألم بالقرب من قلبي حين تذكَّرت أيامًا أسعد، أوقاتًا ذهبت للأبد. اشتقت إليها حينها. كانت تلك هي الأمطار الحقيقية الأولى التي تهطل منذ وفاتها، كانت لتحبها وستقول: "إنها تمطر بغزارة في الخارج".

(17)

وجدته في أعلى رفٍّ من دولابها، صندوقها. إن تصرفات الأشخاص متوقعة أكثر مما يظنون. تُركت المفاتيح في أحواض الزهور وتحت السجاجيد، ودائمًا ما تترك المرأة مذكراتها وخطاباتها في الدولاب.

كُتب على الصندوق بحروف باهتة: "السيدة "إيفيلين سوندرز"، مسافرة إلى "روديسيا" الجنوبية". اختلطت الكتابة بطوابع القلعة المتحدة وسكك "روديسيا" الحديدية. وجدت داخل الصندوق نماذج لفساتين وصورًا وبرامج مسارح وقائمة طعام من "كيب تاون كاسيل". كما وجدت صورة رسمتها لها منذ سنوات عديدة عندما كنت في مدرسة "أتلي" الابتدائية: بابا نويل بذقن مصنوعة من الصوف وعينين من البازلاء.

كما كان هناك أربع مذكرات أخرى. لماذا لم تكن مع الأخريات، لست متأكدة، باستثناء أن حوافهم لم تكن الحواف الزرقاء المقواة نفسها من "ستوتون وجيمس"؛ لكنها مذكرات ملائمة، صُممت لتكون كذلك.

كانت هناك كتابات في المذكرة بتاريخ أوائل عام 1971؛ لكنني لم أجد أي شيء بعد ذلك وحتى الثمانينيات. عادت نبرة اليأس والقلق في أفكارها. كانت الحرب قد بدأت وذهب "جيريمي". كان زواجها يترنح: شجارات، ولحظات صمت، ونوبات غضب شديدة. كانت قلقة. قد يُقتل "جيريمي". كما عاد "ج" للظهور مُجدَّدًا وهي تذهب لتراه كل يوم.

"19 يناير 1971،

اتصل "ج" هذا الصباح، يا لها من مفاجأة! لم أتمكن من فعل أي شيء بعد ذلك، سوى أن أجلس على الكرسي وأضحك! حاولت أن أكبت ذلك الشعور؛ لكنه ظل موجودًا. ظل موجودًا".

"21 يناير 1971،

ليس بإمكاني التحمل. ليس بإمكاني تحمل وحدتي في المنزل. "ليونارد" في عمله، و"جيم" رحل بعيدًا، و"فرانسي" في المدرسة طوال اليوم. لماذا لا أقضي بعض الوقت مع "ج"؟ بعد كل تلك السنوات التي افترقنا فيها، ألم أكفِّر عن ذنبي؟ لا يحتاج إلي الأولاد أكثر من هذا، ونادرًا ما نقول أنا و"ليونارد" كلمة لطيفة لبعضنا البعض هذه الأيام".

"22 يناير 1971،

تقابلنا اليوم. ذهبت إلى الفندق الذي يقيم فيه وانتظرته في الرواق، ثم أدركت أنه كان الرجل الجالس في الركن يقرأ الجريدة. شعرت بأن قلبي سيتوقف! كم ننسى ما يتلفه الزمان. للحظة فكَّرت كم أنا حمقاء، كم أنا حمقاء، أوشكت على الالتفات والرحيل. لقد أصبح تقريبًا أصلعًا تمامًا، ولديه معدة كبيرة تتدلى فوق بنطلونه. عندما رآني، أشرق وجهه ونهض على قدميه فورًا. يمكنني أن أؤكد أنه لم يكن مشهدًا من فيلم "لقاءات عابرة"!.. شخصان في منتصف العمر يُقبِّل أحدهما الآخر.. وينقصهما شيء ما من الشعور بالرومانسية.

قال إنه الآن حر بعض الشيء، بما أنه أصبح شريكًا في الشركة، ويمكنه أن يرتب وقته بناءً على لقاءاتنا. ذهبنا لتناول الغداء معًا: مكان مظلم ويبدو حقيرًا بعض الشيء. يغلب على ألوان ديكوراته اللون الأخضر الداكن الرائج في ذلك الوقت. ثم عدنا للفندق وجلسنا في البار: تناولنا المشروبات وبالطبع تحركت يده إلى ساقي وبقيت فوقها. ثم اتجهنا لغرفته.

فكَّرت على الفور كم أن هذا مختلف عن الليالي الطويلة التي قضيناها معًا في منزله. أخبرني أنه لا يزال يملكه؛ لكنه يؤجره لبعض المستأجرين. يا لها من كلمة، "مستأجرون". ظننت أنني سأشعر بالحزن؛ لكن لم يحدث ذلك. أحب ذلك الأمر. أحب غياب العاطفة والمشاعر. أحب أن أستمتع بوقتي دون أن أفكِّر في المستقبل. أشعر بالسعادة في مكان بدون شِعر، أو توقعات، أو وجبات محببة، أو رؤوس منحنية فوق خرائط، أو أوهام، أو حتى رومانسية. مجرد اليد على الساق: جنس. احتياج".

"14 فبراير 1971،

وجدت زهورًا في الغرفة عندما صعدت. لم يعد يرهق نفسه بالنزول لمقابلتي في الرواق. أمشي في طريقي مباشرة، أضغط على زِرِّ المصعد، ثم أطرق على باب غرفته. هذا الصباح وجدت باب الغرفة مفتوحًا بعض الشيء، وفُتح عندما دفعته، لم أره في البداية، رأيت فقط الزهور، سألته في مفاجأة ساخرة: "هذه من أجلي؟". ابتسم وهو يغلق أزرار أكمامه وغنَّى:

"خططنا معًا كي نحلم للأبد،

انتهى الحلم، حيث مات الحب الحقيقي".

دندن باقي الأغنية وهو يطوي ياقة قميصه، ثم التفت وقبَّلني على خدِّي، وقال: "عيد حب سعيد". ابتسمت وقبلته؛ لكن في طريقي إلى المنزل لم أتمكن من ألا أفكِّر كم أنه قد أصبح تقليديًّا. لم يعد يحضر لي باقات ورد قطفها بيده، أو بتلات صغيرة، أصبحت فقط زهورًا يشتريها من محل".

"15 فبراير 1971،

أصبح "ليونارد" يسألني أين أذهب طوال اليوم. قال إنه يتصل ولا يجد أحدًا. قلت له: "بالخارج، أتسوق".. "طوال اليوم؟".. "نعم".. بالطبع لم يصدقني".

"17 فبراير 1971،

لم يكن موجودًا في الفندق هذا الصباح. انتظرته لساعة كاملة قبل الذهاب للتسوق. عدت في وقت الغداء؛ لكنه لم يكن هناك أيضًا، لذا فقد عدت إلى المنزل، ولم أتوقع من سأجد هناك. "ج"! كان يجلس في الحديقة يتناول الغداء مع "ليونارد" و"فرانسي". كانت "فرانسي" تصب له كوبًا من الشاي عندما وصلت وبدت سعيدة للغاية لرؤيتي، وأرادت أن تفاجئني بوجود "ج"، قالت في حماس وأنا أعبر من البوَّابة: "انظري من هنا يا أُمِّي! مفاجأة!". لم أتمكن من التحدث عندما نهض "ج" واصطنع مشهدًا عند قيامه باحتضاني وتقبيلي. فيما بعد أخبرني كم كان مسرورًا لتمكنه من فعل ذلك أمام الجميع. سألنا عن "جيم" ومتى رأيناه آخر مرَّة، ثم انخرط هو و"ليونارد" في مناقشة جادة حول الحرب. كان "ج" وقحًا بشكل ضايقني تجاه الحرب ووجدت نفسي أقف في صف "ليونارد" كلما تحدث

أكثر. أعلن عند نقطة ما وهو يسترخي في الكرسي الحديدي المصنوع يدويًّا قائلًا: "بالطبع لن تربحوا هذه الحرب أبدًا". أعرف بأنه أراد أن يرى رد فعل "ليونارد"، وتمنيت ألا يقع "ليونارد" في فخه؛ لكنه بالطبع فعل، ورأيت "ج" يستقبل ذلك باستمتاع.

قال "ج" في إصرار: "لا، إنكم مجرد أطفال كشافة معهم بنادق، هذا كل ما في الأمر. سلاح الجو الملكي وكشافة سيلوس الخاصة بالجيش الروديسي"*.

سخر "ج" من محاولات "ليونارد" لإقناعه بغير ذلك وقال: "لا بد أن يأتي الاستقلال". تدخلت فجأة قائلة: "لماذا؟". لوَّح بيديه في الهواء كأنما توجد أمامنا خريطة كبيرة للقارة، وقال: "انظري إلى "أفريقيا" الآن، رياح التغيير. إنها حتمية".. "أتذكَّر أنك قلت الشيء نفسه عن الاستعمار منذ عدة سنوات".

نظر "ليونارد" إلي حينها في مفاجأة عند ذكري لمحادثة لم يكن موجودًا أثناءها، كما نظر لي "ج" أيضًا. قال في إصرار: "ولن أعود للتفكير هكذا".

فكَّرت بأنه مثل السياسيين. لديه إجابة على كل شيء، ولا يؤكد أو ينفي أي شيء.

"الاستعمار، ثم الرغبة في الاستقلال، والحرب، والثورة، والخدعة". قال "ليونارد": "وماذا بعد ذلك؟".. "الحكم المستقل". قال "ليونارد": "فوضى لعينة". هزَّ "ج" كتفيه وقال: "لو لم تعجبك، بإمكانك الرحيل".

التقط "ليونارد" الطعم، دار بجسده في غضب تجاه "ج" وقال له في غضب: "إنها بلدي، لن أرحل".. "إذًا فلتتعايش مع الأمر؛ لكن عليك أن تتغير. تتغير مع البلد".

كان "ليونارد" مرتبكًا. ربما لم يفهم ما كان يقصده "ج" بالضبط لأنه قال وهو يهزُّ رأسه في تصميم: "تريدني أن أتغير لأصبح مثل هؤلاء الرعاع؟ أكون مثل هؤلاء السُّود؟ فلتغرب عن وجهي!".

كان "ج" يراقبني وأنا أراقب "ليونارد"، وكان هناك ابتسامة صغيرة للغاية ترتعش على ركن شفتيه. لم أحب استمتاعه على حساب "ليونارد" بهذا الشكل، مهما كان يستحق ذلك. ثم فجأة ومن دون أي مقدمات، قال: "معك حق. أتفق معك تمامًا، لهذا السبب سنرحل".

نظرت إليه في حدة، ونظر لعينيَّ وهو يقول لنا إنهم سيغادرون إلى "جنوب أفريقيا". قال باستمتاع: "ديربان، كم أحب الساحل". قلت وأنا أشعر بجفاف وحدة حلقي من الفاجأة: "متى؟". هزَّ كتفيه، وقال: "خلال الشهور القليلة المقبلة، كلما كان أسرع كان أفضل".

نهضت وحملت أكواب الشاي وهي تصدر جلبة وتمكنت من أن أقول: "هذا جميل، الساحل. نعم، سيكون الساحل جميلًا". ثم أخذت الصينية واتجهت بها إلى المطبخ والدموع تبلل عينيَّ مما جعلني أوشك على التعثر في عتبة الباب. حاولت أن أثبت نفسي أمام المنضدة، وأن أتنفس بعمق، وأكتم دموعي؛ لكنني رأيت "فرانسي" تقترب حاملة بقية أغراض الشاي فاندفعت بشكل جنوني إلى الحمَّام. ظللت أفكِّر، يا إلهي، كيف يتمكن من فعل ذلك كل مرَّة؟".

"19 فبراير 1971،

تمكن من إقناعي بأن أقابله مرَّة أخيرة. سيرحل في اليوم التالي إلى "ساليسبيري". سألته: "لماذا؟".. "تعرفين لماذا. يجب أن أذهب"؛ لكنني هززتُ رأسي، والدموع تخنق حلقي. لم يكن ذلك هو ما أطلبه. جلس بجانبي ودفع بشعري بعيدًا عن عيني، وقال: "لقد تعمقنا كثيرًا في الأمر. حدث الكثير. لا يهم أن الأطفال الآن أكبر سنًّا أو أن "ليونارد" تعيس مثلك تمامًا. لا يمكننا أن نسلب منهم ماضيهم. لا يمكننا أن نفعل ذلك بأي أحد".

هززتُ رأسي في ضعف ودفنت نفسي بين كتفيه، متشبثة بقميصه، أشـم رائحتـه، تلك الرائحة التي لن أشمها مجددًا. احتضنني لفترة ثم أعطاني زهرة متدلية من الفازة على الطاولة. اضطررت إلى ترك الزهور هناك لأنني لم أكن لأتمكن من شرح مـن أيـن جئت بها. غنَّى من أجلي بنعومة:

"زهور حمراء من أجل المرأة الحزينة،

وإن لم يفُ بالغرض،

سأعود مسرعًا وأقطف...".

أكملت قائلة:

"أفضل زهور "الأوركيد" لفستان زفافها".

كم هذا مثير للسخرية حقًّا. قال وهو يُقبِّـل جبهتـي: "اقضي الليلـة معـي". تنهدت، وقلت: "لا".. "أرجوك".. "لا".

"20 فبراير 1971،

اتصل بي هذا الصباح وطلب منِّي أن أقابله لنتناول مشروبًا معًا. أعـرف مـا سيحدث. سنشرب معًا، لن نظل جالسين حتى وقت الغداء، سـنعود لغرفتـه في الفندق، وسنمارس الجنس. سأقضي الليلة معه. إنه هو مـن يـربح دائمًـا، ألـيس كذلك؟ دائمًا. لكن بعد ما حدث، توصَّلت لقـرار، لقـد انتهـى أمـره، إنـه خـارج حياتي. سأنساه، لن أضعه في مكانة قبل أي شيء آخر مجددًا، لا أنا، ولا عـائلتي. سأنهي الأمر نهائيًّا".

لم تكتب أي شيء بعد ذلك لحوالي عشرة أعوام على الأقل. فيما بعد في ذلك اليوم سيعود "جيريمي". كانت هي في الخارج. في اليوم التالي، قتل نفسه.

(18)

عندما كنت طفلة صغيرة، تخيلت كيف سأقع في الحب، أن أحب شخصًا ما، حبًّا يضع لمعة في عيني وانطلاقة في خطواتي، حبًّا يظهر من اللحظة الأولى التي ننظر فيها في عيني بعضنا البعض. لو تصدق ما يقال في الأفلام، سترن أجراس، وستسقط زهور من السماء. يقف الأزواج ناظرين لبعضهم البعض في اشتياق وهم يعرفون بأنهم سيظلون معًا للأبد.

لكن ما لا يخبرنا به أحد هو عندما تنتهي تلك اللحظة. لا تستمر الكاميرا في متابعة ما يحدث بعد القبلة الحميمية والكلمات الهامسة. فهي لا تعرف حياة الأشخاص اليومية ولا تهتم بها. ماذا يحدث عندما ينتهي السحر، عندما تقرر فجأة أنك لم تعد تحب شخصًا ما؟ ربما يعتاد الأشخاص على بعضهم البعض. تتشكل العقول مع بعضها، تهرب من العواصف إلى المكان المناسب لها. بعد مرور بعض الوقت، ينسى الشخص تصرفات الآخر المزعجة أو يتعلم كيف يتعامل معها. تتعلم كيف تتلاعب، كيف تكمل في طريقك، كيف تدمر. بعد انفصالي عن "مارك" بفترة، اعتدت على تأمل ديناميكية العلاقات الإنسانية الغريبة وتوصلت لخلاصة ساخرة بعض الشيء بأن الناس مفردون، منفصلون، وأن أي محاولة للارتباط هي إهانة للطبيعة.

ربما يكون الحب الوحيد الذي يمكن الوثوق فيه هو الحب الآخر، حب العائلة، أو صديق، أو جرو. حب لا يتطلب زهورًا ولا عشاءً على ضوء الشموع، حب لا يسعى باستمرار أن يجد انعكاسه في مكان آخر، مؤرق، خائف، أناني. لكن ذلك الحب، حب

العائلة، هو أيضًا يدمر، أليس كذلك؟ إنه يتطلب، ويضايق، ويتملق. إنه يقتل. "كل رجل يقتل الشيء الذي يحبه". ماذا كانت تكملة هذا المقطع من قصيدة أوسكار وايلد؟

"يجب أن يسمع الجميع ذلك،

بعضهم يفعلها بنظرة مريرة،

والآخر بكلمة غزل.

أما الجبناء فيفعولنها بقبلة.

والشجاع يفعلها بسيف".

يوم أن وجدت جَدَّتي مع "مايلز"، مات شيء ما بداخلي. كأنما أطفأ أحدهم شعلة ظلت مشتعلة لساعات. ظل الدخان الكثيف في الهواء بعدها؛ الشمع، ظل سائلًا وساخنًا، يحتاج إلى وقت كي يقوى ويبرد، لكن هذا ما يحدث في النهاية، مثل حركة قارب توقَّف محركه فجأة، تاركًا المركب يتمايل دون هدف وسط الأمواج المظلمة. ما هذا الذي مات بداخلي؟ ربما كان جزءًا من قدرتي على الحب، أو على الأقل أن أؤمن به كما كنت من قبل، أو ربما كانت القدرة على الثقة.. الثقة في شيء ما أعظم من نفسي. شعرت أحيانًا بأن حياتي لن تتصل، كأنني أحمل في كل يد قطعتين من حياتي لن يتصلا ببعضهما أبدًا. مثل قطبي مغناطيس متشابهين، لا يمكنهما الالتقاء أبدًا.

"23 أكتوبر 1983،

ذهبنا اليوم لمنزل "مايلز"، منزل صغير قديم في الجادة الثالثة. لم ترد "إيلي" أن تأتي وظننت أن عليَّ أن آخذها إلى المنزل؛ لكنها من الممكن أن تستاء من ذلك، وربما لن تسامحني مطلقًا. إنها تتطلع للغاية لوقتنا معًا وأعرف أنها تفتقدني مثلما أفتقدها بالضبط.

أخبرتني "فرانسي" أنها وجدت نتيجة في غرفتها وقد وضعت علامة على أيام السبت وبجانبها علامة تعجب وتضع علامة على كل يوم يمر حتى يأتي السبت.

لكنها لم تتحدث مع "مايلز" مطلقًا. وهي تتحول كثيرًا، عندما يصل، من كائن مرح لا يستطيع التوقف عن الكلام إلى مخلوق غريب مكتئب يصعب حثه على أن يقول أي شيء. يظل "مايلز" يخبرني بأنها ستتأقلم؛ لكن لم يحدث هذا حتى الآن.

إنها ليست من ذلك النوع من الأطفال الذي يثير ضجة حول أي شيء؛ لكنها اليوم بالغت في رد فعلها تجاه شيء ما في منزل "مايلز": ثعبان. ثعبان منزلي، واحد من تلك الأشياء الرفيعة البنية التي تظهر بخجل أحيانًا في يوم حار للغاية ويريد من الناس أن يتركوه لحاله أكثر من رغبتهم في أن يتركهم لحالهم. من المؤكد أن "إيلي" رأتهم كثيرًا من قبل. كان في حمَّام السباحة الفارغ الموجود خلف منزل "مايلز"، لذا فلم يكن من المرجح أن يؤذينا طالما أنه كان في الأسفل! هذا المسكين لم يكن بمقدوره حتى الخروج ولقد كنت مهتمة بالتفكير في مساعدته للخروج من حمَّام السباحة أكثر من اهتمامي بما إذا كان سيلدغني أم لا.

بدأت "إيلي" بالصراخ قائلة: "هناك ثعبان، هناك ثعبان!".

جئت من المطبخ مهرولة ورأيتها تقفز لأعلى وأسفل وهي تشير ناحيته، توقعت أن أرى ثعبانًا كبيرًا أو أفعى، شيئًا ضخمًا ومفزعًا وخطرًا. لكنه كان هناك، هذا الثعبان الصغير، المرهق، الذي يتعثر على الدرجة الحجرية لحمَّام السباحة، ثم يسقط للخلف عندما يصل للحافة ولا يتمكن من ثني جسده بالطريقة السليمة.

صرخت وأنا أمسك يدها: "لا بأس، بحق الله، اهدئي!".

أخبرتها أننا سننتظر حتى يعود "مايلز"، حيث إنه ذهب ليشتري بعض المشروبات وسيعود بعد حوالي عشر دقائق. فكَّرت في أنه سيعرف كيف سيتصرف معه. تشبَّثت بي "إيلي"، بينما

تنهمر الدموع على خديها، وبالطبع كانت ترتعش بشـدة؛ لم تكـن تتظـاهر بـأي شيء وقتها. تأخر "مايلز" عمَّا كنت أظن وعندما أريته الثعبان كان قد مات. كانت الشمس حامية للغاية عليه. شعرت بالسوء، شعرت بالسوء فعلًا. رقـد ذلـك الثعبـان المسـكين محمصًا على الأسمنت الساخن، وكنا نحن نجلس في الداخل في انتظار "مايلز" كي يـأتي ليخرجه.

ذكَّرتني تلك الحادثة بحادثة أخرى منذ سنوات عديـدة، مـع "فـرانسي". أتى "والي" ذات يوم أحد وكان يقوم ببعض الأمور التي يفعلها الأعمام مع الأطفـال، يلعب معهم، ويحملهم على ظهره، ومثل تلـك الأشـياء عنـدما سـمعت صرخـة فجأة. كانت "فرانسي" هي من صرخت. جريت متجهة للخارج واصطدمت فيها وهي تجري إلى الداخل. أتذكَّر أن الليل كان قد بدأ يحل، وربمـا كانـت متعبـة. ربما يفكِّر "والي" في الرحيل الآن. كـان "والي" يـدخل المنـزل حـاملًا "جـيم" عـلى كتفه ولوَّح لي وابتسم عندما خرجت مع "فرانسي"، وقال: "لا بأس، لقد شـعرت بالفزع".. "ماذا حدث؟".

قال وهو يشير إلى إحدى أشجار الفاكهة: "رأينـا حربـاء. كنـا نجمـع الخـوخ عندما رأت فجأة حرباء فصرخت".

أنزل "جيم" على الأرض ومط ظهره، وأكمل قائلًا: "ركضـت بعيـدًا والحربـاء غيرت لونها إلى البنفسجي".

ضحك "جيم" تلك الضحكة المجلجلة المحببة التي كان يضحكها في طفولته. التفت إلى "فرانسي" التي كانت قد توقفـت عـن البكـاء وتسـتمع لكـلام "والي"، وقلت بهدوء: "إنها مجرد حرباء"، لكنها التفتت وأخفت وجهها في كتفي. حتـى فيما بعد، عندما رحل "والي"، واستحمَّ الأولاد وكنـت أضـعهم في السريـر لم تـرد التحدث عن الأمر. لكنها نظرت لي تلك النظرة التي تنظر بهـا إليَّ عنـدما أكـون غاضبة منها، كأنني جرحتها بشكل ما.

قلت لها: "إنني أصدق ما قلته".

لكنها التفتت ونظرت للحائط. ظللت جالسة بجانبها حتى نامت، ظل وجهها الحزين يسترخي، بينما أمرر يدي على شعرها".

منزل "مايلز". ماذا أتذكَّر من منزل "مايلز"؟ كان اللون البني متكررًا فيه؛ درجة بني من السبعينيات، توجد وحدها أحيانًا، وأحيانًا أخرى مع اللون البرتقالي، عادة ما تكون على هيئة زهور كبيرة على الستائر التي تسمح لأشعة الشمس بالمرور. كانت قطع الأثاث قديمة أيضًا، وبدا كأنها لا تحمل أي قيمة عاطفية، كأنها موجودة هناك فقط كي تلبي الغرض. كان ذلك بعيدًا عن مجموعة تسجيلاته، التي من الواضح أنه أحبها لأنها لامعة للغاية والتسجيلات موضوعة بعناية في الدولاب السفلي: "دين مارتن"، و"إلفيس بريسلي"، و"خوليو إيجليسيس"، و"روجر ويتاكر".

المحاولة الوحيدة لوجود لمسة أنثوية في المكان كانت في وجود بعض المفارش البيضاء على طاولتين جانبيتين ومجموعة من الورد الصناعي، لونه برتقالي أيضًا فوق البوفيه. كانت هناك أيضًا صورة لثلاث نساء سود من "السودان"، أو شيء من هذا القبيل، لديهن أشياء غريبة في آذانهن وأنوفهن وكثير من القلادات. كانت الصورة بالأبيض والأسود، وعلى الرغم من أنهن وقفن في مواجهة الكاميرا، كُن ينظرن بعيدًا عمَّن كان يلتقط الصورة. كان هناك شيء ما بهن ذكَّرني بالحيوانات المتوحشة عندما تتفاجأ بظهور شخص أمامهم؛ فهي تتجمد في مكانها منتظرة بمزيج من الخوف والذهول أي رد فعل يقوم به الشخص الدخيل قبل أن تنطلق هاربة.

رآني "مايلز" أنظر إليها ذات يوم فقال: "الحبشة".

كان ذلك كل ما قاله، لكن كان بإمكاني معرفة أنه أرادني أن أسأله أكثر عنها، لكنني لم أفعل. لم يكن أي شيء يفعله يثير اهتمامي.

كانت هناك صور صفراء على الحائط: صور "سارة مون" الغريبة التي شاعت لبعض الوقت في الثمانينيات مطبوعة على ألواح ملطخة بأجساد الذباب والناموس الميت وأحيانًا الخط البني الطويل الذي تسبب فيه تسرُّب المياه. كما كان هناك نسخة مؤطرة لقصيدة "لو" من تأليف "كيبلينج" وأتذكر دائمًا تلك السطور الأخيرة جيدًا لو لم أتذكَّر غيرها: "سوف تكون رجلًا يا بني". اعتدت التساؤل/ لماذا لم يتزوج، لم ينجب ابنًا أبدًا يمكنه أن يقول له: "سوف تكون رجلًا" ويضربه برفق على ظهره، مثلما يفعلون في المسلسلات الأمريكية.

أتذكر أيضًا وجود مجموعة من الكتب في صالة منزل "مايلز": ذات ظهر ورقي وصفحات صفراء وأغلفة تساقطت ولُصقت مُجدَّدًا باللاصق الذي أصبح الآن قديمًا وجافًّا ويتساقط. نظرت في أحد الكتب لأجد بداخله عددًا من النمل المسحوق بين صفحاته التي انزلقت من مكانها، تحررت أخيرًا دون أي أمل في إعادة إحيائها. وجدت شعرًا في كتاب آخر. تساءلت ما إذا كان شعر أنف.

كما كان هناك كتب عليها صور مسدسات سوداء ثقيلة على الغلاف الأمامي، ونساء: خائفات في بعض الأحيان، في حاجة للإنقاذ؛ وفي أوقات أخرى مغويات، وجالبات للمشاكل. تلك الرائحة، رائحة الغبار، ودخان السجائر، التي يمكنني بالكاد تذوقها؛ كل السنوات المحاصرة بين الصفحات.

أتذكر تلك الزيارة لمنزل "مايلز". ربما كانت تلك هي المرَّة الأولى أو الثانية. نجلس في الخارج في حرارة الظهيرة المبكرة البيضاء ليوم السبت، أشعر بالصخور الساخنة أسفل قدميَّ، وأحدق في الوهج المنبعث من حمَّام السباحة الفارغ. كانت هناك أغراض الشواء، وكرسيان أسمنتيان، وطاولة، نُظفت جميعًا بالكامل، لكنها كانت قديمة، من موضة يمكنني أن أعرف الآن أنها من الخمسينيات، لكنها بدت حينها تنفث تجاهي القِدم والتحلل مع موجات الحرارة.

أتذكَّر رؤية الثعبان، يتمايل يمينًا ويسارًا، ويتلوى أسفل حمَّام السباحة الفارغ، يكافح كي يصعد على الميل الناعم للدرجة ثم سقوطه للخلف، حيث إنه لا يتمكن من جعل نفسه يلتف في الوقت المناسب. أتذكَّر صراخي: "ثعبان! ثعبان!".

مجيء جَدَّتي ركضًا من المنزل وإمساكها ليدي. كان "مايلز" في الخارج. وهي تقول في إصرار بينما تعيدني إلى المنزل: "سنخبر "مايلز" أن يتعامل مع الأمر عندما يعود. لا تقلقي، لا تقلقي!".

ظللت أنظر إلى النافذة المغلقة في انتظار "مايلز". رأيت ذبابة محاصرة بين الزجاج وسلك البعوض. ظلت تطن وتسقط وكل مرَّة أظن أنها استسلمت فأجدها ترفع نفسها في محاولة أخرى وسقطة أخرى.

بدا كأن زمنًا طويلًا مر قبل أن أسمع صوت إطارات السيارة في المدخل، ثم صوت الباب يقفل، وصوت زجاجات ترتطم ببعضها البعض، وأصوات في المطبخ.

قال "مايلز": "الآن، أين ذلك الثعبان؟".

ظننت أنه سيمد يده ليمسك بيدي، فطويت ذراعيَّ بتحدٍّ، ذراعاي أسفل إبطيَّ وغامرت بإخراجهما ببطء. رأيت اضطرابًا في عينيه، ملاحظة سريعة لسلوكي الشائك، لكن رحل ذلك الاضطراب سريعًا وعادت الابتسامة الساخرة مرَّة أخرى.

كان الثعبان لا يزال في مكانه، لكنه كان قد مات، منحنيًا في انحناءة أبدية باتجاه الدرجة. قال "مايلز" وهو يرفعه من ذيله وينظر إليه وهو متدلٍ في ارتخاء: "لقد تحمص".

قلت وأنا اشعر بالدموع تتجمع في عينيَّ: "مات؟".

ألقى به "مايلز" من فوق السور ومسح يديه في مؤخرة بنطلونه القصير، وقال: "لم يكن خطرًا. ثعبان العشب. لديَّ الكثير منه هنا".

بعد ذلك عاد إلى المطبخ، فتح زجاجة بيرة "كاسيل" وصبَّها في كوبين. وكأن شيئًا لم يكن.

(19)

"5 ديسمبر 1984،

اتصل بي "والي" في الليلة الماضية. لم أتمكن من تخمين المتصل عندما أوصلني به عامل التليفون. قال بعد أن تأكد من رقمي: "انتظري قليلًا من فضلك. لديك مكالمة من المملكة المتحدة".

حينها سمعت ما بدا وكأنه طقطقة وأزيز سيستمر للأبد في الخط، ثم سمعت بعدها من يقول: "مرحبًا؟".

مرحبًا! يا لها من كلمة غير ملائمة. كان من الصعب التحدث والتعطل في الخط جعل الأمور أصعب. فيما بعد، فكَّرت في الخط، كيف يقولون إن الكابل يمر عبر قاع البحر، وكيف أتحدث إليه حرفيًّا عبر القارات والمحيطات. كأنما كل السنوات لم تمر على الإطلاق.

قال: "أود أن آتي لعدة شهور، لقد تقاعدت الآن".

فكَّرت في أنك متقاعد بالطبع؛ لكن شهرين؟ أعرف ما سيحدث. إنه كتسجيل نشغله كلما نتقابل، أقسم أنني لا أتورط، ثم نتورط معًا، ويرحل، وأشعر أنا بالتدمير.

قلت: "إنها مدة طويلة بعض الشيء، إن لديَّ شقة فقط".. "أعرف".

سألته فجأة، وربما كنت أبدو مرتابة، وغير مرحبة: "كيف حصلت على الرقم؟".

قال بينما أخذ صوته نبرة رجال العصابات الأمريكية: "مـن معـارفي، يمكنـك الهرب؛ لكن لن يمكنك الاختباء".. "أسبوعان".

مرَّت لحظة صمت، ربما تسبب فيها الخط الذي بدا حينها تسري فيـه قـوة زائدة.

"والي"؟

لم أسمع أي رد، وعندما نطقت اسمه مُجدَّدًا عاد إلى الخط: "نعم، أسبوعان يا "إيفيلين"، هذا جيد".

"14 ديسمبر 1984،

أشعر أنني لا أفعل أي شيء. يسألني الجميع ما المشكلة. أرى وجـه "إيـلي" عندما تأتي لشقتي، تنظر حولها لكل الفوضى، والأثاث غير النظيف، والنباتات في حاجة لأن أسقيها.

قالت وهي تمسك بصفيحة رش المياه: "سأفعل ذلك يا جَدَّتي".

ثم سارعت برش المياه على كل حوض نباتـات. سـمعتها اليـوم تتحـدث إلى النباتات قائلة: "لا بأس، إن جَدَّتي قلقة فقط بعـض الشيء لأنهـا تتوقـع حضـور زائر ما قريبًا". ثم قالت كأنما سألتها أحد النباتات سـؤالًا: "نعـم، مـن "إنجلـترا". هل تعرف أين تقع "إنجلـترا"؟ إن الثلـوج تتسـاقط هنـاك وقـت الكريسـماس، ويمكنك صنع رجل الجليد وتركب على شيء يسمى لـوح التزحلـق. كـما تعـيش الجنيات هناك؛ لكنهن لا يعشـن هنـا لأن الجـو هنـا حـار للغايـة، وهـن لسـن معتادات على الحرارة، والبعوض أيضًا".

ثم أخرجت سائل التلميع وبدأت بتلميع ترابيزة القهوة.

هل أريد رؤيته حقًّا؟ لديَّ كثير من الممكن أن أخسره الآن: "مايلز" و"إيلي" وسلامتي العقلية. كان من الممكن أن أموت حينها، لقد فكَّرت في الأمر. من كان ليفتقدني لو أنني ببساطة قمت وأغرقت نفسي في الأمواج؟ لا أحد؛ لكنهم الآن سيفتقدونني. يمكنني أن أنجو الآن كما نجوت حينما تركني لأول مرة. لقد تركني مرَّات عديدة منذ ذلك الوقت، ومع ذلك فلم تكن أي مرَّة مؤلمة أكثر من المرَّة الأولى.

بدأت أسأل بعض الأسئلة. أين سنذهب من هنا؟ هل سنبقى في "بيرا" ولا نذهب إلى الاتحاد؟ كيف استقبلت "رييت" الخبر؟ هل انتشرت فضيحة من أي نوع في "روديسيا"؟ كان مستخفًا بما أقوله، ضحك من قلقي، وحاجتي للتخطيط. أعرفه جيدًا ممَّا جعل من السهل علي أعرف متى يكون مراوغًا. كنا نتناول المشروبات في البلكونة في ليلتنا الرابعة تقريبًا هناك وخطرت ببالي فكرة فجأة: ماذا لو أنه لا توجد خطة؟ ماذا أخبرني فعليًّا عن المستقبل؟ لا شيء، حينها صُعقت عندما تذكرت أنه لم يقل بالفعل أنه سيهجر "رييت". كل ما قاله هو أننا سنرحل. لكن الناس ترحل للذهاب في عطلات، أليس كذلك؟ أن ترحل لا يعني بالضرورة أنك لن تعود. كان يقرأ الجريدة عندما سألته. تحركت يده بعض الشيء واهتزت الجريدة وقال: "همم؟". كان ذلك هو رد الفعل الوحيد. فأصررت: "سألتك سؤالًا، هل تركتها؟".

تنهَّد وطوى الجريدة بعناية؛ لكنه لم ينظر إليَّ. نظر بعيدًا باتجاه الظلام المتزايد عند البحر. كانت تلك هي الإجابة، فقلت: "أنت لم تتركها، أليس كذلك؟".. "لا".

فجأة، أدركت كم أبدو سخيفة، أتظاهر بأن أكون زوجة: بفستاني الأسود، والحذاء اللامع، وحقيبتي، والشال. أقراطي، وقلادتي، وخاتم زواجي من "تيموثي" الذي وضعته في يدي اليسرى لأضيف شعورًا زائفًا بالاحتشام. كل شيء أشار تجاهي ساخرًا. أيتها الحمقاء! ألم تكوني تعرفين؟

سألت وأنا أشير في غموض ناحية البحر: "ما معنى كل هذا؟".. "كان من المفترض أن يكون إجازة. وقت لأنفسنا نكون فيه بمفردنا. أنت فهمت الأمر بشكل خاطئ، ماذا علي أن أفعل؟".. "إذًا فقد تعايشت مع الأمر؟".

قال في غضب: "لا"!.. "ماذا تسمين ما نحن فيه إذًا؟".. "أنا...".

لم يجد الكلمات المناسبة. ظللنا جالسين في صمت لفترة طويلة. نقرت بإصبعي على كأسي بهدوء محاولة أن أمنع فيضان الدموع الذي كنت أعرف أنه على وشك الانفجار. قال فجأة: "إيفي، أنا لست مغامرًا حقيقيًّا".

هززتُ رأسي؛ لكنه أكمل كلامه: "أنا لست من النوع الذي يحزم أمتعته وينطلق وقت الغروب دون أن يعرف وجهته".

حاولت أن ألقي دعابة: "لكنك تملك الخريطة".

لكن صوتي تحشرج واضطررت للنظر بعيدًا.

"حتى مع وجودها، يجب أن أخطط لرحلتي. أنا لست مندفعًا. أنا لا أخاطر بأي شيء".. "لقد خاطرت بزواجك". أخذ شهيقًا طويلًا، ثم قال: "ليس بالضبط يا "إيفي". إن "رييت" ستقبل بعودتي دائمًا".. "هل هي تعرف بأمرنا؟".

أومأ برأسه في إيجاب فقلت: "ماذا قالت؟".. "أن أقطع تلك العلاقة، أنهيها، قبل أن أتورط فيها أكثر".. "وماذا عنك؟".

لوَّح بيديه في الهواء بغضب. رأيت عينيه مليئتين بالدموع، وقال: "ماذا تظنين؟".

ماذا كان الخيار؟

استأذنت من "والي" أن أذهب لوضح مسحوق التجميل على أنفي؛ لكنني خرجت من الفندق إلى الطريق. كنت أمشي بعزم متجاهلة نداءات سائقي التاكسي الذين يعرضون عليَّ

أن يقلوني. فقط أكملت سيري، أكملت حتى غربت الشمس وأحسست أن بإمكاني الإبطاء والتنفس بسهولة أكثر. تمكنت من سماع موسيقى: موسيقى برتغالية نابضة بالحياة وبعض الأمور الأمريكية وضحك. ضحك بعض الشباب يستمتعون بوقتهم. مجموعات من رجال ونساء شباب يمشون معًا ممسكين بأيدي بعضهم البعض إلى البارات والمطاعم. فكَّرت في أنني شابة أيضًا، لديَّ بعض الوقت؛ لكنني نظرت إلى الرجال الشباب بوجوههم الناعمة النظيفة وإيماءات الشهامة حسنة النية الصادرة عنهم، وفكَّرت في أنه لا يمكنني العودة. لن أكون شابة مجددًا. أنا لم أتقدم في العمر؛ بل لقد مُت. نعم، هذا هو ما حدث، لقد مُت.

وجدت نفسي في شارع جانبي هادئ. بدت المنازل المبنية على الطراز البرتغالي دافئة ومرحبة، كأنها ممتلئة بالعائلات: الأطفال، والأجداد. الجميع مرتبطون ببعضهم البعض بشدة. شعرت بالوحدة التامة، ولم تكن تلك هي المرَّة الأولى. أنا وحدي، بمفردي في العالم.

رأيت حينها طفلًا هنديًّا جالسًا على درجة سلم ينظر إليَّ. كان في السابعة عشرة من عُمره تقريبًا، ولديه ساقان نحيفتان طويلتان، وجسد مرن. كان يمرر خيطًا داخل ثقب إبرة. بدا وكأنه سيرتق ثقبًا في بنطلون رمادي.

قلت متناسية إنه من الممكن ألا يكون يتحدث الإنجليزية: "مرحبًا".

أجاب وهو يبلل طرف الخيط بشفتيه قبل أن يحاول تمريره مرَّة أخرى في ثقب الإبرة: "مرحبًا".

لا أدري لماذا أردت التحدث معه؛ لكنني فعلت ذلك وحسب. قلت وأنا أشير للبنطلون: "أتصلحه؟". نظر إليَّ في شك بعض الشيء، وقال: "نعم، من أجل عمِّي. إنه بنطلونه".

أردت أن أقول له: "هل يمكنني أن أجلس بجانبك وأشاهدك وأنت تعمل؟". كنت أشعر بالتعب والإرهاق الذهني. بدلًا من ذلك، سألته عن مكان محطة القطار. خطرت لي تلك الفكرة بأن أقفز في أي قطار وأعود إلى "بولاوايو". أشار بيده على الطريق، ثم وجَّه يده ناحية

اليسار، ثم أكمل الخياطة. شكرته وكنت على وشك الاستدارة والرحيل عندما انفجرت في البكاء فجأة. استدرت وجريت في الطريق دون أن أعرف أين أذهب أو كيف سأصل إلى وجهتي، ثم حينها رأيته، الفتى، كان يجري ورائي وينادني: "يا آنسة، يا آنسة".

حتى أمسك بيدي وأوقفني.

أعادني لمنزله. كان منزلًا صغيرًا يعيش فيه مع جَدَّته، وهي امرأة ضئيلة ترتدي ساريًا أبيضَ. أعدت لنا الشاي. شايًا حارًّا ولاذعًا، وأعطتني طبق "سمبوسة" لآكله. جلست وحملقت فيَّ طوال فترة بقائي هناك، وتحدثت معي بلغة أخرى وضحكت بين الحين والآخر، وكانت تهزُّ كتفيها كأنها تقول "أنت لا تفهمين كلمة واحدة مما أقوله، أليس كذلك؟".

عندما هدأت وأكلت وشعرت بالراحة، قمت بعمل إيماءة توحي بأنني أريد الرحيل، فقامت الجَدَّة وحفيدها قافزين ليقوداني للخارج. قال لي الفتى عند الباب: "أنت من "روديسيا"؟".. "نعم، بولاوايو".

أشرق وجهه. التفت لجَدَّته وقال كأنما يترجم كلمة "بولاوايو". ابتسمت ابتسامة واسعة وضمت يديها معًا. قال الفتى: "عمِّي، سأذهب هناك إلى عمِّي. في يونيو".

أجبته وأنا احاول أن أبدي اهتمامًا: "حسنًا، هذا جميل". قال: "باتل، تذكَّريني عندما آتي".. "بالطبع".

لم أرد أن أخبره بأن "بولاوايو" مكان كبير. صغير في بعض النواحي، وكبير في نواحٍ أخرى. قال مبتسمًا ابتسامة عريضة: "أتذكَّرك، سأتذكَّرك دائمًا".. "أشكرك".

قالت الجَدَّة: "إلى اللقاء".

أعتقد أنها الكلمة الإنجليزية الوحيدة التي تعرفها".

"15 ديسمبر 1984،

أخبرت "مايلز" بأمر "والي" منذ عدة أشهر فقط. كنا قد ذهبنا لمزرعته، أتت معنا "إيلي" أيضًا؛ لكنها كانت في مزاج سيئ تجاه "مايلز". إنه يحاول معها؛ لكنها تصدُّه تمامًا ولا يوجد شيء يفعله بإمكانه أن يخترق تلك الصدفة الخارجية الصلبة التي تغلفها عندما يكون موجودًا. كان الجو حارًا للغاية وقتها وذهبنا لنتجول في الظهيرة، وهو ما كان شيئًا سخيفًا، حيث شعرت بالتعب والجفاف عند عودتنا.

قطفت بعض الأوراق أثناء تجولنا، والتي أخبرني "مايلز" عنها بأن من الممكن استخلاص الشاي منها، إذا تم غليها. أكد "رايموند" - عامل المزرعة - على كلامه، كما فعلت زوجته التي أخبرتنا أنه مفيد لعلاج ألم المعدة. شعرت بذلك النوع الغريب من الفخر بداخل "مايلز"، لأنه كان يعرف شيئًا ما يعرفه الأفارقة؛ بمعرفته بالغابة. خطر لي وقتها أنه كان أوَّل رجل أكون معه يتمكن من أن ينمي بداخلي الاهتمام بالغابة، بالأشياء الأفريقية. "والي" بكل خرائطه وادِّعائه بأنه مستكشف عظيم، دائمًا ما كان ينزل في فنادق غالية، ولم يكن لينجو في غابة لدقيقتين دون أن يأخذ معه كومة هائلة من الإمدادات المرفهة معه. "ليونارد" يعرف "أفريقيا"؛ لكنه لا يعرف الأفارقة، لو أن ذلك منطقيًا، وأظن أنه من الغريب جدًّا أن يعزل نفسه عن سكان القارة ومع ذلك يحب القارة نفسها بهذا القدر من العاطفة. بالطبع كان "تيموثي" يعرف الغابة عن ظهر قلب؛ لكنني لم أعرفه قط. كل ما رأيته كان شخصًا من "روديسيا" تائهًا في غابة "إنجلترا" الأليفة.

شعرت بالأمان فيما بعد مع "مايلز"، وأيضًا عندما جلسنا في الخارج، وصب لي المشروبات، وأعددت أنا الساندويتشات، فكَّرت كم أن هذا الأمر جميل، أليس كذلك؟ فهنا على الأقل بإمكاني الاستمتاع بأمان الحب دون أي سرية، لأن هذا هو الحب، أليس

كذلك: أحضر أنا الساندويتشات وهو يصب المشروبات، وتقرأ "إيلي" كتابًا مصورًا. كيف يظهر على السطح في أوقات دون دعوة من أحد، كي يذكر المرء أن ما يأتي لاحقًا في الظلام هو مجرد الذروة لما حدث من قبل: إعداد الساندويتشات.

بعدها تحدثنا عنه، سألته لماذا لم يتزوج. قال: "لقد جُرِح قلبي أنا أيضًا".

ثم أخبرني عن الوقت الذي قضاه في "الحبشة" خلال الحرب وكم هو مكان غريب. "أفريقيا" يحكمها الإيطاليون الذين كانوا سيئين للغاية في أن يكونوا بذيئين وعنيفين لدرجة أنه فكَّر في أن يريهم كيف يفعلون ذلك بنفسه.

حينها وقع في الحب. كانت هناك احتمالية للزواج، ذات يوم لم يجدها واكتشف فيما بعد أنها انتحرت. هتفت وأنا ألمس يده في تعاطف لتذكُّره تلك اللحظة: "لماذا؟".. "لقد اغتُصِبَت. شعرت بالعار".. "من اغتصبها؟ الإنجليز؟".. "بل أسوأ.. اغتصبها رجل إيطالي".

فكَّرت للحظة: "رجل إيطالي يغتصب امرأة من بلده؟ يمكن أن أصدق لو أنه كان بريط..." فقاطع أفكاري قائلًا: "لقد كانت حبشية. من الأمهارا".

قلت بهدوء:" أوه. الصورة".. "إنها المرأة التي في اليمين.. أبيبا".

جلسنا في صمت لعدة ثوانٍ، ثم قال: "لم أخبر أحدًا قط بهذا الأمر من قبل".

فقلت: "وأنا أيضًا".

شعرت بالسعادة وقتها، سعادة غامرة، وفيما بعد، عندما أمطرت، زحفت خارجة من السرير، وتسللت خلال الممر خروجًا إلى البلكونة. كان الأمر جميلًا: ألسنة البرق الهائلة، وأوركسترا الضجيج. شعرت كأنما تلك المنصة قد أُعدت من أجلي وفكَّرت حينها في "الملك لير"، وكيف جن جنونه في العاصفة، وفكَّرت أنني مثله.

التفت فجأة لأجد "إيلي" خلفي. أردت أن أشاركها الأمر، وليس هي فقط، أيضًا "فرانسي"، و"ليونارد"، و"جيم"، و"والي". أردت أن أخرج كل ما كتمته داخلي خلال تلك السنوات فأخذتها من يدها وجرينا إلى الخارج. رقصنا ورقصنا ورقصنا؛ لكن في اليوم التالي اختفى كل شيء. على الرغم من الأمطار في الليلة السابقة، ارتفعت درجة الحرارة مجددًا. كانت السماء رمادية، ذلك اللون الذي يكسوها بعدما تمطر؛ لكن الشمس كانت قد بدأت بالعمل على تجفيف البرك الصغيرة، وكان العشب يهمهم بضوضاء الحشرات.

ذبلت الأوراق التي قطفتها في اليوم السابق، ووضعتها في الماء، وفكَّرت في أن السعادة.. السعادة الحقيقية ليست سوى لحظة. ربما يحدث ذلك معي أنا فقط. قد يكون هذا هو سبب انجذابي لرجل متزوج. عشت من أجل لحظات السعادة تلك؛ لكن ماذا عن الوقت بين الأمطار؟

بكيت في غرفة النوم، ودخل "مايلز" ورآني. سألني وهو يضع يده حولي: "ماذا حدث؟".

لم أرد عليه فقبَّلني على جبهتي، وقال: "ستتحسن الأمور مع الوقت".. "لن يحدث، لن يحدث".

بكيت، واحتضنني "مايلز" أكثر وقال: "أخفضي صوتك، إن "إيلي" بالخارج. لا تحزنيها".

عندما عدنا إلى "بولاوايو"، تركنا "مايلز" بعد الغداء فذهبت كي أستلقي قليلًا. طلبت من "إيلي" أن تأتي معي؛ لكنها كانت تشعر بالملل، لذا فلم أعترض عندما نهضت واتجهت للصالة. سمعتها تفتح الباب الأمامي وتصعد إلى مخرج الحريق. نمت حينها وحلمت بشيء لم أتذكَّره عند استيقاظي، باستثناء أن شيئًا ما رائعًا حدث، مما أشعرني بالسعادة التامة عند استيقاظي.

لكن اتصلت "فرانسيس" حينها، وكانت تشعر بالقلق حيال "إيلي". هل بكت افتقادًا لها؟ هل غسلت أسنانها؟ ماذا فعلنا في عطلة نهاية الأسبوع؟ بالطبع لم أخبرها بأمر المزرعة. ماذا ستكون الفائدة؟ سيتسبب ذلك في قلقها، ثم تتهمني بوضع نفسي و"إيلي" في خطر.

عادت "إيلي" بينما أنهي المكالمة وأخبرتني أنها كانت في شقة "أودري"، وأن "أودري" أعدت لها الشاي وأرتها صورًا لي مع رجل يبدأ اسمه بحرف "و". حقًّا يا "أودري"؟ فيم كنت تفكِّرين؟

في الصباح التالي صعدت لمقابلة "أودري". أعتقد أنها كانت في انتظاري لأنها بدت متوترة قليلًا عندما فتحت الباب كأنني أحمل قنبلة خلف ظهري. سألتني إذا كنت أرغب في بعض الشاي، على الرغم من أنها كانت السَّادسة، فإنني رفضت. قلت لها: "أودري، لقد كنت على وشك أن تكشفي كل شيء أمام إيلي".

قالت في براءة مصطنعة: "حقًّا؟".

قلت بابتسامة ساخرة: "أنت تعرفين ما أقصد. أحباء تبدأ أسماءهم بحرف الـ"و". صور".

ابتسمت في حرج واحمرَّت وجنتاها قليلًا: "لا يا "إيفيلين"، لم أقل مُطلقًا إنه كان حبيبك. تذكَّرت في الوقت المناسب. قلت إنك لم يكن لديك حبيب على الإطلاق".. "أي صورة هذه؟ لا أتذكَّر صورة كنا فيها جميعنا معًا".. "ألا تتذكَّرين؟ ليلة رأس السنة الجديدة. الليلة التي عرض عليَّ "بيل" فيها الزواج".. "حسنًا، من المهم ألا يعرف أي أحد، خصوصًا أفراد العائلة. أرجوك يا "أودري"، تذكَّري، إن اسمه العم والي".. "بالطبع، بالطبع. إنها الذاكرة فقط، أنت تعلمين".

اتجهت للعودة للأسفل عندما فاجأتني بقولها: "تعرفين أنها ماتت؟".

سألتها؛ لكنني فهمت من تقصد: "مَن؟".. "رييت، ماتت منذ عدة شهور".. "كيف عرفتِ؟".. "من "جريبفاين"، واحدة من النساء اللاتي ألعب معهن البريدج".

قلت دون أن أعرف حقًّا ما ينبغي عليَّ قوله: "من المؤكد أن الأمر صعب عليه".

لكنني كنت أعرف ما كانت تفكِّر فيه. كل هذا الوقت، هذا الوقت الضائع. فعلى الرغم من أنها لم توافق على العلاقة أبدًا، فإنها دائمًا ما وافقت على الحب.

(20)

"14 ديسمبر 1984،

إن "إيلي" تحبه. خبزنا بالأمس خُبز الزنجبيل على أشكال رجال، كان "والي" مرحًا للغاية. لقد نسيت كم هو جيد مع الأطفال، وشعرت بانقباضة. من الممكن أن تكون "إيلي" حفيدتنا. كم كانت الحياة لتختلف؛ لكنها لن تكون "إيلي" التي أعرفها، بل ستكون نسخة منها حسب اعتقادي. كانت لتأتي وتقيم معنا، ونأخذها معنا لأماكن مختلفة، كانت لتحبه مثلما تحبني. هل كان ذلك ما ستؤول إليه الأمور؟".

"5 يناير 1985،

هذا المساء أوصلت "والي" إلى المطار. بينما أكتب هذه الكلمات سيكون هو في مكان ما فوق "زامبيا"؟ أتساءل ما إذا كنت سأراه مُجدَّدًا أم لا".

قال وهو يُودِّعني بقُبلة: "لقد قاومتيني هذه المرَّة". قلت ضاحكة: "أنا وأنت قاومنا".

خرجت منِّي الجملة مختنقة بشكل غريب، مثل صيحة تهكمية. لم يقل شيئًا، وهزَّ كتفيه، وعلمت أن عدم حدوث أي شيء بيننا كان نتيجة لفعل سامٍ نابع من إرادته

الشخصية. تذكَّرت حينها تلك المحادثة التي دارت بيني وبين "مايلز" في ذلك اليوم المروع قبل الكريسماس مباشرة عندما أوشك على الانهيار.

كنا قد خرجنا معًا إلى النادي البحري في اليوم السابق. بقولي "معًا" أعني "مايلز" و"والي" وأنا. ظننت حينها أنه كان رائعًا، أعني "والي". لم يسألني مرَّة واحدة عن علاقتي بـ"مايلز" أو يلمح لأي شيء تجاهه، وأطلقت تنهيدة ارتياح عندما كنت في السرير فيما بعد. ظننت أن كل شيء على ما يُرام. لقد صمدنا ونجونا، والآن بإمكانه العودة إلى منزله، وربما سنتواصل معًا: بطاقات الكريسماس، ومثل تلك الأشياء. الخطابات الغريبة. يمكننا أن نظل صديقين، إن هذا ممكن.

في الصباح الباكر من اليوم التالي ذهب "والي" ليقابل "أنيت ترومان"، في النهاية انفصلت عن "بول"؛ أصبح هو يعيش في "أستراليا" وهي تزوجت مرَّة أخرى. أخبرني "والي" أنها تزوجت بنَّاءً غنيًّا. لم أتفاجأ بهذا كثيرًا، فمن هم مثلها لا يتحملون العيش في فقر مع أي أحد. عاد "مايلز" بعد ذلك بقليل، وكان في ذلك المزاج الغريب الغرامي، وظل يأتي من خلفي ويحيط خصري بذراعيه ويقبلني في عنقي، قلت له: "بحق الله يا "مايلز" إن الساعة لم تصل إلى الثامنة بعد". كان الأمر يفوق احتمالي، متطلب للغاية، متملك للغاية، ليس طبيعيًّا وعلى غير عادته.

في النهاية، سألته ما الذي يحدث. لقد استغرقت عشر دقائق كي أتمكن من إعداد كوب شاي، كان شديد الحساسية! قال: "أشعر بالغيرة".

مدَّ يده تجاهي مُجدَّدًا فأعطيته قماشة الصحون وأخبرته أن بإمكانه المساعدة بأن يجفف معي الصحون. ألقاها جانبًا وتجهَّم قائلًا: "لقد عاد ذلك البريطاني ليأخذك ، أليس كذلك؟".. "أي بريطاني؟ تقصده هو، لا".

كنت متحمسة في الواقع، ما شعرت به في الليلة السابقة وأنا راقدة في سريري: أخيرًا تحولت علاقتنا إلى الصداقة فقط؛ لكن "مايلز" سخر من ذلك، وقال في عدم تصديق: "صداقة؟ ذلك الرجل يريدك، إن الأمر بادٍ عليه كليًا، في طريقة كلامه معك، في الطريقة التي تتغير بها لغة جسده عندما تكونين موجودة. صداقة!".

قلت وأنا أبحث في الدرج عن ملعقة شاي: "ما الذي يجعلك تقول كل هذا؟ ظننت أننا قضينا وقتًا ممتعًا في الليلة السابقة".. "نعم، إلى أن بدأ بإلقاء ذلك الشعر المتملق".. "ماذا تعني؟".

قال مُحاكيًا لهجة بريطانية أرستقراطية: "كل تلك الأمور عن الزهور التي تزدهر في هواء الصحراء، والتي ترنُّ من أجلها الأجراس".

توقفت عن الكلام، ثم ضحكت ووخزته بالملعقة في بطنه وقلت: "أنت تشعر بالغيرة! لا أصدق أن السيد "مايلز تريفيليان" يشعر بالغيرة".. "هذا هو ما قلته، أليس كذلك؟".. "ظننت أن الأمر بسببي؛ لكنه متعلق بمعرفته، أليس كذلك؟ تنشئته".

هزَّ "مايلز" كتفيه، بينما ظهرت ابتسامة خجولة على وجهه فقلت: "لكنك تعرف كثيرًا من مؤلفات "شكسبير"، أراهن أنه لا يعرف نصفها".. "ألا تظنين ذلك؟ أنا متأكد من أنه يعرفها".. "ليس مثلك".

أردت أن أتحدث معه بطريقة صحيحة، بأن أخبره بما شعرت به، بما فكَّرت فيه في الليلة السابقة، عندما ظهر ذلك الرجل أمام الباب باحثًا عنه. يدعى "تريفور". إنه يعمل مع "مايلز"، وأراد أن يخبره بشيء ما؛ لكنه ظل ينتظره لوقت طويل. كان مرحًا، يمكنني أن أعترف له بذلك، أضحكنا كثيرًا حين حكى عن صديقته المجنونة التي تتصل به باستمرار وتترك له رسائل في كل أنحاء البلدة؛ لكن طوال وقت جلوسنا معًا والاستماع إليه، ظللت أفكِّر أن هذا هو ما

أحتاج إليه حقًّا. فيما بعد، عندما رحل "مايلز" ثم "والي"، وجلست بمفردي أفكِّر في أحداث ذلك المساء بدقة، فكَّرت مُجدَّدًا في "شيكسبير". لقد مرَّ حوالي أربعين عامًا منذ أن ذهبت مع "والي" لمشاهدة مسرحية "الملك لير". لا أتذكَّر العرض جيدًا كما أنني لم أكن لأتذكَّر المسرحية لو أننا لم نخض ذلك الجدال حولها بعد انتهائها. قال "والي": "الحب، الحب الحقيقي أناني، وغيور، وانتقامي. لقد تربينا على أن نؤمن بعكس ذلك: الحب يضحي، والحب يسامح، والحب يعانق؛ لكن ذلك غير حقيقي، أليس كذلك؟ حتى الإله، فهو إله غيور. لن يكون لديك أي إله غيري. إخلاص كامل أو إبادة كاملة. إن الرب لديه أعظم غرور وُجِد، فمن غيره خلق كونًا مليئًا بالناس ثم طالبهم بعد ذلك بأن يحبوه".

سألته وأنا أدرك أنني أضرب ضربة منخفضة: "ماذا عن زوجتك؟ إنها تسامحك كل مرَّة. ألا تحبك؟".

توقف عن الكلام، كان يعلم أنني حاصرته فأصررت قائلة: "مَن أحبت "لير" أكثر؟ "كورديليا" التي تمكنت من أن تحد كلماتها إلى إيجاز "اللا شيء"، أم "ريجان" و"جونيريل" اللتان شعرتا بتفضيله "كورديليا" عليهما؟".. "ألسنا نحاول إثبات الشيء نفسه؟".. "أيهما تكون زوجتك؟ "كورديليا" أو "جونيريل"؟".

أتذكَّر أنه مال حينها للأمام في شيء من الحرج، وأعطاني قُبلة سريعة، وقال: "أنت تفوزين".

لكنني لم أعلم حقًّا ما الذي فُزت به.

لم يمر وقت كثير بعد تلك الليلة حين أعطيته الساعة. لم أتمكن من أن أقرر ما سأنقشه عليها، في البداية فكَّرت في: "هل حظينا بعالم ووقت كافٍ"؛ لكنني قررت ألا أفعل، واخترت جملة بها تلميح إلى مسرحية "لير": "من ظلك"، حيث قصدت أنني أنا مهرجه، ضميره.

فيما بعد في ذلك اليوم، بعد صدمة الظهيرة، فكَّرت مُجدَّدًا أنه كـان محـق: الحب أناني. كل أنواع الحب تتطلب وتدمر.

ذلك المساء، عندما رحل الجميع ما عدا "والي"، وكانت الأمور محرجة بيننـا، لأنه كان يعرف أنه أنقذ حياتي، ولم أكن أعرف ما إن كان من المفترض أن أعترف بذلك أم لا، قال فجأة دون أي مقدمات أن شقتي صغيرة للغاية وهو لا يعـرف كيف تحملت أن أعيش فيها. "لكنك تحب الأمـاكن الصـغيرة، ألـيس كـذلك؟ لا تخبرني، السيدة "ويزمان" في الشقة العلوية".. "لا أعلم لماذا تتعاملين دائمًا معـي كأنك تتعطفين عليَّ؟".

كنت متعبة ومستنزفة بعد أحداث الظهيرة، لذا أعتقد أن صـوتي بـدا حـادًّا ومستاءً بعض الشيء وأنا أقول: "أنا لا أفعل ذلك".. "بل تفعلين ذلك".

تجهَّم ثم قال: "لا تأخذي كل شيء بجدية أكثر من اللازم".

قلت دون أن أتراجع عن استيائي: "إنه منزلي".. "بل إنها مجرد شـقة".. "إنـه منزلي".

تحرَّك في كرسيه وأمسك يدي واعتصرها. جذبتها ونهضت في غضب. وقفـت بجانب النافذة أنظر للخارج. قال: "كل ما قصدته هو أنني لن أتمكن من البقاء هنا، إن المكان ضيق للغاية".

نظر إليَّ لأول مرَّة في ضيق بعـض الشيء، وأضـاف: "مـن أن أكـون موجـودًا. أضيق من أن أكون موجودًا".

أخذت نَفَسًا عميقًا وتابعت النظر إلى الخـارج. قـال "والي" بهـدوء: "تعـالي، اجلسي هنا".

اختفت الحدَّة من صوته، وربت عـلى الكـرسي المجـاور لـه بنعومـة. اتجهـت لأجلـس بجانبه؛ لكنني لم أتمكن من أن أسامحه على ما قاله وحتى بعدما ذهب إلى النـادي وأغلقـت

الباب وأسدلت الستائر، ظللت أشعر بكلماته في الهـواء باقيـة ومنـتشرة، مـثلما تفعل الرطوبة عندما تمطر السماء.

شغَّلت بعض الموسيقى وأضأت المصباح. كان شعاع الضوء كافيًـا، أمَّـا بـاقي الحجرة فغمرها الظلام. فيما بعد، أرقـد في سريـري وأسـتمع إلى نقـرات الـرذاذ الناعمة على نافذتي، مفتقدة دفء "إيلي" أثناء نومها بجانبي.

قال لي "مايلز" منذ مدة ليست طويلة: "إنها عكازك، أليس كذلك؟".

كان يتحدث عن "إيلي": "لن تفعلي أي شيء وهي موجودة".

ضحكت، وقلت: "بالطبع لا".

لكنه مُحق. ثم في ذلك اليوم شعرت أنني لم أعد في حاجة إليهـا بعـد الآن. ليس بالطريقة نفسها؛ لكنها عـادت للظهـور. لقـد نسـيت أننـي ذكـرت إعـداد ديكورات الكريسماس معها؛ لكن ها هي ذي تجلس ومعهـا حقيبتهـا الصـغيرة تنظر إلى الباب في خجل وإحراج.

تمنيت لو أنني لم أرتـب معهـا ذلـك الأمـر، بـأنني لم أعـدها بـأي شيء، مـع "إيلي" من الأفضل ألا أعطي أي وعود، لأنها لـن تسـامحني أبـدًا لـو لم أفِ بهـا. كان إعداد ديكورات الكريسماس هو آخر شيء أرغب في فعله في تلك اللحظـة، وهي لاحظت ذلك وبـدا عـلى وجههـا الصـغير كأنهـا تقـول لي: "حتـى أنـت يـا "بروتوس"؟".

كان الرجال يسخرون منها؛ لكن ليس بشكل بذيء. ظن "تريفور" أنها ولـد، واعتقدت حينها أن ذلك الأمر سيؤدِّي بهـا إلى البكـاء. حاولـت أن أقـول أشـياء ساخرة من "مايلز" مثل رقصه في الليلة السابقة، وقد ضحكت فتنهدت بـداخلي في ارتياح، لأنها تعلم الآن بأنني عدت إلى صفها مجددًا.

بالطبع، ما فعلته مع "مايلز" كان سخيفًا. أين كانت "إيلي"؟ هل كانت بالأعلى مثلما ظننت؟ في وقت ما ظننت أنني سمعت أحدًا يتحدث في التليفون. ربما كان "والي". كان هناك بعض الجلبة والطرق، كان "ليونارد" يصرخ كي أفتح الباب فورًا، وحينما فعلت وجدتهم جميعًا ينظرون إلى الداخل: "فرانسي" و"ليونارد"، وحتى "أندرو". اختلقت قصة حول اختفائها ونبض قلبي قلقًا، وفكَّرت "ليس ثانية، ليس ثانية". لكنها ظهرت، وأردت أن أقول إنني أنا من كان مفقودًا، من كان مفقودًا طوال تلك السنوات. شعرت كأنهم رأوني على حقيقتي: محتالة وكاذبة، وجزء منِّي؛ بل جزء كبير منِّي أراد أن يقول: "نعم، أنتم مُحقون. هيا خذوني، افعلوا بي ما تريدون".

ثم كان هناك جزء آخر، جزء أصغر بكثير أراد أن يقول: "أنتم جميعًا مخطئون. لقد أردت أن أحبكم. لقد أحببتكم بالفعل. انظروا، هنا، مثلما أحب هذا الرجل. حب غير مشروط. لكنني استغللته أيضًا، أليس كذلك؟ استغللته كي أكون قوية أمام انقضاض الحب الحقيقي، الحب العميق، والأناني، والخالد".

نمت والستائر مفتوحة بعض الشيء وأنا أشاهد ضوء مصباح الأمان في الخارج ينفذ إلى داخل الغرفة، ثم اشتد الضوء الحقيقي، ضوء الفجر الأبيض الرمادي، بينما تشرق الشمس، وتنير اليوم النامي، والآن رحل "والي". مجددًا".

(21)

أتى شهر ديسمبر، وأتت معـه ملامـح الاضـطرابات وعـدم الثبـات الاقتصـادي خلال الأيام العطشى غير الممطرة. لم أشهد قط مثل ذلك الجفاف في نهايـة العـام. تجمعت سحب منذرة بالعواصـف، ثـم تفرقـت، كـما كنـا نتقلـب في الليـل عـلى مـلاءات مبللـة بـالعرق ونسـتيقظ مُنهكـين في حـرارة الصـباح البـاكر. نمـت وقـد تغطيت فقط بمـلاءة خفيفـة، وتركـت النوافـذ مفتوحـة فبـدت السـماء الممتلئـة بالنجوم. لم تكن هنـاك ريـاح تُـذكر، وكنـت عنـدما لا أتمكـن مـن النـوم، أذهـب لأجلس في الخارج وأفكِّر. الحديث عن هجرة الأشخاص يحوم حولي. إنها كالسـماء ذات اللونين الأبـيض والأزرق الممتـدة فوقنـا في صرامـة.. وكأنهـا صـداع نصـفي لا ينتهي أبدًا".

"4 أبريل 1990،

أتى "سامسون" ليزورني اليوم. لم أتمكن من التعـرف عليـه، كـم بـدا عجـوزًا: أحدب، ذا شعر أبيض، وحزينًا، نعم، هذا هو ما كان بالضبط. حزينًـا. متعبًـا في استسلامه لحياة وعدتـه بـالكثير؛ لكنهـا لم تـفِ بوعودهـا. كـدت أسـأله كيـف وجدني؛ لكنه كان سؤالًا غـير ضروري في دولـة تنتقـل الأخبـار فيهـا بـين النـاس بسهولة شديدة.

كان يرتدي بدلة رمادية قديمة، ربما كانت أفضل ما يملكه، وقميصًا أبيضَ بلي من الياقة والكُمَّين، وحذاءً أسود لامعًا باليًا أيضًا من المقدمة. تساءلت لمدة قصيرة عمَّا إذا كانت الملابس لـ"والي".. أشياءَ أعطاها لـ"سامسون" عندما ترك خدمته. لم أسأله ماذا فعل خلال كل تلك السنوات، لم أكن متأكدة من أنني سأعرف الكثير من التفاصيل منه على أي حال، فما الفائدة إذًا؟ لكنني عرضت عليه تناول الشاي، وتفاجأت لجلوسه عندما أشرت إلى الكنبة، ولم يظل واقفًا في تردد أمام الباب مثلما اعتاد في الأيام الخوالي. جلس وهو يتنهد بطريقة أشعرتني بأن الجلوس يُؤلمه، وكأنه ندم على ما فعل في حينها، ولن يتمكن من النهوض مُجدَّدًا دون مُساعدتي.

ظل منتظرًا حتى أحضرت صينية الشاي، فتحت علبة بسكويت "ماري" ووضعتها في طبق. تفاجأت مرَّة أخرى عندما رأيت يده تقفز وتمسك إحدى القطع. أكل قطعة البسكويت وشرب الشاي بنهم قبل أن يبدأ حديثه. خضنا الأسئلة المعتادة عن العائلات المحترمة، وهززنا رؤوسنا عند معرفة الوضع الحالي لكل عضو في العائلة. مرَّت فترة صمت، ثم قال "سامسون": "هل عدت إلى المنزل؟ رقم 52؟".

هززتُ رأسي نافية، فقد قررت بأنني لن أمر حتى بسيارتي أمامه. أومأ "سامسون" برأسه في استسلام كأنما شرحت له إجابتي كل شيء، وقال: "لكنك تملكينه؟ سيدي أرسل لي خطابًا أخبرني فيه أنك المالك الجديد".. "نعم".

قلتها وتوقفت، كيف يمكن لأحد تفسير امتلاكه لمنزل لا يذهب إليه مُطلقًا؟ قال بينما تنتقل نظرته إلى السجادة: "ذهبت إلى هناك مرَّة. كنت أبحث عنك؛ لكنهم أخبروني أنه لا توجد امرأة بيضاء تعيش هناك".

فسرت له قائلة: "إنني أؤجِّره، من خلال وكالة ما. ليس هناك ما يربطني به في الواقع. أتسلَّم شيكًا كل شهر".

تجعدت جبهة "سامسون" في حيرة، رأيته ينظر إلى صندوق الأحذية، ويتساءل لماذا اخترت أن أعيش هنا. مرَّت لحظة صمت، وكنت على وشك أن أسأله إن كان يرغب في فنجان شاي آخر عندما قال فجأة: "سيدتي، هل رأيتيه؟ هل رأيتِ المنزل رقم 52؟".

شعرت للحظة بأن عينيه امتلأتا بالدموع، وانتابني شعور غريب في معدتي بأنه على وشك أن يخبرني بأن المنزل احترق وتحول إلى كومة أنقاض. سألته ببطء وأنا أضع الفنجان والطبق على الصينية: "ما الأمر؟ ماذا حدث يا سامسون".

قال بينما تعبث يده اليمنى بمفرش مسند الكرسي المصنوع من الكروشيه: "سيدتي، إن سيدي كان كريمًا معي طيلة تلك السنوات. كل تلك السنوات".

ألقى ذراعه على هيئة قوس ليوضح أنه يعرف "والي" منذ زمن طويل للغاية، وقال: "منذ 1945، 1945! كنت شابًّا، عائدًا إلى "بولاوايو" بعد الحرب. كم كنت سعيدًا، سعيدًا للغاية لعودتي إلى مسقط رأسي. لكني، كنت دون عمل!".

سقطت يداه بجانبه واستطرد: "لذا فسيدي، سيدي الآخر، سيدي "رينولدز"، قال لي: "أعثر على وظيفة كخادم يا "سامسون"، كطاهٍ، فالنساء البيض لا يحببن الطهي؛ بل يردن رجلًا أسودَ يطهو من أجلهن". ثم وجد لي سيدي الآخر".. "ماذا حدث للسيد "رينولدز"؟".

ألقى "ساكسون" بيده إلى الخلف، وقال: "عاد لـ"إنجلترا".

كأنما تقع "إنجلترا" خلف الكنبة، وأكمل: "كان إنجليزيًّا. أراد أن يعود لوطنه بعد الحرب".

استرخى في كرسيه متعبًا. كما بدا عجوزًا، وأكمل: "لكن سيدي "والي" كان طيبًا معي. أجل، كان سيدًا جيدًا، إنه يراسلني".

التفت إلى وأشرق وجهه فجأة وقال: "أحيانًا يرسل لي أموالًا، كما أنه دفع تكاليف تعليم ولديَّ، منذ أن كانا هكذا".

أطبق يده المنخفضة على الطريقة الأفريقية التي تدل على الشباب، وأكمل قائلًا: "حتى أنهيا تعليمهما. دفع ثمن كل شيء! الزي المدرسي، والكتب، والأقلام الرصاص، والأقلام الجافة، وحتى الأحذية".

كان يحصي كل غرض مما قاله على أصابعه، ثم صفق بيديه فوق رأسه، وقال: "نعم، إنه سيد جيد".

تساءلت للحظة قصيرة - ربما في تهكم - إن كان قد أتى طالبًا نقودًا. ربما لم يرسل "والي" له نقودًا منذ فترة، وربما يرى أنني بديلة "والي" في "زيمبابوي".

اعتدلت في جلستي، وعادت عيناه إليَّ كأنما قال له أحدهم فجأة: "ماذا تحاول أن تقول من كل هذا؟".

هزَّ رأسه في حزن، وقال: "لكن المنزل الآن يا سيدتي، إنه بحال سيئة، سيئة".. "لماذا؟ ماذا حدث؟".. "إنها الحديقة يا سيدتي، إنها مريعة".. لماذا؟ أخبرني ماذا حدث؟".. "شيء مريع". "هل ماتت جميع النباتات؟ هل أهملوها؟".

هزَّ "سامسون" رأسه في حزن، ونظر إلى يديه وهو يتمتم بهدوء: "إنهم لا يعرفون، لا يعرفون كيف يعتنون بها".

استسلمت بعد قليل وأكدت عليه أنني سأذهب وأتفقد أحوال المنزل في أقرب وقت. نظر بعينيه نظرة خاطفة لأعلى حينها، وظننت أنني رأيت شيئًا خبيثًا بعض الشيء في تلك النظرة. سألته وأنا أضع الفناجين والأطباق على الصينية مجددًا: "أين تعمل الآن؟".

رأيت في عينيه أمل بأن يحصل على آخر قطعة بسكويت، قال وهو يتنشق: "أعمل مع أخي".. "فيم تعملان؟".. "وجبات سريعة، الكيك، ومشروبات غازية، وفطائر".

قلت مبتسمة: "إن هذا مضيعة لموهبتك يا "سامسون". كان ينبغي أن تكون طاهيًا محترفًا. هل حاولت قبل ذلك أن تجرب؟ مثل الفنادق الكبيرة؟".

نظر مُجدَّدًا ليديه، وقال: "الشهادات، يريد الجميع شهادات".

نهض بعدها كي يرحل فرفعت الطبق المتبقي فيه قطعة بسكويت وقدمتها له قائلة: "خذها، أنت في حاجة لشيء من أجل الطريق".

أخذها في ممانعة مزيفة وأغلق عليها كف يده الضخم. قلت له قبل أن أغلق الباب: "لقد جئنا من عالم مختلف، أليس كذلك يا "سامسون"؟".

نظر إليَّ نظرة فارغة فقلت: "شهادات، من احتاج لها في أيامنا؟".

"8 أبريل 1990،

قررتُ أن أنتقل إلى المنزل. بعد زيارتي له بالأمس، اكتشفت أنه في حاجة إلى شخص ما. شخص يعتني به، ويحبه. شخص يعيش فيه: يلمِّع مقابض الأبواب، وينظف الأرضيات، وينفض السجاجيد من الغبار.

لم أفهم ما كان يضايق "سامسون" عندما وصلت لأول مرَّة.. كانت الحديقة جميلة. الزهور! الرائحة! شجر الياسمين الذي يتمايل في كسل فوق السور كأنما يتسلق بجهد كي يحيي المارِّين. ظننت أنني خُدِعت، قد يكون هذا من تخطيط "والي". هو من أمر "سامسون" بفعل ذلك. أرادني أن أراه، أن أقع في الحب مرَّة أخرى، أن أنغمس في الذكريات.

لكن لم يسعني سوى التفكير في شيء ما: شيء ما أخبرني به "سامسون" بدا منطقيًّا، وفهمت لماذا لم يتمكن من توضحيه لي، كان هناك شيء ما مفقود، وفي المنزل أيضًا. هناك الصور الجميلة، والأثاث الناعم البسيط. لقد كان نظيفًا ولكنه أيضًا وحيد، وحيد للغاية. ولا يغمرني ذلك الشعور في أي مكان مثلما أشعر به في مكتب "والي" القديم. لم يكن هناك خرائط أو كتب أو مكتب أو خزانة المشروبات. لم يكن هناك أي شيء باستثناء سرير مخيم، لا يوجد عليه أي شيء سوى منشفتين مطويتين وقدمتين عند نهايته ومعطف رجالي داكن في حقيبة بلاستيكية مُلقى في المُنتصف. رأيت بجانب السرير دولابًا جانبيًّا صغيرًا فوقه عدة نسخ من كتاب "برج المراقبة" لإليزابيث هارويز. خيمت الوحدة على الهواء. أخبرتني الوكالة بأن هناك رجل أعمال يعيش هنا. أخبرني البستاني الذي حيَّاني على البوَّابة بأنه مسافر، حيث إنه يقضي أسبوعين هنا، وأسبوعين في "هاراري"، مما جعلني أفكِّر بيني وبين نفسي بأن هناك بعض الأشياء التي لا تتغير أبدًا؛ لكن ظل المكان وحيدًا. لا توجد علاقة غرامية تحدث هنا، فالمكان لا يشهد باللقاءات السرية. توجد فرشاة أسنان واحدة في الحمَّام، وذبابتان ميتتان في المرحاض.

لكنني أتساءل إذا كان بإمكاني أن أجعله ملكًا لي. لطالما أردته أن يكون ملكًا لي بالطبع. ملك لي أنا و"والي". لم أرد أبدًا أن أعود إلى الماضي ولا أريد ذلك الآن. لا أريد أن تحيطني أشباح الماضي، أو أن أنغمس في الذكريات.

لكن عندما ذهبت إلى المنزل في تلك الظهيرة تذكَّرت يوم ذهبت إلى هناك، وأنا أحمل زهرة "الغرنوقي" في يدي، منقطعة الأنفاس، ومتحمسة، وواقعة في حب الحياة وغارقة في حب "والي" وأنا أسير تجاه الباب في رشاقة لأرى "رييت" و"أنيت" في الحديقة. الشيء الوحيد الأسوأ من رؤيتها هناك كان معرفة أنه كان يعرف بأنها هناك ولم يخبرني. اضطررت

إلى أن أبتلع ذلك الجرح، أن أدفنه في مكان ما داخلي وأخبر نفسي بأنني لا أملك الحق في الشعور بهذا، بأنني عشيقته، وبسماحي لنفسي لأن أكون هكذا، فإن ذلك يعني بأنني أوافق على أن يكون غير مخلص لي.

ثم كان هناك المنزل، بدت الطريقة التي رُتبت بها الأشياء بداخله وكأنها تهاجمني قائلة لي: "مَن أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟ أنت لا تنتمين إلى هنا". لذا فهذه هي فرصتي بعد كل تلك السنوات أن أقول: "إن كل هذا ملك لي أنا".

وأن أجعله كذلك بالفعل".

(22)

في اليوم السابق للكريسماس، كنت مع "إيف" عندما رأينا "توني" بالصدفة خارج المتجر المحلي. كنت قد أوقفت السيارة لتوِّي وأمد يدي لآخذ حقيبتي عندما سمعت طرقًا على النافذة. سأل وهو ينظر إلى الداخل:

- كيف الحال؟ هل كنت مشغولة؟

قلت في ضيق:

- يمكنك أن تقول ذلك، كنت أحجز تذكرتي. سأعود إلى "إنجلترا".

- بهذه السرعة؟

أومأت له برأسي، وقلت:

- حان الوقت لمسايرة الحياة.

- اسمعي، لماذا لا تأتين لزيارتي الليلة لنتناول الشراب معًا؟ بهجة الكريسماس وكل تلك الأمور.

قلت بنبرة مُحايدة:

- لا أدري، ربما. لديَّ الكثير من الأمور التي تحتاج إلى الترتيب.

لا بد أنه لاحظ النفور في صوتي لأنه هزَّ كتفيه، وقال:

- حسنًا، إن الأمر يعود إليك. تعرفين مكاني، والدعوة قائمة.

قلت وأنا أحاول أن أبتسم:

- شكرًا.

- أراكِ لاحقًا.

ثم ركب دراجته.

لا أعرف ما الذي جعلني أقرر أن أذهب لرؤية "توني" تلك الليلة، ربما كانت فكرة بقائي ليلة أخرى في المنزل بصمته الحزين ومحادثاته الراكدة. أو ربما أنني شعرت بشكل غريب بأنني أتواصل مع جَدَّتي عبره، ولو كان الجميع يعرفها أفضل منِّي كما بدا لي، فربما استطاع هو أن يلقي بعض الضوء على شخصيتها الحقيقية.

قال "توني" وهو يفتح الباب:

- تفضلي. لقد كنت أجلس في الحديقة الخلفية. إن الجو حار للغاية بالداخل.

كان حافي القدمين ويرتدي "شورت"، و"تي شيرت". سألني ونحن ندخل المطبخ:

- أترغبين في شرب أي شيء؟ إنني أشرب بيرة ولكن هناك أيضًا نبيذ، و"كولا". و"سبرايت"؟

رفع يده في تساؤل. قلت دون تأخيري المعتاد في الرد:

- نبيذ.

كنت أعرف أنها فكرة سيئة؛ لكنني شعرت كأنني منبه على وشك أن يرنَّ. شعرت فجأة بأنني أرغب في التحدث إلى شخص ما، فقط أتحدث وأتحدث وأتحدث، لكنني ندمت على المجيء لرؤية "توني". لم يكن هو الشخص المناسب كي أتحدث إليه. فكَّرت أنه كان ينبغي عليَّ أن أبقى في المنزل، وأكتب كل شيء في مفكرتي. ذهبنا للخارج، كان هناك اثنان من كراسي البحر فوق العشب ولاحظت أن "توني" كان مستلقيًا على أحدهما، وبجانبه كتاب ومطفأة. مرَّت فترة صمت ونحن نرتشف الشراب. قطع "توني" الصمت وقال:

- لا أعرف ماذا أقول لك يا "إيلي".

شعرت بألم حاد في صدري من تردد صدى كلماته.

- ماذا تعني؟

- أعني أنني أتمنى لو أعرفك أكثر؛ لكن هناك ذلك الحائط المرتفع الذي يحيط بكِ.

حملقت أمامي، شعرت بالمفاجأة لصراحته. ضحك نصف ضحكة وهو يقوم بحركة دائرية بإصبعه السبابة، وهو يقول:

- بسلك شائك أعلاه.

- أنت لست أوَّل من يقول لي ذلك.

- أريد أن أساعدك؛ لكنني لن أستطيع إن لم تسمحي لي بذلك.

كنت أجلس على الكرسي محتضنة ساقيَّ وممسكة بكأس النبيذ، بينما استلقى "توني" على سريره بجانبي. فكَّرت في الرحيل؛ لكنني لم أفعل أي شيء، فالنبيذ وشعوري المفاجئ بالتعب أبقياني في مكاني. قلت باندفاع:

- ماذا تريد؟

- أريد فقط أن أعرفك.

بدا هذا بسيطًا للغاية.

- أنت سترحل.

- كذلك أنتِ، ما الفرق الذي سيحدثه ذلك؟

مرَّت لحظة صمت أخرى، غرَّد طائر وانحدرت الشمس، وهي تأخذ معها حرارتها الغاضبة تاركة العالم أهدأ وأكثر برودة، ومليئًا بالمشاكل على الرغم من كل شيء. قلت:

- ماذا تريد أن تعرف؟

أخذ "توني" رشفة من البيرة، وسحب شفته للخلف متذوقًا المرارة، وقال:

- إن هذا ليس تحقيقًا.

نظرت بعيدًا وساد الصمت مجددًا. سألني "توني":

- ماذا تريدين في الحياة؟

تنهَّدت ووضعت رأسي على ركبتيَّ. فكَّرت أنني لا أريد نهايات تعيسة أكثر من هذا. قال "توني" بهدوء:

- احكي لي عن حياتك يا "إيلي".

- لا أعرف من أين أبدأ.

- ابدأي من البداية.

- الشيء الطريف هو أن البداية تظل تتغير طوال الوقت كما يحدث لكل شيء يأتي بعدها. ربما يكون من المنطقي أن أبدأ من الآن.

قال "توني" وهو يعيد ملء كأسي:

- حسنًا، ابدئي من الآن.

- هل تمانع في إعطائي سيجارة؟

ألقى إليَّ علبة السجائر، ثم سألني:

- عمَّ تدور الدكتوراه التي تعملين عليها.

كانت عيناه مغلقتين، كأنما تضايقه أشعَّة الشمس، على الرغم من أنها اختفت وبدأ عهد الغسق الفضي الغريب بالاستحواذ. قلت:

- أدب ما بعد الاستعمار.

أخذت نَفَسًا من السيجارة ونفثته لأعلى، عكس "توني" الذي كان يخرجه من جانب فمه. أظن أن هذا أراه كم أنني غير محنكة في التَّدخين؛ لكنني لم أهتم لذلك. بدأت الحياة تكتسي بذلك التوهج الوردي النصفي الذي يولده شرب النبيذ على معدة خاوية.

قال "توني" متفاجئًا:

- حقًّا؟

توقف للحظة قصيرة، ثم قال:

- أدب ما بعد الاستعمار.

قالها ببطء ثم تنهَّد. ضحكت من رد فعله وبدأ يضحك هو الآخر. بعد ذلك بقليل صرنا نضحك دون أن نتحكم في أنفسنا. لم أتمكن من وضع السيجارة في فمي لأكثر من نصف ثانية قبل أن أضحك مرَّة أخرى. كان ذلك رائعًا؛ لقد كانت المرَّة الأولى التي أضحك فيها هكذا منذ شهور. سألني:

- ما هو "أدب ما بعد الاستعمار"؟

قالها وهو يؤكد على كلمتي "ما بعد" كأنه لم يفهم ماذا تعنيان. أجبته في كسل وأنا أشعر أنني لست في مزاج يسمح لي بإلقاء محاضرة:

- لا أعرف.

لقد نلت كفايتي من الوقوف أمام طلبة غير مهتمين يحاولون أن يتظاهروا بالاهتمام بكتابات النساء السود أو اليهود الذين يعيشون في "آسيا". قال "توني":

- لا بد أنك تعرفين، لقد حضَّرت دكتوراه كاملة عنه.

صححت له قائلة:

- لا أزال أعمل عليها.

- أيًّا يكن. عمَّ يدور موضوعها؟

فكَّرت لبعض الوقت، وأخذت نَفَسًا من السيجارة، ثم أجبته قائلة:

- إنها عن الاشتياق إلى المثالية، فكرة ما عن الكمال. الماضي، عندما كان كل شيء جيدًا وبخير.

- لا أفهمك تمامًا.

- يقول البعض إنه ليس بإمكانهم التحدث بلغتهم الأم أكثر من هذا لأنها فسدت بسبب الإنجليزية. المفارقة هي هل سيرغبون بأن يعيشوا حياتهم دون الاستمتاع بمزايا الاستعمار، دون أن يدركوا أن بإمكانهم الكتابة في المقام الأول؟

ارتسمت نصف ابتسامة على شفتي "توني"، أكملت قائلة:

- إن الأمـر يشـبه الحكومـة هنـا إلى حـد مـا، إنهـم يتكلمـون عـن الاسـتعمار والإمبريالية، ومثل تلك المصطلحات، كأنهم لا يريدون أن يقـودوا سـيارات "مرسـيدس بنز"، أو كأنهم يعيشون في منازل بُنيت على طراز منازل البيض أو حتى... حتى السـفر للخارج للإنفاق على المتع الأجنبية. كل ما يشتاقون إليه حقًّا هـو كـوخ في مكـان مـا دون أي مظهر من مظاهر الرفاهية الحديثة، ودون أي وسائل مواصلات عصرية.

- من المؤكد أن هناك فرقًا بين أدباء ما بعد الاستعمار والحكومات الأفريقية؟

تجاهلته حيث إنني شعرت بالاستياء من رد فعله تجاه خطبتي والطريقة التي فهم بها محاولتي لعدم إجابة سؤاله الأصلي كي يلقي تعليقًا سياسيًّا. شعرت بالمرارة الشديدة والهزيمة، أردت أن أرد الضربة، ليس لـ"توني"؛ بل للعالم.

- ماذا يعني أن يكون لديك هوية في رأيك يا "توني"؟ لأي شـخص في أي مكـان في هذه الوقت تحديدًا، ماذا يعني لك أن يقول أحدهم: "أنا هذا" أو "أنا ذاك"؟

قال "توني" وهو يحاول أن يجمع كلمة أو كلمتين قدر استطاعته:

- أعتقد أن المشكلة هي أننا نريد أن يتم كل شيء بطريقتنا.

نظرت إليه دون فهم، فقال:

- الجميـع يريـد أن يكـون هـو المـتحكم، السُّـود والبـيض. إن المشـكلة في "زيمبابوي" هي أن البيض يرغبون في أن يعيشوا حياة دولـة مـن العـالم الأول في دولة من العالم الثالث ولا يتمكنون من أن يفهمـوا عنـدما لا يـنجح الأمـر. أمَّـا مشكلة السُّود فهي أنهم يريدون أن يسـير كـل شيء بطـريقتهم؛ لكنهـا ليسـت فكرتهم الأصلية على الإطلاق. فكرتهم الأصلية. الديمقراطيـة عـلى سـبيل المثـال. إنها اختراع شـخص آخـر. إنهـم يتحـدثون عـن الاسـتعمار والحاجـة إلى الثقافـة الأفريقية؛ لكنهم لن يقبلوا بتبـديل منـافع الاسـتعمار بـأي حـال مـع فرصـة أن يحصلوا على طرقهم القديمة مرَّة أخرى.

- هذا هو ما قلته، هذا هو ما أقصده بالضبط.

- بدلًا من أن نعتمد على بعضنا البعض كي نحصل على الدعم والاعتراف بأننا نحتاج إلى بعضنا البعض، نقوم بإحباط بعضنا البعض، نسحق بعضنا البعض بأقدامنا. الجميع خاسر يا "إيلي". كلنا خاسرون. كلنا خسرنا.

قمت بإمالة الزجاجة على شفتيَّ من أجل رشفة نبيذ أخرى؛ لكن "توني" اقترب منِّي وأخذها من يدي. أبعد شعري عن عينيَّ وقبَّلني على شفتيَّ. قال:

- لا تشربي أكثر من هذا يا "إيلي".

شعرت فجأة بالتعب وأنني ثملة للغاية. أمسك بيدي وأوقفني على قدميَّ وقادني إلى غرفة نومه. شعرت بسريره باردًا ومرحبًا، بينما أرقد عليه ثم أحاطني بجسده. خلدت إلى النوم وأنا ممسكة بيده.

(23)

"3 يونيو 1990،

"زهور "البيتونيا" أفضل حالًا هذه السنة"، قلتها وندمت عليها في حينها. بـدت كشيء تقوله امرأة عجوز. انتظـرت العاصـفة؛ التعليـق المتعـاطف المشرق؛ وإدراكي لاعترافي بأنني عجوز. لكنه قال بدلًا من ذلك: "يمكنك الاستفادة من بعـض السـماد على زهور "الغرنوقي"، كما تحتاج الزهور إلى أن تُقطع. يمكنني أن أقوم بـذلك مـن أجلك لو أن لديك مقصًّا".

كنت أعرف أنه عرض عليّ ذلك لأنه أراد أن يفعـل ذلـك ولـيس لأنـه شـعر بالأسف من أجلي. إنه يرى الحديقة كشيء يجب استكشـافه، والمحافظـة عليـه، والإضافة إليه، وليس كشيء جامد، ساكن، ولا يمكن تغييره أبدًا".

"10 يوليو 1990،

قال لي "جيسون" هذا المساء: "أعتقد أنني أحبك يا إيفيلين".

ضحكت نصف ضحكة، وقلت: "لا، أنت لا تفعل".

كنا نجلس في الخارج نتناول مشروبًا ساخنًا في البلكونة. كان الوقـت مظلـمًا والجو باردًا؛ لكن ظلت حشرات العث تحوم حول الضوء مما جعلني أضطر إلى إطفائه. اعتمدنا في الإضاءة على قمر شاحب.

أصر قائلًا: "بلى، أنا أحبك".

جعلته جديته يبدو شابًا بشكل مفاجئ وتذكرت للحظة خاطفة "إيلي" ومزاجها السيئ حول الذهاب إلى الحفل الراقص مع "فانس". حاولت ألا أتصرف بأمومة أو تنازل وقلت: "أنت تحب روزي".

سمعته يسحب شفتيه للداخل ثم يتركهما مرَّة أخرى. تخيلت أطراف أصابعه تلمس بعضها البعض حيث تشكِّل يداه مثلثًا، مثل الطبيب قبل أن يعطي تشخيصًا مسبقًا.

قال وهو يعتدل في جلسته: "لا، أنا لا أحبها. إنها، إنها هنا فحسب".. "مجرد رفيقة سفر؟".. "يمكنك أن تقولي هذا".

بدا لي مغتمًا للغاية؛ لكنني عرفت أن أي محاولة من جانبي كي أجعله يشعر شعورًا أفضل لن تكون مستحبة. وضعت كوبي على الطاولة، وقلت: "إنك تذكرني بشخص ما".

نظر لأعلى فأكملت: "شخص أيضًا أحب الحدائق والكتب. الشعر. لقد أحب الشعر".. "هل مات؟".

هززتُ رأسي نافية وقلت: "لا، إنه في مكان بعيد. في مكان بعيد للغاية".

سألني بعد فترة صمت: "هل تحبين "مايلز"؟".

لاحظت نبرة سُخرية طفيفة في صوته كأن من غير المحتمل أن يحب أحد "مايلز"، وعلى كل حال فهو خصم ملموس ومرئي أكثر من رجل آخر غامض بعض الشيء، ويُحِب الشعر.

لكنني بالطبع أحب "مايلز". ربما يبدو غير محبوب للكثير من الناس. لكنني أشعر بنوع من السلام مع "مايلز" فقط، حب لا يتطلب ولا يتهم. أما "ليونارد"، "ليونارد" المسكين قد عَلِق داخل علاقتي بـ"والي" ولم أتمكن من أن أحب أحدهما دون كراهية الآخر، وقد كان هذا هو "والي"، إن "والي" هو من أحببته بصدق. لكنني الآن أرى أن الحب يحتاج ألا

يكون متطلبًا، يحتاج ألا يكون جارحًا، يحتاج ألا يأخذ كل شيء من شخص ما. يمكنني الذهاب مع "مايلز" الليلة، بإمكاننا قضاء ليلة رائعة في النادي البحري ثم بعد ذلك يمكنني أن أعود إلى منزلي بمفردي. لا أقلق حيال الغد حين أكون برفقة "مايلز". سيكون موجودًا؛ وأنا سأكون موجودة. إن غياب الحب، ذلك النوع من الحب، يشعرني بالراحة. الشعور بالغيرة والترقب والفقدان. ألَّا أحتاج لأكثر من هذا. ألَّا أضطر إلى انتظار مكالمة تليفونية، أو صوت خطوات عند البوَّابة، يد تطرق على الباب. ألا أشعر بامتداد الساعات في ضيق الأمل، حبال اليأس. إن هذا حب لا ينتهي أبدًا. ليس هناك حدود للحب، ولا وقت مطلوب. إنه يتدفق من ساعة لأخرى، من يوم لآخر. سلام، نعم، لقد أمدني "مايلز" بشعور السلام.

إنه سيئ المزاج؛ لكنه ليس مريرًا مثل "ليونارد"؛ إنه يحب "شكسبير"، لكنه ليس مُدَّعيًا (مثل "جيسون"؟) أو قلق (مثل "إيلي"؟). هو فقط ما هو عليه. إنه ليس واعيًا بذاته، لا يحاول أن يكون، لا يحاول أن يجعلني أحبه لهذا السبب أو ذاك. إنه ذاته. لم أقابل أحدًا قبل ذلك قط يشعر بتلك الراحة مع ذاته. لهذا السبب أحبه.

كما أنه يفهم طبيعة الحزن، وهو شيء لا يفهمه "ليونارد"، لهذا السبب يشعر بهذه المرارة. إنه يسمح لي بوقت بمفردي، كي أحزن، كي أنضج. كل يوم أنضج من خلال المنزل. الحديقة. أمدد نفسي عبر الغرف، في حب الضوء، والظلام، وسهولة البقاء بمفردي. أنا لا أعيش في نصف غرفة كما اعتدت عندما تزوجت، أو عندما كنت آتي إلى هنا كي أزور "والي": في وقت معين من اليوم، وأنا أعرف أنني في النهاية لا أملك أي شيء، ولن أملك أي شيء في المستقبل.

كان هناك شيء مثير للشفقة حـول "جيسـون"، في طريقـة جلوسـه منحنيًا أمام الطاولة، المرارة في صوته. تمنيت لو أنه ذهـب إلى الحفـل مـع "إيـلي". أنـا عجوز للغاية على هذه الأمور الآن، عجوز بالفعل".

تخطيت عدة صفحات، أنظر، وأبحث عن تواريخ مهمة، وأرغب في أن أجد نفسي بين تلك الصفحات تمامًا كما تخيَّلت نفسي.

"20 أكتوبر 1992،

"راسلت "والي" اليوم حيث طلبت منه بعض النقود. ليس من أجلي؛ بل من أجـل "إيلي". إنها ترغب في الالتحاق بالجامعة في "بريطانيا". إنها تقول إنها ليسـت متكيفـة هنا، وإنها تمـوت، تمـوت مـن تعطشـها إلى الثقافـة والكتـب والـتعلم. سـيقدر "والي" مشكلتها لأنني أظن أنه شعر بالشعور نفسـه في بعـض الأوقـات. لهـذا السـبب كـان مكتبه هو المكان الوحيد الذي شـعر فيـه بالراحـة. لم يـرد أن ينظـر أي أحـد بداخلـه ويضحك، أن يخطو فوق أحلامه مثلما فعل أبوه.

منذ عدة شهور، استعلمت في السفارة البريطانية ما إن كـان لـديَّ الحـق في راتب تقاعد أم لا؛ لكنني تلقيت خطابًا في الأسبوع الماضي يعلمنـي بـأنني طالما لم أعمل أبـدًا في "بريطانيـا" فـلا يحـق لي ذلـك. مـؤخرًا وجـدت نـفسي أتساءل كيف كانت لتصبح حيـاتي لـو أننـي بقيـت في "إنجلـترا". كنـت عـلى الأرجح سأمتلك منزلًا، وأتلقى راتب تقاعـد، وأذهـب في رحلـة إلى "مايوركـا" مرَّتين في العام، أشتكي من الطقس، والحكومة، والضرائـب. كنـت سـأعيش في

عالم صغير محمي. رمادي؛ لكنه محمي. في "إنجلترا"، أنت شخص. ليس شخصًا مهمًّا، لكن لديه حياة قيمة. ما تفكر فيه وتختبره يهم. يمكنك أن تصرخ، وتشكو، وتطلب المزيد.

تعطيك "أفريقيا" المعرفة بأنك لست مهمًّا، وأنه لا شيء دائم.. أنك مجرد كائن صغير للغاية في قارة كبيرة للغاية وأنك ستعيش وتموت مثل أي شيء آخر".

(24)

"15 سبتمبر 2004،

هذا المساء ذهبت مع "مايلز" إلى المحطة. ذهب إلى الداخل كي يحجز تذكرة لخادمه الذي سيذهب إلى "هاراري" وجلست أنا في السيارة بانتظاره. لا أصدق أنه المكان نفسه الذي جئت إليه منذ أكثر من خمسين عامًا. كان حينها مكانًا كبيرًا للغاية: نظيف، وبه مطعم وحمام. كما كانت المباني المحيطة أنيقة: مطلية بالدهان، ومصانة. لم تكن الفنادق بيوت دعارة؛ لكنها كانت أماكن محترمة يقيم فيها الناس. كان صف النخل الذي يزين الطريق وحتى وسط المدينة يعلن عن شيء جديد، شيء يدعو للفخر.. بداية.

في الأسبوع الماضي ذهبنا إلى الحديقة. كانت جرداء وبنية اللون، أسوأ شكل رأيتها عليه، أسوأ حتى مقارنة بسنوات الجفاف التي مررنا بها. لم أتمكن من العثور على بستاني واحد في المكان بأكمله. وجدت في أحد أحواض الزهور علبة أوقية ذكرية، بدلًا من علب البذور المعتادة التي تدل على ما يُزرع في الحوض. يبدو أن هذا الأمر أصبح معتادًا هذه الأيام. هناك علب أوقية ذكرية في كل مكان، وعلى الرغم من ذلك نشم حولنا في كل مكان أيضًا رائحة "الإيدز" العفنة.

شعرت بالشعور نفسه هذا المساء، شعور بأن الأشياء تموت ولا يوجد شيء يحل محلها. لم أرَ أي بدايات، نهاية فقط. لم يُبنَ أي شيء هناك منذ وقت طويل. المحلات متداعية، ومهلهلة، وقديمة، ومتعبة. مع ذلك لا تزال الملصقات تعلن عن الأمل: الحفلات

الراقصة، والفرق الموسيقية، ومباريات كرة القدم. لأنني لم أعد جزءًا منها ولم تعد هي جزءًا منِّي، جعلني ذلك أفكِّر هل أصبح ذلك يعني لي أقل مما كان يعنيه لي من قبل؟ هل سيأتي أحد من "هاراري" خلال الليلة، أو حتى خلال ساعات، أو حتى متأخرًا يومًا بكامله في مقصورة مزدحمة، تفوح منه رائحة قشر البرتقال والبول والوجبات السريعة الدهنية، ومع ذلك يشعر الشعور نفسه بالأمل عند وصوله؟

ربما لن يرى صف المحلات المُتداعية أو محطة الكهرباء؛ لكن صف النخل على الطريق يبدو مثل راقصات باليه متعبات ينتظرن بفارغ الصبر إشارة خروجهن من المسرح؛ لكنه يظل شيئًا طازج، شيئًا جديدًا. ربما أنا فقط متعبة وعجوز للغاية. ربما عندما نكون شبابًا، شبابًا وسعداء، لا نتمكن من رؤية متاعب الحياة لأننا لم نختبر أي شيء في حياتنا بعد.

لكنَّ هناك جزءًا آخر بداخلي يتساءل، هل كان من المفترض أن تسير الأمور بهذا الشكل؟ ألم تتمكن المحلات والطرق والنخل أن تقف في مواجهتها أيضًا؟ هل كان على القطار أن تفوح منه رائحة البول والأجساد غير النظيفة؟ أرى أنهم لا يزالون يستخدمون العربات "الروديسية" القديمة؛ كم رأت تلك العربات أيامًا جميلة! لكن السُّود لم يكونوا ليسافروا بالطريقة نفسها، أليس كذلك؟ كانوا سيسافرون على الدرجة الثالثة في كل الأحوال. كيف كانت تبدو حينها؟ لم أعرف أبدًا.

هل كانت "روديسيا" سيئة؟ لست متأكدة. ليست كلها، أليس كذلك؟ أجد نفسي أشتاق للطرق النظيفة، والحمَّامات الخالية من أي بقع، وقوات شرطة كفء. ماذا كسبنا؟ الاستقلال. مجرد كلمة ضحلة في دولة لا تسمح بحرية التعبير.

هـل عاملنـا السـود بالطريقـة السـيئة نفسـها التـي يعـاملون بهـا بعضـهم البعض؟ كم أريد أن أقول: بالطبع لا. لكن ربما أن تأكل جيدًا ويتم الاعتنـاء بـك ليس كافيًا. عند نقطة ما يحتاج المرء أن يدرك شيئًا مهمًّا: أنا إنسان. وأكـثر مـن ذلك: أنا وأنت، كلانا مُتساويان.

غالبًـا مـا تراسـلني "إيـلي" تطلـب منِّـي أن أنضـم إلى "حركـة التغيـير الديموقراطي"، أو على الأقل أن أحضر اجتماعًا أو اثنين لأرى ما لديهم ليقولـوه. أحيانًا أشعر بأن الأمر مُغرٍ؛ لكنني لم أتمكن من أن أفعل ذلك بطريقة ما. ربما لا أؤمن كفاية بالتغيير. ربما لم أحب أبدًا الفكرة في أي شكل.

بالطبع، هناك جزء مني يفهمه؛ أعني "موجابي". أفهم تلك المرارة. فبعد كل شيء، لقد فقد كلانا أطفالًا، ولا يمكن لأي أحد أيًّا كان أن ينسى بعد ذلك. مهـما حدث. ما الذي يضايقه، الذي يسممه، ما الذي يهيئه كي يـدمر أي شيء جديـد، أي شيء يحمل داخله المصالحة، إنها تلك المرارة الكريهة، لكن ليس هذا فقـط؛ بل فشله أيضًا. لقد فشلت عنـدما خـذلت "جيريمـي". لم أتمكـن مـن إنقـاذه، لم أتمكن من فصله عن الفوضى التي تسببت فيها.

كما أخبرني "والي" من قبل، لو أن الكراهية هي أنقى صور الحب، فكـل مـا أراه هو رجل عجوز يتوسـل كي يحبـه مـن حولـه. إن صـورته في كـل مكـان: في البنك، وفي مكتب البريد، وفي بعض أكثر المحلات تداعيًا وقـذارة في المدينـة. إنـه يترأس كل شيء كأنه يقول: كل هذا الدمار ملك لي. كل هذا لأنـه أراد أن يحبـه الناس. ما قدمه لنا مع الاستقلال هو المغفرة؛ لكنه لم يـرد أن يقـدمها لنـا حقًّـا، والآن لا يريد أن يُغفر له. ومن يريد ذلـك؟ إن المغفـرة تحـبط الغضـب وتجـبر الشخص على أن ينظر إلى نفسه بدلًا من إلقاء كل تلـك الكراهيـة عـلى شـخص آخر. كم نكره جميعنا النظر إلى أنفسنا.

يتساءل الناس ما إن كان يشعر بالذنب، لكن من منا يشعر بذلك؟ لم أتوقع أبـدًا أن أكون من ذلك "النوع" من الناس الذي يكون لديه علاقة غرامية. منتهية. صعبة. مـدمرة

منازل. شخص يتغذى على عذاب شخص آخر، يولد الأوقات السيئة في زواجهما بكل قيمة العلاقة: مجوهرات، ونقود، وليالٍ يقضونها في الفنادق الراقية. لم يشترِ لي "والي" مجوهرات أبدًا؛ كما أننا لم ننزل معًا في فندق حتى ذهبنا إلى "موزمبيق".

كنا نتحدث في الأغلب؛ كنا نتحدث، ونتحدث، ونتحدث، ولم نكن نمارس الحب معًا أبدًا. كنا ننظر في خرائطه ونحلم بكل الأماكن التي كنا سنذهب إليها معًا. كنا نشرب نبيذًا رخيصًا ونأكل ساندويتشات جبن في نزهتنا على الملاءة التي نضعها على الأرض، متخيلين أننا في مكان بعيد وأننا أشخاص آخرون.

هل شعرت بالذنب؟ لا؛ لكنني حاولت. جلست في الكنيسة أستمع إلى القس معاتبًا "المذنبين" الذين يزنون، الذين يمارسون علاقات محرمة، والذين يشربون الخمر ويقامرون ولا يسعون طالبين مغفرة الله. كل ما كنت أفكر فيه أثناء مغادرتي هو أنني لست نادمة، باستثناء ربما كوني نادمة على أنني لا أشعر بالندم مُطلقًا.

أفكِّر في ذلك الوقت، الذي مرَّ عليه وقت طويل الآن، عندما أتت لتراني. ربما ما كان عليَّ أن أتفاجأ بهذا الشكل عند زيارة زوجة عشيقي لي. كنت قد تزوجت "ليونارد" منذ أربعة أشهر حينها وقد اعتدت الخروج في الصباح الباكر لأتمشى قليلًا، وأحيانًا كنت أخرج مبكرًا للغاية: في الثالثة صباحًا، وأجلس لأشاهد الفجر الأبيض لكل يوم وهو يشتد. اعتدت على أن أفكر بأنني شاهدت عرضًا لحياتي، يومًا بعد يوم، كل يوم ينعقد في اليوم التالي وأنني لو جلست أشاهدها وهي تحدث من مكاني هناك فلن أتعرض لأي مفاجآت: كنت أعرف ما سيحدث قبل كل هؤلاء النائمون الأبرياء. كنت أنام في الظهيرة عندما ينهزم العالم أمام حرارة النهار ويئنُّ السقف في استسلام كسول. كنت حاملًا بالطبع، ما مكَّنني من أن أبرر ساعات نومي الغريبة.

كانت الساعة الرابعة على الأغلب عندما طرقت علـى البـاب وفتحـت لهـا، عيناي نصف مغمضتين، ولم أفكر حتى فـيمَن قـد يكـون الطـارق. كانـت هــي: "رييت". أتذكَّر أنها بدت شاحبة. قالت وهي تنظر لبطني المنـتفخ: "الطفـل، لا أمانع أن يأتي ليراه. لو أنه مشارك في حياته".

توقفت عن الكلام ونظرت إليَّ قبل أن تكمل. لم أدعُها للدخول وقـد كانـت تقف على درجة السلم الأمامية بحذر، بينما استندت أنا على الباب وهي تكمل قائلة: "ستسمحين له بذلك، أليس كذلك؟ إنه كل ما كان يحلم به، طفل".

أغلقت الباب حينها؛ لكنني أعرف أنها ظلـت واقفـة لعـدة دقـائق قبـل أن ترحل".

"3 أكتوبر 2004،

أرسلتُ خطابًا لـ"إيـلي" لتـوِّي أخبرهـا فيـه أننـي أريـد أن آتي إلى "إنجلـترا" لأراها. كنت أشعر بذلك الشعور منذ ذلك اليوم عند محطة القطار. قـد يكـون ذلك اشتياقًا مفاجئًـا للنظـام والنظافـة، أو ربمـا هـو شيء متعلـق بالسـن. لقـد خططت منذ سنوات لرحلة عودة إلى "الـوطن"؛ لكننـي دائمًـا تخيلتهـا كطريـق جميل في المستقبل. الآن أنا في السابعة والسبعين من عُمري، ولا يعرف المرء كم تبقى له. أود أن أذهب وأنا لا أزال أقدر على ذلك، بيـنما لا تـزال لـدي الطاقـة وصحتي جيدة.

أرسلت خطابًا لـ"والي" أيضًا أخبره بخططي. لم أشعر أبدًا بأنني توصَّلت لنهايـة حقيقيـة حول علاقتنا وأود أن أرتب الأمر. كـما أننـي أرغـب في إخبـار "إيـلي" الحقيقـة أكـثر مـن أي

شيء آخر. أريدها أن تأتي معي لزيارته، لتعرفه كما هو حقًّا، وليس ذلك العم "والي" الذي طارد حياتنا لسنوات طويلة.

أحسست برعشة إثارة وأنا أحضر مجموعة من الأوراق الزرقاء هذا الصباح.

"عزيزي والي".

كم مضى منذ كتبت تلك الكلمات؟ لطالما شعرت بسهولة التعبير عن نفسي على الورق. هناك شيء ما حول الكلمات المكتوبة؛ لديها قوة لا تمتلكها الكلمات المنطوقة. نحن نلغز كلماتنا بالكلمات العامية، والآهات والتوقفات والجمل غير المنتهية، حتى تتعلق في غير ترابط ودون فائدة؛ لكنني لم أكتب خطابًا أبدًا به جملة غير منتهية. حتى الخطابات التي لم أرسلها. عندما أعيد قراءتها، أجد شخصًا أقرب إليَّ من أي شخص آخر أعرفه. أراني على حقيقتي، لكنني أتساءل لو أنهم يرونني كذلك.

لو أنني أرسلت الخطابات إلى "والي"، أتساءل ما إذا كان سيفهم الأدلة، أن يحل شفرة ما كنت أقولها له. لا أصدق أنه من الممكن أن يكون الشخص أي شيء غير نفسه في الخطاب. لهذا السبب فهم أدلة قوية في قضايا الجريمة؛ لكن ليس فقط ما يفضحنا هو خط أيدينا، بل ما نكتبه أيضًا. لا يوجد ما هو أهم من ذلك.

لكنني فجأة لم أعرف ما أكتب. بعد كل هذا الوقت، ماذا عليَّ أن أقول؟".

ربما لهذا السبب لم ترسل جَدَّتي الخطاب إلى "والي". وجدته في مغلف أزرق طويل، بين صفحات آخر ما كتبت في مذكراتها.

"7 أكتوبر 2004،

عندما أموت، أود أن أموت هنا، في "أفريقيا". أود أن أموت في يوم جميل في أغسطس ذي سماء صافية، تكون فيه السماء زرقاء، ولا تكون الشمس مرتفعة وحارة للغاية؛ لكن تكون منتشرة في الهواء، حية فيما نراه. حينها أود أن أموت".

ماتت جَدَّتي في أكتوبر، قبل بدء موسم الأمطار، حين كان كل يوم مشبعًا بحرارة العام المحتضر. قال إنه لم يقصد أن يزعجها. ظن بأنها ستكون نائمة. كما أنه ظن بأنها لن تسمعه ولن تجرؤ على مواجهته. كانت في السابعة والسبعين من عمرها. قال لي أحدهم في الجنازة: "كانت أوقات جيدة". ألم يكن من حقها على الأقل أن تختار اللحظة التي تموت فيها؟ لم تكن السماء زرقاء ولم تكن الأرض باردة. كانت ملامح وجهها متغيرة من كثرة الضرب.

كان يوم الكريسماس حارًّا ومشرقًا. كالعادة، استيقظت باكرًا ونهضت ببطء من السرير. شعرت بصداع خفيف خلف عينيَّ. وجدت على رفِّ دولابي ثلاث هدايا، كلها ملفوفة بالورق نفسه. نوع من الجنيات ينفخ في بوق وهو يميل إلى الأمام، وقدماه منفرجتان، وعيناه مغلقتان، وخدَّاه منتفخان. كان هناك شيء ما بائس حوله وأردته أن ينزل البوق ويلتقط أنفاسه. وصلت إليَّ رائحة الصنوبر من الشجرة ما تسبب في شعوري بانقباضة حنين.

كاد الكريسماس يمر دون أن يلاحظ أحد. جلس جَدِّي في البلكونة، مثلما اعتاد، يتأمل الأفق البعيد، أين؟ إلى ماذا؟ لم يشعر بالملل، هذا هو ما كنت أعرفه. كان يحاول أن يرتب شيئًا ما في ذهنه، مثلنا كلنا. كان هناك مباراة كريكيت في التليفزيون ولم يكن المنتخب الزيمبابوي يخسر بشكل درامي مثلما يحدث له منذ مدة. ظل جَدِّي يخبرنا أن الأمر مجرد حظ؛ قريبًا سيخرجون من

البطولة – لم يعد هناك أحد يلعب كريكيت بمستوى عالٍ الآن. توقعنا جميعنا أن يقول: "ليس منذ أيام روديسيا".

لكنه لم يعد يذكر تلك الأيام وحل الفراغ مكان الكلمات، يلف حولنا ويضربنا، ويهزمنا بست نقاط ثم يتركنا بإحساس الخسارة، بألم بسبب الحال السابق، غير الكامل كما كان دائمًا.

اتصل بي "توني" وسألني:

- ماذا تفعلين؟

- لا شيء.

- هل تحبين أن نتناول العشاء معًا؟ ديك رومي، وبطاطس، وحلوى "البودينج"، وكل شيء؟ إضافة إلى بعض البسكويت الحلو.

قلت بصوت مُحايد قاطع البهجة في صوته، مثل مقص يقطع زهرة صغيرة:

- لا أظن ذلك.

- هيا، فلتأتي، سيكون وقتًا لطيفًا. أعدك بذلك.

- لا أظن ذلك يا "توني". سأرتب كي تكون الكتب موجودة هنا عندما تأتي لأخذها.

- فقط؟

- فقط. أنا آسفة يا "توني". وداعًا.

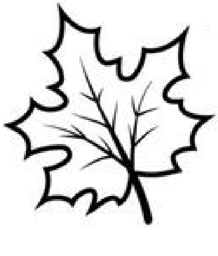

الجزء الثَّالث

(1)

"1 يناير 1947،

لقد حظيت بأفضل ليلة رأس سنة. لم أكن أتطلع إليها حقًّا؛ بل كنت أرهبها، حيث إن "شيرلي" و"إيدي" ذهبا إلى "بيرا" منذ يومين. إن "شيرلي" هي أقرب ما يمكنني أن أسميه صديقة. هناك فتيات المكتب؛ لكنهن لسن أكثر من مجرد زميلات. لا تسئ فهمي، إنهن طيبات، وودودات، ومرحات؛ لكن ليس أكثر من ذلك. عرضت عليَّ "ليزلي" و"آن" أن أرافقهما إلى فندق "ذا جراند"؛ لكنني شعرت أنه من الأفضل أن أبقى في المنزل. كنت أشعر بالإحباط الشديد. تمكنت من أن أستمع للفتيات تستعد في الغرفة المجاورة. كن يطلقن ضحكات عالية وسعيدة.

عند لحظة ما، سمعت طرقًا شديدًا على باب غرفتي، وعندما فتحت، وجدت أمامي "أودري فاراداي" مرتدية ملابسها الداخلية فقط، قالت صائحة: "دعيني أدخل يا "إيفيلين"! سيراني أحد وأنا واقفة هكذا!".

مرَّت من تحت ذراعي وارتمت على الكنبة. إن لديها بشرة باهتة جميلة، والتي كانت متوهجة من أثر الضحك تلك الظهيرة. سألتها: "ماذا يحدث بالضبط؟".. "أعتقد أنه سيعرض عليَّ الأمر يا إيفي".

توقفت، ثم أعادت ما قالته ببطء وهي مبتسمة: "أعتقد أنه سيعرض عليَّ الأمر".. "تقصدين؟".. "نعم، أن أتزوج منه".. "أودري، إن هذا رائع، رائع للغاية".

ألقيت ذراعيَّ حول عنقها وشعرت بذلك الملمس لبشرتها المغسولة لتوِّها. لم أتمكن من أن أمنع نفسي بالشعور بالحزن الشديد، على الرغم من أنني تأكدت من عدم ملاحظة "أودري" لذلك. عندما رحلت، استلقيت على سريري وبكيت.

في حوالي الثالثة ذلك المساء، طرقت السيدة "ويزمان" على غرفتي، قالت: "لديك زائر يا آنسة "سوندرز"، إنه يقول إنه عمُّك وقد أتى من ساليسبيري".

قفزت من سريري في مفاجأة، ومررت مشطًا في شعري بسرعة، وارتديت حذائي. نظرت نظرة خاطفة لعينيَّ في المرآة وتمنيت ألا تبدو عيناي منتفختين.

كان "كادوالادار" جالسًا في صالة منزل السيدة "ويزمان" الصغيرة. كان ظهره ناحيتي عندما دخلت وبدا أنه يتأمل الزينة التي وضعتها السيدة "ويزمان" على رفِّ الموقد. وضع يديه خلف ظهره وهو يحمل قُبَّعته.

"كادوالادار"؟

التفت مبتسمًا وقال: "إيفيلين! كيف حالك؟"

تحدثنا لحوالي نصف ساعة، وأبقت السيدة "ويزمان" الباب مفتوحًا وعلمت أنه من المحتمل أنها تستمع إلينا من خلال غرفة الطعام الملحقة بغرفتها. علم "كادوالادار" بذلك أيضًا وظل يتحدث بصوت عالٍ ويقول أشياء مثل: "لقد عرفت من أمك. إنها تقول إنها بخير وإن العمة "كلاريسا" أعدت فطائر اللحم المفروم الخاصة من أجل يوم مباراة الملاكمة".

أردت أن أضحك لكنه حذرني في دعابة بوضع إصبعه على شفتيه لإسكاتي.

سيبقى "كادوالادار" في المدينة لثلاثة أسابيع تقريبًا. سيبدأ بعمل ما هنا في العام الجديد؛ لذا فقد قرَّر أن يقضي الكريسماس هنا مع بعض الأصدقاء. فكَّرت في أن زيارته لي وتفقده كيف أتكيف في المكان أمر لطيف. على أحد المستويات يبدو أنه رجل مهذب نموذجي: فهو مهذب للغاية ولا يعبر عن مشاعره بشكل بارز. لا يبدو أن هناك أشياء كثيرة تقلقه، ربما لأن لديه الكثير من الأموال، والمال يحل الكثير من المشكلات؛ لكن من الناحية الأخرى، على الرغم من أن البعض قد يراه شخصًا سطحيًّا، إلا أن بداخله بعض العمق الذي ألاحظه بين الحين والآخر. إنه يفهم الأشياء، ويمكنه فهم ما يحدث على مستوى مختلف. إنه لا يصرح أن بإمكانه فعل ذلك، لذا فهو يفاجئ من يتحدث معه عند محاولته بالإجابة.

"ماذا تفعلين الليلة؟".

أجبته وأنا محرجة قليلًا: "لا شيء".

لم أرد أن يظن أنه ليس لديَّ أي دعوات في ليلة رأس السنة. قال: "ما رأيك بأن نتناول العشاء ونرقص معًا في النادي؟".. "أي نادٍ؟".. "النادي الوحيد هنا. نادي "بولاوايو". هل تحبين فعل ذلك؟".

ترددت وفكَّرت في زوجته. لم أكن أعرف ما إذا كان مزاجي يسمح برؤيتها. بدا كأنه قرأ أفكاري فقال: "إن زوجتي مريضة. كانت ستأتي؛ لكنها ليست بخير. ظهرها يؤلمها".

أشرق وجهي.

حسنًا، لقد حظينا بأفضل وقت ممكن. وعد "كادوالادار" السيدة "ويزمان" أن يعيدني إلى المنزل بعد منتصف الليل بقليل. ضمَّت شفتيها في البداية، وهزت رأسها كطبيب شخَّص لتوِّه مرضًا رهيبًا؛ لكنها رضخت أمام سحر "كادوالادار" وأتى ليصطحبني في تمام السابعة.

كان هناك كثير من الناس هناك. كانت النساء مرتديات أجمل فساتين الحفلات (اقترضت واحدًا من إحدى الفتيات) والرجال يرتدون بدلات "التاكسيدو". شربت

كأس شمبانيا وشعرت بالعالم يدور من حـولي عنـدما بـدأت الفرقـة الموسـيقية بالعزف. بدأت أنقر بقدمي على الأرض لا شعوريًّا، ولم أطق صـبرًا حتـى يطلـب منِّي أحد أن أرقص معه. قدمني "كادوالادار" لمجموعة كبيرة من الناس - الكثير من الرجال العُـزّاب وكـان بإمكـاني الـرقص طـوال الليـل مـع كـل واحـد مـنهم وسيتبقى لدي طاقة للمزيد!

كان الطعام رائعًا. لم آكل بهذ القدر منذ أن تناولت العشاء مـع "كـادوالادار" وزوجتـه في "ساليسبيري". اعتاد "كادوالادار" على تقديمي على أنني ابنة أخيه وبعد فترة بدا ذلـك طبيعيًّـا بالنسبة لي. لم يشك أحد في الأمر مُطلقًا - ولماذا سيشكون؟ ألا نعتقد أن ما يقوله لنا الآخرون هو حقيقة مُطلقة؟

ثم قابلته فجـأة. "جـورج جرينجـر"، أحـد أصـدقاء "كـادوالادار" الـذي شـارك في الحرب في "بورما". لقد كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أجد نفسي منجذبة لأحد وقـد فاجأني الأمر. أعتقد أنه كـان في الخامسـة والعشريـن ذا شـعر داكـن مجعـد وأطـول رموش رأيتها على رجل. إنه من "روديسيا"؛ لكنه أمضى وقتًا طويلًا في "إنجلترا"، يتدرب في سلاح الطيران الملكي. لم أخبره عن "تيموثي". لم أرد أن يعتبرني أرملـة، ومـاذا لـو أنـه كان يعرفه؟ لا، أريد أن أكون "إيفيلين سوندرز" مجددًا. ظل "كادوالادار" ينظر إليَّ وأنا اتحدث مع "جورج". ابتسم في كل مرَّة التقت فيهـا عينانـا ورفـع كأسـه لي في إحـدى المرَّات. بدا كأنه يراقبني بصورة أبوية، يعتني بي مما أشعرني بالارتيـاح بـأنني في ذلـك البلد الجديد والمثير، والمربك والذي يكون في بعض الأحيان مخيفًا، لديّ من يعتني بي.

عند منتصف الليل، غنينا نشيد الوداع، ورقصنا رقصة "الكونجا" في الشـارع. اقترح أحدهم نخبًا قائلًا: "عام جديد سعيد يا "روديسيا" 1947".

ثم غنينا جميعًا أغنية "فليحمي اللـه الملك". بعد ذلك بقليـل، قـال "كـادوالادار" بـأن عليه أن يصحبني إلى المنزل، لذا ودَّعت "جورج" بعد أن سألني عن عنواني، ثم ركبنا سيارة

"كـادوالادار". كانـت ليلـة مثاليـة. كـان النـاس يتوجهـون لمنـازلهم يصـيحون ويضحكون ويتمنون لبعضهم البعض عامًا جديدًا وسعيدًا.

قال "كادوالادار" فجأة وهو يثبت عينيه على الطريق: "إن "جورج" خاطب. ظننت أن عليَّ إخبارك".

خفق قلبي وشعرت فجأة بالوحدة التي شعرت بها سابقًا في ذلك اليـوم إلى أن وصل "كادوالادار".

"إنه شاب لطيف؛ لكنه مُشوَّش بعض الشيء. الحرب".

الحـرب. كـم كرهتهـا. رغبـت في التحـرر مـن شيء ظـل يمـد مخالبـه الطويلـة إليّ ويجذبني إليه مجددًا. كم اشتقت إلى إيجـاد شـخص لم تفسـد الحـرب حياتـه. حاولـت الحفاظ على مظهر خارجي هادئ؛ لكن كلـماتي خرجـت منـي جريحـة ومحطمـة: "ألا يوجد هنا أي أحد لم تتغير حياته بفعل الحرب؟".

هزَّ "كادوالادار" كتفيه وقال: "لا أظن ذلك".

ظللت صامتة، ثم اتجه "كادوالادار" إلى جـراج وأطفـأ المحـرك. قـال مجـددًا: "أنـا آسف، ظننت أنه من المفترض أن أخبرك. ذلك النـوع مـن الأمـور يحـدث كثـيرًا هنـا. سأتحدث معه وأخبره أن يتركك بمفردك. كنت سأفعل ذلـك؛ لكننـي لم أرد أن أفتعـل ضجيجًا، بسبب ليلة رأس السنة".

قلت فجأة: "أنا لا أحتاج إليك، لا أحتاج إلى فارس في درع برَّاقة كي يعتني بي. أنا بخير".

أردت فقط أن أذهب، أن أجري، وأجري، وأجري، وربما سأصل إلى الساحل، وأصعد على متن سفينة، ثم أعـود إلى "إنجلـترا" وسـيكون الجميـع هنـاك: أُمِّـي و"جريجـوري" و"مـارجوري" وحتـى الأخـوان "كليفتـون"، سـيكونون كلهـم في انتظاري، بينما ترسو السفينة، ولن أضطر أبدًا إلى العودة إلى هنا مجددًا.

(2)

غادرتُ "زيمبابوي" بعد الكريسماس. عـدت لــ"إنجلـترا" واسـتقبلني ينـاير البـارد والممطر مما أسعدني. لم أرغب في أشعَّة الشمس ولا سماء زرقاء؛ حتى امتـداد فـترات النهـار ضـايقني. لم أرد أي شيء يـذكرني بـالوطن، لم أرد أن يكـون أي شيء مشـابهًا. لم أغادر شقتي لثلاثة أيام، مفضلة بـدلًا مـن ذلـك أن أجلـس عـلى كـرسي أمـام مكتبـي وقدماي متقاطعتان، منحنية على عملي. كنت أقرأ الكثـير مـن أعـمال "وردسـوورث"، على الرغم من أنه لم يكن من شعرائي المفضلين أبدًا، ولم أمدحه كثيرًا من قبل؛ لكن في مدحـه لــ"تينتـيرن آبي" Lines Written a Few Miles Above Tintern Abbey، وجدت هذه البيوت الشعرية:

"موسيقى البشرية الساكنة الحزينة،

ليست قاسية ولا منفرة،

لكنها ذات قوة وافرة

مهذبة ومهدئة".

بتلك الكلمات القليلة، وصف "وردسوورث" الموسيقى التي سـمعتها طـوال طفولتي، نوع ما من النغمة الهامسة جعلت المسـتمع يجهـد نفسـه بالاسـتماع إليها كاملة، مثل بيانو يعزف في غرفة بعيدة للغاية.

عندما كنت طفلة خائفة من الموت، وجدت العزاء في قراءة القصص المصـورة والكتب، حيث لا يكبر فيها أحد، ولا يموت أحد. الآن أجد نـفسي أرغـب في النـوع

نفسه من الخلود في عملي. أصبح بحثي مهربًا آخر، طريق آخر في التقهقر إلى عالم خيالي، حيث تظل واقعية هذا العالم بعيدة عنه. رغبت أن أبقى في شقتي للأبد، ربما أطلب الطعام عندما أحتاج إليه؛ لكن لا أضطر أبدًا إلى مغادرة راحة وأمان عالمي الصغير. تأثير الشتاء نفسه أيضًا. إن الحياة دائمًا فورية في الصيف، تجبر المرء على أن يفتح نوافذه وينظف الركام ويواجه أشعَّة الشمس في الخارج.

كنت أجهز بعض الأسئلة من أجل مجموعة طلاب أدرس لها في الأسبوع التالي. كنا سنناقش قصائد "لوسي" من تأليف "وردسوورث". فتحت صفحة فارغة في مفكرتي وكتبت: "مَن هي "لوسي"؟ هل كانت شخصًا يعرفه؟ أم حبه الأول التي أنجبت له ابنته؟ أم ابنته الميتة؟ هل أمدته بوسيط ليعبر من خلاله عن مشاعره تجاه الموت؟ لماذا كتب تلك القصائد؟".

أسندت ظهري للخلف، تعطل قلمي عند آخر كلمة كتبتها، ونظرت إلى القائمة لمدة طويلة. شعرت فجأة بأنني أريد أن أعرف، أردت أن أحل اللغز. لم أرد تلك الجلسات التعليمية المعتادة التي نناقش فيها نظريات وأفكار متعددة ثم نجلس ونقول: "حسنًا، لن نعرف أبدًا بالتأكيد"، أو: "من الصعب أن نجزم؛ ولكن...".

بدت لي فجأة دراسة الشعر مضيعة شديدة للوقت. أين كانت الإجابات، أين كان اليقين؟ أمسكت التليفون واتصلت بالجامعة. طلبت إيصالي بالأستاذ "مونرو" في قسم اللغة الإنجليزية. ظننت أنه سيكون على علم بالإجابة. من هي "لوسي"؟ أردت أن أعرف. أردت أن أعرف من هي "لوسي". أوصلوني به فانتظرت. ظل التليفون يرن عدة مرَّات. خطوت خطوات كبيرة تجاه مكتبي وفتحت الدرج السفلي.

وجدت فيه كل الأوراق التي أحضرتها من "زيمبابوي": الصور والخطابات والوثائق. كنت أبحث عن الخطاب، آخر خطاب كتبته له دون إرساله، الخطاب الذي كُتب بخَطٍّ منمق للغاية وبحبر أزرق داكن وطُوي ثلاث طيات بعناية. المُرسل إلى "كادووالادار لويد"، 3 شارع "ديفيدز ووك"، "كارديف"، جنوب "ويلز"، "بريطانيا".

أمسكت التليفون مُجدَّدًا واتصلت بدليل الاستعلامات. أجابني الصوت على الجهة الأخرى من التليفون قائلًا:

- ما الرقم الذي تريدين الاتصال به من فضلك؟

كنت أتحدث بصعوبة. شعرت بأن اسمه غريبًا في فمي. شعرت بأنه سيشك فيَّ، طلب منِّي العامل أن أعيد الاسم مجددًا، ثم أخبرني بأنه لا يوجد هناك شخص بهذا الاسم.

قال الصوت:

- انتظري من فضلك.

انتظرت ثم عاد ومعه الرقم. تسارعت ضربات قلبي، من المحتمل أن يكون على قيد الحياة. يمكنني أن أتصل به، الآن. في هذه الدقيقة بالذات. يمكنني أن أتصل به. ماذا سأقول له؟ مرحبًا، معك "إيلي"، حفيدة "إيفيلين". مرحبًا، معك "إيلي". أنا "إيلي". أنا أعرف مَن أنت".

في النهاية، قررت أن أقول إنني "إيلي" حفيدة "إيفيلين" وإنني في "إنجلترا" وآمل أن أراه. حملت السماعة مُجدَّدًا ثم توقفت. سيسألني. سيقول: "كيف حال إيفيلين"؟ لم أتحدث إليها منذ بعض الوقت". ماذا سأخبره حينها؟ "أنا آسفة، لدي أخبار سيئة. إن "إيفيلين" قد ماتت". أم أكذب عليه؟ "إنها بخير، إنها ترسل لك حبها. إنها تعتذر لأنها لا تملك وقتًا كي تراسلك". ثم فكَّرت أيضًا ماذا لو أنه يعرف مسبقًا بموتها؟ ربما راسله أحد أصدقائه وأخبره. قد يكون الاحتمال الثاني حقيقيًّا وأنه من الممكن أن يشعر بالسعادة عندما أتصل به كنتيجة لذلك، أمسكت السماعة واتصلت به. انتظرت حتى أسمع الطقطقة، أو كلمة "مرحبًا" أو "صباح الخير"، أو "كادوالادار لويد يتحدث، كيف أساعدك؟"، لكنه ظل يرنُّ، ويرنُّ، ويرنُّ. يمكنني أن أحاول مرَّة أخرى؛ لكنني أردت التحدث معه الآن. في دفعة من الإحباط كتبت له خطابًا قصيرًا، أخبره فيه

مَن أنا وأنني أود أن آتي لرؤيته. جريت للأسفل ووضعت الخطاب في صندوق البريد في الجهة المقابلة من الشارع. ظللت أحاول الاتصال به طوال اليوم وفي المساء أيضًا. لم يجب أحد.

حاولت الاتصال به في اليوم التالي أيضًا؛ لكنني لم أنجح في الوصول إليه. ثم اليوم الذي يليه. كما أنني حاولت ألا أتصل في الظهيرة، وكأن هذا يعني بأنني إذا اتصلت به مساءً سأجده. في اليوم التالي، وصلني مغلف. نظرت إلى الطابع البريدي بسرعة؛ كان من "كارديف". وجدت بداخله خطابي، لا يزال في مغلفه المغلق، وهناك ورقة بها ملاحظة تقول:

"لمن يهمه الأمر، أعتذر لإخبارك بأن السيد "لويد" قد انتقل إلى دار مسنين "ذا إيلمز" في "هيرفورد". لقد تعرض لجلطة في نهاية العام الماضي وقد تقرر أنه من الأفضل له أن يكون في مكان يوجد به أحد للاعتناء به على أكمل وجه. وكجاره وصديقه القديم، وافقت على الاهتمام ببيته وقطته وإعادة إرسال أي بريد يصل إليه.

لقد تدهورت حالته الصحية بشدة على مدار الأسابيع الماضية، مما جعله في حالة لا تسمح له للقراءة ولا الرد على أي مراسلات، ولهذا لم أرسل إليه رسالتك. لو أنك أحد أقرباء السيد "لويد"، أو تعرفين أي طريقة أتواصل بها مع عائلته، فأخبريني من فضلك لأن في هذه الظروف المؤسفة، تحتاج شؤون السيد "لويد" أن يتم ترتيبها، سأحتاج إلى أن أتواصل معهم.

أرجو ألا تترددي في التواصل معي.

بإخلاص،

إيمريش دافيس".

تبع ذلك عنوان العم "والي" ورقم تليفون. في الصباح التالي، وللمرَّة الأولى منذ أسبوع تقريبًا، تهيأت للمغامرة بالذهاب إلى الخارج، على الرغم من أن هذه المرَّة لم يكن السبب هو ضرورة شراء طعام، بل لضرورة إراحة ذهني. كنت سأذهب لأودع شخصًا لم أعرفه مُطلقًا.

بعد أن وصلت بالقطار، وركبت تاكسي، وصلت إلى "الإلمز". إن سهولة السفر، وحتى المسافة، لم تبررا الاشتياق الذي شعرت به. بدا المكان من الخارج كدار مسنين نموذجي، ذي سور أحمر هادئ محيط به. فكَّرت كم أن المكان هادئ، كأنه يهيئ النزلاء لما سيأتي لاحقًا.

كان مكتب الاستقبال نموذجيًّا أيضًا، ذا سجاد أخضر فاتح، وزهور برية مطبوعة على إطارات من النحاس، وأربعة كراسي مفردة مغطاة بكتَّان ناعم رمادي حول ترابيزة عريضة ناعمة، وبعض المجلات منتشرة فوق الطاولة على هيئة قوس لطيف. مريح للغاية، هادئ وساكن للغاية.

كان هناك مكتب على اليسار؛ لكن لم يكن هناك أي أحد جالسًا عليه. كان الكمبيوتر يعمل على الرغم من ذلك وبجانب لوحة المفاتيح يوجد كوب أحمر عليه صورة إبتسامة بيضاء عميقة والتي بدت شريرة بعض الشيء لعدم وجود عينين تكملها.

كنت أحاول أن أقرأ إشعارًا معلقًا، شيء ما عن الحساسية، عندما فُتِح الباب - الذي كان مفتوحًا بعض الشيء من البداية - ودخلت ممرضة ممتلئة مرتدية زيًّا أزرقَ، وقد أغلقت الأزرار إلى الأعلى وتدلى من جيب صدرها الأيسر ساعة، وبنطلون أسود ضيق وحذاءً أسود ذو أربطة. حذاء حسَّاس من أجل أشخاص حساسين. تبعها رجل، رجل شاب ذو شعر بدأ يشيب قبل الأوان عند الأجناب، مما ناقض مظهر بشرته الناعمة ومشيته الشابة. كان يرتدي بدلة؛ لكنه أرخى رابطة عنقه. بدا وكأن حذاءه لا يزال ملصقًا به بطاقة السعر في الأسفل، وكأن

ورقة السيلوفان التي وصلت بداخلها رابطة عنقه لا تزال مُلقاة على سريره في المنزل، مثل لوحة الورق المقوي التي أتت مع قميصه والحقيبة البلاستيكية التي جاءت بداخلها بدلته عندما اشتراها من التخفيض الأخير.

قالت الممرضة وهي تخطو أمامه بخطوات كبيرة:

- لا أعرف أين هو.

كان شعرها الذي ربطته كذيل حصان يتراقص لأعلى وأسفل في سخط. عبثت ببعض الأوراق على المكتب بحركة فظة أعطت انطباعًا بأنها لا تتوقع أن تجد ما تبحث عنه وقالت:

- لقد وضعته هنا هذا الصباح، هذا هو كل ما أعرفه.

قال:

- حسنًا؛ ولكنه ليس هنا الآن.

قلت مُقاطعة:

- من فضلك، لا أعرف إن كنت في المكان الصحيح، لكنني أتيت لأرى أحد أقربائي؛ السيد "كادوالادار لويد".

أشارت الممرضة بغموض إلى عمق المبنى قائلة:

- نعم، من هذا الممر.

قالت بمُجرَّد أن رحلت:

- هل كنت تعرف أن لديه أي أقرباء؟

بينما كنت أمشي في طريقي تساءلت من الذي سأجده مستلقيًا في سرير العم "والي". هل سيكون الرجل نفسه الذي عرفته منذ سبعة عشر عامًا؟ الرجل ذو الوجه المشرق وخط الشعر المتراجع؟ هل سينهض ويبتسم ويلقي بالدعابات؟ هل سيغني "موناليزا" و"عندليب غنى في ميدان بيركلي"؟ لقد كان الوقت مبكرًا في الظهيرة، هل سيكون مستيقظًا من الأساس؟

لم أكن مستعدة على الإطلاق لما شاهدته عندما دخلت غرفة "والي". كان نائمًا، مستلقيًا على ظهره ويتنفس من فمه المفتوح. كان تنفسه ضعيفًا وبدا كأنه بين الحين والآخر يفوت نَفَسًا ثم يستمر. لم يعد وجهه مثل الشمس في رسوماتي؛ بل مثل بالون فارغ من الهواء. كان نحيفًا وقد التصق جلده بخبايا خديه الفارغة بشدة، واللذين كان يتقاطع بهما عروق زرقاء وبنفسجية دقيقة. كانت الملاءة مرتفعة حتى مرفقيه ومطوية للأسفل. كان ذراعاه ملقيتين في سكون تام، وإحداهما متصلة بمحلول.

أخذت يده في يدي بحميمية ستكون أقرب للوقاحة لو أنه كان واعيًا بوجودي. كان كف يده صلبًا، جافًا وأصفر اللون؛ لكن ظهر يده كان بني اللون باستثناء العروق التي كان لونها أزرق، ومنتفخة، وانتشرت بُقع النمش عليهما في عدة أماكن، كأنما نقر طفل ما بالألوان عليهما بإهمال. لم يجبني، نظرت إليه، لم يتبق على رأسه أي شعر تقريبًا؛ مجرد تاج أبيض خفيف من الريش.

رأيت فوق الدولاب الصغير بجانبه زجاجة مياه وكوبين. لم يكن هناك أي كتب أو مجلات، أو حتى قطعة شوكولاتة أو قطعة تفاح. لا شيء غيره. هذا هو "والي"، العم "والي"، الذي كان يومًا ما يلعب معي ويدغدغني إلى أن أصرخ. هذا هو الرجل الذي عانق جَدَّتي وهما يرقصان معًا أو يمارسان الحب، الرجل الوحيد الذي أحبته بصدق ولأجله أنجبت طفلًا.

ظللت جالسة لوقت طويل، دخلت ممرضة أخرى، بدت كأنها سعيدة لرؤيتي. لم يكن يزوره أي أحد. قالت وهي تطوي البطانية أسفل السرير وتسوي الملاءة، وهو فعل غير ضروري بالمرَّة حيث إنه لم يتحرك مُطلقًا منذ أن وصلت:

- إنه بمفرده الآن.

كانت امرأة ضخمة ذات شعر بني به تجعيدات ثُبتت للخلف بواسطة مشبك شعر على هيئة ظهر سلحفاة. بدت عيناها الزرقاوان الواسعتان أصغر من

باقي أجزاء جسدها ما عدا أظافرها المقلمة بعناية في نهاية أصابعها الممتلئة القصيرة. كان هناك شيء ما حميميّ بشأنها، شيء ما ذكرني بالشاي وخبز "التوست" الساخن في يوم من الشتاء.

- أنت أوَّل من يأتي لزيارته على الإطلاق.

- منذ متى وهو هنا؟

زمَّت شفتيها، وقالت:

- منذ شهرين أو ثلاثة، منذ أكتوبر حسبما أعتقد. نعم، أكتوبر.

قالت آخر كلمتين بإيماءة توكيدية. أومأت لها بالمقابل. ماتت جَدَّتي في أكتوبر أيضًا.

لا بد أنني ظللت جالسة لحوالي ساعة، أنظر إليه، وأنا ممسكة بيده. تساقط بالخارج ثلج غزير ناعم وقد ذاب بمُجرَّد ملامسته للأرض. أظلمت السماء بالتدريج وجاءت ممرضة أخرى وأزاحت الستائر. في النهاية نهضت وارتديت وشاحي ومعطفي، كنت أسمع صوت عربة تُدفع باليد تمشي في الممر؛ كانوا يقدمون الشاي.

في طريق خروجي، توقفت عند مكتب الاستقبال وتحدثت مع الموظفة. كانت الممرضة الضخمة نفسها التي تحدثت معها من قبل. كانت تضع بعض الملفات في الخزنة ولم تكن تنظر في الناحية التي أتيت منها في البداية. قلت:

- سأعود غدًا.

قالت في ابتهاج:

- حسنًا.

التفتت ورأتني، بدت متفاجئة لكنها ابتسمت، وقالت:

- سيكون ذلك جيدًا من أجله. كما أخبرتك، أنت الزائرة الوحيدة التي أتت لزيارته.

عدت في اليوم التالي، وبعد مرور أسبوع ذهبت لزيارته مرَّة أخرى. كان ذلك في ظهيرة يوم السبت. كان هناك طبيب مُنحنٍ فوق العم "والي" عندما وصلت ومعه

ممرضتان كل واحدة تقف على ناحية من ناحيتي السرير. أعطاني نظرة خاطفة عند انتهاءه ومغادرته الغرفة بحزم شخص عازم ليس لديه أي وقت يضيعه.

جاءت إليَّ واحدة من الممرضتين، كانت الضخمة المرحة، بينما كانت الأخرى تسجل حالة "والي" الصحية في ورقة مثبتة على لوحة معلقة عند نهاية السرير. انتابني الشعور نفسه عند رؤيتها: الشاي الساخن وخبز "التوست" الدافئ الممتلئ بالزبد، وللحظة ما، أردت منها أن تعانقني وتضمني إليها. فكَّرت في أنه من المرجح أن لديها طفلين، ولدًا وبنتًا لا يطيقان صبرًا لحين عودتها إلى المنزل كل يوم ليجلسا على ساقها يقرآن الكتب وهي تمرر يدها على خديهما وتقبل شعريهما.

أخذتني خارج الغرفة إلى الممر وهي تنظر خلفها كأنما تخاف من أن يسمع العم "والي" ما ستقوله. قالت في صوت منخفض:

- الأمر ليس جيدًا.

كانت ترتدي سترة صوفية يدوية زرقاء، وطوت الأكمام بهدوء أثناء حديثها، كأنه شيء تفعله لأولادها مما جعلها تفعله لنفسها بتلقائية. طوت ذراعيها والتقطت قطعة قطن من أحد الكُمَّين، ونظرت إليها كأنما تريد أن تعرف من أين أتت إلى كُمِّها. عاد اهتمامها إليّ مُجدَّدًا فقالت:

- لم يتبقَ الكثير من الوقت الآن. إنه ضعيف للغاية.

أومأت برأسي، فقالت:

- هل هناك أي أحد تودين الاتصال به؟ قريب آخر؟ أي شخص؟

هززتُ رأسي نافية، وقلت:

- لا أحد.

بدت عليها الحيرة، وقالت:

- أمك؟ أبوك؟ أنا آسفة، لا أعرف.. أعني، هل هناك أي أحد؟

قلت موضحة:

- تعيش عائلتي في "زيمبابوي".

رأيت للحظة خاطفة محاولتها العقلية كي تحدد مكانها زمنيًّا ومكانيًّا. بدا أن أفكارها توصَّلت لشيء ما فقالت:

- أوه، "زيمبابوي". ألم يكن هناك شيء ما عنها في الأخبار مؤخرًا؟

قلت:

- نعم.

لكنني لم أوضح، أردت أن أدافع عنها، أتركها في سلام، وتمنيت أن تكون معروفة فقط من خلال شلالات "فيكتوريا" بدلًا من العنف والفوضى.

- وأنت بمفردك هنا؟

- نعم، أنا طالبة.

أومأت إليّ برأسها إيماءة طويلة وزمَّت شفتيها كأنما بدا لها ذلك منطقيًّا. سألتني:

- ماذا يقرب لكِ؟

كنت على وشك الإجابة عندما لمست ذراعي فجأة وقالت بسرعة:

- أتمنَّى أنك لا تمانعين سؤالي.

- بالطبع لا، إنه.. إنه عمِّي.

أومأت برأسها، وقالت:

- فهمت.

- عمِّي الأكبر في الواقع، من ناحية أُمِّي.

- نعم، ظننت أنه أكبر من أن يكون عمَّك. حسنًا، من الأفضل أنه هنا. من الجيد له أن يكون هناك أحد بجانبه.

استعدت للذهاب في طريقها عندما قلت لها فجأة:

- هل يسأل.. أعني.. سأل.. من قبل.. عندما أتى لأول مرَّة.. هل سأل عن أي أحد؟ هل ذكر أي شخص أمامك؟

فكَّرت لثانية أو اثنتين، ثم هزت رأسها، وقالت:

- لقد ذكر رجلًا كان يعتني بمنزله وأعتقد أنه كان يملك كلبًا. لقد ذكر اسمه لكنني نسيته. سأسأل "ماري" وأرى إن كانت تتذكَّر أي شيء.

- ماذا عن الأشياء؟ أوراق شخصية... أعني، لا أقصد أوراق؛ بل..

حاولت التفكير في الكلمات المناسبة بجنون، وقلت:

- كتاب! لا يبدو أنه يملك أي شيء. لا شيء، لا شيء يوضح.. حسنًا، يوضح من هو.

تجهَّمت جبهتها، وقالت:

- سأسأل "ماري"، ربما تعرف؛ لكنني لا أظن ذلك. لا أظن أنه أحضر الكثير معه عندما أتى.

جلست معه في المساء. أتى أحد ما وذكَّرني بأن ساعات الزيارة انتهت، وعلى الرغم من أنني أومأت له وتظاهرت بأنني على وشك النهوض والرحيل، ظللت في مكاني. عادت الممرضة نفسها مرَّة أخرى فيما بعد وأخبرتني أنه لا بأس وأن بإمكاني البقاء كما أشاء. من الواضح أنها عرفت عن حالة "والي".

عند الساعة السَّادسة تقريبًا، شعرت بحركة من "والي". كنت قد بدأت أغفو ولم أعرف ما إن كان ذلك حقيقيًّا أم لا. فتح عينيه ببطء ونظر إليَّ دون تركيز، ارتعشت يده اليمنى في يدي. استنشق في ضجيج وفاجأني وتحدث، قال لاهثًا:

- "إيلي".

انقبض صدري، وانحنيت للأمام بلهفة. تمكَّنت من الاستماع إلى نبضاتي تضرب بقوة في أذنيَّ. همست إليه:

- نعم.

كان صوتي مشابهًا لصوته تقريبًا.

- لم تتغيري على الإطلاق.

انحنيت أكثر كي أسمع كلماته، كرهت أن أطلب منه أن يعيد ما قاله. قال مجددًا:

- لم تتغيري على الإطلاق.

للحظة خاطفة رأيت الرجل الذي قابلته منذ سنوات عديدة. رأيت جزءًا من تلك الابتسامة التي أعطت وجهه المنكمش شعورًا بالامتلاء، مثل بالون طفل. أطلق زفيرًا فذابت الابتسامة.

لم أجد أي كلمات أقولها.

- لقد أخبرتني أنك هنا. كان عليك أن تأتي لزيارتي.

انهمرت الدموع من عينيّ فنظرت بعيدًا، وقلت:

- سآتي لزيارتك في كل عطلة نهاية أسبوع إلى أن تتحسَّن.

تجعَّدت شفته العليا في محاولة منه للضحك، وهمس قائلًا:

- "ألم يكن لدينا عالم وزمن كافيان؟"، سمعت أنك تحبين الكتب.

شعرت بأن هناك شخصًا ما يضع يده على عنقي. لم أتمكن من التحدث فأومأت، قال:

- جيد.

ظل صامتًا بعد ذلك بعض الوقت ثم قال بصوت عالٍ عما سبق:

- لقد ماتت، أليس كذلك؟

أومأت له.

- كنت أعرف ذلك. لم أعد أشعر بها.

كانت الدموع تنهمر من عينيَّ، وكنت أمسحها بكفيَّ بسرعة، ودون ندم. قلت له دون تفكير:

- لقد أحبتك، لقد أحبتك طوال حياتها.

لم يجبني في اللحظة نفسها وبدا كأنه يفكِّر في الأمر لبعض الوقت. أغمض عينيه وأصدر تأوهًا غريبًا أخافني في البداية؛ لكنني أدركت أنه كان يغنِّي:

- "لقد جعلتِني أريدك.. وكنت تعرفين طوال الوقت.. أعتقد أنك كنت تعرفين طوال الوقت.. لقد جعلتِني سعيدًا، وأحيانًا جعلتِني سعيدًا للغاية.. لكن كان هناك بعض الأوقات جعلتِني أشعر بالسوء...".

امتزجت كلماته الأخيرة بالسعال.

أطلت ممرضة من الباب، وقالت:

- فلتذهبي وتحصلي على بعض النوم.

قلت في حماسة:

- أعتقد أن حالته تتحسَّن، لقد تحدث! لقد فتح عينيه.

قالت:

- إن هذا يحدث.

جعلتني أشعر بأنني أتحدث عن شيء عادي، كظهور بُقع الحصبة، أو كدمة زرقاء بعد ضربة عنيفة، وليس حياة شخص.

- أود أن أبقى.

- سنتصل بكِ. لدينا رقم موبايلك ونعرف أين تعيشين. فلتأخذي بعض الراحة.

غادرت بعد ذلك بقليل. غادرت دار المسنين ذات السجاد ذي اللون الأخضر الفاتح والكراسي المريحة، والإطارات المنقوشة ذات الورد البري والمجلات المثيرة للاهتمام عن الريف والحيوانات والناس الطيبين. كل تلك الأشياء التي تهيئ الشخص للصمت الذي يحل محل الموسيقى، التسجيل الذي يعمل طوال أحداث حياتنا، النغمة التي نغنيها لمرَّة أخيرة قبل أن نرحل عن هذا العالم الغريب المُحَطم.

مات العم "والي". كان نائمًا عندما مات. كنتُ نائمة عندما مات. اتصلوا بي في الصباح، هل بإمكاني تجهيز كل شيء؟ كان هناك بعض الأعمال الورقية وهل بإمكاني إخبار العائلة؟ وأيضًا، هل بإمكاني المجيء وأخذ أغراضه؟ كان هناك بعض الأشياء ينبغي عليَّ توقيعها وينتهي الأمر. هذا هو كل ما عليَّ فعله.

بإمكانهم تجهيز الجنازة لو تطلَّب الأمر؛ هناك متعهد دفن تعاملوا معه من قبل، رجل لطيف، ذو سُمعة جيدة.

كان كل شيء جاهزًا عندما وصلت، ربما جاهزًا أكثر من اللازم. تم نقل جسده، لم يكن هناك سرير في الغرفة. لم تزل الزجاجة والكوبان فوق الدولاب. كانت هناك حقيبة صغيرة بها ملابس ورزمة من قمصان "بولو" لم تُستخدم بعد، والتي بدت فجأة سخيفة تمامًا، حيث هددت سخافتها هدوئي المتزعزع فوضعتها في الحقيبة.

قالت الممرضة وهي تعطيني مغلفًا بني اللون:

- عليك أن تأخذي هذا أيضًا.

كان بداخله ساعة ذهبية. لقد رأيتها من قبل، منذ سنوات كثيرة. قلبتها في يدي ورأيت نقشًا في الخلف. قرأت وأنا أقربها من الضوء:

"من ظلك، 1948".

جاهدت كي أمنع دموعي؛ لكنها تساقطت سريعًا. اهتز جسدي بتشنجات شديدة بينما أخفي عينيَّ بيدي.

(3)

"قال "كادوالادار" وهو يخرج منديلًا كبيرًا من جيبه ويعطيه لي: "لا تبكِ".

أخذت منه المنديل في جفاء. قال بهدوء وهو ينظر أمامه مباشرة ويمرر يده ببطء على عجلة القيادة: "إن "روديسيا" مكان قاسٍ، كل البلاد تكون قاسية عندما تنتقلين إليها؛ لكن "روديسيا" قاسية للغاية. مجتمع المستوطنين. يبحث الجميع عن البقاء، يسعون جاهدين إلى النجاح. إنها دولة إما النجاح أو الفشل".

قلت بوقاحة: "أنت محق، أنت هنا منذ فترة. لديك المال".

بدأ يضحك بينما أكمل كلامي: "ولديك منزل كبير".

قال بنبرة حزن، أم أنها كانت نبرة سخرية: "نعم، لقد اعتدت ذلك".

جلسنا في صمت لفترة أطول، كنت أمسح عينيَّ وينظر "كادوالادار" أمامه مباشرة.

قال فجأة: "لقد اعتادوا في "كامبريدج" أن ينادوني باسم "تافي". تافي جونز". كانوا يقولون هازئين: "أنت بخير يا ولد؟"، بلهجة ويلزية ساخرة. إما هذا أو كانوا يضربوني.

ضحك ضحكة قصيرة حادة ثم استطرد: "كان لدي صديق، شاب إنجليزي يدعى "تشارلز ترينت سميث". كنا نلعب الرجبي معًا، وذات يوم سجلت نقطة الفوز. أصبحت بطلًا فجأة، نسوا "تافي" و"يا ولد". أصبحت فجأة واحدًا منهم. شاب إنجليزي، لم أعد من وادي "روندا"، أو أي شيء من الأشياء التي اعتادوا على مضايقتي بها. كنا في البار، نشرب بالطبع، وقال صديقي "تشارلز" فجأة:

"أود أن أقترح نخبًا، نخب "لويلين أب جروفود"، صمت البار بالكامل. وسمعت أحدهم يقول: "من الذي..."؛ ولكن "تشارلز" قال مجددًا: "نخب "لويلين أب جروفود"، فتبعه الجميع، بكل سهولة. فيما بعد قلت لـ"تشارلز": "تشارلز، فيم كنت تفكِّر؟"، فقال: "لقد كان أميرًا، "لويلين أب جروفود"، كان أميرًا. كما أنه كان الحاكم الويلزي الوحيد الذي اعترف به الإنجليز".

قال "كادوالادار" بعد فترة صمت لم أحاول أن أقول شيئًا خلالها: "ما أقصده هو أنني أعرف شعورك. لهذا السبب "روديسيا" هي أنسب مكان لي، فأنا هنا شخص مهم، أنا هنا "لويلين أب جروفود" دون أن يخبرني أحدهم ذلك. أما هناك، فأنا "تافي" حتى يخبروني أنني أصبحت شخصًا آخر".

استنشقت وقلت: "أنت رجل".

ضم شفتيه معًا وأشعل موتور السيارة، وقال: "هيا بنا، سآخذك إلى المنزل".

لم يوقف السيارة أمام المنزل؛ كان ضوء غرفة جلوس السيدة "ويزمان" مُضاءً. قال وهو يأخذ يدي في يده: "عام جديد سعيد يا "إيفي"، لو أن ذلك يعني لكِ أي شيء، أليس كذلك؟".

انحنى فجأة وقبَّلني، لم تكن قُبلة خاطفة على خدِّي؛ بل قُبلة حقيقية، طويلة، ناعمة، قُبلة باحثة عن شفتيَّ. لم أفاجأ ولم أبتعد. عاد لمكانه على الكرسي وفرَك جبهته. كان من الواضح أنه ليس سعيدًا بما فعله. قال: "هيا اذهبي، ستقعين في مشكلة".

لكنني لم أتحرك. أعتقد أنني كنت مفتونة بما حدث للتوِّ. ثم التقطت حقيبتي المسائية من على الأرض، حيث سقطت وبحثت بتوتر عن مقبض الباب. قال وهو يقفز من السيارة ويدور إلى الناحية التي نزلت منها من السيارة: "أنا آسف، آسف، سامحيني على سلوكي المروع".

قلت: "تصبح على خير، أشكرك على الليلة الرائعة".

لكنه هزَّ رأسه وجذبني إليه، وقال: "أنت تعجبينني يـا "إيفـي"، تعجبيننـي كثيرًا".

ثم جذبني أكثر.. ثم تركني أذهب وقال: "ربما من الأفضل أن أرافقـكِ حتـى الباب".

هأنذا أجلس في الثانية صباحًا محاولـة أن أسـتجمع مشـاعري مـن حـولي، وأحاول أن أفهم ما حدث. أعتقد أنني أحبه. أعتقد أن هذا هـو الحـب. أعتقـد أن هذه الليلة أكَّدت لي ما عرفته منذ مدة طويلة. يا إلهي، ماذا سـأفعل؟ هـل سيراني مجددًا؟".

"3 يناير 1947،

أتى "كادوالادار" ليراني مُجدَّدًا اليوم. كنت متحمسة للغاية، ومع ذلك قلقة مـن أن يكون نادمًا على ما حدث، وأنه أتى ليخبرني أنه لا مجال لعلاقتنا أن تستمر. حاولت أن أهيئ نفسي لذلك الأمر وأجهز ردًا - شيئًا مثل: "تحـت هـذه الظـروف، مـن الأفضـل أن..."، أو "لقد قابلت أحدًا منذ أن رأيتك آخر مرَّة. لقد تمت خطبتنا، وسنتزوج قريبًا". كم هذا سخيف! لا أصدق كيف كنت أشعر. لا أفهم ذلك. لم أشعر بهذا الشعور تجاه "تيموثي" وقد تزوجته.

هل هذا هو الحب، حيث إنني لا أتمكن من التوقف عـن التفكـير فيـه؟ لا أعرف ماذا سأفعل لو أنه أنهى الأمر. كنت أنظر من النافذة عندما رأيتـه يعـبر الطريق متجهًا ناحيـة المنـزل، لـذا فقـد حصـلت عـلى إنـذار مسـبق بوصـوله! مشَّطت شـعري بسُرعـة وسـوَّيت فسـتاني، فكـرت في أن أضـع بعـض "الـروج"؛ لكنني ظننت أن ذلك سيبدو متلهفًا وليس طبيعيًّا بمـا يكفـي. رشـشـت بعـض العطر على الرغم من ذلك، عطر اللافندر الذي أعطتـه لي أُمِّـي قبـل مغـادرتي. أملت ألا تكون رائحته قوية وأنني وضعته منذ قليل. يجـب عـلى الشـخص ألا يبدو متلهفًا أكثر من اللازم. سمعته يطرق عـلى البـاب، لم يـذهب أحـد ليفـتح

الباب لمدة دقيقة تقريبًا. بدأت بالشعور بالقلق من أن يرحل ظنًّا منه أن لا أحد بالداخل. ثم سمعته يطرق مُجدَّدًا وفُتِح الباب.

نادتني السيدة "ويزمان" من أسفل السلم: "آنسة "سوندرز"، إن عمَّك جاء ليراك".

انتظرت عدة ثواني قبل النزول، لم أكن أعرف كيف يجب عليَّ أن أبدو، ما إن كان عليَّ أن أبتسم، أو أن أبتسم بأدب فقط، أو أحاول أن أبدو مثل "جريتا جاربو"، غامضة (وهو ما ليس بإمكاني فعله!). أعتقد أنني تمكنت من أن أبتسم ابتسامة غريبة، وربما بدوت كأنني كنت أتناول الطعام، حيث إنه بدا خجولًا وسألني ما إذا كان يقاطع غدائي، فقلت: "بالطبع لا".

سمحت له بالدخول، وحينها لم أعرف ما إذا بدوت متحمسة أكثر من اللازم أم لا. قال وهو ينظر حوله: "هل أنتِ مشغولة؟".. "كنت فقط أنظف غرفتي".

ندمت على ما قلت في الحال. ما علاقة الشغف بالتنظيف؟ فأضفت قائلة: "يا له من عمل".

جلسنا بتصنع في غرفة جلوس السيدة "ويزمان"، كان هو على ناحية من منضدة القهوة وأنا على الناحية الأخرى. كنت أسمع ساعتها تدق بانتظام.

ظل جالسًا وتحدثنا أحاديث غير هامة وأنا اعبث بإصبعي في مفرش الطاولة المصنوع من الكروشيه. دخلت السيدة "ويزمان" بعد قليل ومعها صينية عليها شاي وقطعتا بسكويت جافتان. كانت تلك هدية لم يكن بإمكانها تحمل كلفة تقديمها لكل زائر، تساءلت ما إن كانت ستضيف تكلفتها على إيجار غرفتي. تحدث "ج" عن عمله وقال إنه سيظل في "بولاوايو" لشهر آخر على الأقل. حاولت ألا أبدو سعيدة، وألا أبدو مهتمة على وجه التحديد. خفق قلبي، وارتعشت يداي قليلًا وأنا أحمل براد الشاي. كان لون الشاي رماديًّا عندما صببته. سمعت نفسي أسأله كأنني في مكان بعيد: "أتريد سكَّرًا؟".

هزَّ رأسه نافيًا؛ لكنه أخذ قطعة بسكويت. قال أخيرًا وهو يبدو مغتمًّا: "هل هناك خطب ما؟".

لاحظت أن معطفه لم يكن يناسبه وبدا كأنه معلق على كتفيه، قال: "أنا لست مؤذيًا".

ابتسمت في توتر وتمنيت أن أتحكم في نفسي أكثر من هذا. شعرت بأنني طفلة وسخيفة، كأنني كنت أقابل أحدًا ما خلف مواقف الدراجات لتدخين سيجارة في الخفاء. قال وهو يربت على المساحة الفارغة بجانبه: "تعالي، اجلسي بجانبي".

هززتُ رأسي رافضة وأشرت للباب، فتنهَّد، ثم وقف وأمسك يدي وجذبني للأعلى. نظر نظرة خاطفة خارج الباب، ثم أغلق الباب قليلًا، حيث أصبح نصف مغلق ثم دفعني أمام الحائط.

ظننت أن هذه هي اللحظة المناسبة لي كي أتراجع، كي أنهي الأمور، كي أقول: "لا ينبغي علينا فعل ذلك"، "لا يمكننا"، "أنا لن أفعل هذا"؛ لكنني لم أقل أيًّا من هذا. تركته يضع ذراعيه حولي، حيث أمسك بمؤخرة عنقي بيده اليمنى. رفع شعري لأعلى وظل ممسكًا به، ثم قبلني. لم يكن ثملًا، لم يكن يلقي دعابة أو يبكي أو يشعر باليأس. كان هو نفسه وكنت أنا نفسي وكنا نُقبل بعضنا البعض".

"5 يناير 1947،

أحضر لي زهورًا اليوم. كنت أقوم ببعض التصليحات عندما سمعت طرقًا على الباب. نظرت خارج النافذة ورأيته فجريت إلى الأسفل وفتحت الباب قبل أي أحد آخر. هل يحضر الأعمام لبنات إخوتهم زهورًا؟ من الواضح أنه اختارهم بنفسه من المُتنزَّه!

أخبرني ألا أناديه باسم "كادوالادار"؛ يناديه الجميع باسم "والي"؛ لكن يجب عليَّ أن أناديه باسم آخر، شيء أنا فقط أناديه به. "لويلين أب جروفود"؟ طويل بعض الشيء! "لاج"؟ لا، يبدو ذلك كشيء منسي. "إل. ج"؟ ماذا عن "ج" فقط؟ "ج" لي أنا فقط".

(4)

عاد "مارك" للعيش معي مجددًا. أصبح وحيدًا مرَّة أخرى بالطبع، وقال إنني أحتاج إلى شخص يعتني بي. صراحةً لقد وجدت الفكرة جذابة بعض الشيء. لقد كان الشيطان الذي عرفته، وأنا أتعلق كثيرًا بما أعرفه، سواء أن كان شيطانًا أم لا.

عرضت منزل جَدَّتي للبيع؛ لكنني لم أتلق أي عروض. لا يرغب كثير من الناس أن يعيشوا في مكان قُتِلت فيه امرأة. لقد تم اقتحامه مرَّتين في العام التالي لموتها؛ لكن لم يكن بداخله أي شيء يُسرق باستثناء صنابير المياه ومقابض الأبواب النحاسية، وهم ما بقوا في أماكنهم. لكنني لم أكن قلقة، لم أكن متأكدة حتى من أنني أريد أن يعيش أي أحد هناك. ليس هناك أحد غيري يعرف ما يمثل ذلك المنزل لها.

أعتقد أن هناك نقطة ما في حياة الجميع تبدأ فيها إرادة الحياة ورغبة البدء من جديد تتشكل وتنمو. إن حياتي التي انحرفت في طريقها، محايدة وميتة ودون أي شعور، بدأت تصحو ببطء لوعي جديد، وبدأت بالشعور بأن وقت الحزن قد انقضى.

كنت واقفة على رصيف محطة القطار بعد حوالي سنة من وفاة جَدَّتي. كان الجو باردًا ومظلمًا، ولم تتخطَ الساعة حينها الخامسة والنصف. وقفت أنتظر، وأحملق أمامي، في انتظار ظهور عيني القطار الذهبيتين. بينما زحف القطار في طريقه أمامي، رأيت الحروف الخضراء "إيلينج برودواي" تظهر من بعيد، دودة

ميكانيكية مضيئة في المساء الأسود. للمرَّة الأولى منذ مدة طويلة، شعرت بنوع من الرضا. لقد أتى شيء كي يأخذني بعيدًا. إلى المنزل. بإمكانه فعل ذلك كل مساء. بدأ بداخلي نوع من الإيقاع ووجدت نفسي أنغمس مُجدَّدًا في خضم الحياة.

في القطار، صعد ثلاثة رجال يحملون "أكورديونات"، وحاولوا أن يعزفوا نغمة ما. كان الأمر محرجًا في البداية، وخرجت النغمة نشازًا. بدا بعض الركاب كأنما أرادوا الضحك أو أداروا أعينهم في ضيق. شعرت بحاجة إلى أن أنضم لهؤلاء الرجال، أن أنهض وأغنِّي معهم. في خيالات فترة مُراهقتي، سيكون مثل هذا الوقت الذي سأقابل فيه فنَّاني الذي بإمكانه أيضًا الغناء وعزف "البانجو". لكن كان هؤلاء ثلاثة رجال متعبين في منتصف العمر يحاولون أن يحصلوا على قوت يومهم. وضعت بعض العملات في كأسهم، وأحكمت وشاحي حول عنقي أكثر، ثم نزلت من القطار. كنت مبتسمة.

كان من الممكن أن تستمر الحياة على هذا المنوال، وكان يمكن أن أكون سعيدة، وممتنة، وقنوعة بطريقة ما: أضع درجات لمقالات الطلبة، وأدعم "مارك" في حياته المهنية، وأستضيف الأصدقاء في حفلات العشاء الغريبة، وأقابل "ماندي" مرَّتين في الأسبوع، وأقرأ في المكتبة، وأتطلع كل عام إلى الربيع، أحصي عدد أيام الشتاء الطويلة المظلمة، وأغمر نفسي في الدراسة الأكاديمية نظريًا وافتراضيًا. أخسر نفسي مرَّة أخرى.

لكن الحياة تتغير بسُرعة شديدة، ولم أكن مستعدة لما حدث بعد ذلك.

مات "مايلز". اتصلت بي أُمِّي وأخبرتني أنها رأت الإعلان في "مورنينج ميرور"، وهو إيميل إخباري حل محل "ذا كرونيكال"، حيث يكون هو المُعلن الرئيسي عن الولادة، والوفيات، والخطبة، والزواج في "بولاوايو". بجانب الإعلان عن الوظائف، والسيارات، والمنازل المعروضة للإيجار والبيع، كما كان هناك من كانوا يعلنون عن نيتهم الاعتناء بأقاربك المسنين حين تكون في "إنجلترا" وهم

يتعفنون في أحد دور المسنين قليلة الرعاية، أو لو أنك تعيش في "أستراليا" وتريد أن يحضر أحدهم جنازة شخص عزيز لديك. مثل هذه الأشياء.

أرسلت لي أُمِّي نسخة:

"مايلز تريفيليان (عريف، سلاح الملك الأفريقي) 1920-2006. عم "رونالد تريفيليان"، وأخو جَدِّ "توني". مات بسلام في "بورنموث" بـ"بريطانيا"، الأول من فبراير 2006. ستُقام الجنازة في كنيسة "سانت ماري" في "بورنموث" يوم السبت الثامن من فبراير في الثالثة عصرًا. جميع الاستعلامات مع "توني تريفيليان" tonyt@yahoo.com.uk".

لم أتوقع أن أرى "توني" مرَّة أخرى. افترضت أنه في مكان ما بـ"موزمبيق"، يطهو الجمبري في أحد الفنادق الثمينة. على الرغم من أن عمَّه الأكبر قد مات، لم أتوقع منه أن يسافر إلى "بريطانيا" ليحضر الجنازة، ربما سيرسل النفقات وباقة زهور. لذا فقد تفاجئت عندما فتحت باب منزلي لأجده واقفًا أمامي بعد يومين.

- "توني"؟

- "إيلي".

انحنى وأعطاني قُبلة محرجة. لقد كان الوقت في الصباح الباكر، ولم أكن قد غسلت أسناني بعد. ابتعدت عنه، فشعر بالإهانة، قال:

- لقد مات "مايلز".

ظل واقفًا في المدخل، وبدا مرتبكًا قليلًا. كم كان لقاءً غريبًا بين شخصين لم يتقابلا منذ أكثر من عام. قلت:

- أعرف، أتود الدخول؟

بدا متمهلًا، كأنه قد جاء مسافرًا آلاف الأميال كي يخبرني بتلك الكلمات، والآن وبعد أن أكمل مهتمه، فسيعود لمنزله مجددًا. دخل بعدها، وضع حقيبة ظهره وخلع وشاحه وقال:

- حصلت على عنوانك من أمك، هل أخبرتك؟

- لا.

- اعتقدت أنها أخبرتك.

- ربما تكون قد نسيت.

توقف قليلًا ثم قال:

- ربما كانت تعرف أنك لا ترغبين في رؤيتي.

- هذا ليس صحيحًا.

لم يرد؛ لكنه رفع حاجبيه في إرهاق، مما أوضح لي أنه لم يكن يصدقني. دخل إلى الصالة وجلس. قال وهو يربت بهدوء على ركبتيه:

- مكان لطيف.

- ليس بالضبط.

رفع حاجبيه بالطريقة نفسها مجددًا، كأنه شعر بأن ليس بإمكانه فعل أي شيء كما يجب. سألته:

- أتريد شايًا؟

- لا، شكرًا.

كأنما برفضه هذا يرفض سلطتي عليه. سألته كمحاولة منِّي لإنشاء حوار جانبي:

- كيف حالك؟

كان "توني" حزينًا ومتوترًا وغير مستريح بوضوح في شقتي، في حضوري.

- لقد أتيت لأطلب منك حضور جنازة "مايلز". ستقام يوم السبت في "بورنموث". يمكنني أن أصطحبك. لقد استأجرت سيارة. ستبدأ الجنازة في الثالثة.

- لا أعرف...

أخذ زفيرًا حادًّا، وقال:

- لِمَ لا؟

- إن الأمر فقط..

- فقط ماذا؟

أصبح استياؤه منِّي واضحًا الآن، ثم أكمل قائلًا:

- أنت لم تكوني تحبينه. ماذا في ذلك؟ لقد مات. لقد سافرت إلى هنا مسافة ستة آلاف ميل فقط لأودعه، أنا لا أطلب منك حتى أن تذهبي بالقطار، قلت لكِ إنني سأصطحبك.

- هل أنت متأكد من أنك لا تريد أن تشرب شايًا؟

- لا أريد الشاي، أريدك أن تحضري جنازة "مايلز".

- لماذا؟

- هكذا.

- ماذا تعني بهكذا؟ لم يكن يحبني، ولم أكن أحبه. كونه قد مات لا يعني أن عليَّ أن أحبه.

قاطعني وهو يقول منفجرًا:

- هل هناك أي أحد تحبينه بالفعل؟

- ماذا.. ماذا تعني بهذا؟

- أعني أي شخص ليس غريبًا.. أي شخص تحبينه بالفعل؟

- بالطبع.

- أخبريني باسم واحد، واحد فقط. واحد فقط سيكفيني.

- "توني" أنا..

توقفت، ثم قلت:

- أعتقد أنه من الأفضل أن ترحل.

قال وهو ينهض:

- نعم، ربما كان هذا من الأفضل.

ثم غادر.

لا أعرف بالضبط ما الذي جعلني أغير رأيي. ربما كان تذكُّري لرؤية وجه "توني" الغاضب أو ربما شعوري بالذنب من تصرفي القاسي تجاه "مايلز"، أو ربما كانت الصورة، الصورة التي جمعتني بجَدَّتي و"شيرلي". وضعتها على مكتبي وكلما رفعت عينيَّ عن العمل الذي أقوم به أراها أمامي. فكَّرت مُجدَّدًا في أن الصورة لي معها، وليست صورة تجمعها مع "مايلز"، وأنه ربما رأى شيئًا فاتني فيها.

إن كنيسة "سانت ماري" في "بورنموث" هي آخر مكان من الممكن أن أتوقع أن تقام فيه جنازة "مايلز". كان من النوع الذي لن يرغب في جنازة من الأساس، من النوع الذي يتمنى أن يُدفن في صندوق كرتوني أو يطعموه للدجاج، شيء ما غير مألوف مثل هذا. كنيسة "سانت ماري" إنجليزية الطابع أكثر من اللازم، وأنيقة أكثر من اللازم، وأيضًا باردة للغاية، وأبعد من أن تهتم بمن كان "مايلز" وماذا فعل طوال حياته. مع ذلك لم أتمكن من تجاهل شعوري بوجود "مايلز" جالسًا في مكان قريب منِّي، ربما في المقعد الأخير، وهو يدخن سيجارة ساخرًا، ساخرًا منِّي بالطبع، دائمًا منِّي أنا.

كان "توني" يجلس في المقعد الأمامي ورأسه مائل. التفت عندما سمع صوت خطواتي على الأرضية الحجرية الباردة وبدا متفاجئًا لرؤيتي؛ لكنه لم يقل شيئًا، والتفت مُجدَّدًا ليواجه المذبح. كان تابوت "مايلز" مغلقًا، وعازف "أرغن" يعزف موسيقى ناعمة هادئة والكاهن يرتب أوراقًا على المنصة وينظر في ساعته. لم يكن هناك أي أحد سوى رجل عجوز نائم. فهمت لماذا كان يريد منِّي "توني" أن أذهب.

كانت الصلاة قصيرة. جهز "توني" خطبة عن حياة "مايلز" وما كان يعنيه له؛ لكنه لم يقرأها. تفاجأت عندما ذكر الكاهن أعمال "مايلز" البطولية وقت الحرب، والوقت الذي قضاه في السجن الإيطالي وهروبه منه. عندما اعتقدت أن

الأمر انتهى، أخذ "توني" شيئًا ما من حقيبة صغيرة بجانبه على المقعد، ثم نهض وذهب ليقف بجانب تابوت "مايلز". كان يحمل "ترومبيت" صغيرًا، وقد عزف عليه أغنية "المنصب الأخير". نظر الكاهن لأسفل وهو يعض على شفتيه، ليس لأنه أراد أن يبكي أو يضحك؛ بل ربما لأنه رأى مثلي الحزن السخيف الذي يحيط بنهاية الإنسان. لا يوجد شرف عظيم، ولا نادبون باكون، ولا شيء يتركه المرء خلفه.

قررت أنا و"توني" أن نتناول الغداء في مكان ما. هدأت العلاقة بيني وبين "توني" بشكل ما. كان سعيدًا لرؤيتي وشعرت أنه سامحني على سلوكي السابق. كان مستنزفًا عاطفيًا؛ لكنه حاول أن يلقي بالدعابة المعتادة، أتخيل أنها آلية تكيف تعلمها من أبيه بعد وفاة أمه. تشاركنا في تناول قطعة "براوني" للتحلية، على الرغم من أنني أكلت معظمها، فقد اكتفى "توني" بقضمة واحدة. قال:

- بها كثير من الـ"بيكينج باودر".

لكنني هززت كتفيّ وأكملت الأكل.

بعد ذلك في الظهيرة، سِرنا معًا على رصيف الميناء وتناولنا آيس كريم، على الرغم من أن الجو كان باردًا للغاية، وقد كانت الرياح تصفع وجهي بقوة غير معتادة. قلت وأنا ألعق الآيس كريم وأمسح عينيَّ في وقت واحد حيث جعلتهما الرياح تدمعان:

- إننا نتصرف كبريطانيين نموذجيين.

- ماذا تقصدين؟

- حسنًا، إننا في شهر فبراير، يأتي يوم تكون فيه السماء زرقاء لتجد الجميع فجأة في الخارج يأكلون الآيس كريم ويتكلمون عن الصيف! إن الجو بارد للغاية!

لم يقل شيئًا وظللنا نأكل الآيس كريم لبعض الوقت ونحملق في البحر ذي اللون الأزرق والرمادي. قال "توني" فجأة:

- عمِّي.. "مايلز"، أخبرني ذات مرَّة أن الآيس كريم في "إثيوبيا" هو أفضل ما تناوله في حياته.

- "إثيوبيا"! يا لها من مفاجأة!

- كانت وقتها تسمى "الحبشة"، وكانت تحت الوصاية الإيطالية.

- أعرف ذلك.

تجاهل ما قلته، وأكمل قائلًا:

- قال لي إن الإيطاليين هم أفضل من يعدون الآيس كريم.

قلت وأنا أنهي ما تبقى من الآيس كريم وأطوي الورقة كي أجهزها لألقي بها في القُمامة:

- أشعر بأنه توجد رسالة ما في هذا الكلام.

مددت يدي كي آخذ ورقته، لكنه كان تائهًا في أفكاره، وقال:

- الرسالة هي أنه حتى أعداؤك لديهم ما يقدمونه. قال شيئًا ما من هذا القبيل. ليس هناك شخص حقير بالكامل. بالتأكيد ليس الإيطاليين. أتعرفين؟ لقد كان يحبهم. لم يحمل لهم أي ضغائن.

أعطاني عصا الآيس كريم وألقيت بها في سلة قمامة خلفي. أجبته بطريقتي الساخرة الفظة:

- كم هذا جميل.

قال فجأة وهو يستند على السور:

- "إيلي"، تعالي معي إلى "موزمبيق".

- لا تفاجئني بقولك إنهم يعدون آيس كريم رائعًا أيضًا.

- أتكلم بجدية يا "إيلي"، استمعي إليَّ. تعالي معي إلى "موزمبيق". سنبقى هناك لعدة أسابيع نجمع بعض النقود، وكل هذه الأمور، ثم يمكننا أن نعود إلى

"بولاوايو". بإمكاننا إنشاء المطعم هناك. في منزل جدتك، مطعم أسماك في "بولاوايو". سأقوم أنا بالطهي، وأنت تأخذين الطلبات.

تجهَّمت، فلاحظ ذلك، وقال:

- أو، أو تؤلفين كتابًا، أو تعتنين بالحديقة، أيًا يكن، يمكنك أن تكوني معلمة أدب ما بعد الاستعمار في الجامعة.. لك ما تشائين! فقط تعالي، تعالي معي.

أمسكت السور المتجمد بكلتا يديَّ، أرحب بالبرد، وأشعر بالرياح المالحة تلطم وجهي، وأشاهد عوامة إنقاذ تتراقص لأعلى وأسفل خلف الرصيف، تتدحرج يمينًا ويسارًا، كأنها شيء صغير مرهق يقوم بعمله. كانت تلك واحدة من اللحظات القادرة على تغيير مسار حياة الشخص التي أمر بها الآن وشعرت بالدُّوار وأنا أنظر عبر السور تجاه البحر المبهج في الأسفل.

- إن لديَّ حبيبًا، ألم تكن تعرف ذلك؟ إننا نعيش معًا في الشقة التي زرتني فيها.

- هل تحبينه؟

أشحت بنظري بعيدًا، وقلت:

- لا تحاول أن تقوم بهذه الخدعة معي.

- آسف. أنا.. انظري. إنني أشعر بذلك.. الشعور. أنا وأنت، وكل الأشياء التي بإمكاننا فعلها.

لم أقل شيئًا، فقال:

- لو لم يكن هناك حبيب، هل كنت ستأتين معي؟

تنهَّدت في استياء، وقلت:

- لا يمكنك أن تسأل مثل هذه الأسئلة. إنها.. إنها افتراضية للغاية. كيف يمكنني أن أعرف؟ كان كل شيء سيكون مختلفًا، لا يمكنني أن أجيب عن هذا.

هزَّ كتفيه في حزن، وقال:

- حسنًا.

ظللنا صامتين لبعض الوقت، ثم قال:

- هل تعتقدين أنك ستعودين يومًا إلى "زيمبابوي"؟

- لأستقر هناك؟

أومأ برأسه في إيجاب، فقلت:

- لا.

رأيت المفاجأة تظهر على وجهه وقال:

- لماذا؟ لِمَ لا؟

توقفت عن الكلام لوهلة وفكَّرت، ثم قلت:

- لقد حظيت بطفولة تخللتها الأكاذيب والأسرار. لم يتمكن أحد من مواصلة حياته، هكذا هم الناس في "زيمبابوي". إما أنهم ينغمسون في الماضي ولا يمكنهم المضي قُدُمًا، أو أنهم يتظاهرون بأنه لم يحدث على الإطلاق. أمَّا نحن - الجيل التائه - ننشأ على بقايا الأكاذيب، والقصص، والنوادر، والدعابات. ليس كافيًا أن تعيش على ما أخبرك به أبواك، نحتاج إلى المزيد. ينبغي علينا أن نتوقف عن الوقوع في الأخطاء نفسها. إننا عالقان في دائرة من الأكاذيب والأسرار.

بدت عليه الحيرة، وقال:

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- الطريقة الوحيدة التي تسمح لي بالعيش في الحاضر هي أن أعيش هنا. هذا هو الحاضر.

- أنا لا أزال لا أفهمك.

اقتربت منه ووضعت يدي على ذراعه، وقلت:

- الأمر ليس متعلقًا بك يا "توني"...

قاطعني برفع ذراعه للأعلى وإبعاد يدي عنه، وقال:

- معكِ حق، إن الأمر لم يكن متعلقًا بي أبدًا، أليس كذلك؟

- بصراحة، إن هذا صحيح. إن الأمر متعلق بأفريقيا. إنها لم تعد وطني. هذا..

لوحت بيديَّ في الهواء لتشكلا قوسًا ضعيفًا كأنني أطوق البحر الرمادي المزبد ونصف الرصيف، وأكملت:

- هذا هو أنا.

- لا أصدق ذلك.

- إن هذا حقيقي يا "توني". لم أنتمِ أبدًا إلى هناك. ولن أنتمي أبدًا.

- تقصدين أن في القارة بأكملها، لا يوجد شيء لك؟ الجميع متشابهون وأنت مختلفة؟

- أنا..

قاطعني بحدَّة قائلًا:

- انسي الأمر. أنا أستسلم. ابقي هنا، تزوجي من حبيبك، واقرأي الكتب، وأخفي نفسك لبقية حياتك. أنا أستسلم.

رفضت عرضه لتوصيلي إلى "لندن". لم يقل شيئًا؛ لكنه تنهَّد تنهيدة عميقة قالت كل شيء. أخذني إلى محطة القطار وتركني عند كابينة التذاكر، قلت له:

- مع السلامة.

وبمحاولة كي أكون متحابة، قلت:

- أتمنى لك حظًّا سعيدًا.

نظر إليَّ، وزمَّ شفتيه في غضب. كان لا يزال يظن أنني سأغير رأيي، قال:

- لم يرغب "مايلز" في الذهاب إلى "شرق أفريقيا". أراد أن يذهب إلى البحر المتوسط، أو "بورما". كان يظن أنه لن يجد سوى الصحراء هناك، أترين؟ لم يتوقع أن يجد هناك أفضل آيس كريم في العالم.

أجبته متجاهلةً محاولته لإيجاد عبرة أخرى في قصة الآيس كريم:

- أتمنى لك رحلة سعيدة، كان من اللطيف رؤيتك مجددًا.

(5)

اعتادت جَدَّتي على أن تقول: "لا تستعملي أبدًا كيس الشاي نفسه مرَّتين".

وكانت مُحقَّة، ففي المرَّة الأولى نحصل على كوب شاي قوي الطعم، أمَّا في المرة الثانية فيكون شيئًا ضعيفًا وهزيلًا. ليس هناك فائدة من استخدام كيس الشاي نفسه مرَّتين.

كنت أنا و"مارك" على ما يُرام لبعض الوقت. مستريحين. نتناول شرابًا هادئًا معًا بين الحين والآخر.

أصبح مهتمًا بحمايتي كثيرًا، ومُراعيًا للغاية. أصبح يغير قناة التليفزيون التي يشاهدها لو طلبت منه ذلك، ويقوم بغسل الصحون كل ليلة. أراد أن يعتني بي لسبب ما، كأنه يشعر تقريبًا بأن الحياة ستقسمني إلى نصفين لو أنه لم يكن معي.

بدأت بتثبيت حياتي في "بريطانيا" وتهشيم قطع حياتي القديمة التي لا تزال متشبثة بي. تخلصت من كل البطاقات البريدية التي وصلت إليَّ من "زيمبابوي"، التي احتفظت بها على الثلاجة، وصور شلالات "فيكتوريا" والتحف الأفريقية وشلالات "هايلاندز" الشرقية. كما أنزلت لوحة مائية لـ"ماتوبوس" كانت معلقة في الصالة، ووجد زوج من ملاعق السلطة الخشبية ذات مقابض منحوتة على شكل زرافة طريقهما إلى أقرب محل خيري.

تعاملت أيضًا مع الكثير من البريد المتراكم: نسخ من الفواتير لمنـزل 52 شـارع "لاوسون" والتي أرسلتها لي أُمِّي، حيث سددتها هي بالكامل؛ بجانـب رسـائل مـن محامي جَدَّتي لم تُقرأ، وكلها عن المنزل، وحتى رسالة مـن "إميريـث ديفـيس" عـن قطـة "والي" الـذي لم أرد عليـه. كـان هنـاك مكالمـات تليفونيـة عـليَّ أن أجريهـا، وخطابات وإيميلات أكتبها؛ لكنني كنت أفعل ذلك. كنت أتـدبر الأمـر، ولم أتمكـن من منع نفسي من تهنئة نفسي على كفاءتي، خاصة عندما راسلني السيد "مبوفـو" ليخبرني بأن هناك شخصًا ما مهتمًّا بـالمنزل، عائلـة في الواقـع، وبإمكانهـا أن تـدفع مقدمًا ونقدًا وبالجنيه. من الممكن أن يُباع المنزل في خلال أسابيع.

كان كل شيء جيـدًا حتـى بـدأت الأحـلام تنتـابني. حلمـت بـأنني كنـت في الظلام، الظلام التام، كنت أقف خارج بوَّابة منزل جَدَّتي الجانبية أتسـاءل مـا إن كان عليَّ أن أدخل أم لا. ثم رفعت القفـل ومشـيت في الممـر حتـى وصـلت إلى البلكونة. حاولت أن أفتح الباب؛ لكنه لم ينفـتح، لـذا كسرت لـوح زجـاج مـثلما يفعلون في الأفلام وفتحت الباب من الـداخل. لم يسـمع أحـد شـيئًا. مشـيت في الصالة وصولًا إلى الممر المفضي إلى غرفتها وكانت بداخلها، ترقـد نائمـة. التفتـت حينها وفتحت عينيها ورأتني، قالت: "إيلي، هذا أنت".

أدركت حينها أنني كنت هو، كنت أنا القاتل ونظرت ليديَّ فرأيت بندقيـة، "إيه كي 47"، وكنت في طريقي لأضربها، أضربها وأضربها... ثم بعد ذلك أستيقظ من نومي، أصرخ، وأعرق، وأبكي، صرخت قائلة:

- أنا آسفة، أنا آسفة يا جَدَّتي، أنا آسفة.

كان "مارك" دائمًا بجانبي، كان يحيطني بذراعيه، ويعانقني بشدة، يهدهدني ويربت على شعري. كان يقول:

- إنه مجرد حلم.

لكنه لم يكن مجرد حلم.

اعتقد "مارك" أنني أعاني من شيء يدعى "ضغط ما بعد الصدمات". اقترح عليَّ أن "أرى طبيبًا". كان هناك عديد من الأخصائيين الإجتماعيين؛ كان هناك أيضًا مجموعات الدعم التي يمكنها المساعدة، مثل: "فقدان الأشخاص الأحباء"، أو "عائلات ضد جرائم القتل"، كما كان هناك أيضًا "السامريون". كان يأتي لي بأرقام تليفونات، ومعارف، وترشيحات. اضطررت إلى الموافقة.

لكن لم تكن لديَّ أي نية لحجز موعد لمقابلة مستشار ودود في مركز اجتماعي. شيء ذو ميزانية محدودة هو ما تمكنت من التفكير فيه. سجاجيد كئيبة، وكراسي الفصول المدرسية، وملصقات إخبارية على الحائط، غلاية شاي وكوبان، مستشار لطيف، وودود، وجاد يملأ بعض الأوراق ثم يضع ما كتبه عنِّي في ملف.

اقترح "مارك" بعد ذلك أن أدوِّن كل هذا. أخبرني أن أكتب مقالًا، وأرسلها إلى جريدة أو مجلة. كانت "زيمبابوي" تظهر كثيرًا في الأخبار، كانت موضوعًا رائجًا. ربما يعطونني مقابلًا ماديًّا.

- من أين أبدأ؟

أجابني ببساطة:

- من البداية.

لكنني لم أعرف أين كانت.

"15 يناير 1947،

اليوم ودَّعت الجميع. أرسلت صندوق ملابسي قبلي، وكل ما لديَّ؛ ولم يتبقَ معي سوى حقيبتي الصغيرة الجلدية، وحقيبة يدي. لماذا إذًا أشعر بأنهما أثقل أمتعة قد يحملهم أي شخص؟

الليلة السابقة نزعت خاتم زواجي ولففته في منديل، أفضل منديل لديَّ، وهو أزرق ذو شريط الزينة الأبيض. إنني أسافر أيضًا باسم عائلتي قبل زواجي. لا يمكنني تحمل الأسئلة

والنظرات: الأعين الملتفتة بعيدًا عنِّي، والنظرات الخاطفة يمينًا ويسارًا الباحثة عن السيد "بروتون". سآخذ الخاتم معي؛ لكنني لن أرتديه.

هذا الصباح، أوصلني أبي إلى المحطة. لم أرغب في أن يفعل ذلك؛ كنت أفضل أن أركب تاكسي ولا أجد أي أحد يلوح لي مودعًا على رصيف القطار، لكنه أصر. أراد "جريجوري" أن يأتي أيضًا؛ لكنني رفضت بإصرار. لم تبكِ أُمِّي، كانت تقشر بطاطس في المطبخ عندما نزلت للأسفل وأخبرتها أنني مستعدة للرحيل. غسلت يديها فقط وجففتهما في المريلة، كل إصبع على حدة مثلما اعتادت ثم وضعت يديها حول عنقي وقبَّلتني. كانت يداها باردتين ورطبتين وتمكنت من أن أشم رائحة التراب من البطاطس. كان شيئًا مألوفًا مني عندما بدأت بالبكاء. أدركت حينها أن الحياة ستستمر من دوني. أخبرتني أُمِّي في حدة ألا أبكي، ومسحت عينيَّ بطرف مريلتها وقالت: "أنت امرأة متزوجة الآن، هذا ليس منزلك بعد الآن. أنت تنتمين إلى هناك".

لماذا شعرت حينها بأنني طفلة بهذا الشكل؟

حمل أبي حقيبتي ومشينا إلى محطة القطار، التي بدت دائمًا بعيدة، ومع ذلك شعرت بأنها قريبة للغاية اليوم. أراد أن يشتري لي جريدة، وعلى الرغم من احتجاجي فإنه أصر. وضع حقيبتي على أرض غرفة الانتظار وذهب إلى محل المحطة الصغير، كانت يده في جيبه، بينما هو يسير، وكنت أعرف أنه كان يحصي الفكة ويأمل بأن يكون لديه ما يكفي. عاد ومعه جريدة "التيليجراف" وعلبة حلويات أخبرني أنها من أجل الرحلة، على الرغم من أنني فكَّرت بأن أحتفظ بها للعشاء أو أتناولها مع الإفطار في الصباح التالي.

أثناء انتظارنا، تحدثنا عن أمور عشوائية: الطقس، وأوقات القطارات، وإلى متى سنستخدم الحصص التموينية. أتساءل لماذا نلجأ إلى مثل هذه المحادثات التافهة حين

يكون الوقت قصيرًا، وهناك الكثير لم نقُله. شعرت بقلبي يتحطم وأنا أقبل أبي وداعًا. أردت أن أتشبَّث به، أتشبَّث برائحته وبشعوري بيديه تحيطان بي، كي أتمكن من الشعور به وبرائحته متى أردت وأينما كنت. شعرت بخشونة خده على بشرتي وفكَّرت في أن هذا هو الشعور، هذا هو شعور الوداع.

قلت وأنا أميل بجسدي خارج نافذة القطار وقد بدأ يتحرك: "وداعًا يا أبي"..

"إنه ليس وداعًا أبدًا".

بدأ القطار بالصفير وإطلاق البخار فقال صائحًا: "فقط أراك لاحقًا".

(6)

"20 فبراير 1946،

إن الأمر سيئ، سيئ، سيئ! أريد أن أعود لمنزلي! عندما وصلت إلى "ساليسـبيري"، لم أجد أحدًا في استقبالي. انتظرت لثلاث ساعات، وقد غادر كل المسـافرين. كـان ذلـك مروعًا، مروعًا للغاية. جلست في غرفة الانتظار وطلبت كوبًا من الشاي وكيكـة. بـدت السيدة الواقفة خلف المنضدة منزعجة لأننـي طلبـت منهـا شـيئًا، وقـد أخـذت وقتًا طويلًا جدًّا حتى أحضرت ما طلبته، على الرغم من أنني كنت الوحيدة في المكان. مـن المعروف أنه بمُجرَّد أن يبدأ الشخص بالشعور بالراحة في المكان الذي ينتظر فيه، حتى يصل الشخص الذي ينتظره. لذا فكَّرت أن آخذ فرصتي وألعب مع القدر لعبتـه؛ لكـن لم يحالفني الحظ! أكلت الكيكة وشربت الشاي ببطء لدرجـة أننـي لم أسـتمتع بهـما. بَرَد الشاي وشعرت برغبة في البكاء.

حينها، دخل شاب داكن اللون جدًّا إلى المكان مهرولًا ونظر في الأرجـاء. لم يـرني في البداية وذهب إلى غرفة الانتظار وحاول أن يفتح البـاب، وجـده مغلقًـا، فسـب وظل يهزُّ مقـبض البـاب عـلى أمـل أن يجـذب انتبـاه أي أحـد ولم يـنجح في ذلـك، فالتفت ورآني أنظر إليه.

خاطر قائلًا: "إيفيلين"؟

كانت النظرة التي تعتلي وجهه مزيجًا من الشـعور بالـذنب والقلـق. قلـت وأنا أقف وأمد يدي إلى يده الممدودة: "نعم، وأنت "روبرت"؟".

ابتسم باقتضاب وأخبرني أن الجميع ينادونه باسم "بوبي".

بدا كأنه تذكَّر فجأة أين نحن وبدأ بالاعتذار بسرعة. أخبرني أنها "غلطة أمي"، حيث طلبت منه أن يذهب لشراء بعض الحبوب للدجاج وتعطل ولهذا السبب تأخر. كما أخبرني بأنه قال لها إنه لن يتمكن من الذهاب إلى "هناك"، ويعود ثم يذهب إلى المحطة خلال ساعة، "لكن هذه هي أُمِّي"، كما قال. يبدو أن كلامها يسري مهما كان. حمل حقيبتي وسألني ما إذا كان معي أي أمتعة أخرى؛ لكنني أخبرته أنه لا يزال معي صندوقي الذي كان في مكتب ناظر المحطة. أشرت تجاه المكتب فاتجه إليه مسرعًا وتبعته.

قال ناظر المحطة إلى "بوبي" بلهجة ناظر مدرسة: "لقد تأخرت يا بني، كادت هذه الشابة تنتظرك طوال الليل".

اعتذر "بوبي" بشدة، كان يشبه طالب مدرسة يتلقى تأنيبًا. بدا خائفًا قليلًا، ومتوترًا. حمل الصندوق بسُرعة دون أن يدرك مدى ثِقَله مما جعله يُسقطه في بلاهة. بدا محرجًا تمامًا. قال ناظر المحطة مكملًا تأنيبه: "هل أنت مشغول أكثر من اللازم حتى تتأخر هكذا كي تأتي لتوصل شابة أتت من إنجلترا؟ أهذا هو الترحيب المناسب لها؟ ينبغي عليك أن تتعلم بعض الأخلاق أيها الشاب".

تدخلت لأن ناظر المحطة بذل مجهودًا كبيرًا كي يثبت لي أنه ليس فارسي ذا الدرع اللامعة وقلت: "لا بأس، لقد أتى على كل حال".. "هممم".

كان هذا كل ما قاله بطلي المخلوع قبل أن يحمل الصندوق ويتبعنا إلى الخارج. رفع ناظر المحطة صندوقي بجفاء ووضعه في حقيبة سيارة "فورد" قديمة جدًّا تعود للعشرينيات. كانت بالية للغاية وقد تفاجأت أنه كان لا يزال بإمكانها السير.

قال "بوبي" ونحن نركب السيارة: "أعتقد أنك مُعتادة على سيارة رولز رويس".. "لا نملك سيارة. أعني عائلتي. ليس بإمكان أبي القيادة ونحن لا نملك المال الكافي على كل حال. عادة ما أركب الأوتوبيس أو أمشي".

قال وهو يشعل سيجارة ثم يلقي بعود الثقاب على الرصيف: "حسنًا، ستفعلين الكثير من ذلك هنا، أعني المشي. لم يعد البريطانيون يعطوننا بنزينًا مثل السابق. لقد أصبحت حصة كل فرد جالونين في الشهر".

شعرت بنبرة اتهام في صوته حينما كان ينظر إليَّ نظرة جانبية وينفخ الدخان من جانب فمه. أتساءل ما إن كان يلومني على التوبيخ الذي ناله من ناظر المحطة أم أنه أراد فقط أن يرى رد فعلي. قلت له: "إننا نوفر أيضًا في "إنجلترا".

رفع حاجبيه بطريقة توحي بأنه لا يصدقني وأكمل قيادة السيارة في الزحام.

إن المنزل صغير للغاية ومظلم. يبدو أكبر من الخارج، ربما لأن به بلكونة تُحيط به. المنازل هنا كلها ذات مستويات منخفضة، أعتقد أن السبب هو أن لديهم المساحة كي يبنوها بهذه الطريقة؛ لكن مع كل تلك المساحة الزائدة المزعومة، المنزل من الداخل صغير للغاية والنوافذ أيضًا صغيرة وذكَّرتني بنوافذ القمرات في "قلعة كيب تاون".

عندما وصلت كان الجو مظلمًا، لذا لم أتمكن من رؤية الحديقة جيدًا؛ لكنني أعرف الآن أن هناك دجاجة كبيرة تجري في الخلف وحبل غسيل. لم يكن هناك زهور في مقدمة أو نهاية الحديقة، يوجد فقط بعض الأشجار الصغيرة البائسة بالقرب من البوَّابة وبعض أوعية النباتات الميتة منذ وقت طويل في البلكونة. داخل المنزل، بدا كأن الزمن لا يزال صامدًا، حتى الهواء لا يتحرك. هناك غرفة صغيرة في المقدمة، ذات باب مغلق طوال الوقت، وأعرف فقط أن سبب ذلك هو أن السيدة "بروتون" تختفي بداخلها كل يوم في

الرابعة و"ماري"، زوجة "بوبي"، تدخل لها الشاي. أوَّل باب على يمين الممر هو المطبخ، وهو ربما يكون أكبر غرفة في المنزل. في المُنتصف يوجد طاولة خشبية قديمة وستة كراسي، حيث نأكل وجباتنا، كلنا ما عدا السيدة "بروتون" التي تتناول وجباتها في غرفتها. هناك أيضًا دولاب كبير مثبت في أحد أطراف المطبخ، حيث يحتفظون بكل الأطعمة الجافة، والخضراوات توضع في الرَّفِّ السُّفلي. خارج باب المطبخ يوجد حوض حجري كبير، حيث تقوم "ماري" بغسل الملابس فيه مرَّة في الأسبوع، كما أنها تشتري اللحم مرَّة في الأسبوع وتطهوها في اليوم نفسه، ثم تقوم بحفظها في خزانة اللحوم وهي تبدو مثل قفص وفوقه فحم. يقومون بصب الماء فوق الفحم وتجري الماء على جانبي الخزانة كي تبقي اللحوم باردة. أرجل الخزانة موضوعة في أوعية مليئة بالماء كي تمنع تسلق النمل إليها.

رأيت صورًا معلقة على الحوائط ذات ألوان لامعة ومبهجة للغابات، والتي لم أتمكن من ربطها بـ"أفريقيا" على الرغم من أنني لم أرَ منها الكثير بعد. في غرفة نومي يوجد صورًا مؤطرة باهتة، وبها بعض المشاهد لغزال يجري في الغابة ودعاء. صورة الدعاء معلقة فوق سريري مما جعلها تبدو كأنها نقش على ضريح!

السيدة "بروتون" طويلة ونحيفة وهزيلة. لديها شعر أبيض يصل حتى كتفيها والذي ثبتته خلف أذنيها بمشبك شعر، ولديها عينان رماديتان، لو أن ذلك ممكنًا، كانتا أغرب عينين رأيتهما في حياتي، وهما خاليتان من كل المشاعر. وجهها مخطط بعمق، ربما نتيجة لقضائها الكثير من الوقت في الشمس حيث إنها زوجة مزارع، ويوجد حول فمها خطوط عميقة حزينة والتي جذبت فمها للأسفل في شكل حزين دائم. تقف بظهر مستقيم طوال الوقت، كأنما يدعم أحدهم ظهرها بعصا وهي نحيفة لدرجة أنها تبدو كأنها سيغشى عليها في

أي لحظة. لا بد أنها ذات يوم كان لديها جسد جميل؛ لكـنَّ العـروق في ساقيها كانت بارزة، حيث أخفتها عن طريق جواربها الخفيفة التي ترتديها.

"ماري" أيضًا نحيفة؛ لكن لديها شعر داكن ثقيـل ومجعـد، والـذي جمعتـه بشدة وربطته على هيئة ذيل حصان. ترتـدي أقـدم الفسـاتين - التـي تصـل إلى أسفل ركبتيها بقليل ومقاسها كبير جدًّا عليها - كما أنها ترتـدي حـذاءً أسـودَ ذا أربطة، والذي لم أره منذ أن كنت طفلة، حيث كانت أُمِّي ترتديه. ترتـدي فـوق فستانها مريلة طويلة بيضاء. لا تـتكلم "مـاري" كثـيرًا. يبـدو أنهـا مرغمـة عـلى البقاء في المطبخ، حيث تقوم بعمل كل شيء، من غسـيل الملابـس وحتـى طهـي كل وجبة. لديها هي و"بوبي" طفل لديه عامان أو ثلاثة، اسـمه "كـولين"، الـذي يبدو أنه يقضي حياته كلها باكيًا. إنه يتشبث بـ"ماري" كلـما دخلـت إلى الغرفـة ويبدو خائفًا من جَدِّه وجَدَّته، اللذين يظهران قدرًا قليلًا من الاهتمام به.

كانت السيدة "بروتون" في الغرفة الأمامية عنـدما وصـلت وذهـب "بـوبي" ليناديها. الأمر الغريب كان أنه أغلق خلفه الباب عندما دخل ثم أغلقه مُجـدَّدًا عندما خرجا معًا. أخذت السيدة "بروتون" يـدي في يـدها، والتـي كانـت بـاردة ورطبة، كأنهـا كانـت تجلـس بيـديها مغمـورتين في المـاء لسـاعتين. تركـت يـدي بسُرعة، وكأن الاحتفال كان أكثر من اللازم بالنسبة لها، وأنها استنفدت آخـر مـا تبقَّى لها من طاقتها.

قالـت دون أن تبتسـم: "سـعدت بمقابلتـك، سـتقدم لـك "مـاري" العشـاء، تفضلي بالذهاب إلى المطبخ".

أشارت إلى الباب على اليمـين. أدرت رأسي لأنظـر في ذلـك الاتجـاه، وعنـدما نظـرت لهـا مُجدَّدًا كانت قد ابتعدت في طريقها، دخلت عبر البـاب إلى الغرفـة الأماميـة. لاحـظ "بـوبي"

ذلك فهزَّ كتفيه. دلَّني على المطبخ، حيث كانت تطهو "ماري" أمام الفرن. التفتت في خجل عندما رأتني وحيتني بعينين تتهربان من رؤيتي، كأنني كنت الملكة، وقد أتيت للعيش هنا.

كان العشاء مكونًا من حساء اللحم الدسم وفاصوليا خضراء. ذكَّرني بطعام المستشفيات، الطعام الذي يأكله الشخص عندما يكون مريضًا، الذي ينزلق عبر حلقك ويصارع للبقاء هناك، بينما تُواتيك موجات متتالية من الشعور بالغثيان.

في تمام السَّادسة، ظهرت السيدة "بروتون" في الممر حاملة ما بدا لي كالإنجيل وقالت: "ماري، سأتناول عشائي في غرفتي".

لمحتني فأعطتني إيماءة بسيطة برأسها. اكتشفت فيما بعد أن هذه هي طريقتها في أن تقول "تصبحين على خير". اختفت بعد ذلك في الممر وتمكنت من أن أسمع صوت باب غرفة يُغلق. أعدت "ماري" بعض الأشياء فوق صينية من أجلها وأدخلتها. عندما خرجت مجددًا، نهض "بوبي" وقال: "سأذهب إلى الخارج".

كان هذا كل شيء، فقد ذهب. غسلت "ماري" الأطباق وأخبرتني أنه ليس مسموحًا لي بالمساعدة. صبَّت ماءً ساخنًا في إبريق وأخذته لغرفتي كي أغتسل. عندما ظهرت بعد خمس عشرة دقيقة، كانت قد ذهبت وكان المطبخ مظلمًا. من غرفة ما، تمكنت من أن أسمعها تخاطب "كولين" وتخبره أن يصمت كي لا يوقظ أحدًا بالمنزل. كانت الساعة حينها السابعة إلا الربع فقط، عدت لغرفتي وأغلقت الباب، كانت أوَّل ليلة في حياتي الجديدة وقد أردت العودة لمنزلي".

(7)

كانت جَدَّتي تقول دائمًا إن أقصر طريق لقلب الرجل عبر معدته. لم تكن هي أوَّل من قالت ذلك التعبير؛ لكنه كان يعني الكثير طالما أنها هي من قالته. أتذكَّر أنها قالت لي ذات مرَّة:

- إن الرجل غير مهتم بكم أنت مثيرة للاهتمام، ما إن كنت خبيرة في تاريخ العصور الوسطى أو العلوم النووية، أو إذا كنت أجمل امرأة على الأرض. هناك شيء واحد يجعل حتى الجنس شيئًا تافهًا بالنسبة له وهو الطعام.

بعد ما حدث بيني وبين "توني"، حاولت بكل جهدي أن تنجح الأمور بيني وبين "مارك"، حتى لو كان السبب هو أن أثبت لنفسي أنني قمت بالاختيار الصحيح. ظللت أنا و"مارك" نعيش على الوجبات السريعة والطعام المجمد؛ لكنني بدأت بالتدريج أحاول أن أعد وجبة ملائمة للعشاء، حتى لو كان فقط "أومليت" كبداية، على الرغم من أنني أخفقت حتى في ذلك في بعض الأوقات. قررت يومًا ما أن أكون شجاعة وأطلب من "مارك" أن يدعو أي أحد على العشاء. تفاجأ؛ ولكن جعله ذلك سعيدًا، لذا فقد دعا أحد زملائه وزوجته لتناول العشاء معنا ذات ليلة.

انشغلت لفترة بما سأعده في تلك الليلة. لم أتمكن من المبالغة وإعداد عشاء أكثر من مرَّة؛ بدوت تواقة إلى أن أرضيهم. كما لم يمكنني أن أعد فقط مجرد فاصوليا مع خبز "التوست". تمنيت لو أن جَدَّتي لا تزال معي كي أطلب نصيحتها. على الرغم من ذلك فقد كان الشيء الرائع هو كتاب الطبخ "التدبير

المنزلي الجيد" الخاص بجَدَّتي الذي أحضرته معي كتذكار فقط لا للاستخدام. تصفحت الكتاب باهتمام، وجدت أن بعض الوصفات أعِدت أكثر من وصفات أخرى، وقد فُتح الكتاب تلقائيًّا عند صفحات معينة، حيث بلي ظهر الكتاب، ومع ذلك فقد بدا كل شيء رسميًّا أكثر من اللازم، وربما ليس عصريًّا بما يكفي.

بينما كنت أقلب الصفحات، وقعت قصاصة ورق. كانت من إحدى الجرائد، صفراء وخشنة. كانت من جريدة "الديك والخمر" المفضلة لدى جَدِّي. قررت أن أجرب الأمر، حيث شعرت بأن أي وصفة أضيف إليها النبيذ ستعطيني الشعور بأنني طاهية حقيقية. كان الحساء مناسبًا كبداية: لا يمكن أن يكون الحساء مبهرجًا مثل علبة عيش الغراب المفتت. أمَّا للتحلية فقررت أن أعد "براوني" بالشوكولاتة والآيس كريم.

وجدت أن الطهي أعطاني جزءًا كبيرًا من الرضا. كانت جَدَّتي محقة عندما أخبرتني أنه أقصى درجات العطاء، فقد كانت تقول دائمًا: "يمكنك أن تشمي رائحة الحب في وجبة ما".

ما تطهينه، وما تأكلينه ما هو إلا تعبير عن نفسك وما تشعرين به تجاه الآخرين.

كان "مارك" معجبًا بذلك، فقد أتى من خلفي في المطبخ، وأحاطني بذراعيه من خصري وقَبَّل رقبتي. كانت ذقنه خشنة. قال وهو ينظر من فوق كتفي إلى وعاء الحساء:

- الرائحة جميلة.

غمس إصبعه في الوعاء وتذوقه، ثم قال:

- طعمه جميل أيضًا.

قَبَّلني مجددًا، ثم قال:

- أتعرفين ما أفكِّر فيه؟

- ماذا؟

- أعتقد.. أنك ستكونين أُمًّا رائعة.

تراجعت بعيدًا عنه بشكل غريزي، حينها أدركت ما فعلت، فقمت بالتظاهر بأنني أبحث عن شيء ما في الوصفة؛ لكنني كنت متأخرة على الرغم من ذلك. لاحظ "مارك" ترددي فبدا الحزن على وجهه. قال وهو يعانقني:

- فكِّري في الأمر، سنتزوج قبل ذلك بالطبع.

تسمَّرت في مكاني، وغادر "مارك" وهو يقول:

- سأذهب للاستحمام. ناديني إذا احتجتِ إلى مساعدة.

حضر "سايمون" و"ريتشيل" في موعدهما. أحضرا معهما باقة ورد وزجاجة نبيذ أبيض جنوب أفريقي. أعتقد أنه كان "شاردونيه". كان "سايمون" طويلًا ونحيلًا؛ لكن بجسد قوي، ولديه وجه مشرق ودود. تخيلت أنه يمارس رياضة التنس أو الإسكواش، ويستمتع بمشاهدة رياضة التجديف والكريكيت. كان لدى "ريتشيل" شعر طويل أشقر مستقيم، وملابس ضيقة، ومعطف قصير، وحذاء برقبة، وسلسلة ذهبية حول عنقها، وطلاء أظافر فرنسي.

قال "سايمون" معلقًا بعد أن وصل لمنتصف طبق الحساء الذي مدحه "مارك" مرَّتين:

- أنت من "زيمبابوي"؟

قال "مارك" قبل أن أتمكن من الرد:

- كانت.

- منذ متى وأنتِ هنا؟

أجبته:

- منذ عشر سنوات.

شعرت فجأة بأنني رحلت منذ مدة طويلة جدًّا، أكملت:

- بالطبع عدت إلى هناك عدة مرَّات.

- لابد أنكِ رأيت بعض التغييرات.

قال "مارك" متدخلًا مرَّة أخرى قبل أن أقول كلمة واحدة:

- لقد أصبح من الصعب التعرف عليها تقريبًا.

لم أقل له من قبل أبدًا بأنه "من الصعب التعرف عليها"، قلت:

- حسنًا، لا أريد أن أبالغ هكذا..

قاطعني "مارك" مرَّة أخرى وقال متحديًا:

- لم تكن جَدَّتك لَتُقتل منذ عشر سنوات، أليس كذلك؟

تفاجأ "سايمون" وتوقف عن الأكل، كانت ملعقته في منتصف الطريق إلى فمه، وقال:

- هل قُتِلَت جَدَّتك؟ يا إلهي، أنا آسف.

قالت "ريتشيل":

- نعم، كم هذا مروع.

لم أعتقد أن الوقت والمكان كانا مناسبين لذكر مقتل جَدَّتي، لذا لم أقل شيئًا وأخذت رشفة كبيرة من النبيذ ولعنت "مارك" بيني وبين نفسي لإقحامها في المحادثة. قال "سايمون":

- هناك كثير من تلك الحوادث هناك الآن، أليس كذلك؟ مزارعون بيض البشرة. هل كانت جَدَّتك مزارعة؟

انفجرت في الضحك فاحمرَّت وجنتا "سايمون"، وقال:

- آسف، آسف، إنني جاهل بالأمر كليًّا. أعرف فقط ما أقرؤه، أنت تفهمين.

- لا بأس. لو أنك فقط كنت تعرف جَدَّتي، هذا كل ما في الأمر. لا، لم تكن مزارعة. كانت امرأة حضرية للغاية. لقد قُتِلَت في منزلها بالضواحي.

قالت "ريتشيل" مجددًا:

- شيء مروع. لدي عمة تعيش في جنوب أفريقيا وقد اختُطِفَت في العام الماضي. هددوها بقطع إصبعها كي يحصلوا على خاتم زواجها لو أنها رفضت إعطاءه لهم.

هزَّ الجميع رؤوسهم. قال "سايمون" وهو يطارد قطعة خبز محمص في حسائه:

- شيء مؤسف ما يحدث في "زيمبابوي". سمعت أنها كانت بلدًا جميلًا.

قلت:

- إنها لا تزال جميلة..

قاطعني "مارك" مُجدَّدًا قائلًا بحسم:

- إنها الديموقراطية الصُّورية.

سأل "سايمون":

- هل تعتقدون أنها ستصبح مثل "رواندا"؟ لقد شاهدت فيلمًا ذات مرَّة...

نهضت فجأة مما جعل الكرسي يرجع للخلف محدثًا صوت احتكاك مع الأرضية، نظر إليَّ الجميع في مفاجأة. لم يكن "سايمون" قد أنهى كلامه. سألتهم وأنا أجمع الصحون الفارغة وأضعها فوق بعضها البعض:

- هل يرغب أحدكم بالمزيد؟

قال "سايمون":

- لا، شكرًا. كان هذا جميلًا.

ردد "مارك" وهو يرفع كأسه باتجاهي:

- جميل.

غادرت الحجرة في استياء دون أن أبتسم. في المطبخ صببت لنفسي كأسًا أخرى واستندت إلى منضدة المطبخ. كانت عيناي مغلقتين حينما دخلت "ريتشيل" متسائلة إن كنت أحتاج إلى مساعدة. لوَّحت لها في إحراج، وأخبرتها أنني متعبة. أصرَّت على أن تساعدني في شيء ما، وكنت على وشك أن أنفجر في

وجهها كي تتركني بمفردي؛ لكنني أعطيتها وعاءً مليئًا بالبطاطس وطلبت منها أن تضعه على الطاولة.

على ترابيزة الطعام، كان "مارك" قد صب لنفسه رابع كأس نبيذ، بينما رفض "سايمون" عن طريق وضع يده أعلى كأسه، وقال:

- لا أريد.

قال "مارك" في إصرار:

- هيا يا "سايمون"، أنت لن تقود وأنت عائد.

هزَّ "سايمون" رأسه في رفض، فقال "مارك" مداعبًا:

- أنت تحتاج إلى أن تتعلم عدة أشياء من هذه الزيمبابوية، إنهم يثملون هناك في المستعمرات ثم يذهبون لعملهم كالعادة في اليوم التالي، أليس هذا صحيحًا يا "إيلي"؟ سماء زرقاء وخمر، أليس هذا ما أخبرتِني به ذات مرَّة؟

دفعت طبق "مارك" تجاهه بغلظة وبعض الحساء انسكب على مفرش الطاولة. قال "سايمون" بابتسامة طيبة:

- حسنًا إذًا، لا بد أنكِ سعيدة لوجودك هنا وسط الشعوب المتحضرة. في الواقع، بعيدًا عن الكلمة المعتادة، يمكنني حقًّا أن أقول إن لديك لهجة بريطانية جيدة. ألا تظنين ذلك يا "ريتشيل"؟

أومأت "ريتشيل" برأسها، وملأت فمها بالطعام. قال "مارك":

- إننا نعمل على ذلك الأمر.

قال "سايمون" لـ"مارك":

- بالطبع، فأنت لست بريطانيًّا أصليًّا أيضًا، أليس كذلك؟

أجابه بالحسم نفسه:

- لقد غادرت "جنوب أفريقيا" منذ زمن طويل، لم أعد أعتبرها وطني.

- يشتكي الكثيرون من "بريطانيا"؛ لكن هناك الكثير من الأشياء تُقال لصالحها، أليس كذلك؟

نظر "سايمون" إلى "ريتشيل" باحثًا عن تأكيد لما قاله، التقت عيناهما فأومأت برأسها، وقالت:

- حقيقي للغاية.

لم أتوصل لفهم ما يحدث حتى قدمت لهم التحلية. كان الجميع يتأوَّه في سعادة، ويقولون إنها لذيذة جدًّا؛ لكن بالنسبة لي كان هناك شيء ما خاطئًا. انتابني ذلك الشعور عندما لا تتمكن من تذكُّر اسم شخص ما وكلما فكَّرت فيه، فرَّ منك الاسم، ولسبب مبهم، تعتقد دائمًا أنه يبدأ بحرف مختلف تمامًا عن الحرف الفعلي، وفجأة، حينما لا تكون تفكر فيه، يظهر لك الاسم. فتصيح قائلًا: "بالطبع، بالطبع!" هذا ما شعرت به عندما تذكَّرت كلمات "توني": "الكثير من الـ"بيكينج باودر". صدمني الواقع كقطار سريع".

(8)

"22 فبراير 1946،

إن عملي هو إطعام الدجاج. أذهب إلى الخارج كل يوم في السَّادسة صباحًا، أنظف قفص الدجاج، وأطعمها، وأجمع البيض. يبدو أنه الشيء الوحيد المتوقع مني فعله في هذه اللحظة، أم أنه الشيء الوحيد الذي يثقون فيَّ كي أقوم به؟ أشعر بكثير من الاشتباه بي داخل المنزل، كأنهم يتوقعون شيئًا معينًا منِّي. لا يمكنني أن أعمل إما لأنني إنجليزية، أو لأنني أرملة "تيموثي". لا أعرف ما أفعله بما يتبقى من يومي. تقول "ماري" إنها لا تحتاج لمساعدتي، و"بوبي" ليس موجودًا طوال الصباح وبعد الظهر، فهو يعمل في مزرعة دجاج خارج المدينة. يعود في الخامسة، متسخًا وذا مزاج عكر ويريد طعامه. لو أنه لم يخرج مُجدَّدًا في المساء، فهو ينام منذ الساعة السابعة. عندما يذهب للنوم، تجلس "ماري" في المطبخ تهزُّ "كولين" للأمام وللخلف على كرسي. في الليالي التي يخرج فيها، تدخل "ماري" غرفتهما وتغلق الباب. أشعر بأن يومي يبدأ وينتهي في السَّادسة صباحًا. ليس هناك كتاب أقرؤه، ولا حتى جريدة، لا يوجد سوى تكَّات ساعة المطبخ المتواصلة.

في الصباح الأول، أعدت "ماري" الإفطار من أجلي، كان "بوبي" قد خرج وعرضت عليها المساعدة؛ لكنها رفعت أنفها، وقالت: "أنا بخير".

جلسنا هناك لحوالي نصف ساعة وقالت فجأة: "ستستيقظ أُمِّي قريبًا".

ظننت أنها ستأتي وسنتمكن من التحدث؛ لكن ما عناه ذلك هو أن "ماري" ستحمل إليها وعاءً من الحساء وبعض الشاي على صينية. قالت "ماري" وهي تبدأ بإعداد المخبوزات: "اذهبي لتجلسي في الحديقة إذا كنتِ تحبين".

لذا جلست في البلكونة لبعض الوقت؛ لكن لم يكن هناك ما أراه أو أفعله. لا أفهم لماذا يتوقعون منّي ألا أفعل أي شيء".

"3 مارس 1946،

تذهب "ماري" إلى البلدة مرَّة كل أسبوع. ترتدي فستانًا أزرقَ داكنًا باهتًا، مرَّة أخرى ترتدي شيئًا طويلًا وقديم الطراز، وقُبَّعة من القش بها كسور في بعض الأماكن، والتي حاولت أن تغطيها بزهور صناعية رخيصة. حملتها عن الأرض هذا الصباح لأن الرياح أوقعتها عن حامل القبعات، عندما قلبتها لاحظت الفجوات. أخذتها منّي "ماري" ووضعتها على رأسها دون حتى أن تلقي على نفسها نظرة في المرآة. إنها لا تضع أي مساحيق تجميل ويبدو أنها تنظف وجهها بالفرشاة في الصباح لأنه دائمًا ما يكون أحمرَ وصافيًا على الإفطار. أخبرتها أن لدي قُبَّعة بإمكانها اقتراضها، فقالت إنها لا تقترض القُبَّعات، كأن لديَّ قملًا في رأسي أو شيئًا سيئًا كهذا. تأخذ معها قفصًا من القش في كل مكان، وحقيبة يدوية سوداء كبيرة تحتفظ بداخلها بجميع النقود الخاصة بأغراض المنزل. يعد "بوبي" النقود كل مساء ويتفقد الباقي عن طريق الإيصالات. تجلس معه السيدة "بروتون" وهو يقوم بذلك، وهو ما أراه غريبًا للغاية. يبدو أنه الشيء الوحيد الذي تهتم به.

تـذهب "مـاري" مـع "كـولين" الـذي يتشـبَّث بسـاقها ويبـدو أنهـا تسـتقل أوتوبيسًا على بُعد شارعين من المنزل. تعـود في المسـاء، ويكـون القفـص ممتلئًـا ومغطى بقطعة قماش بيضاء قديمة. تفـرغ محتوياتـه بنفسـها وتضـع الحقيبـة على رفٍّ عالٍ، عادة ما يكون "كولين" وقتها نائمًا أو يبكي.

لا أعرف كيف تبدو "ساليسبيري"، باستثناء محطة القطار، ويبدو أننـي لـن أعرف أبدًا. هل سأبقى هنا لما تبقى من حياتي؟ حتى "ماري"، "ماري" المسـكينة الغريبة، يمكنها أن تغادر المنزل بين الحين والآخر".

"10 مارس 1946،

حدث شيء مخيف هذا الصباح. شعرت بأنني لن أتمكن من الجلـوس ليـوم آخر دون فعل أي شيء، ففكَّرت أن أفاجئ "ماري" وأقوم ببعض التنظيـف دون أن أسألها. بعد الإفطـار، ذهبـت إلى الخـارج لتعلـق الغسـيل عـلى الحبـل، لـذا فتحت باب دولاب المطبخ وأخـذت أدوات التنظيـف مـن المكـان الـذي رأيتهـا تضعها فيه كل ليلة. فكَّرت أن أبدأ في الغرفة الأمامية، ففتحت بابها والذي كان متيبسًا. لم أعرف ما الذي كنت أتوقع أن أجده. لقد حافظوا على سرية الغرفـة، الباب دائمًا مغلق، وحتى الستائر مسدلة؛ لكن لم يكن هناك أي شيء غير عادي، ما عدا أنها تقريبًا أفضل غرفة في المنزل بأكمله. كـان بهـا ورق حـائط، وأغطيـة كراسي، ومفارش كروشيه على الطاولة. بدت نظيفة؛ لكنها كانت خانقة على الـرغم من ذلك، وأشعَّة الشمس تضرب في الستائر من الخارج في ذلك الوقت من الصباح، مما جعلها دافئة بعض الشيء. فتحت الستائر، وكنت عـلى وشـك أن أفـتح نافـذة،

والتي كانت متيبسة وبدت أنها غالبًا لا تُفتح، عندما أتت "ماري" مسرعة وجذبتني من ذراعي. جذبتني بقوة شديدة لدرجة أنني طِرت للخلف وأوقعت فازة، لم تنكسر؛ لكنها تدحرجت ببطء على الأرضية الخشبية. أسرعت "ماري" تجاهها وحملتها باحثة عن أي ضرر. قلت لها: "لا بأس".

كنت أشير بالطبع إلى الفازة؛ لكنها كانت غاضبة للغاية، كانت أوَّل مرَّة أراها مُفعمة بالحيوية بهذا الشكل منذ أن جئت إلى هنا. قالت بغضب: "ليس لديك الحق لتدخلي هنا".

قلت في ذهول: "ليس لديَّ الحق..؟".

هل يحتاج أي أحد حقًّا كي يدخل الغرفة الأمامية؟ نصحتني قائلة: "لا تدخلي هذه الغرفة أبدًا أبدًا".

كان صدرها يعلو ويهبط، وتنفست بثقل كي تستعيد رباطة جأشها، وأكملت: "ليس دون تصريح".

قلت وأنا لا أزال لا أعرف ما الخطأ الذي فعلته: "تصريح؟ أنا آسفة. لم أكن أعرف.. لم أكن أقصد...".

قالت بهدوء وهي تأخذ منِّي أدوات التنظيف بحركة فظَّة: "لا بأس، فلتخرجي".

أغلقت الباب خلفنا وقالت وهي تبتعد: "لا تفعلي ذلك مُجدَّدًا فقط".

وقفت مكاني للحظة، في صدمة شديدة قبل أن أعود إلى غرفتي وأجلس على السرير. كانت يداي ترتعشان ومتعرقتين. جففتهما في ملاءة السرير. سمعت باب غرفة السيدة "بروتون" يُفتح وتخطو في حذر في الممر. كان هناك بعض الأصوات وتخيلت "ماري" تشرح الموقف بكامله لحماتها".

(9)

"3 أبريل 1946،

الليلة الماضية، خرجت مع "بوبي". كان هذا هو أوَّل نوع من الترفيه أحصل عليه خلال الشهرين اللذين قضيتهما هنا. كانت مشكلة؛ لكنني كنت عازمة على الصمود أمام كل أنواع المعاملات كي أتمكن من الخروج من هذا المنزل.

وقت الإفطار، سألني "بوبي" بصوت منخفض ومتكتم ما إن كنت أرغب في الخروج في المساء. للرقص! بالطبع وافقت. تمكنت بالكاد أن أخفي حماستي وسعادتي، على الرغم من أن "بوبي" وضع إصبعه أمام شفتيه وأشار إلى غرفة أمه. "في السابعة".

كان هذا كل ما قاله لي قبل أن يحمل قُبَّعته ويختفي من خلال الباب الخلفي.

وقفت "ماري" أمام الحوض معظم الوقت في الصباح، تقشر البطاطس في صمت وتنظر بعيدًا من النافذة. أكاد أقسم أنها ترتدي تلك المريلة أثناء نومها! لم تقل أي شيء لي، فقط نظرت إليَّ وأنا راحلة بهاتين العينين الكبيرتين الحزينتين. سألتها إن كانت تحب أن ترافقنا. كان "كولين" يرقد على الأرض، باكيًا كعادته، فحملته عن الأرض وأخذته وخرجت من الغرفة دون رد. لم نخبر السيدة "بروتون" فقمنا بالتسلل خارج المنزل بهدوء. في طريقنا

إلى الصالة، سألت "بوبي" لو أن "ماري" ترغب في مرافقتنا، أو أنها تريد الخروج معه بمفردهما وأبقى أنا؛ لكنه هزَّ رأسه رافضًا.

إن رقص ليلة الأربعاء شيء أساسي هنا. يعزف أحدهم على البيانو ويرقص الباقون. كثيرًا ما يأتي رجل يغني ويقول الجميع إن صوته يشبه صوت "جلين ميلر"، لكنه لم يكن هناك ليلة أمس. في العاشرة، يتم تقديم الشاي والقهوة. الليلة الماضية كان هناك بعض أطباق الساندويتشات، وأعد أحدهم كيكة. قال "بوبي" إنه لم يرَ كيكة تُقدم هناك منذ أكثر من عام، لا تزال الزبدة قليلة. قال إن من المؤكد أنهم عرفوا أنني قادمة فأعدوا كل شيء بشكل لطيف من أجل الفتاة الإنجليزية. يبدو أن "الروديسيين" يظنون أن الحرب اندلعت هنا فقط. ما لا أعرفه عن الاقتصاد في توزيع المؤن ليس بالكثير ومع ذلك يظنون كلهم أنني أتوقع شيئًا كبيرًا طوال الوقت.

ما لا أفهمه هو لماذا يأتي "بوبي" هنا من الأساس. كنت دائمًا أعتقد أن الشخص لا يحتاج إلى حياة اجتماعية بعد الزواج. على كل حال، لقد قضيت وقتًا لطيفًا، وقابلت أشخاصًا كثيرين. سأل جميعهم لو أنني سآتي مُجددًا في الأسبوع المقبل، فنظرت إلى "بوبي" فهزَّ كتفيه وتمتم قائلًا: "سنرى ما يمكننا فعله".

لكن لا يمكنني تخيل السماح لي بالخروج أسبوعين مُتتاليين!".

"14 أبريل 1946،

حدث تطور غريب في الأحداث بالأمس. كان الوقت يقترب من موعد الغداء، قبله مباشرة، عندما أتى إليَّ "بوبي" في المطبخ، كنت أعد حساء الدجاج، وقد وضعت لتوِّي العظام في الوعاء لتغلي عندما دخل. كانت "ماري" بالخارج تأتي بالغسيل وكانت السيدة

"بروتون" في غرفتها، ربما كانت نائمة. إنها تأخذ قيلولة قبل وبعد الغداء ومع ذلك لا تبدو مُستريحة أبدًا. تسلل "بوبي" بجانبي، بينما كنت واقفة أمام الفرن ونظر من فوق كتفي إلى ما كنت أعده. قال فجأة: "سأخرج الليلة".

لم أكن متأكدة ما إن كان يدعوني أم يخبرني فقط. سألته: "إلى أين؟ المكان نفسه؟".. "لا، إلى مكان مختلف هذه المرّة".. "حقًّا؟ أين؟".

نقر على جانب أنفه في تآمر وابتسم ابتسامة ماكرة. قلت آملة ألا يلاحظ نبرة الاشتياق للانضمام إليه في صوتي: "أخبرني".

قال هامسًا وهو ينظر نظرة خاطفة إلى الباب، ليتأكد من عدم وجود أحد: "إيس أوف سبيدز"، أتريدين أن تأتي؟".

سألته وأنا ممسكة بالملعقة في يدي، كأنما فعل تقليب ما في الوعاء سينبه السيدة "بروتون" إلى خططنا: "كيف؟".

فهمس بدوره: "التوقيت نفسه، كوني على استعداد".

أومأت له فتراجع ليخرج من الباب الخلفي.

ناديته قائلة: "بوبي".

كان صوتي فجأة أعلى من صوت فقاقيع الحساء، فأخفضته مرَّة أخرى بسُرعة وأكملت: "ما هذا المكان؟"

أجابني هامسًا: "إنه ملهى ليلي، ارتدي حذاء الرقص".

كان الأمر بكامله يقلقني طوال اليوم وظللت أنظر تجاه السيدة "بروتون" أثناء الغداء لأرى ما إن كانت تشك في أي شيء. كانت ترتشف حساءها ببطء مثل المرضى، حيث ترفع الملعقة

بضعف إلى شفتيها، تتذوق الحساء، ثم تخفض الملعقة مُجدَّدًا في جزع كأنها مُحبطة بما ظنت أنه شيئ آخر، كما أظن أنها تفعل الشيء نفسه في تعاملها مع الحياة، بشك ويأس.

لم تُنهِ حساءها - ولم تكن مفاجأة كبرى - حيث إنني لم أرها تنهي أي شيء منذ أن جئت إلى هنا. قدمت إليها قطعة من الخبز؛ لكنها رفعت يدها في الحال في اعتراض كأنني اقترحت عليها أن تجري لمدة ميل في الطريق. عادت بعد ذلك بقليل إلى غرفتها، بعد أن أعطت توجيهًا مقتضبًا كي تتناول الشاي هناك. أعدت "ماري" الصينية من أجلها نصف كوب من الشاي الأسود، وإبريقًا صغيرًا من اللبن، وقرصي دواء من الدولاب الذي يوجد في الحمَّام موضوعين في كأس بيضاوية قديمة. تعد لها "ماري" الشاي مرَّتين في اليوم، كل يوم، وقد علمت أن ذلك طقس لا يمكنني أن أشارك فيه أبدًا. كأنهم يظنون أنني أرغب في ذلك.

لم يتحدث أحد طوال الغداء؛ كان هناك فقط صوت ارتطام الملاعق بالأطباق، وصوت ارتشاف "بوبي" للحساء بين الحين والآخر، وتنقيط صنبور مياه المطبخ المتواصل.

قلت عند لحظة ما في محاولة كي أكسر الصمت: "هذا الصنبور يدفعني للجنون".

لم يقل أحد شيئًا. لم ينظر أحد منهم إليَّ حتى. سألتهم: "هل أحضرتم أحدًا كي يصلحه؟".

ظل الصمت كما هو، فأكملت: "سبَّاك مثلًا؟".

ألقيت الاقتراح البديهي متمنية ألا أكون قد بدوت متعالية؛ لكنها كانت نبرة مبهجة ومرحة أكثر من اللازم وبدت عالية وثقيلة بيننا. حرك "بوبي" كرسيه حركة بسيطة تسببت في خدش البلاط من أسفله. تنحنح بصعوبة؛ لكنه لم يتكلم وأبقى عينيه على الحساء. ربتت "ماري" على شفتيها بمنديل رمادي وقالت بعينين متلألئتين: "كان "تيموثي" ماهرًا في مثل هذه الأعمال".

كان صوتها أعلى بقليل من الهمس، ومع ذلك بدا أنه ملأ الهواء ببعض الحزن. وضعت السيدة "بروتون" ملعقتها، وتهيَّأت للنهوض. قالت: "سأتناول الشاي في غرفتي".

ثم انسلَّت شاحبة ونحيفة عبر الباب. خرجت "ماري" لتلقي القُمامة. نظر "بوبي" تجاهي بما يبدو كأنه وعيد في عينيه. قال بتذمر بعد رحيلها: "لماذا ذكرته؟".

أردت أن أقول إنني لم أفعل ذلك؛ لكن لساني انعقد. قال وهو يحمل قُبَّعته: "أراكِ لاحقًا. لا تتأخري".

مرَّ الباقي من فترة الظهيرة بآلية، وهو شيء ليس صعبًا في هذا المنزل. في الرابعة، تظهر السيدة "بروتون" لتناول الشاي. شربته كالعادة في الغرفة الأمامية بمفردها. حملته "ماري" على الصينية: فنجان شاي على طبق، وبراد شاي وإبريق لبن، وملعقة شاي وقطعة بسكويت واحدة على طبق. بعد نصف ساعة، أخذت "ماري" الصينية. كانت هناك بُقعة سائل صغيرة صفراء وبنية أسفل الفنجان وقُضِمَ أحد أركان قطعة البسكويت. تناولت أنا و"بوبي" الشاي أمام ترابيزة المطبخ، بينما غسلت "ماري" فنجان وطبق السيدة "بروتون". وقفت تجففهما شاردة أمام النافذة عندما قلت: "أتريدين بعض الشاي يا "ماري"؟".

أدارت رأسها بعض الشيء تجاهي، وبقي جسدها مواجهًا للنافذة، وأجابتني بصوت منخفض مُحايد: "لا".

قلَّب "بوبي" الشاي بالملعقة في عنف وتركها تسقط في الطبق. نظر إليَّ في غضب، وارتشف الشاي ثم غادر الحجرة. لم يكن لديَّ فكرة عن الخطأ الذي ارتكبته. بينما مرَّت السيدة "بروتون" أمام المطبخ في طريقها إلى غرفتها قالت: "سأتناول عشائي في غرفتي يا ماري".

أومأت "ماري" في إذعان والتفتت السيدة "بروتون" راحلة، وهي مستندة بيدها على مقبض الباب. لمحتني بعينيها، زمَّت شفتيها، ثم رحلت.

في الخامسة والنصف، حملت "ماري" صينية السيدة "بروتون" إلى غرفتها. حل محل ملعقة الشاي شوكة وسكين، وطبق عشاء صغير عليه قطعة جزر وقطعة فطيرة "الراعي"

ليحلا محل فنجان الشاي والطبق. كما كان هناك كوب ماء صغير والكأس البيضاوية بداخلها مُجدَّدًا قرصا دواء. عندما غادرت "ماري"، لاحظت أن نشَّابة العجين مُلقى على لوحة الخبز على الرغم من أنه لم يكن هناك أي سبب كي تستخدمه اليوم. لا أعرف السبب بالضبط؛ لكنني شعرت أن الأمر غريب.

في السَّادسة، أحضرت "ماري" الصينية إلى المطبخ. نظر "بوبي" بينما تحضرها "ماري" ورفع حاجبيه. أومأت له مرَّة فنظر للأسفل مجددًا. بعد خمس عشرة دقيقة، نهض وأخبرني أن أكون جاهزة في تمام السابعة. نظرت إلى "ماري" وكذلك نظرت هي إليَّ. قالت: "عليكِ أن تنظفي الصحون قبل رحيلك".

في تمام السابعة كنت جاهزة. تركت غرفتي وقابلت "بوبي" في الممر. كان واقفًا دون حراك، وكان النصف الأعلى من جسده مُنحنيًا تجاه غرفة أُمِّه. وضع إصبعه على شفتيه فتوقفت واستمعت أيضًا. لم يكن هناك أي شيء، فقط الصمت. أشار إليَّ لأمشي في الممر، وحتى الباب الأمامي وأخرج منه. نظرت باتجاه المطبخ؛ لكن الباب كان مغلقًا. في الخارج، كان الهواء منعشًا وشعرت به يغمرني واضطررت أن أحبس دموعي. شعرت كأنما كانت الشوارع والرصيف، وحتى المنازل المجاورة والمقابلة لنا جزء من عالم مختلف لم أعد أنتمي إليه.

كان بإمكاني أن أسمع الموسيقى قبل حتى أن نصل إلى الملهى. كانت تناديني، تتوسَّل إليَّ أن آتي وأرقص وأترك كآبة المنزل خلف ظهري لعدة ساعات فقط. في الداخل سألني "بوبي" إذا كنت أرغب في شراب، شراب ملائم، شيء كحولي. قلت وأنا أشعر بالإثارة: "جين وماء الصودا".

أومأ لي ثم عاد بعد قليل ومعه ما طلبته وفي اليد الأخرى كأس ويسكي وماء الصودا من أجله. وصل بعض أصدقائه وانضموا إلينا. شعرت بالخجل في البداية، حيث بدت عليهم

المفاجأة عند رؤيته مع امرأة غير زوجته؛ لكنه قدَّمني إليهم بطريقة صحيحة كزوجة أخيه، أرملة "تيموثي"، وكان هناك جمل التعازي الملائمة منهم وشكري لهم. حاولت أن أبدو على وشك البكاء قليلًا؛ لكن لم أتمكن من فعل ذلك. شعرت بأنني مخادعة ومزيفة، ولم تكن المرَّة الأولى، وكنت مقتنعة بأن الآخرين رأوا ذلك أيضًا ولم يصدقوني.

خلال أحداث الليلة، كنت أنظر إلى "بوبي" بين الحين والآخر، أرى وجهه الحزين الجميل، وشعرت بالأسف لأجله، فهو يجلس هنا بصحبة رجال في عُمره نفسه، وسط الموسيقى والضحك ودخان السجائر، مكتسبًا ثقة من نوع معين. استرخى في كرسيه وتكلم، لا، ليس فقط تكلم؛ بل تجاذب أطراف الحديث، شيء لم أره يفعله في المنزل. كانت إحدى يديه تعبث بتوتر بحافة الطاولة، وكان ينقر بقدمه أسرع قليلًا من إيقاع الموسيقى؛ لكن عينيه فقدتا تلك النظرة الغاضبة المتطلبة التي غالبًا ما ينظر بها، ورأيت لمحة مما يمكن أن يكون، بل ما كان قبل موت "تيموثي"، وقبل الحرب.

قضيت وقتًا رائعًا. رقصت مع أربعة أو خمسة رجال مختلفين من رقصة "الجيترباج"، وحتى "الفالس" الهادئ. كم كان من الرائع الشعور برجل قريب منِّي، أن يحيطني أحدهم بذراعيه، حتى لو كان لمدة قصيرة، والشعور مُجدَّدًا بذلك الإحساس بالحياة، متجسدة ودافئة فقط على بعد نبضة قلب منِّي.

في العاشرة، نظر "بوبي" إليَّ ونقر على ساعته ثم أطفأ سيجارته. لاحظت أنه قد دخن نصفها وتساءلت عن سبب العجلة. نهض فجأة وتمنَّى للجميع ليلة سعيدة. اضطررت إلى المشي بسُرعة كي أتمكن من اللحاق به وهو بالكاد ترك الباب مفتوحًا من أجلي كي أخرج. بمُجرَّد أن خرجنا أبطأ سرعته قليلًا، بدا كأن هواء الليل هدَّأه بعض الشيء. بينما كنا في

منتصف الطريق إلى المنزل حاولت أن أجري معه حديثًا؛ لكن كان ذلك صعبًا ورسميًّا. قلت: "لقد استمتعت كثيرًا الليلة".

لم يجبني، فقلت: كان من اللطيف أن أبتعد عن المنزل، ومن اللطيف أيضًا أن أرقص".

نظر إليّ نظرة جانبية، وقال: "لن نتمكن من فعل ذلك كل أسبوع".

كان ذلك تحذيرًا، علامة من أجلي كي أصمت. أجبته: "أعرف ذلك، لم أكن أتوقع أن نفعل ذلك. كل ما في الأمر أنني فكَّرت في أن أقول شيئًا. كان ذلك لطيفًا وقد قضيت وقتًا جميلًا".

تمكن من أن يبتسم ابتسامة مستسلمة ومفتعلة بعض الشيء، وقال: "أنا لا أذهب هناك كثيرًا. لا أملك المال الكافي. أتمنى لو كان بإمكاني أن أقدم لكِ شرابًا آخر".

لقد قدم لي واحدًا فقط؛ لكنني تناولته خلال الليلة بأكملها، قلت بهدوء: "ليس هناك مشكلة، إن ما أحبه هو الرقص".. "لاحظت ذلك".

توقف ثم أكمل: "أنا لا أحب الرقص".. "هل حاولت من قبل؟".

رفع حاجبيه وضم شفته السفلى على شفته العليا، وقال: "ذات مرَّة، وكرهته".. "يمكنني أن أعلمك".

هزَّ رأسه قائلًا: "لا".

قلت بإصرار: "لِمَ لا؟".. "قلت لكِ، لست مهتمًا".. "لأنك تظن أنك لست بارعًا فيه".. "أظن ذلك".

توقفت، وأكمل هو سيره لعدة خطوات قبل أن يكتشف أنني لم أعد بجواره، فنظر للخلف. مددت له يديّ، قلت بسُخرية: "هل تسمح لي بالرقص معك؟".

التفت وأكمل سيره فجريت كي ألحق به، قلت بدلال: "هلم يا "بوبي"، لا تكن جادًّا للغاية هكذا".

قال وقد شعرت بنبرة وقاحة تدخل صوته: "انسي الأمر".

قلت بحدة: "لماذا؟ لا يوجد أحد حولنا. نحن بمفردنا...".

صرخ فجأة وهو يتلفت إليَّ: "قلت لا! لا أريد الرقص هنا أو هناك أو في أي مكان!".

حملقتُ فيه بذهول فالتفت في إحراج وأكمل سيره وأضاف بهدوء: "ونحن لسنا بمفردنا أبدًا، ليس في هذا المكان".. "ماذا تعني بذلك؟".

هزَّ رأسه ولم يجبني.

وصلنا إلى المنزل، والذي بدا إلينا مظلمًا ومنذرًا؛ لم يكن هناك أي ضوء مفتوح. قال وهو يجلس في البلكونة ويشعل سيجارة: "فلتدخلي".

ترددت، فلوَّح لي بيده كي أدخل. كانت عيناه تتلألآن بالدموع. نفذت أمره كي أعفيه من الحرج. مشيت ببطء في الممر المظلم وأغلقت باب غرفتي من خلفي. دخل الغرفة ضوء مصباح من الشارع من خلال النافذة وأنا أبدل ملابسي وأصعد على السرير. بعد خمس عشرة دقيقة سمعت الباب الأمامي يُفتح مجددًا.

نادت السيدة "بروتون" من غرفتها: "بوبي"!

توقف صوت خطوات الأقدام في الممر، وسمعته يجيبها: "إنه أنا يا أُمِّي، ظننت أنني سمعت صوتًا بالخارج".

لم يكن هناك رد، فقط الصوت الناعم لإغلاق باب وصرير دعامات السرير".

(10)

في المساء التالي، أتى "مارك" ومعه عدة أقراص "دي في دي" ووجبات طعام صيني وقال وهو يُقبِّلني:

- كي لا تضطرين إلى الطهي مجددًا.

في المطبخ وأنا في انتظار "المايكروويف" كي يصفر معلنًا عن انتهاء تسخين الطعام، أرسلت لـ"ماندي" رسالة نصية أقول لها فيها: "أين أنتِ؟".

كانت في "ذا ليوباردز سبوت" وهو بار جنوب أفريقي في "إيلينج". قلت لـ"مارك" الذي كان مستريحًا على الكنبة وممسكًا بجهاز تحكم التليفزيون في يده اليمنى:

- سأخرج قليلًا، إنها "ماندي". تريدني أن أقابلها في مكان ما.

بدا محبطًا، وقال:

- هل الأمر عاجل؟ إن الجو بارد في الخارج.

أجبته بحدة بعض الشيء:

- إن الجو بارد دائمًا في الخارج، لن أتأخر. طعامك جاهز.

هكذا وجدت نفسي هناك في تلك الليلة. كان البار ممتلئًا برجال جنوب أفريقيين مرتدين زي فريق "سبرينج بوك" ويشربون بيرة "كاسيل" ويرقصون على أغاني "جوني كليج".

نحن شذرات "أفريقيا" التي انتقلت في رحلة إلى النجوم تاركة الأرض وحالة بما كنَّاه يومًا.

كانت "ماندي" والآخرون يشربون كثيراً منذ أن غادروا شقتها، حيث شربوا كثيراً من "الأمارولا" وعدة كؤوس بيرة. كانوا يجلسون يحكون عدة قصص من وطنهم وهم يتشاركون طبق بطاطس، مستغرقين في الحنين إلى الذكريات بالطريقة العاطفية التي يولدها الشراب. الأشياء التي لم تعنِ شيئًا في حياة الشخص في "أفريقيا" أصبحت مغلفة بإحساس ما من العبقرية. تولد زجاجات "الزامبيزي" و"الكاسيل" شعورًا بالفخر داخل الشخص الذي يشربهم؛ تناول اللحم الجاف مصاحب له صرخات الفرح والارتياح. رشفة من البيرة بإمكانها أن تُعيد الشخص إلى "هاراري" أو "بولاوايو" أو النهر ويكاد الشخص يشعر بأشعَّة الشمس على وجهه. "صُنِع في أفريقيا". "إنني ألمس أفريقيا". إنها أقرب ما يمكنني الحصول عليه، لقد كرهتها، وعلى الرغم من ذلك فقد شربت، كرهتها وعلى الرغم من ذلك فقد ضحكت على كل الدعابات ودعوتهم على جولة أخرى من الشراب. كرهت نفسي لأنني استسلمت. توقفت عن السباحة عكس التيار وتركت المياه تغمرني.

لا أتذكَّر الكثير بعد ذلك باستثناء حملهم لي كي أركب التاكسي ثم توقفه بعد ذلك وطرد السائق لنا لأنني تقيَّأت على الكرسي. حاولت أن أقول:

- أنا آسفة، أنا آسفة.

لكن كانت الكلمات ثقيلة وخرقاء في فمي. حاولت أن أضيف قائلة:

- يبدو أنه شيء ما أكلته.

ضحكت "ماندي"، وقالت:

- تصرف نموذجي من "إيلي"، إنه ليس خطأك.

ساعدتني "ماندي" على الصعود لشقتها، التي كانت لا تزال تتشارك فيها مع سبعة أشخاص آخرين. ساعدني شخص ما بخلع بنطلوني، ثم استلقائي

على السرير. تساءلت لوهلة عما إذا كانت الملاءة نظيفة وسرير مَن كان هذا؛ لكن هذه المرَّة لم أهتم كثيرًا.

غادر الجميع الحجرة وبقيت أنا وسط برودها الساكن. استدرت لأنام على جانبي وأنا أشعر بالفتور وثِقَل الألم. شعرت حينها بحاجة شديدة للتقيؤ، دارت الغرفة من حولي، بينما امتلأ فمي بطعم الملح. تشبثت بأغطية السرير ومع ذلك شعرت بأنني غير قادرة على السيطرة على نفسي. كان هناك شيء ما يثقلني، شعرت بقوة ما من الأعلى تضغط على صدري. عندما أغلقت عينيَّ، انجذبت إلى الأسفل. إلى الأسفل، أسفل عبر الظلام، تلك الهاوية السوداء الضخمة الموجودة بداخلي، كهف دون قاعٍ بداخلي.

عدت إلى السطح مجددًا، كان الأمر شبيهًا بما يحدث عند السباحة للوصول إلى سطح حمَّام السباحة، الاختراق عبر سطح المياه، والكفاح للتنفس، ثم الوصول إلى السطح.

بينما أفتح عينيَّ، بدا أن نور الغرفة اكتسب بعض الحدة. كان هناك شيء مشؤوم حوله، كأنه ضوء غرفة عمليات، ثم تقيَّأت بشدة، لم أتمكن من إيقاف الأمر، لهثت لالتقاط أنفاسي؛ لكن لم تسمح لي معدتي بذلك. شعرت بأن كل شيء أكلته وشربته أصبح أمامي، ملقى على الأرضية وملاءة السرير وملابسي، حتى لم يعد هناك أي شيء أتقيؤه، ومع ذلك شعرت بأن جسدي أراد التخلص من كل جزء منِّي كأنني مريضة. هل كانت هذه هي الطريقة التي سأموت بها؟ أتخلى عن نفسي عن طريق التقيؤ؟ كل كراهيتي وحقدي متناثرين أمامي وعليَّ. هل سأغرق في بحر من التقيؤ؟ انتهى التقيؤ بالعنف نفسه الذي بدأ به، تاركًا إياي حية ومنقطعة الأنفاس. كان هناك دم على شفتيَّ وذقني؛ لكن الغرفة توقفت عن الدوران وبدت أكثر ثباتًا. نمت بعد ذلك لفترة طويلة وعندما استيقظت كانت الغرفة مظلمة تمامًا وهادئة. قمت في تعب واستحممت، ثم نزعت الملاءة واللحاف عن السرير ورقدت على المرتبة العارية. نمت مجددًا، هذه المرة نمت حتى الصباح.

(11)

"25 أبريل 1946،

لقد وصلني خبر مُروِّع. وصلت برقية هـذا الصـباح تقـول إن أبي قـد مـات. تعـرض لأزمـة قلبيـة منـذ يـومين. تركنـي الجميـع لحـزني، نـاظرين إليَّ بـأعين منخفضة؛ لكن دون أن يقولـوا أي شيء. تمكـن "بـوبي" مـن قـول إنـه "آسـف"، واعتصرت "ماري" كتفي وأعطتني ملء ملعقة زائدًا من الحسـاء هـذا الصـباح. وصـلت الأخبـار للسـيدة "بروتـون" عنـدما كانـت في غرفتهـا، وعنـدما نزلـت، أعطتني إيماءة برأسها؛ لكنها لم تقل شيئًا إلى أن كنت أغسـل الصـحون، سألتني فجأة: "ماذا كان السبب؟ قلبه؟".. "نعم".

خرجت الكلمة من حلقي بصفير، مقتربة للغاية من دموعي. أومأت لي ثـم ذهبت في طريقها. هل كنت أتوقع أي شيء أكثر من هذا؟

ذهبت إلى الكنيسة بعد أن أنهيت عملي الصباحي. لم تنظر "ماري" ناحيتي عندما أخبرتها أين كنت ذاهبة. كانت منحنية على يديها وركبتيها تنظف السلم الخلفي، قالت: "خذي وقتك، يمكنني أن أقوم بكل شيء هنا".

كانت الكنيسة تُشعرني بشعور مختلف بسبب أنه لم يكن يوم أحد، نوع آخر من الهدوء، هدوء لا يتوقع الشخص أن يعكـره أي شيء. لـيس بإمكـاني توضـيح شـعوري

بالحرية الذي أشعر به كل مرَّة أدخل الكنيسة، كيف أن الجو العام بأكمله مختلف. اليوم بالذات بدت مرحبة بي أكثر من أي وقت آخر.

جلست وصليت لمدة طويلة. تراقص الغبار في أشعَّة الشمس. على الرغم من أن الجو يبرد شيئًا فشيئًا مؤخرًا وأخبروني أن "الشتاء في طريقه إلينا"، فإنني لم أشعر بأن الجو بارد مثلما يشعر به "الروديسيون". أصبحت السيدة "بروتون" ترتدي سُترة صوفية بنية اللون و"بوبي" يرتدي قميصًا صوفيًّا في الصباح الباكر.

أزعجني فجأة رجلان أفارقة يرتديان ثياب العمل ويمشيان باتجاه المذبح، ويتحدثان بصوت عالٍ للغاية. عندما لاحظا وجودي، صمتا فجأة.

قالا وهما يخلعان قُبَّعيتهما: "صباح الخير يا سيدتي".. "صباح الخير".

قال أطولهما: "أتمنى أننا لا نسبب لكِ أي إزعاج، علينا أن نأخذ بعض القياسات".

لاحظت حينها أنه يحمل في يده شريط قياس وفي الأخرى مفكرة وقلم رصاص، قلت: "حسنًا، لا تعيراني أي اهتمام".

لكن يبدو أنهما لم يفهماني وظلا واقفين في مكانهما ينظران لأيديهما كأنما يتم تأنيبهما، فقلت: "فلتكملا عملكما، لا بأس، تفضلا".

قالا في الوقت نفسه: "شكرًا لكِ".

ثم اتجها في طريقيهما إلى مقدمة صحن الكنيسة، حيث بدآ بقياس جزء من الحائط. ظهر حينها رجل أبيض. أظن أنه كان في أوَّل الثلاثينيات، وقد بدأ الصلع يظهر على رأسه. كان يبدو واثقًا من نفسه. لم يكن متعجرفًا؛ لم يكن ما يظهره هو خُيلاء؛ بل قوة، شيء ما يقول إن بإمكانه مواجهة العالم. لم يرَني؛ لكنه سار باتجاه المذبح وتحدث مع الرجلين

الأفريقيين. كان صوته أعلى من صوتيهما وبدا كأنه يعطيهما أوامر؛ لكـن فجـأة ضحك أحدهم ثم ضحكوا جميعًا. يبدو أنه أخبرهم شيئًا مرحًا.

تذكر أحد العاملين الأفارقة وجودي فأشار للآخـرين بـأن يخفضا صـوتيهما. حينها التفت الرجل الأبيض ورآني، رفع يديه باعتذار ثـم توجَّـه نـاحيتي، وقـال: "صباح الخير".

كان صوته أكثر صوت أنيـق سـمعته في حيـاتي، باسـتثناء الملـك أثنـاء إلقـاء خطاباته في الراديو. قال وهو يمد إليَّ يده: "كادوالادار لويد".

صافحته وقلت: "إيفيلين.. سوندرز".. "أعتذر لكِ بشدة على الإزعـاج، لكننـا نأخذ بعض المقاسات من أجل نصب تذكاري. يمكننا العودة فـيما بعـد لـو أنـك تفضلين ذلك.. إنه من غير المتوقع أن نرى أحدًا هنا في صباح يوم الإثنين".

كان لديه أجمل عينين زرقاوين، مثل لون البحر عـلى سـاحل جنـوب غـرب أفريقيا. كان لديه وجه نزيه ومبهج، وجه رجل ليس لديه ما يخفيه. قلـت: "لا، لا".

أصررت على أن يكملوا عملهم. لم أتمكن من إخباره بالطبع كـم مـن الرائـع رؤية أشخاص آخرين، لمعرفة أن العـالم لم ينتـهِ في مكـان آخـر، بـل بقـي، يحيـا ويموت كل يوم.

كان العاملان يقفان كما هما، في انتظار الأوامر من هذا الرجل، "كـادوالادار لويد" الذي التفت وأشار إليهما كي يكملا، وقال لي مؤكدًا: "لن يطول الأمر".

التفت وكان يتهيأ للعودة إلـيهما عنـدما سـألته: "هـل هـو نصـب تـذكاري للحرب؟".. "نعم، سيضعون واحدًا كبيرًا في الكاتدرائية؛ لكنهم طلبوا وضـع آخـر هنا أيضًا؛ لكنه أصغر بالطبع. قد يكون مجرد نقش. قد يكتبون شيئًا مثل عديد من الزهور تولد وتزدهر في الخفاء وتضيع حلاوتها على هواء الصحراء، أو شـيئًا شاعريًّا مثل هذا".. "هذا جميل".

سألته إن كان بإمكاني أن أدونه، وهـو مـا فعلتـه في مفكـرتي الصـغيرة. مـن الواضح أنه من تأليف شاعر يدعى "توماس جـراي". سـألني فجـأة: "هـل أنـتِ بخير؟".

أعتقد أن وجهي كان منتفخًا من البكاء. أخبرته أنني تلقيـت أخبـارًا سـيئة، موت أبي، قال: "يا إلهي، إن هذا خبر سيئ للغاية، أليس كذلك؟ أين تعيشين؟".

نظر نظرة خاطفة إلى يدي اليُسرى، وأكمل: "هل تعيشين مع أحد؟".

عند هذه اللحظة انهمرت في البكاء، لم أهتم، لم أتمكن من التفكير بوضـوح. لم أشعر من قبل أبدًا بهذا الفراغ في حياتي، وأتمنى ألا أشـعر بـه مجـددًا. أخـرج منديلًا كبيرًا وقدمه لي فأخذته شاكرة، قال: "سأعود بعد لحظات".

ذهب إلى العمال، قال لهما شيئًا فوضعا شريط القياس، وخرجا بهـدوء مـن الكنيسة وهما يتجنبان النظر إليَّ في تفهُّم.

"لقد أرسلتهما لتناول الغداء مبكرًا".. "أنا آسفة للغاية".

قاطع اعتذاري وجلس بجانبي، وسألني: "من أين أنتِ؟".

وكانت هـذه هـي البدايـة، تبعتهـا القصـة بأكملهـا. "تيمـوثي" وأبي وعائلـة "بروتون"، حتى أنني أخبرته عن ملهى "إيس أوف سبيدس" (حيث رفع حاجبيه عندما قلت ذلك!) وحادثة الغرفة الأمامية. كل شيء.

قال عندما انتهيت: "يا إلهي".

لم يقل شيئًا بعد ذلك، لم يقل أي شيء لفترة طويلـة. في الواقـع لقـد جلسـنا لمدة طويلة في صمت لدرجـة أننـي فكَّـرت في أنـه قـد يكـون يفكِّـر في طريقـة يختلـق بهـا عـذرًا ليهـرب منِّـي ومـن قصـتي الغريبـة، لـذا قـررت أن أسـاعده فنهضت. بادرت بالقول: "لقد كنت لطيفًا للغاية معي".

وبدأ هو أيضًا بشكل ملحوظ قائلًا: "يا لـلـهول، لا، لا تـرحلي يـا "إيفيلـين"، اجلسي. في الواقع، لا، هل ترغبين في تناول بعـض الشـاي؟ لـدي الـبعض منـه في زجاجة. وساندويتشات أيضًا، سردين".

قبلت عرضه، وأثناء جلوسي هناك في هدوء الكنيسة وتنـاول ساندويتشـات السردين وشرب كوب الشـاي الثقيـل، شـعرت بثِقَـل العـالم يخـف عنّـي بعـض الشيء. فكّرت أنني وجدت لنفسي صديقًا ".

"27 أبريل 1946،

قبل مغادرتي، دعاني "كادوالادار" لتناول العشـاء معـه هـو وزوجتـه في عُطلـة نهاية الأسبوع، يوم السبت. لم أظن أن بإمكاني فعل ذلـك. هـل ستسـمح لي عائلـة "بروتون" بذلك؟ قال لي: "أخبريهم بأنني عمُّك".. "عمِّـي؟".. "نعـم، أخـبريهم أننـي أحد أقربائك البعيدين الذي يعيش أيضًا في المستعمرة، وقد اتصلت بكِ بعـد وفـاة أبيك. شخص لم تريه من قبل".. "كيف تقابلنا إذًا؟".. "سأكتب لكِ خطابًـا. أعطينـي عنوانك وسأكتب لكِ خطابًا".

شعرت بدفعة من الحماس فقلت: "موافقة، سأنتظر خطابك.

وصل الخطاب هذا الصباح. حملته "مـاري" إلى الـداخل، وهـي تنظـر عـلى ظهره قبل أن تعطيه لي. قالت: "البريد، محلي".

كأنني أتسلَّم بريدًا يوميًّا. تظاهرت بالمفاجأة، أعتقد أنني لم أكـن بارعـة في الأمر تمامًا، وقلت كـأنني شخصـية في مسرحيـة إيمائيـة: "حقًّـا؟ مَـن قـد يكـون هذا؟".

قرأته عدة مرَّات قبل أن أقول مُعلنة: "إنه من عمِّي كادوالادار".

لم يقُل أحد شيئًا.

"إنه يدعوني للعشاء ليلة السبت".

ظلوا دون أي كلام.

"يقول إنه سيأتي لاصطحابي".

لا شيء أيضًا، قلت وأنا أنهض وأدفع بشعري للخلف: "حسنًا، إن هذا لطيف منه، يجب عليَّ أن أكتب ردًّا لإرساله".

أتمنَّى فقط أن يسمحوا لي بالذهاب.

"1 مايو 1946،

لم أشعر قبل ذلك قط بأن هناك شخصًا لا يحبني بهذه الحدة، ولا أقصد السيدة "بروتون"؛ بل أقصد زوجة "كادوالادار". في الواقع، إن كل شيء يسير بشكل جيد مع عائلة "بروتون". أخبرتهم مُجدَّدًا أنني سأذهب، وكنت ممسكة بالخطاب لأريهم إياه لو أن أحدهم سألني؛ لكن لم يفعل ذلك أيٌّ منهم. أتى "كادوالادار" لاصطحابي، كان "بوبي" يجلس في البلكونة يدخن عندما رحلنا. أعتقد أنه كان يحسد "كادوالادار" على سيارته، والتي كانت كبيرة وجديدة ولامعة. قلت ونحن ننزل على السلم: "ليلة سعيدة".

قال "بوبي": "نعم، ليلة سعيدة".

يمكنني تحمُّل وقاحة "بوبي"؛ إن منشأها هو تعقيد بداخله حول نفسه، أما عن وقاحة السيدة "بروتون" والوقاحة التي تعرضت لها الليلة الماضية من السيدة "لويد" شيئًا آخر.

السيدة "لويد"، التي لم أعرف لها اسمًا آخر أناديها به، كانت في المطبخ عند وصولي، حيث كانت تشرف على الطهي. أدخلني "كادوالادار" إلى صالة كبيرة وقدم لي نبيذًا. كنت مندهشة من روعة المكان. إنه مُؤثَّث بشكل جميل للغاية ومُصمَّم بخليط من الفن الأوروبي والأفريقي. الكنب والكراسي مغطاة بكتان "ساندرسون" رائع، ذي لون كريمي، من نفس خامات ستائر الأبواب الفرنسية، والتي تقود إلى منطقة خارجية، حيث رأيت فيها كراسي أكثر وترابيزة. رأيت ثريا كريستالية وسجادة جميلة على الأرض وعربة مشروبات ضخمة، عليها دلو الثلج والملقط. كم ابتهج قلبي عند رؤية مثل هذه المدنية بعد أن كنت في الصحراء لمدة طويلة!

سألت عن عمل "كادوالادار"، وأخبرني أنه مهندس ويعمل لصالح شركة تدعى "ستوتون وجيمس". في هذا الوقت يعمل على النصب التذكاري؛ لكن هناك أيضًا كمية هائلة من المباني قيد التنفيذ في المستعمرة.

"إنها تتوسع. تشجع الحكومة البريطانية الناس على الانتقال إلى هنا، ولِمَ لا؟ كل شيء يوجد هنا، الخدم، والشمس و..."، "الخمر".

أتت الكلمة من صوت عند المدخل فالتفت ورأيت السيدة "لويد" لأول مرَّة. إنها امرأة طويلة ذات شعر أشقر، من نوع النساء التي يمكنها أن تكون جميلة للغاية لو أنها وضعت بعض مساحيق التجميل وأضافت تجعيدة لشعرها، حيث إنه مستقيم تمامًا، ودون أي حياة.

قالت وهي تدخل وتأخذ الكوب الذي قدمه لها "كادوالادار" قبل جلوسها: "السماء الزرقاء والخمر، هذا هو الموجود هنا فقط".

ظل هو واقفًا بجانب عربة الشراب، أخذت رشفة من الويسكي، ثم أعادته له وهي تهزُّ رأسها قائلة: "أقوى من اللازم يا عزيزي".

ثم التفتت إليَّ وقالت: "نحن متزوجان منذ سنوات كثيرة ولا يزال يخطئ في إعداده".

قلت مداعبة: "هذه هي طبيعة الزواج، أليس كذلك؟ أليس حقيقيًّا أن معظم الأزواج لا يعرفون طعام زوجاتهم المفضل؟".

قالت وهي تنظر إليَّ من فوق حافة كأسها: "حقًّا؟".

لم أعرف ماذا أقول فحاول "كادوالادار" حينها أن يلقي دعابة بأن هذا الأمر يسري على الطرفين معًا. الكثير من النساء لا يعرفن أي شيء عن أزواجهن، وإلا لماذا يحُكن من أجلهم القميص الصوفي الكريه نفسه كل عام، أو يقدمن لهم الجوارب السيئة نفسها في الكريسماس.

قال وهي تنطق كل كلمة بسخرية واهنة: "لقد نسيت أنني لا أحيك، كما أنني لم أقدم لك جوارب من قبل قط، أليس كذلك؟".

مرَّ صمت محرج ثم سألتني ماذا أحب أن أفعل كهواية، أجبتها قائلة: "القراءة".

قالت وهي تحملق فيَّ، وكانت نبرة صوتها لا تخلو من الإحباط: "حقًّا؟".

ثم أكملت وكأن الأمر يتطلب منها مجهودًا كبيرًا: "ما نوع كتبك المفضلة؟".. "الجريمة".

نظرت لي نظرة ساخرة، وقالت: "لدينا محقق بيننا يا والي".

قال: "إنني أحب أن أقرأ رواية جريمة جيدة، مثل روايات "أجاثا" مثلًا. لا أتذكَّر اسمها الثاني".

قلت: "كريستي".

فرمقتني بتلك النظرة مجددًا، تلك النظرة التي تحاول أن تلتهمني وتهضمني ببطء قبل أن تبصقني. قالت فجأة وهي تنظر في ساعتها: "لقد تأخرت عائلة بانفورد".

أجابها وهو يرشف شرابه: "سيصلون بعد قليل".. "لا يهم إن كانوا سيصلون قريبًا أم لا.. الفكرة هي أنهم قد تأخروا".

هزَّ "كادوالادار" كتفيه، سألني: "هل تريدين شرابًا آخر؟".

كانت نبرته معي أرق من نبرته معها، هي أيضًا لاحظت ذلك. كنت على وشك أن أشكره على الرغم من أن كأسي لا تزال ممتلئة حتى ربعها تقريبًا عندما قاطعتني، وقالت: "بحق الله، دع الفتاة تُنهِ شرابها".

لم أكن مُستريحة بسبب مثل هذه الحدة. لم يكن أبواي من النوع الذي يتشاجر أمام الناس؛ في الواقع لطالما اعتقدت أنها طريقة سيئة للشجار. لهذا كنت سعيدة عندما وصلت عائلة "بانفورد".

كانت باقي الليلة شبيهة لما حدث. ظلت تقاطع وتناقض وتصحح كل ما يقوله، وتجنبها هو عن طريق المزاح. انشغلت السيدة "لويد" مع عائلة "بانفورد" لما تبقى من الليلة، وظلت تنظر إليَّ نظرات خاطفة بين الحين والآخر ولا تسألني إن كنت أريد كأسًا أخرى حينما تسأل الباقين. قدم لنا خادم أفريقي الطعام، وقد كان مكونًا من حساء عيش الغراب، ولحم حمل مشوي، وخضراوات وكيكة. عند نهاية الطبق الأول، كنت سأجمع أوعية الحساء، عندما قام "كادوالادار" الذي كان يجلس على رأس الطاولة على يميني، بمسك ذراعي وإيقافي. تبادلت السيدة "لويد" والسيدة "بانفورد" النظرات. لم أدرك أن على الخادم أيضًا أن يخلي الطاولة. شعرت بالحرج تمامًا. لم أعرف أشخاصًا قط لديهم خدم.

بعد الوجبة جلسنا مُجدَّدًا في الصالة، وكان هناك مزيد من الشراب؛ لكنني رفضت. قال "كادوالادار": "هيا، كأس واحدة".

قالت السيدة "لويد": "لو أنها لا تريده فلتتركها كما تشاء".

قلت بصوت قوي وجريء: "سآخذها، شكرًا لك، هذا لطيف منك جدًّا".

رمقوني جميعًا لمدة طويلة.

قبل أن يوصلني "كادوالادار" إلى المنزل، دارت بينه وبين زوجته محادثة حامية؛ ولكن بصوت منخفض في الممر. لم أتمكن من سماع ما كانا يقولانه.

قالت لي وأنا في طريقي للرحيل: "تعالي في أي وقت".

لكن صوتها كان مُحايدًا، ودون أي تعبير، وبدت كأنها تنظر خلف كتفي وهي تتحدث، قلت: "أشكرك".

وأردت أن أضيف: "لكن من غير المحتمل أن أفعل".

سألت "كادوالادار" في السيارة ونحن في طريقنا إلى المنزل: "هل لدى الجميع خدم؟".. "بالطبع، لماذا؟ أليس لديكم خدم؟".. "لا".. "أنت لا تقومين بخدمتهم بنفسك، أليس كذلك؟".. "بلى، مع "ماري". تقوم هي بمعظم الأشياء".. "يا إلهي".

داخل المطبخ، رأيت "ماري" نائمة على كرسي و"كولين" على كتفها. ظننت أن "بوبي" سيكون نائمًا؛ لكنه دخل من الباب الأمامي بعد دخولي بقليل. ألقى بسيجارته إلى الخارج وسط الليل وأغلق الباب دون كلمة. همست قائلة: "هل حظيت بليلة سعيدة؟".

قال وهو يخلع حذاءه: "لا بأس".

قلت وأنا أتجه لغرفتي: "تصبح على خير".

لكن لم يكن هناك رد".

(12)

"10 مايو 1946،

تلقَّيتُ خطابًا من "كادوالادار" بعد عدة أسابيع. طلب منِّي فيه أن أقابله في الكنيسة. أخبرت "ماري" عن وجهتي، على الرغم من أنني لم أذكر من سأقابل، فإنها أومأت فقط. لم أكن قد أنهيت جميع أعمالي؛ لكنني أخبرتها إنني سأنهيهم عندما أعود.

كان "كادوالادار" يتحدث مع العاملين الأفريقيين عندما وصلت ولوَّح لي وهو يكمل توضيح شيئًا ما لهما. جلست في المقعد الأمامي وتصفحت كتاب أناشيد أثناء انتظاري. وقعت عيناي على نشيد "أتعهد" و"أنت بلدي"، الذي أنشدناه كثيرًا في مدرسة يوم الأحد في طفولتي. لا أعلم إن كان يمكنني أن أغنيه هنا. لا أشعر بأي شيء، ليس بعد على كل حال، وأشك أنني سأبقى في هذا البلد لأكثر من نهاية العام.

عندما أتى "كادوالادار"، كان مبتسمًا كأنما كان لديه شيء ما يقدمه لي. قال بعد أن تبادلنا التحية: "لقد كنت أفكِّر يا "إيفيلين" بأن سبب دعوتي لكِ هنا اليوم هو أن ليلة أمس جاءتني فكرة رائعة. استمعي لي الآن".

أغلقت كتاب الأناشيد ووضعته في مكانه، فأكمل: "كما تعلمين، فأنا أعمل في شركة هندسة معمارية تدعى "ستوتون وجيمس". لدينا مكتب في "بولاوايو"، وهي مدينة في جنوب المستعمرة، لا بد أنك مررتِ بها في طريقك إلى هنا".

أومأت له، فقال: "حسنًا، لقد قمت ببعض الاستعلامات وعرفت أنهم يبحثون عن سكرتيرة".

كدت أقول شيئًا؛ لكنه رفع يده وقال: "دعيني أكمل. لقد خططت للأمر بأكمله، يمكنني أن أجد لكِ إقامة هناك، لن تكون مميزة؛ ولكن في متناول يدك، ربما في بنسيون. سأعطيكِ المال من أجل القطار وسأتفق مع أحد ما كي يقابلكِ هناك. يمكنك أن تبدئي العمل في الشهر المقبل".

توقف عن الكلام كي يرى تأثير كلامه. قلت: "عائلة "بروتون".. ".. "لا يمكنك أن تبقي هناك يا "إيفيلين". ليس لبقية حياتك".. "لكن ماذا أخبرهم؟".. "لن تضطري إلى أن تخبريهم أي شيء. أنا عمك، سأتفق على المجيء ومقابلة السيدة "بروتون" وأعبر عن رغبتي في أنك – كقريبتي - ستنتقلين إلى "بولاوايو" لتعملي ولتنفقي على نفسك".

لا أعرف إن كان هذا شيئًا صحيحًا أم لا. أصر "كادوالادار" وسألني إن كنت حقًّا أرغب في البقاء هنا أكثر من هذا، ونفيت ذلك بالطبع فقال: "الأمر محسوم إذًا. سآتي لرؤية السيدة بروتون".

"11 مايو 1946،

هذا الصباح استيقظت باكرًا وذهبت لإطعام الدجاج. كنت قد أنهيت لتوّي تنظيف القفص عندما سمعت ضجيجًا على الجهة البعيدة، فذهبت إلى الخلف، وتفاجأت كثيرًا

عند رؤية "ماري" تجلس هناك. كنت متفاجئة أكثر حيث وجدتها تدخن سيجارة. حملقت فيَّ بهدوء عندما رأتني، وكان فمها نصف مفتوح، فأغلقته وهزَّت كتفيها ونظرت بعيدًا. ليس هناك فائدة من أن تحاول اختلاق عذر عندما تُضبط متلبسًا. كانت تجلس على قفص مقلوب، وظهرها مستندًا على سلك قفص الدجاج، وهي مغمضة العينين قليلًا بسبب وهج شمس الصباح. لا أظن أنها تقضي كثيرًا من الوقت في الخارج. قلت: "مرحبًا".

أخذت نَفَسًا طويلًا من السيجارة، ثم أطلقته، وأومأت لي برأسها، وقالت: "صباح الخير".. "هل تمانعين إن انضممت إليكِ؟".

هزَّت رأسها في نفي، وتحركت إلى جانبها قليلًا كي أجلس بجانبها وقدمت إليَّ السيجارة. لم يكن ذلك ما قصدته بالضبط؛ لكنني أخذتها على أي حال ودخنتها بعمق ونفثت دخانًا أزرقَ ثقيلًا. تفاجأت من أنني لم أسعل؛ لكن شعرت بضيق في صدري، ففركته بنعومة. لم تقل إحدانا أي شيء لفترة طويلة. تبادلنا السيجارة بيننا حتى وصلت لنهايتها. أطفأتها "ماري" بمرارة، ثم جلست واضعة يديها مطويتين حول ركبتيها، قالت: "متى سترحلين؟".. "بعد عدة أسابيع".

أومأت وسألتني: "هل أُمِّي موافقة على ذلك؟".. "أعتقد ذلك، مما قاله لي عمي". "إنه أفضل شيء تفعلينه، ستموتين هنا".

أردت أن أقول إنني أعرف ذلك؛ لكن بدا ذلك قاسيًا. سأتمكن من الرحيل بينما ستبقى هي. لم أقل أي شيء وجلسنا لوقت طويل في صمت. قالت فجأة: "إنه ليس عمَّك، أليس كذلك؟".. "نعم، إنه ليس عمِّي".. "إنه متزوج".

تفاجأت كليًّا من الفكرة، فقلت: "إن الأمر ليس كذلك! ليس كذلك على الإطلاق".

أومأت لي باقتضاب ونظرت بعيدًا عنِّي. سألتني: "هل أحببته؟".

مرَّة أخرى فاجأني صوتها الواضح والجريء في هـواء الصباح المتمـوج وهـي تكمل: "تيم، "تيموثي". هل أحببته؟".

في موقف آخر ومكان آخر كنت سأكذب وأقول نعم، نعـم أحببتـه؛ لكننـي شعرت بحاجة إلى الصراحة، ليس مع أي أحـد فحسـب، بـل مـع "مـاري". لقـد أعطتني ثقتها بسماحها لي أن أراها وهي تدخن ولم تراوغني مثل أرنب مرتعب عندما رأيتها خلف القفص، فقلت: "لا، كما أنه لم يحبني أيضًا".

ابتسمت حينها، لـيس بمكـر أو باتهـام؛ بـل بإحسـاس مثـل الراحـة. كانـت ابتسامة مقتضبة، بالكاد ظهرت على ركن فمها للحظة، ثم اختفت، اسـتطردت: "في الحقيقة، لم أكن أعرف عنه الكثير، ربما تكونين تعرفين أكثر منِّي عنه".

كانت ترسم دوائر في الرمال بإصبعها وأنا أتحدث. تجلس بجانبي، وركبتاها أسفل ذقنها، حافية القدمين، وفستانها بين ساقيها، كـان هنـاك شيء مـا طفـولي حولها، كأننا كنا نستريح من لعبة "الحجلـة" والآن بإمكاننـا الوقـوف والمتابعـة. وقع شعرها على وجههـا، ورأيـت للحظـات جمالهـا. أزيحـت السـنوات لـبعض الوقت، ولم تكن هي "ماري" المُكدَّة في عملهـا التـي لا يقـدرها أحـد؛ بـل فتـاة شابة لديها حياة ممتدة أمامها ممتلئة بالوعود.

قالت وهي تلتفت إليَّ وعيناها ممتلئتان بالدموع: "إنه ليس أبيه".

سألت بحماقة: "مَن؟ "بوبي"؟ ماذا تقصدين؟ "كولين" الصغير...؟".

نظرت أمامها إلى السور، كان أحد صناديق البريد يميل إلى جانبه، قالت: "إنـه ابـن تيم".

ذُهلت. شعرت بالغثيان قليلًا بسبب السيجارة فوضعت يـديَّ عـلى وجهـي كي أحاول أن أثبت العالم من حولي.

نظرت إليَّ، وهذه المرَّة كان هناك شعور بالانتصار في عينيها، وقالت: "أنا و"تيم"، كنا نخرج معًا. كان يتدرب هنا في "ساليسبيري"؛ لكننا لم نظن أبدًا أنهم سيحتاجون إليه. كان يعرف الغابة جيدًا".

رفعت أمامي ظهر يدها وأكملت: "أرادوا منه اقتفاء الأثر. يومًا ما كان هنا، والتالي ذهب إلى "إنجلترا".

أومأت برأسها تجاهي كأنه أرسل هناك من أجلي خصيصًا، وقالت: "لقد عاد مرَّة واحدة؛ لكنه كان مختلفًا، غاضبًا؛ لكنه قال إنه سيخرج. سيعود، وسنتزوج...".

انكسر صوتها، ولاذت بالصمت مجددًا، باستثناء صوت تنفسها، إذ إنها كانت تحاول ألا تبكي.

"ثم أرسل إليَّ خطابًا، يقول إنه سيتزوج. قال إنه آسف".

كسرت عصا صغيرة لجزأين وقشرت عنهما اللحاء وهي تكمل: "أرسلت له خطابًا بدوري. أخبرته إنني حامل؛ لكنني لم أتلق أي رسالة. كنت على وشك أن أقتل نفسي، لم أعد أهتم. لم أرد أن أعيش. كان عمِّي، الذي عِشت معه منذ وفاة والديَّ، ليقتلني في كل الأحوال. ثم أتى "بوبي" لمقابلتي. أخبره "تيم" بالأمر. تمشينا معًا واشترى لي آيس كريم. كان مرتديًا بدلة على الرغم من أن الجو كان حارًّا فتسببت في تعرُّقه. جلسنا على مقعد في الحديقة، وفجأة وضع يده على يدي، وقال: "تزوَّجيني"، رفضت في البداية؛ لكننا عدنا سيرًا إلى المنزل وشعرت بأنه لم يكن هناك أي اختيارات أخرى، عدا الموت، فوافقت، ودخل هو إلى المنزل وتحدث مع عمِّي، بينما بقيت أنا في البلكونة. بعد ذلك بأسبوع تزوجنا. أعتقد أنه كان عليَّ أن أتخلص من الطفل؛ لكنني سمعت من فتيات أخريات... عن أمور تسير بشكل خاطئ. لم يكن هناك أي اختيارات أخرى".

جلست بهدوء، وتنفست بعمق. كان كفا يديَّ متعرقتين ورغبت في سيجارة أخرى، فقط كي أفعل شيئًا ما بيديَّ، غامرت بالقول: "و"بوبي"؟ كان ذلك فعلًا نبيلًا منه".

لم أكن مقتنعة بما أقول، وكنت مُحقَّة. ابتسمت "ماري" ابتسامة ساخرة مقتضبة، وقالت: "ألا تعرفين؟ إن "بوبي" لا يحب النساء".

لم أفهم ما عنته في البداية، ثم فهمت بالتدريج. دارت الأفكار في ذهني، ثم أخذت أماكنها الصحيحة تدريجيًا. بدأت أفهم الأمور. قلت بعد توقُّف قصير: "تعالي معي".

ضحكت "ماري" ضحكة قصيرة.

"لا، حقًّا، تعالي معي إلى "بولاوايو". سنختلق قصة. يمكنك أن تكوني أرملة أيضًا.. يمكنك أن تبدئي مجددًا".

التفتت إليَّ بعينين مليئتين بالدموع والهزيمة، وقالت: "لا يمكنني أبدًا أن أبدأ مجددًا، مهما حدث".

أصررت قائلة: "بل يمكنك!".

فهمست: "لا، اذهبي أنتِ، اذهبي بمفردك".

ابتسمت وقالت: "فلتراسليني".

انفجرت قائلة: "ما الذي يحدث هنا بحق الله؟ ماذا يحدث لكم جميعًا؟ السيدة "بروتون" وتلك الغرفة اللعينة، "بوبي" والليالي التي يقضيها بالخارج، وأنت و"كولين"؟ لماذا لا يمكنكِ الرحيل؟ لماذا؟".

حثَّتني على الهدوء، وجذبت كتفيَّ، وقالت: "لقد أخذت قراري وأنا أفضل من الباقين. "بوبي"، ما الذي يمكنه فعله؟ السيدة "بروتون"؟".

هـزَّت كتفيهـا، وضـحكت، وأكملـت: "إنهـا تتحـدث مـع "تيمـوثي" في تلـك الغرفة، أتعرفين ذلك؟".. "تتحدث معه؟".

أومأت، وضحكت مُجـدَّدًا، وقالـت: "تقـول إنـه يظهـر لهـا ويجلسـان معًـا يتحدثان. لهذا السبب ليس مسموحًا لأحد بدخول الغرفة. إنها تريده هو فقط، فهي ليست مهتمة بالأحياء. دخلت الغرفة ذات مرَّة وهي نائمة وظللت جالسة لساعة كاملة، آملة في ظهور "تيموثي". كنت أريد أن أخبره شيئًا أو اثنين".

كانت تبكي وتضحك الآن، وقالت: "لم يظهر مُطلقًا".

قلتُ مُحاولة أن يبدو صوتي عاقلًا: "الحزن، الحزن يتسبب في أشياء غريبة".

قالت "ماري" بمرارة: "لطالما كانت امرأة غريبـة، تركهـا زوجهـا عنـدما كـان "بوبي" لا يزال طفلًا. مات. "تيموثي" هو من أدار المزرعة منذ أن كـان في الثانيـة عشرة. خسروها عندما ذهب إلى الحرب. بسـبب الـديون. لا يعـرف "بـوبي" أي شيء عن الزراعة".

مرَّت لحظة صمت أخرى، وقالت فجأة: "ماذا لديكِ لترتديـه في "بولاوايـو"؟ هل لديكِ أي فساتين جميلة مُخزَّنة في صندوقك؟".

هززتُ رأسي، وقلت: "لا، تظنون كلكم أنني الملكة، أو شيء من هذا القبيل. أنا لا أملك الكثير".

قالت وهي تنهض وتنظف ظهر فستانها: "سأصنع لـكِ شـيئًا".. "تصـنعين لي شيئًا؟".. "نعم، شيء لطيف. لم أصنع أي شيء لطيف منذ مدة طويلة".

(13)

"15 مايو 1946،

أخذتني "ماري" للتسوق اليوم. إنها المرَّة الأولى التي أذهب فيها إلى "ساليسبيري" منذ أن وصلت هنا منذ عدة شهور. ركبنا الأوتوبيس حتى منتصفها، واشترينا كل المشتريات أولًا. في الأوتوبيس، يجلس كل الأوروبيين في المقدمة، وهناك قسم للأفارقة في الخلف. لا أظن أن ذلك صحيح؛ لكن "ماري" تقول إن رائحتهم سيئة، ولماذا أريد أن يجلس بجانبي رجل أسود على أي حال؟ يبدو أن معظم النساء هنا يمشين في أزواج، ليس جميعهن يلبسن قُبَّعات؛ تقول "ماري" إن القبعات غالية الثمن. صُدمت عندما علمت أن على الأفارقة النزول عن الرصيف لو أن هناك شخصًا أوروبيًّا يسير عليه. لا يبدو أن "ماري" متفاجئة على الإطلاق بهذا وسألتني ما إذا كان الأمر مشابهًا في "إنجلترا". أخبرتها أنني رأيت رجلًا أسودَ في "إنجلترا" مرَّة واحدة فقط، كان ذلك في محطة القطار بـ"لندن". لم تصدق ما قلته، وقالت: "يا لكِ من محظوظة".

ذهبنا إلى مكان يسمى ميدان "سيسيل"، وهو مصمم بنفس شكل العلم البريطاني. إنه ليس بعيدًا عن محطة القطار، وبه صف سيارات التاكسي، على الرغم من أن "ماري" لا تجرؤ على أخذ أحدهم، فهي مكلفة للغاية. إنهم يقتصدون في استخدام البنزين هنا، ولا يوجد كثير من السيارات في الشوارع.

ذهبنا لمكان يـدعى "شـورتي" لتنـاول الغـداء. تفاجـأت عنـد رؤيـة "مـاري" تشتري ما يسميه الأمريكيون "السجق". لم أتناول واحدًا منـه مـن قبـل؛ لكننـي جربته وأعجبني كثيرًا. ربما لن أضع كثيرًا من صلصة الطماطم في المرَّة المقبلة.

لم أصدق كل الأشياء المتاحة أمامي. دخلـت إلى مكتبـة، أعتقـد أنهـا كانـت تُدعى "كينجستون"، وكان ذلك بالنسبة لي ما يشبه دخول كهف "علاء الـدين". يا لها من اختيارات! كان لديهم مجلات وصحف أيضًـا، كـل مـا يمكـن إيصالـه حتى باب بيتك. لا تملك عائلة "بروتون" أي شيء، حتى مجرد صحيفة تنقل لهم الأخبار!

في محل الأغذية، كل ما طلبته "ماري" حُمِل إليها من عـلى الأرفـف، ووُزِن، وقُطِع لو كان ذلك مطلوبًا، ولُف في ورق بني، والذي كان لـدى صـاحب المحـل منه لفافة ضخمة عند المنضـدة. كـم شـعرت بالإثـارة لكـوني جـزءًا مـن الحيـاة مجددًا. سُئِلت "ماري" ما إن كانت ستدفع نقدًا أم لا؛ لكنها أخبرتهم بحزم أنهـا ستدفع نقدًا، وهي ممسكة بالحقيبة السوداء الصغيرة كأنها مفتاح وجودها.

في النهاية ذهبنا إلى محل القماش، وهو أيضًا محل للخردوات. رأيـت امـرأة صارمة ومخيفة تقف خلف المنضدة وحول عنقها شريط القياس. لا بـد أنهـا في الخمسينيات من عُمرهـا، ممتلئـة بعـض الشيء، لـديها شـفتان رفيعتـان وبشرة باهتة متناقضة مع شعرها البني.

اخترنـا قطعتـي قـماش. أصرت "مـاري" عـلى اثنتـين: أزرق باهـت وأخضر زيتوني. كلتـاهما مـن القطـن. طلبـت أن تـرى مجموعتهـا مـن الأشرطـة أيضًـا، فوضعت السيدة الصارمة المخيفة دُرجًا من الأشرطة على المنضدة حتى نـتمكن من رؤيتها. كل قطعة اختارتها "ماري"، قامت المرأة بالإسراع إليها والإمساك بهـا ولفها حول يدها قبل أن تُعيدها مُجدَّدًا إلى الدُّرج.

قالت "ماري" مشيرة إلى قطعتين مناسبتين للقماش: "سنأخذ اثنتين".

كما أنها اختارت أزرارًا ولفَّتي خيط. سألت البائعة كأننا فتاتين في المدرسة نلعب لعبة المنزل: "هل ستحتاجان لقالب؟".

قالت "ماري" دون أن ترفع عينيها عن حقيبتها التي كانت تفتش فيها: "لديَّ شيء ما".

كل شيء ثُني بعناية ووضعت "ماري" العلبة في سلَّتها. رفضت أن تتركني أحمل أي شيء، على الرغم من أن "كولين" سمح لي أن أحمله بين الحين والآخر إلى أن انفجر في البكاء مصرًّا على أن تحمله أُمُّه. أصرَّت "ماري" بعد ذلك على أن نتناول الشاي قبل العودة إلى المنزل.

ذهبنا إلى مكان يدعى "ذا لاونج"، وهي غرفة شاي كبيرة لها باب متأرجح. طلبت "ماري" لنا شرابًا وكيكتين.

"ماري، كيف ستدفعين ثمن كل هذا؟ هل من الممكن أن تتركيني أشارك معكِ؟".

لوَّحت لي بيدها وهي مهتمة أكثر بجعل "كولين" يجلس بشكل ملائم ومريلته على صدره.

"جديًّا، لقد رأيت كيف يتحقق "بوبي" من الإيصالات ويعد النقود بعد كل رحلة شراء تقومين بها".. "لا تقلقي، لديَّ طريقتي للتعامل مع الأمر".

عندما عدنا إلى المنزل، وضعت "ماري" كل المشتريات وتركت الحقيبة على الطاولة بجانب الإيصالات، ثم ذهبت إلى غرفتها. أخذت معها العلبة من محل القماش. رأيت بداخل غرفتها، التي لم أدخلها من قبل، صندوقًا مليئًا بالأدراج. كان الدُّرج العلوي مغلقًا بقفل، أخرجت "ماري" مفتاحًا من جيبها وفتحته. كان ممتلئًا بداخله بالقوالب. لم يتم استخدامها أبدًا.

قلت بلهاث: "ماري، كل هذه القوالب".

نظرت فيها: قوالب لفساتين، وتنانير، وبلوزات، وقمصان، وبدلات. حتى إنني وجدت قالبًا لفستان سهرة، ورأيت قالبًا لفستان زفاف.

قلت مُجدَّدًا وأنا أمسكه وأمرر يديَّ عليه: "ماري.. ماري".

ابتسمت "ماري" بأسف وأخذته من يدي ووضعته في نهاية الدُرج.

أخبرتني فيما بعد كيف تحملت تكلفة كل هذه القوالب والخامات التي اشترتها من أجلي ذلك اليوم. إنها تبيع البيض لصانعة عطر اللافندر".

"25 مايو 1946،

سأرحل أخيرًا! جاء المضيف أخيرًا ليعد السرير من أجلي؛ لكنني لا أستطيع النوم. أفتقد "ماري". لقد أصبحنا مقربتين جدًّا في الأسابيع القليلة الماضية. لقد علَّمتني الحياكة. صنعت هي الفستان الأول بنفسها، ثم أصرَّت على أن أصنع أنا الثاني! قالت لي: "استمعي لي جيدًا، وشاهدي ما أفعله".

وبالفعل فعلتها! لقد صنعت الفستان. وعدتها بأن أراسلها؛ لكن أشك أنها ستجيبني.

جاء إليَّ "كادوالادار"، وأوصلني إلى محطة القطار. كنت مُتحمِّسة للغاية؛ لكنني كنت مُتوتِّرة أيضًا. ظل ممسكًا بيدي ونحن منتظران، كان شيئًا أبويًّا جدًّا منه، وقد قدَّرت هذا. قال: "سأحضر لزيارتك عندما أذهب إلى "بولاوايو"، وسأتصل بكِ خلال الأيام القليلة المقبلة، تأكدي من أنك ستكونين بخير. أرسلي إليَّ برقية لو أن هناك أي مشكلة".

نعم، أبوي للغاية، وأنا في حاجة إلى أب في هذه اللحظة.

وداعًا يا "ساليسبيري"! أنا راحلة إلى "بولاوايو"، "بو – لا – وا – يو"، "بو – لا – وا – يو".

(14)

يُؤمن البوذيون بأن الروح تظلُّ باقية على الأرض بعد الموت قبل رحيلها للأبد. شعرت بحقيقة ذلك مع جَدَّتي. اعتدت الظن بأنني سأراها في وقت ما. في المترو، أو في السوق، في الشارع الرئيسي ظهيرة يوم أحد مزدحم. أحيانًا شعرت بأنها موجودة. أسمع مقطوعة موسيقية معينة، أو يقول شخص ما شيئًا كانت تقوله جَدَّتي، فأنظر في اتجاه الصوت بحدة متوقعة أن أراها هناك. ذات مرَّة، التقطت رائحة عطر اللافندر في الهواء وأنا في طريقي إلى المنزل من الجامعة. لم يبدُ أنها تخص شخصًا ما أو تقودني إلى أي مكان؛ كانت هناك فحسب.

في مرَّة أخرى كنت أخرج من محطة المترو ورأيت أمامي أحد الموسيقيين المتجولين أعلى السلم، كان يعزف أغنية "عندليب غنَّى في ميدان بيركلي" على الكمان، وللحظة شعرت بالأرض تدور من حولي. شعرت بتهديد محيط ضخم من الدموع على وشك الانفجار بداخلي، لذا وقفت للحظات ثم تخطيته ببضع درجات ثم توقفت وعدت. انتظرت حتى انتهى من العزف، تلتقي عينانا بين الحين والآخر، بينما تتمايل رأسه مع حركة آلته. قلت له عند انتهائه:

- كان هذا رائعًا، رائعًا.

ابتسم في خجل وأومأ برأسه شاكرًا، ومفاجأة عندما أخرجت من جيبي ورقة بعشرة جنيهات ووضعتها في قُبَّعته.

لكنني فهمت بشكل خاطئ. لم أكن مُصغية. عندما كنت طفلة وجَدَّتي تقرأ لي، كانت تجعلني أصغي للقصة باهتمام ثم تسألني عمَّ كانت عندما تنهيها. لو أجبتها إجابة خاطئة، كانت تُعيدها عليَّ، وهذا ما كانت تفعله الآن. تُعيدها عليَّ لأنني لم أكن مُصغية.

لقد كان شيئًا ما قاله "توني" هو ما بدأ كل ذلك. ليس ما قاله عن الـ"بيكينج باودر"؛ بل شيء آخر. أعتقد أنه كان في تلك الظهيرة يوم جنازة "مايلز"، عندما خضنا ذلك الجدال لأنه طلب منِّي أن أذهب معه إلى "موزمبيق" وكنت مصممة على أن وطني هو "إنجلترا".

- هل تعرفين ما مشكلتك أنتِ وكل الزيمبابويين السابقين الذين يعيشون هنا؟

- أنا متأكدة من أنك ستنيرني لو أنني لم أكن أعرفها.

صاح وهو ينقر على رأسه بشراسة:

- جميعكم تعيشون في تلك.. تلك.. الأرض الخيالية!

نظرت بعيدًا عنه ولم أقل شيئًا، فقال:

- أنتِ مثل أدباء ما بعد الاستعمار الذين أخبرتني عنهم. تريدين كل شيء أن يكون مثاليًّا، أن يكون كاملًا، أن يكون.. أن يكون في حالة حقيقية من السعادة، كأنما هناك شيء كهذا من الأساس. جميعكم، جميعكم تهربون لأنه ليس بإمكانكم تحمل الواقع.

وقف مُعطيًا ظهره لي، مُمتلئًا بالغضب. التفت الآن وواجهني، رأيت علامات بيضاءَ حول فمه، وقال وهو يلوح بيديه بإيماءات كي يثبت قصده:

- "أفريقيا" هي "أفريقيا". إن الأمر بهذه البساطة. تقبَّلي الأمر، وأكملي حياتك. انسي هذه الفكرة المتعلقة بالعصر الذهبي عندما كان الجميع شبعانين وسُعداء ولديهم أعمال جيدة، ومستقبل باهر، وكل شيء. انظري إلى "زيمبابوي" كما هي، وليس كبناء إضافي فاشل تابع لـ"بريطانيا" في الخمسينيات. الناس يستمرون في الحياة. يذهبون للتسوق، وللحفلات، ويزورون الأصدقاء. بحق الله، إنهم يتناولون الآيس كريم، بينما تتساقط فوقهم القنابل! إنهم لا يتوقفون لأن هناك تغيرًا

حكوميًّا، أو لأن نسبة الجريمة قد ارتفعت! أنـت تـرين مـا تـراه الصـور الصـحفية: الفقر، والفساد، والرفض. أنتِ ترين فقط ما ينقص، ليس الموجود بالفعل. لـو أنـكِ فقط تفعلين العكس، ستتفاجئين بلحظات السعادة الصغيرة.

توقف عن الكلام، منقطع الأنفاس كأنه أنهى سباقًا.

أصبح صوته أكثر نعومة فجأة، انتهى الغضب وهو يقول:

- اكتبي قصة مختلفة يا "إيلي"، أو نهاية مختلفة على الأقل.

لكن في النهاية ما الذي يجعل القصة جيـدة؟ لم تجـد جَـدَّتي وقتًـا لقصـص التشويق العصرية؛ لم تهتم بمدحي لفيلم "صمت الحمـلان" واعتبرتـه "مضـلِّلًا"، كأنني وقعت في فخ ما حين اعتبرته فيلمًا جيدًا. قالت إنه اختار عـرض البشـاعة عوضًا عن التعمق، مثل كثير من الأفـلام والكتـب المعـاصرة. الشريـر هـو قاتـل متسلسل، مختل، شخص يبدو غريبًا ويتصرف تصرفات غريبة. يبقون ضحاياهم في سراديب أو أقفاص، يشعرون بألم التعذيب الرهيب، الجسدي والـنفسي، كـل ذلك يعود إلى علاقاتهم الغريبة مع أمهاتهم وكـراهيتهم لآبـائهم. الفعـل نفسـه سيئ تمامًا، الأسلوب معقد للغاية والقاتل منحرف لدرجة أن المشاهد يمكنـه أن يفصل بين نفسه وبين الجريمة، ويفكِّر قائلًا: "من المستحيل أن أفعل ذلك".

لكن الجريمة قديمة الطراز، جرائم "أجاثا كريسـتي"، تكشـف حقيقـة الـنفس البشرية. اعتقدت جَدَّتي أنها تفهم مـا الـذي يـدفع الشـخص العـادي إلى ارتكـاب جريمة قتل: المرأة العجوز، أو الكـاهن، أو ربَّـة المنـزل؛ كلهـم قـادرون عـلى فعـل أعظم خطيئة على الأرض، وفي النهاية هذا هو الشيء المقلق بحق: إنـه أنـت، إنـه أنا. لا يمكن أن يقول أحد: "من المسـتحيل أن أفعـل ذلـك". خلـف الجريمـة نجـد الغيرة، والكراهية، والحقد. الحب. كم من الجرائم ارتُكِبَت باسمه؟

ليس القاتل فقط هذه الأيام هو المُستعصى على التصديق؛ بل المُحقّق أيضًا. التحاليل الجنائية، كاميرات المُراقبة، جهاز كشف الكذب. المعرفة لم تعد موجودة، تفهم الروح البشرية، وتفهم أسباب لماذا يفعل الناس ما يفعلونه. كما ذهب أيضًا الاهتمام بالتفاصيل: ليس فقط لغة الجسد - حركة الأقدام، فرك الأيدي، الأعين التي لا تنظر لعين المُحقّق مباشرة – لكن الأشياء الصغيرة: لون المنديل، درجة أحمر الشفاه، نوع الحبر المستخدم في القلم. كل هذا أصبح منسيًّا.

يبقى حل اللغز، ليس في الفعل نفسه؛ بل فيما أدى إلى حدوثه. كل ما ظنوا أنه غير متصل، يومي، عادي. كل ذلك لا يلفت الانتباه.

كان "توني" مُحقًّا بالطبع. كان هناك كثير حول "زيمبابوي" لم يلفت الانتباه، فقط الغضب، والعنف، واحتراق البلد البطيء. من بإمكانه تجاهل كل ذلك؟ متى تشتعل المحلات وتقف الشرطة ضاحكة؟ متى يموت المسنون من الجوع؟ متى يكون الموت مرحبًا به وضيفًا متكررًا مثل أي مرض يتسبب في موت بطيء؟ متى يكون الدواء الوحيد المتاح هو "باراسيتامول"، والذي ليس بإمكانه قتل الألم؟ هل يجرؤ المرء على البحث عن الجمال، أو السعادة، في أرض الحزن هذه؟ من الأفضل أن يعيش المرء بعيدًا، وبرفضه للعودة، يرفض أن يغفر.

لم أهتم بكلام "توني" وقتها؛ لكنني بدأت أفكّر أكثر وأكثر في كلماته، أكثر وأكثر عنه هو. شعرت بأن الوقت حان كي أضع حياتي في اعتباري. لم أرِد أن أكون واحدة من هؤلاء الناس الذين ينتهي بهم الحال وهم يعيشون في مكان مثل "سوري"، أو أي شيء بريطاني الطابع، الذين يجلسون حالمين بالأيام الخوالي الجميلة، ويطلبون اللحم بواسطة الإنترنت ويشربون "الزامبيزي" كأنه شراب سماوي. لا أريد أن يكون لديَّ علم "روديسيا" معلق في صالة منزلي، ولا أن أكتب مذكراتي عن طفولتي الأفريقية. لا أريد أن أعيش في الماضي.

يبدو كثير من الأشياء أكثر وضوحًا، وأقل تهديدًا. لو أنني ابتعدت عن العالم، فلن أكون بنفس أحاسيسي القديمة بالغُربة والاستياء؛ بل سأشاهد، مستمتعة بعض الشيء، بينما يدور العالم بجنون. أسفل تلك المياه الباردة التي تسير بداخلي الآن، أعرف أنني مجروحة بعمق، وربما سأكون كذلك للأبد. الشيء الوحيد المختلف هو أنني أعرف الآن أن بإمكاني النجاة.

أحب أن أعتقد أنه أينما كانت جَدَّتي و"والي" و"جيريمي" فهم معًا. بالطبع ربما يكون "مايلز" معهم أيضًا، و"رييت"؛ لكن أحب أن أعتقد أنهم في سلام: لا مزيد من الاختباء، ولا أسرار. أدرك الآن أن هذا هو سبب تركها المنزل من أجلي: "المنزل وكل محتوياته". لأنها أرادتني أن أعرف، أن أقرأ خطاباتها ومذكراتها، أن يعرف أحد ما أخيرًا كل شيء احتفظت به لنفسها طوال تلك السنوات. لقد اختارتني أنا كي تثق بي. ربما كنت صديقتها المقربة، ولو أنني كنت الشخص الذي بإمكانها الاعتراف له كي ينزاح عن كاهلها عبء الشعور بالذنب - حتى لو كان ذلك بعد الموت - كي يمكنها أن ترقد في سلام، إذًا فمن أنا كي أرفض ذلك؟

ذات يوم لم أعد أشعر بها، وعرفت حينها ما عليَّ فعله. كان عليَّ أن أترك حفرتي الصغيرة التي اختبأت بداخلها. لم تكمن الإجابة بداخل الكنيسة الروحية، ولا في مقالي الأكاديمي حول "صعود وسقوط "زيمبابوي" البيضاء"؛ بل تكمن الإجابة في الحياة، في العيش.

لذا فقد حان الوقت لي كي أرحل. ينغلق باب سيارة، يرنُّ التليفون في مكان ما بالمنزل، ليس الرنين القصير الحاد المتواصل نفسه الذي اعتدتُ سماعه خلال الأسابيع القليلة الماضية؛ لكن كشيء يشبه حركة المياه السريعة الناعمة على الشاطئ، أو نداءات صراصير الليل الطويلة الهادئة في ليلة صيفية. يقول اذهبي، اذهبي الآن.

للمرَّة الأولى منذ مـدة طويلـة، تكـون أفكـاري موجهـة للمسـتقبل، ولـيس للـماضي. أرى أمـامي ميـاهَ قنـاة "زيمبـابوي" الزرقـاء الصـافية، يمكننـي أن أرى مطعم السمك في "بولاوايو"، ومنزل جَدَّتي وحديقتها الممتلئة بـالزهور، والسـماء العريضة المفتوحة الممتدة دون نهاية. سأتعلَّم كيف أطهو وجبات غالية الثمن، كيف أخدم الزبائن بابتسامة، كيف أدير عملنا. سأتعلَّم ما الزهور التي أزرعهـا ومتى، عندما أتعلَّم ملاحظة تقلُّبات كل موسم ينتهي، مـن يـدري، ربمـا أتعلَّـم أيضًا كيف أغوص.

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

1.	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
2.	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
3.	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
4.	جريمة في بوينس آيرس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
5.	أيام رائعة	رافاييل مونتيز	البرازيل
6.	بيتنا في إزمير	تاتيانا سالم ليفي	البرازيل
7.	نقطة الصفر	ناريج ماليان	أرمينيا
8.	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
9.	قصص بسيطة: رواية من ألمانيا الشرقية	إنجو شولتزة	ألمانيا
10.	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
11.	حب كالأفلام	فيكتوريا فان تيم	أمريكا
12.	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
13.	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
14.	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
15.	جريمة الساحر	أرني ثورارينسون	أيسلندا
16.	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
17.	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
18.	حذارٍ من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
19.	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
20.	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
21.	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
22.	أن تأتي متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
23.	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
24.	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
25.	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
26.	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
27.	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
28.	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
29.	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
30.	توباز	هاكان جنيد	تركيا

31. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
32. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33. جريمة في إسطنبول	أسمهان أيكول	تركيا
34. خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
35. ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
36. الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا
37. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
38. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
39. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
40. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
41. سحر	صلاح الدين دميرتاش	تركيا
42. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
43. معسكرات الشيطان	يواقيم توبول	التشيك
44. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
45. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
46. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
47. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
48. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
49. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
50. خريطة آنا	ماريك سينديلكا	التشيك
51. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
52. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
53. رسائل سبتمبر	بيروني رحيم	زيمبابوي
54. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
55. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
56. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
57. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
58. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
59. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
60. بنات الصين	يي مِاي	الصين
61. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
62. رحلة الانتقام	جوو دا شين	الصين
63. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين

64. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
65. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
66. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
67. المغفلون	إريك نويوف	فرنسا
68. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
69. التطهير	صوفي أوكسانين	فنلندا
70. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
71. صلوات ليلية	سانتياجو جامبوا	كولومبيا
72. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
73. القنَّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
74. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا
75. قصص خيالية	أليكساندر بروبوكيف	مقدونيا
76. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
77. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
78. سميته كرافتة	ميلينا ميشيكو فلاشر	النمسا
79. حرية حزينة	فريدريكا جيزفاينر	النمسا
80. دكَّان الساري	روبا باجوا	الهند
81. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
82. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
83. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا
84. تلك الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا
85. عقيدة الأغنياء	ماريا تاسلر	كرواتيا

صدر من كتب عامَّة:

86. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
87. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
88. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
89. المختطفات: شهادات من فتيات بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
90. الشاي: ثقافات وطقوس وحكايات	كريستوف بيترز	ألمانيا
91. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
92. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
93. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
94. مختصر تاريخ الصين	مايكل ديلون	الصين
95. زيارة لمكتبات العالم: تاريخ مكتبات بيع الكتب	خورخي كاريون	إسبانيا
96. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
97. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
98. ضد الانتخابات: دفاعًا عن الديمقراطية	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
99. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
100. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
101. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
102. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
103. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
104. الجري	ثور جوتاس	النرويج
105. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
106. اللعب مع الكبار	يوريس لونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

107. شرخ في الحائط	كلاوديا بينييرو	الأرجنتين
108. علاقات دولية	إلييت أليكا	ألبانيا
109. الأسئلة	أنطونيو زيرزينسكي	البرازيل
110. شمس الحرية	آنا ماريا ماتشادو	البرازيل
111. في حب بابلو وكراهية إسكوبار	فيرجينا فالاجيو	أسبانيا
112. اليوم الرابع	سارة لوتز	إنجلترا
113. ردًا على خطاب من هيلجا	بيرجيسفين بيرجيسون	أيسلندا
114. الفخ	ليليا سيجورثاردوتير	أيسلندا
115. الحب في زمن الاحتباس الحراري	جوزيف بانيك	التشيك
116. ذكرى سوداء	ألبير كانيجوز	تركيا
117. المزيد	هاكان جونداي	تركيا
118. بال خالٍ	أولجا سلافينكوفا	روسيا
119. يوغوسلافيا وطني	جوران فوجنوفيتش	سلوفينيا
120. جدتي وبريتني سبيرز	لونا الموصلي	سويسرا
121. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
122. الأخ الأكبر	ماهر جوفين	فرنسا
123. تكوين الملح	ماجيلا بودوين	فنزويلا
124. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
125. مغامرات دكتور مينجوس	خيسوس ريكاردو فيليكس	المكسيك
126. يوم هنا ويوم هناك	أجيولار كامين	المكسيك
127. روميو جولييت في البلقان	ديان ترايكوسكي	مقدونيا
128. فرق التوقيت	ألموت تينا شميت	النمسا
129. لا سوبيربا	إليا ليونارد	هولندا
130. أفكار سيئة	لويد ميرخام	ويلز

#كتب_مختلفة #زيمبابوي

"أين يمكنك أن تبدأ بتشكيل حياة كاملة؟ الأجزاء ليست متوافقة دائمًا. العديد منها مفقود، أو مُقترض.. من حيوات أشخاص آخرين وذكرياتهم وألغازهم. أين البداية عندما تكون لديك النهاية فقط لتبدأ بها؟".

كل هذه التساؤلات تطرحها بطلة الرواية.. "إيلي". فتاة صغيرة تروي لنا عن أسرتها وحياتها في زيمبابوي، وتروي عن جدتها التي شكلت وعيها وما أصبحت عليه البطلة عندما كبرت. تبدأ حكايتها عندما كانت طفلة صغيرة تجلس مع عائلتها بعد الظهر لشرب الشاي عندما أعلن استقلال زيمبابوي، وانفصال جدتها عن جدها. رحلت جدتها، ومع رحيلها، بدأ عقل "إيلي" الصغيرة يمتلئ بتساؤلات وحيرة كبيرة. وتمر الأيام وتكبر "إيلي" وترحل بعيدًا عن زيمبابوي، ثم تعود مرة أخرى عند وفاة جدتها.. فتجد عشرات الرسائل التي خبأتها جدتها، وتبدأ في قراءتهم ظنًا منها بأنهم ربما يساعدونها على فهم تلك المرأة الغامضة.. لكنهم يزيدونها حيرة.

برايوني رحيم

وُلدت في مدينة "كادوما" عام 1974، وعاشت في "بولاوايو" - والتي تدور أحداث الرواية بها - منذ أن كانت في الثامنة وحتى أنهت دراستها المدرسية. حصلت على الماجيستير في الأدب الإنجليزي من بريطانيا، ثم قامت بتدريسه لمدة عام بسنغافورة قبل أن تعود لتدرسه في زيمبابوي منذ عام 2001 وحتى عام 2008. بعدها انتقلت للإقامة في زامبيا، ولا تزال تُدَرِّس الأدب الإنجليزي. فازت روايتها "شمس سبتمبر" عام 2010 بجائزة "أفضل كتاب" والتي تمنحها جمعية الناشرين بزيمبابوي.

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg
9 789773 194697
WWW.alarabipublishing.com.eg

مذكرات
خيانة حب
رسائل زيمبابوي
أسرار